

د. محمد مجتهد أبو موسى

دراسة

في البلاغ والشرح



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت. ٣٩١٧٤٧٠

د. محمد مجاهد أبو موسى

دراسة

في البلاغ والشرح

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أقدم هذا الكتاب للطبع ومن حولى أحوال وأهوال تفوح منها أرواح مفزعة تَتَبَّيْنَهَا حتى لتكاد تَسْتَبْقِيْنَهَا فترتاع ، وتحاول أن تخدع النفس فتصرفها بكواذب العلل .

وقد كنتُ أشير فى مقدمات كتبى إلى شىء من الاختلال الذى أقام حياتنا العلمية على مقتبسات غير منظّمة ، وغير متلائمة ، ثم الإصرار على أن تكون هذه الأخطا المبتسرة والغامضة بديلاً لفكر حىٌ منظّم متكامل ومتشارب ، وتلاحقت أجيال العلماء على تصفيته ، وصقله ، وبسطه ، وإزهاره ، كما هو الحال فى الأمم كلها ، وفى التاريخ كله قبل أن يأتى هذا الزمن الغامض بعقول ضعيفة مُسْتَرْكَّة تُتَقِنُ التمثيل أكثر مما تُتَقِنُ المعرفة ، وكل ما فى جُعبتها . مقتبسات مبهمّة استُلِثت من هنا ومن هناك ، ثم تراها مُصرّة على أن تضرب بهذه المبهّمات أصولاً من حقائق اللّغة والفقه والتفسير والحديث والعقائد ، وإنك لتكاد الأرض تدور بك وأنت تقرأ قدح هؤلاء فى علومنا وعقولنا وتاريخنا إذا كان فى يدك كتاب من كتب الفقه تنظر فيه وترى كيف يُعلّم الناس كيف يفكرون ، وكيف يستنبطون ، بل وكيف يقدح المرء نور بصيرته . وهو يتابع أضواء الحقيقة فى مجاذباتها الحيّة الرائعة النبيلة من حوار الفقهاء ، وأنت قاطع أن هذا المغرور المسكين لا يستطيع أن يفهم صفحة واحدة من كتاب من كتب متأخرى الفقهاء فضلاً عن أئمتهم .

كنتُ دائماً أشير فى مقدمات كتبى إلى مثل هذا ..

وكنْتُ على يقين من حقيقة عَلمها التاريخ لكل مَنْ يقرؤه ، وهى أن هناك رابطة وثيقة بين الحياتين السياسية والفكرية ، وأنه إذا وثب فريق على الساحة السياسية ، واستولى عليها بالحق أو بالباطل ، فلا بد أن تنشق الساحة الفكرية عن أشباههم ونظرائهم فى عالم الفكر ، وأنه يستحيل أن تكون الساحة السياسية فى يد عصابة من اللصوص وقُطَاع الطُرق والمرتشين والعُملاء ، ثم تبقى الساحة الفكرية فى يد المفكرين الشرفاء ، ولا بد أن يتوارى هؤلاء المفكرون الشرفاء وبأى وسيلة ، ولو بتلفيق الشُّهم لبيتواب اللصوص وقُطَاع الطُرق من المنتسبين إلى الحياة الفكرية فيبتلاءم الإيقاع بين رجال السياسة ورجال الفكر ، ولهذا ترى رجالاً فى ساحة الأقلام يبرزون فجأة ويشغلون مساحات متسعة من الحياة الفكرية لقوة ارتباطهم برجال يشغلون مساحات متسعة من الحياة السياسية ، ثم ما تلبث الأحداث أن تُمزق الأقنعة فترى وجوهاً شائهة بغیضة وترى شعباً مسكيناً حمل على أعناقهم أبناء الألداء ، والآن تأتى المرحلة الثانية التى تتحرك فيها الجبهة المعادية للأمة حركة محسوبة بدقة وترتدى أقنعة مُتقنة ، وهذه المرحلة تقترب من الهدف اقتراباً قريباً ، وذلك فيما تراه من كتابات حول الشريعة وأحكام الله ، ترى فيها عالماً متسعاً من التضليل والخداع والفجور الذى لا يستحى ولا يمل من تكرار التفكير الحضارى والفهم المستنير لدين الله ، وتخليص هذه الشريعة من عقول المشايخ المتشبثة بالعصور الوسطى ... إلى آخر ما فى هذه الحملة الجديدة المتجهة إلى إفساد الشريعة ، وإبطال نصوصها ، والقدح فى فقه فقهاءها ، والقول بأن ذلك كله مرتبط بأحداث ، وأسباب ، فلا يجوز أن يُنتقل إلى أحداث وأسباب أخرى ، حتى نصوص الكتاب والسنة ، وأن الربا المحرّم هو ما واجهه القرآن من ربا الجاهلية فقط ، وأنه ليس فى نُظمنا صور منه ، وأن الشيوخ حين يزعمون ذلك إنما أضلهم جمود عقولهم ، وامتلأ عيبتهم من ثقافة العصور الوسطى ، وأن دخول الإسلام ميدان السياسة انتقاص لقدره ، وأنه إنما نزل للمحارب ، والتهجد ، والناس نيام ، وهذا غاية المراد منه

وأن الخلافة التى هى مظهر دخول الإسلام ساحة السياسة ، كانت وَيْلاً وبلاءً ، وقامت على الاستبداد البشع ، وصاغت مسيرة تاريخية دموية ، تتناثر فيها أشلاء الذين قهرهم الخلفاء ، وتجرى فيها دماؤهم ، وأن مسيرة الفقه الإسلامى إنما كانت حركة فقهية ضببطت إيقاعها مع حركة الدكتاتورية الحاكمة ، وتناغمت معها ، ولهذا وجب بتره ، وطرحه ... إلى آخر ما يُقال مما يستحى اليهود أن يكتبوه بأيديهم عن الفكر الإسلامى وتاريخ المسلمين ، وذلك لشدة فسوقه ، وفجوره ، وخروجه عن ضوابط العقل ، ثم تعجب من بكاء هؤلاء المفكرين المستنيرين على حرية الإنسان التى وطنتها أقدام الخلافة الخشنة ، ثم اغتباطهم بما يجرى حولهم من تخريب ، وتدمير ، وجهل كثيف داكن ، والخوف على هذه المسيرة (مسيرة اللصوص) المتحضرة من أخطبوط الشريعة الإسلامية ، وجاهلية القرون الوسطى ، ثم إنه من الواجب أن يدافعوا عن حضارة مصر الراهنة (حضارة الكدح الخشن من أجل رغبة الخبز) وأن يدافعوا عن حرية الإنسان المصرى (الذى لم يعد لبيته ولا لعرضه حرمة ، والذى تُنتهك محارمه تحت سمعه وبصره) وأن يدافعوا عن النظام السياسى الذى شعاره الطهارة ، والمنهمك فى تأمين مستقبل أحفاد الأحفاد ، بعد ما فرغ من قبلهم ، والذى سيتفرغ بعد ذلك لمصلحة البلاد ، كما كتب الأستاذ جلال كشك ، أقول : إن هؤلاء الكتّاب الذين يَقْدَحُونَ فى الخلافة ، والفقه والشريعة ، يدافعون عن كل هذا ، ويخافون عليه من خطر الهجمة البربرية ، التى جاءت تُبَشِّرُ بالعودة إلى شرع الله .

هذا شئ مما يجرى الآن على الساحة ، وهو ظاهر ظهوراً لا يجهله ولا ينكره إلا مَنْ لا يرى ولا يسمع .

قلتُ : إن التاريخ حدث وقال إنه من المستحيل أن يكون أمر الفكر فى يد رجال بُلاء ، إذا كان أمر السياسة فى يد غيرهم ، وقلتُ : إن الذى لا يرى

التشابه فى المنزِع والحركة والهدف بين العصابات المسيطرة على السياسة ،
والعصابات المسيطرة على الفكر ، لا يستحق أن يُخاطَب ، بل ولا يستحق أن
يحيا إلا حياة عمياء ، خرساء ، كحياة العبيد الذين ينكرهم هذا العصر .

ومن الظاهر أن الذين فى أيديهم أمر الناس مغتبطون بهذه الأباطيل التى
تُقال عن الشريعة ، والفقه ، والخلافة ، والإسلام ، والسياسة ، لأنهم هم أيضاً
منغمسون فى مستنقع أبشع ، ولأنهم يعتقدون بغفلة ، وفساد رأى ، وغباء
ثقيل ، أن هذا يواجه مطلب الأمة بالعودة إلى ذاتها ، وتاريخها الحى ، وعقيدتها
الراشدة ، وشريعتها الراجحة ، وهذا المطلب مُجمَع عليه من أهل القبلة ، لا يشذ
عنهم فيه إلا مَنْ خرج منهم ، وإن كان هذا المطلب النبيل لم يسلم هو الآخر بل
كذّرتة فلول عصابات نسبت نفسها إلى الإسلام ، وجعلت هذا المطلب الشريف
مُنْتَجِعاً تتساقط حوله الطيور الشاردة .

هذه « الفرقة » الجديدة التى تهاجم الشريعة هى من معدن « الفرقة » القديمة
التي تهاجم علومنا وتشكك فى عقليتنا ، والفرقة الأولى مهدّت للتشكيك فى
العقلية الإسلامية التى أبدعت المعرفة ومنها الفقه وعلوم الشريعة ، فجاءت
(العصاة الثانية) لتضرب فى هذه العلوم المتاخمة للكتاب والسنة .

وكلاً الفريقين متفق فى الجهل بالمعرفة التى يهاجمها ، فالعصاة الأولى التى
هاجمت علومنا لا تعلم منها إلا علماً كحسوَ الطير الخائف المرتاب ، والذين
يهاجمون الفقه والفقهاء والعلوم الملتصقة بالكتاب والسنة ، ليس لديهم من
أدوات الاجتهاد إلا ما يعينهم على تحليل « الأغاني » وضروب الرقص ،
واعتقدوا أن البصيرة القادرة على نقد الأغاني والرقص و « الأوبرا » قادرة
على نقد الفقه ، ولا تظن أنى أهزل لأنى أتابع ما يجرى حولى بعين معقودة على
حركة هؤلاء ، وقد قرأت لبعض الكتّاب نقوداً لفنون الأوبرا أدخل فى نقده
كلاماً فى الحلال والحرام ، وذكر أن الذين يُحرّمون كشف السواة فى هذه الفنون
قوم يجهلون لأن لها باباً من أبواب النقد لا يدخل فيه فقهم .

كما قرأتُ لمفكر انتهازي - يحب أن يصف نفسه بأنه يسارى تقدمى - نقداً لفقده مالك والشافعى ، ثم قرأتُ له بعد حين إطاءً يناغى فيه عواطف بعض المغنيات والممثلات فى نقده لمسلسلة تليفزيونية ، وهذا واقع ويجب أن يُسَجَّل ، ويكتبه العلماء فى صدور كتبهم لتعرف الأجيال الناشئة حقائق ما يجرى .

والمنزع أن هذا الهزل المستنبر ، يجرى ونحن أحوج ما نكون إلى الجد ، وعلى بوابتنا الشرقية حيّة من أخبث الحيات ، وذئب من أخس الذئاب ، يرقب اللحظة المناسبة ثم يهاجم ، وقد سبقت هجمته السابقة إعداد من نظام غبى جاهل ، قتل النفوس الحرة فى سراديب طغيانه ، فلما طرق العدو باب البلاد وجد رجالها الأحرار قد غُيِّبوا ، وليس على ساحتها إلا العاكفون على (الجوزة والحشيشة) وأخبار الممثلات ، فدخلت شرذمة القردة البلاد وأهلها مقيدون ، وأحرارها يُعَذَّبون ، وليس على الباب حُماة ، وإنما كان أمرها فى يد اللصوص والزُناة . وقد عاد الحال الآن ، والصامتون صامتون ، والركب يسير والحادى الجاهل يحدو ، والكل رعية ، وكان فرعون طاغية على شعبه ولكنه كان أيضاً طاغية على أعداء شعبه ، أما هامانات هذا الزمن المهزوم فإنهم طواغيت على شعوبهم فحسب ، والآن وجب على الصامتين أن يقوموا وأن ينهضوا وأن يستخلصوا حق الحياة ، وأن يذكروا كلمة أولهم : « إنهم لا يبدون أمامكم أقوياء إلا لأنكم ضعفاء ، ولا يبدون أمامكم سادة إلا لأنكم عبيد » .

قلتُ : إن العلم والتعليم والفكر والسياسة والمدرسة والجامعة ، والثقافة أمور لا يجوز فصل بعضها عن بعض ، لأنها تمثل بنية واحدة وهى بنية المجتمع الذى نعيش فيه ويعيش فيها ، ونقوى بقوته ونضعف بضعفه ، ونسعد بسعاداته ونشقى بشقاوته ، ونعز بعزه ونذل بذله ، هو كياننا ونحن كيانه ، وأن المشتغلين بالعلم يعلمون علم اليقين أن العلم لا يُقصد لذاته ، وإن كان أشرف ما تُشغل به نفس شريفة ، وأنبل ما تعكف عليه القلوب النبيلة ، وإنما هو مقصود من أجل الإنسان الذى يدور كل هذا الكون له وحوله وبه ، والذى كرمه الله وفضله حتى

على الملائكة وجعل سبحانه خلافته فيه ، وقال لملائكته : اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، ولم يأمر آدم بالسجود إلا له سبحانه ، وجعل فى ذُرِّيَّته النبوات وسَخَّرَ له الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَات ، وقال من فوق سبع سموات : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (١) .. لا كان العلم إذن ولا كان أهله إذا أغمض العلماء عيونهم عما حولهم وتركوا الإنسان تضربه مقامع الذل بيد أهل الجهالة والغشم ، وهم عاكفون فى صوامعهم يتنطسون ويتبتلون . لا .. ليست هذه سير العلماء وإنما هم تلك الشعلة المضيئة ، والجذوة المتقدة التى تعيش فى أعماق الأمة ، وفى قلبها النابض ، كما تعيش الأمة فى أعماقهم وفى نبض قلوبهم ، نعم .. إنهم ليسوا من أهل التهريج السياسى ولا الهيجان الجماهيرى ، وإنما هم أهل علم وحكمة ، ولهم بوادى يخشاها كبار رجال الدولة لأن أى نظام يفقد تأييد العلماء لا بد له أن يهتز .

واقرأ سير العلماء تجد رجالاً أحراراً حُماة أُباة ، لا يقيمون على ضيم يُراد بهم ، وقد قال الأول :

ولا يُقيمُ على ضيم يُرادُ به إلا الأذلان : عيْرُ الحى والوتد

والعيْر هو الحمار ، وإنما أقام العيْر على الضيم لأنه يلبد وليس حراً حساساً ، وليس كذلك الإنسان ، والعلماء هم صفو الإنسان لأنهم الطبقة التى تلى الأنبياء ، وهم ورثتهم ، والأنبياء عليهم السلام هم الرُّسل الكرام الذين جاءوا يدقون أبواب الحرية بيد مشرقة بيضاء ، أقول : إن علماءنا كانوا بمثابة خط الدفاع الأول عن حرية الشعوب ، وسيرهم مشحونة بهذا ، ولكنهم يُذكرون فى طبقات الفقهاء أو اللُّغويين أو المتكلمين ، ونقرأ سيرهم لتتعرف على مشاركاتهم فى العلوم ، وتمر بنا مشاركاتهم فى السياسة والحياة العملية فلا نلتفت إلى هذا لأننا مشغولون برأيهم فى المسألة الفلانية ، والعقل العلمى بطبيعته عقل حى

(١) الإسراء : ٧٠ .

لأن شغله بالفكر والفقه والعلوم لا يكون إلا لفضل حياة وحيوية ، وما دام شأنه كذلك فلا مندوحة له من الاشتغال بالواقع العملى فى حياة المجتمع الذى يعيش فيه ، وبه ، ويفكر له ، وبه ، ويكتب له ويكتب به ، وإذا لم تكن علاقة العلماء بالواقع هى هذه العلاقة الحميمة فلا قيمة لعلمهم ، ولم أعرف كتاباً ذا قيمة كتبه عالمٌ معتبر إلا وفيه صورة حيّة للزمن الذى كُتِبَ فيه ، ترى بجانب المعرفة التى بُنِيَ عليها صورة واضحة لخريطة الحياة بكل تضاريسها ، ترى المرتفعات ، والمنخفضات ، والسهول ، والوديان .. وهذا من أهم مزايا المؤلفات العظيمة ، لأنها كُتِبَت للحياة فَعَظُمَ قدرها بين الأحياء ، وليس هناك عالمٌ معتبر أدار ظهره إلى الزمن الذى عاش فيه ، لأن مَنْ أدار ظهره إلى زمانه بمثابة مَنْ أدار ظهره إلى الحقيقة ، لأن الحياة هى الحقيقة ، والمعرفة جزء منها ، ولا ترى فى كتابه من المعرفة إلا ما هو منها بمنزلة القفا ، لأن الوجه المشرق الحى للمعرفة يكون قد إزُورَ عنه ، لأن الوجه المشرق للمعرفة متجه دائماً إلى الحياة ، لا ينصرف عنها ، لأنه ينفحها كما تنفحه ، ويُشرق بها كما تُشرق به ، ليس العلم هو السطور التى كُتِبَت على أكفان التاريخ ، وإنما العلم هو الذى يُكْتَبُ بنبض الحياة ، ولا تظنّ أنى حين أقول إنه لا بديل للعالم من أن يعيش زمنه ، أنى أعنى المعنى الشائع لهذه الكلمة ، وأنى أغرى بإرسال الدلاء فى ثقافة الزمن المكذوب الذى نعيشه ، مما يسميه خدمة فكر الآخرين « فكراً عالمياً » ، لأن هؤلاء المفتونين بهذا لا يزيدون فى ميزان الحق عن العبيد الذين يسرقون أثمال سادتهم ، ثم يختالون بها فينبهر بهم عبيد عجزوا عن هذه السرقة ، أو هم فى طور الإعداد لهذا الدور الذى صار متوارثاً من أيام أن بدأه رجال سُمّاهم الصغار كباراً .

وصريح العقل يرفض أمرين :

الأول : أن تقوم الحياة الفكرية على نقل الأفكار التى جهد فى إبداعها الآخرون ، لأن ذلك عجز ، والعجز مَطْيَةُ الذل ، والذل موت خسيس أهون منه موت مَنْ مات فاستراح ، وأنا أكره الذل والعجز ، وأحب القوة والعزة من رأسى إلى قدمى .

الثانى : أن تقف عقولنا عند ترديد ما قاله علماؤنا ، أن نقول فى كل مسألة ما قالوه ، وأن نتحرك فى إطار صيغهم ، ونكتفى بدور الحفظ ... وكان الله يحب المحسنين .

لأن هذا إبطال للحياة ، لأنه لا معنى للحياة لم تتجدد يوماً يوماً ، وأعنى بالتجدد أن يُعمل الأحياء عقولهم فى كل يوم لكل يوم ، أعنى أن يستقبلوا كل يوم باجتهاد جديد ، وعمل عقلى جديد ، كما تتجدد الأنفاس ، وكما تتجدد الرياح والسحاب والشمس ، وكل شئ فى الحياة ، وهكذا كان علماؤنا فى كل جيل ، يستوى مَنْ كتب فى الفقه واللغة والفلسفة والتاريخ ، حتى شُرّاح الملخصات . ولو تأملتَ خط سير أى علم وجدتَ شيئاً ظاهراً هو أن كل جيل كان يصوغ المعرفة صيغاً جديدة ، تلائم العصر الذى عاش فيه ، وتجديد صيغ المعرفة أمر مهم عند كل ذى لُبٍّ ، وفى كل عصر ، وعند كل أمة ، تأمل كتب نُحاة القرن الخامس ، أو السادس ، وقارنها بكتب نُحاة القرن الثالث ، أو الرابع ، تجد الأصول الأساسية توشك أن تكون ثابتة ، لأنها كذلك فى اللغة ، ومع هذا فلكل عصر صياغة عقلية تلائمه ، وقُلْ مثل ذلك فى الفقه ، ولستُ فى حاجة إلى أن أثبته إلى أن المراد بالصياغة ليس صياغة العبارة ، وإنما هى الصياغة العقلية الجديدة للمعرفة ، وهو أمر قصرنا فيه ، لأننا لم نُقدِّم المعرفة العربية والإسلامية فى صيغ جديدة ، تلائم العصر الذى نحن فيه ، كما فعل أجيالنا من العلماء جيلاً بعد جيل ، وإنما قدّمنا علومنا بصيغها التى توقفت عندها ، فلم تلتئم مع مذاق العصر ، فهرب منها أبناؤنا إما إلى الجهل ، أو إلى معارف الآخرين .

وهذا الفكر الغربى المعاصر الذى ننقله ، ونحن وكُلُّون به ، هو فكر قديم فى جذوره ، وخمائه ، ولكن عقول الجادّين من ورثته عكفت عليه عُكوفاً منظماً ، فاستخرجت منه صوراً جديدة ، وأفكاراً جديدة ، والفكر لا يُولد فى خرائب

الأفئدة ، وإنما تُولد الفكرة من رحم فكرة ، والفرق بين الحياة الفكرية الحية المتجددة ، والحياة الفكرية المتبلدة العقيم ، هو فرق في الأحياء ؛ فالأولى قام عليها رجال استخرجوا من عناصرها الملهمة فكراً آخر ، واقتحموا أسوار المجهول ، وطرقوا أبكار الأفكار ، وأخطأوا ثم أخطأوا ثم أصابوا ، والثانية قام عليها رجال يتلون بها حق تلاوتها ، ولكنهم لا يتحسسون وحيها ، ولا يستلهمون رموزها ، ومثل هؤلاء لا يخطئون ، لأنهم لا يصيبون ، لأن الصواب هو اقتناص الفكرة الشاردة ، أو صيد الخاطر ، كما كان يقول علماؤنا ، وليس هو حفظ المعلوم ، نعم حفظ المعلوم هو واجب التلاميذ المبتدئين ، وليس مهمة الشيوخ الأساتيد .

والذى نحجده على الساحة الآن ضربان أو تياران :

تيار النقلة والتراجمة ، والذين يستلّون ما فى رؤوس الآخرين ، وينادون عليها فى خرائب فجاج الفكر ، ونسميهم مبدعين ، ومفكرين ومجددين ، وهم مغتبطون بذلك والكل مكثف به .

والتيار الثانى تيار الحفظة ، الحملة ، الذين ينطقون بسطور الكتب ، من غير أن ينفحوها بنفحات الإلهام ، فيعيدوا تشكيلها ، وتصويرها ، ويخلقوها خلقاً بعد خلق ، كما فعل أبو الفتح حين نطق بسطور العلماء ، ونفحها من فيض عقله فاستحالت علماً جديداً ، وكذلك فعل شيخه أبو على ، وهكذا كانت طبقات الفقهاء والمحدثين وغيرهم من ذرى المؤلفات المتميزة ، وإن كانت خيوطها مستتلة من إرث السابقين ، وهذا ما يجب أن نعود إليه ونطرح هاتين العقليتين طرْحاً واحداً وفى قبر واحد ، لأنهما وإن اختلفا فى المظهر اختلفتا كبراً ، هما فى الحقيقة شئ واحد ، هذا يكرر ما عندنا ، وذاك يكرر ما عند غيرنا ، فهما سواء فى الحفظ ، والحمل ، وليس لأحد شئ فيما يقول ، وليس فى باب العجز طبقة دون ذلك ، وحسب المرء عجزاً أن يتحرك فى فمه لسان غيره ، وأن تدور

رأسه بعقل غيره ، لقد تعودنا على أن نستوعب علم العلماء من غير أن نُشغل أنفسنا بمعرفة خطواتهم التى قطعوها فى إبداع ما أبدعوا ، واستخراج ما استخرجوا ، وكان ذلك نقصاً ظاهراً فى إعدادنا ، ويجب أن نتدارك ذلك فى إعداد أجيالنا ، يجب أن ينظر الدارس من جهتين : جهة يستوعب منها المعرفة ، وجهة يعرف منها كيف نشأت المعرفة ، وفى أى جهة تحرك العقل الذى أبدعها حتى أبدعها ، وهذا عند الباحث المتذوق أرفع مذاقاً من المعرفة نفسها ، نعم إنه لأجل من الحقيقة أن تعرف كيف استخرج العقل الفذ هذه الحقيقة ، كما أن معرفة صنع الثوب ، أكثر قيمة من الثوب نفسه .

يجب أن نكره الواقع الردىء حتى نحتشد للخلاص منه ، يجب أن نكره بقاء جماجمنا كالكهوف الخربة لا تُسمع فيها إلا غمغمات الآخرين ، لأن هذا قبح أقبح من القبح ، وعلم أخس من الجهل ، لأنه علم العَجْزَة ، وليس فى الدونية منزلة أسفل من العجز ، وكان ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذُ بك من العجز » ، وعجز الأعضاء أقل ضروب العَجْزِ خِسةً ، وأشقُّها عجز العقول والبصائر .

قلت : الخطوة الأولى أن نخجل من فراغ رؤوسنا من أفكار تُنسب إلى هذه الرؤوس ، وأن يرجع كل منا إلى نفسه سائلاً ما هو الشيء الذى يُحسب لى فى كل ما يدور فى رأسى ويتحرك به قللى ، ويُسوّد به سطورى ، ويحاضر به طُلابى؟ ما هى المعانى التى فُرِقَ له عنها ، والحقائق التى كُشِفَ عن حُرِّ وجهها ، واستخرجها من مضائنها ، كما كان يقول الشيوخ ، فإذا لم يجد له من ذلك شيئاً فليبدأ بطلب العلم من جديد ، وبطريقة تهديه إلى هذا الطريق ، ولا يحجزه عن ذلك أنه شاب قرناه ، وليرجع إلى تلاميذ الشيوخ الأوائل ، ويقارن تراث التلاميذ بتراث الشيوخ ، وليتعرّف على الشيء الذى صار به التلاميذ متميزين ، وصار لهم به علم يُنسب إليهم ، وتراث يُعقد بنواصيهم ، وتُعصَّبُ به عماثهم ، ليفعل ذلك فى تراث العربية إن استطاع ، أو تراث الآخرين إن شاء ، لأن

الضياح الذى أوقعنا فيه اللصوص الأغبياء ، وإذا لم نفعل ذلك داستنا أقدام أبناء القردة ، لأن الشعب الذى يعجز عن أن يفرض إرادته على أرضه لا يستطيع حماية هذه الأرض ، لأنه لا يحى الأرض إلا شعب عاش حراً كريماً عليها ، أما المواطنون الغرباء الذين يرون أوطانهم فى يد عصابات خاطفة وهم رعاى ضِعاف معزولون عاجزون ، فهؤلاء لا تُمنع بهم حوزة ولا يعز بهم وطن .

ويعد .. فإنه لا يزال بعض علمائنا يُردّدون أن علم المعانى هو علم النحو ، وأن كتاب « دلائل الإعجاز » كتاب فى النحو وصفحة جديدة فيه ، كتبها عبد القاهر ليُخرج النحو من سيطرة منهج سيبويه ، وأن عبد القاهر قصد إلى هذا قصداً ، وأن دراسة التراكيب دراسة واحدة هى « نحو » فحسب .

وكان قد سبق إلى هذه المقالة المرحوم إبراهيم مصطفى فى كتابه « إحياء النحو » وكان قد كتب هذا الكتاب فى وجه العمر ، ولم يُمهله الأجل - رحمه الله ، ولو عاش وراجع لأدرك ، لأن عبد القاهر هو الذى فصل فى المسألة بلسانه ، حين قال فى مدخل لطيف لكتاب « دلائل الإعجاز » : « إن فضل كلام على كلام لا يرجع إلى النحو ، لأن النحو قائم كله وعلى التمام وكما ينبغى فى كل كلام عربى ، كان هذا الكلام فاضلاً ، أو مفضولاً ، فالنحو الذى فى « قفا نبك » هو الذى فى « هل غادر الشعراء من متردّم » وكذلك هو الذى فى البقرة وآل عمران » ، وأن عبد القاهر إنما كتب « دلائل الإعجاز » ليتعرف على الشيء الذى تجدد بالقرآن ، وقامت به الحجة وظهرت ، وبانت وبهرت ، وهو بالقطع ليس نحواً ، وإنما هو كما وصف رحمه الله : « دقائق وأسرار ، طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف معان مستقاهها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم هُدُوا إليها ودُلُّوا عليها ، وكُشِفَ لهم عنها ، ورُقِعَت الحُجُب بينهم وبينها » .

وهذا هو علم نقد الكلام وتمييزه ، وأن الشأو يبعد فى ذلك وتمتد الغابة ، يصعب المرتقى ، ويعز المطلب ، حتى ينتهى الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج

من طوق البشر ، وهذا كلام الشيخ رحمه الله ولم أعرف أحداً من الناس قال إن هذا « نحو » كُتِبَ لمعارضة منهج سيبويه ، إلا إذا كنا قد فقدنا ما به تتميز الأشياء .

ثم إن كتب عبد القاهر فى النحو قد نُشِرَتْ وتداولتها أيدى العلماء ، وهى ماضية على طرائق النُحاة ، لا تختلف عنها ، إلا بمقدار ما يختلف كتاب عن كتاب فى الفن الواحد ، وهى غير « دلائل الإعجاز » .

وقد ذكرتُ هذا لأن القول بأن « علم المعانى » نحو ترتب عليه إلغاء دراسته من أقسام اللغة العربية فى جامعاتنا ، ولم يُدرس إلا فى الأزهر ، لأننا نحن الشيوخ مُنْغَلِقُونَ ، وليس عندنا استعداد لفهم الجديد الذى يرى فجأة أن علم المعانى نحو مُتَنَكِّرٌ ، وكان بعض أبنائنا الذين تخرجوا من غير الأزهر يسألنى عن المراد بـ « علم المعانى » ، وهكذا غُيِبَ علم من أَجَلِّ علوم العربية ، بسبب كلمة طائفة قالها المرحوم ابراهيم مصطفى فى محاضراته ، ثم سجلها فى دفتر سمّاه « إحياء النحو » ، وكان رحمه الله عظيم الفضل ، ولو راجع لرجع كما قلت .

كان عبد القاهر من أشد علمائنا ملابسة لفكر الزمن الذى يعيش فيه ، وكان يُداخل الحياة الفكرية مداخلة اليقظ البصير الناقد ، ويرى ما يلابس حركتها من أخطاء ، ويعطى هذه الأخطاء من فكره ، وجهده ، وكتابه القدر الكبير ، حتى إنك تراه وكأنه كتب كتابه لمناقشة هذه التيارات الضعيفة ، كما تراه يفرغ لمحاورة العناصر الحيّة ، ويُدارسها ، ويُداخلها ، ويستنبط من مبهماتنا ، ويستنطق وحيها ، وما تزخر به من فكر حى ، ونريد أن نقتبس هنا قبسة سريعة فيها شىء تحسن الدلالة عليه وذلك من حوارهِ للفكر الفاسد ، وكيف كان يتعرف بدقة على أدوائه ، ويَطْبُ بِبصيرة إلى دائه ، وكانت عناية عبد القاهر بتنقية الحياة الفكرية من الأفكار الضارة ، لا تقل عن عنايته بغرس الأفكار الرصينة .

ويبدو أن تياراً قوياً في زمن عبد القاهر كان يدعو إلى الاكتفاء بملخصات المعرفة في علوم العربية ، وأن هذا التيار كان ذا أثر في الحياة العقلية ، وإلا لما احتفل عبد القاهر بمناقشتهم ، وكانوا يقولون : إنه يكفى في البلاغة أن يقال إنه شبه ، أو استعار ، أو فصل ، أو وصل ... إلى آخره ، من غير أن يتغلغلوا في تفاصيل هذه المسائل فبُفَرَّقُوا بين ما هو تمثيل ، وما هو تشبيه صريح ، وما كان منه مُفَرِّداً ، ومُرْكَباً ، وما كان بليغاً ، أو مُرْسَلاً ... إلى آخر ما ينطوي عليه باب التشبيه ، وهكذا في بقية الأبواب التي نرى عبد القاهر كان حفيظاً بها جداً ، وكان يذكر الصور التي يجمعها الباب الواحد ، ويقول : إذا نظرت فيها رأيته تختلف وتنوع ، وقيم درسه على بيان هذا الاختلاف ، وهذا التنوع ، يعنى كان كأن جل عمله مواجهة عملية ، أو « رد فعل » لهذا التيار .

ثم إنه كان يفتش في عقول هذه الطوائف ويتغلغل في معارفها ، وما تُقبل عليه من العلوم وما تُعرض عنه ، ثم يقوده النظر إلى أن ما تقوله في البلاغة راجع إلى أنها ساء رأيها في علمين هما : الشعر والنحو ، وأنها ترى أن النحو لا يجوز أن يتسع درسه ، ويزيد على بيان حكم الرفع والنصب والجر ، وأن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، وما يُشبه ذلك مما تُضَبِّط به اللغة والإعراب ، وما زاد على ذلك فهو تكلف ، وتعسف ، أما الشعر فليس إلا ملحة ، أو فكاهة ، وبكاء منزل ، ووصف طلل ، أو نعت ناقة أو جمل ، أو إسراف في مدح ، أو هجاء ، وأنه ليس بشيء تمس الحاجة إليه في صلاح دين أو دنيا .

ثم يفتح باب الحديث في النحو والشعر ، ويذكر الاحتمالات التي وجهت هذا الرأي ، ويناقشها واحداً واحداً .

والمهم في هذا .. أنه كان في كل حوار يصدر من حقيقة واضحة هي الربط الحى بين منظومة العلوم العربية والإسلامية ، وكيف تتداخل ، وتتآزر ، وتتشارب ، وهذا مما لا يجوز أن يغيب عن أى دارس لهذه العلوم ، فضلاً عن

أن يكون ناقداً لها ، هى بمثابة الجسم المتكامل ، وموقع كل علم إنما هو موقع العضو الحى فى هذا الكيان الحى ، فالذين يهدمون علم البلاغة مثلاً ويطاردونه حتى فى عقول صغار التلاميذ ، جهلوا أن ذلك لو تمّ لهم يؤدى لا محالة إلى « تعتيم » مساحات متسعة فى التفسير والحديث ، والفقه والأصول ، وغياب هذا الفهم عند كثير من أهل زماننا ، هو الذى يدفعهم إلى الجرأة المتهورة فى الهجوم ، على ما يُشبه أن يكون ثوابت ، فى المعرفة اللغوية والبلاغية .

عبد القاهر يربط بين الشعر والعقيدة ، ويرى أن الصادّ عن الشعر صادّ عن سبيل الله ، وأن من يصرف الناس عن النظر فى الشعر كمن يصرفهم عن النظر فى كتاب الله ، وهذا شئ جيد ويجب أن يقرأه بعض المتنكسين فى زماننا لأنهم يهاجمون الشعر ، ويشرح عبد القاهر هذا القول شرحاً مبيناً فيذكر أن الحُجّة قامت بالقرآن من جهة كونه بالغاً فى البراعة مبلغاً تعجز عنه قوى البشر ، ولا يمكن أن نعرف هذا إلا إذا عرفنا الشعر ، وميزناه ، وأحكمنا فهمه ، ونقده ، وعياره ، وعرفنا الأمر الذى به يفضل بعضه بعضاً ، والأمر الذى به يفضل القرآن كل شعر ، وكل كلام ، وبهذا يكون صرف الناس عن الشعر صرفاً لهم عن معرفة وجه الحُجّة التى قامت بالقرآن .

ثم إن المقصود بالتعبد بالتلاوة ، هو أن يبقى القرآن محفوظاً لا يدخله تغيير ، أو تبديل ، حتى تظل الحُجّة قائمة به كيوم نزل إلى أن تقوم الساعة ، ومن منع سبيل التعرف على كونه حُجّة كمن منع حفظه ، والتعبد بتلاوته ، هكذا يقول عبد القاهر ، وهكذا يربط بين ضروب المعرفة وينتهى بالصادّ عن الشعر إلى هذه الحافة المهلكة .

وقد ذكر عبد القاهر أن الشعر هو معدن البلاغة ، وعليه المعول فيها ، وأن علم الإعراب كالناسب الذى ينمىها إلى أصولها ، ويبين فاضلها من مفضولها ، فوضع علم البلاغة بين الشعر والنحو ، هذا الوضع الذى ترى .

وقوله : « إن الشعر هو معدن البلاغة » ، يعنى أن جوهر العمل البلاغى هو تفقد الأبنية الشعرية ، والدراسة التى تجعل أبنية الشعر أساساً لها ثم تهتدى بكلام العلماء فى تصنيفها ، وتوصيفها ، دراسة جليلة .

لأنها تمم الدراسة البلاغية بصيغ جديدة فتغزر المادة البلاغية وتنوع ، وتكون أقدر على استيعاب ما فى النصوص من عناصر ذات تأثير .

وفى التراث البلاغى تجربة تُشبه تجربة عبد القاهر ولكنها دونها فى القدرة على تذوق الصيغ والصور والرموز اللغوية ، وتختلف عن تجربة عبد القاهر اختلافاً يورثها فضلاً ويغرى بالانتفاع بها ، تلك تجربة « حازم القرطاجنى » فى كتابه « منهاج البلغاء » .

وإذا كان عبد القاهر قد وضع الأبنية اللغوية بين يديه وجعلها طريقاً إلى النظر فى الأبنية المعنوية ، فإن حازماً جعل الأبنية المعنوية بين يديه وأدار درسه عليها ، وكما اهتم عبد القاهر بالفروق الدقيقة فى الصيغ ، اهتم حازم بالفروق الدقيقة فى الجمل المعنوية فيذكر المعنى الباسط للنفس ، والمعنى القابض لها ، والمعنى الشاجى ، والمعنى الباسط الذى يشوبه شيء من الشجو ، والمعنى القابض الذى يشوبه شيء مما يفرح ... وهكذا .

كما يذكر تسلسل هذه الأبنية المعنوية فى شعر الشاعر ، وكيفية مراوحته بينها ، وأن فلاناً من الشعراء ينتقل من المعنى الباسط للنفس إلى ما يقبضها ، أو أنه ينتقل مما يقبضها إلى ما يبسطها ، أو أنه يبدأ بالمعنى الإقناعية ، ويردفها بالمعنى الشعرية ، أو العكس ... إلى آخر ما نرى من تحليل لخواطر النفوس ، وكيف تتلاحق فى البناء الشعرى .

والنظم عند حازم نظمان : نظم للغة وهو النظم المعروف ، ونظم للمعانى وهو ما سماه « الأسلوب » ، وجعله أظهر فى الدلالة على الشاعر ، وأقرب إلى بيان تفرد شعره وشخصه ، لأن أحوال المعانى وأوصافها وأحوال ارتباطاتها وطرائق تسلسلها مرآة أكثر جلاءً فى بيان تقاسيم الشاعر وملامحه وشخصه .

وإذا أردتَ أن تُحكم بيان الفرق بين ثراث الرجلين - عبد القاهر وحازم - فاجمع ما قاله عبد القاهر فى شواهد المتنبي مثلاً ، وما قاله حازم ، وتأمل اتجاه تحليل الرجلين ، تجد عبد القاهر يذكر للمتنبي :

* وما أنا أسقمتُ جسمى به *

ليبين لك الفرق بين ما أنا قلت وما قلت ، وأن الأول لا يُقال إلا فى فعل قد كان ، وهكذا ... وكذلك ما قاله فى قول المتنبي :

يزور الأعادى فى سماء عجاجة أسنته فى جانبه الكواكب

ليوازن ويشرح الفرق بين المركب والمتعدد من التشبيه ... إلى آخر ما ترى من تحليلات لشعر المتنبي تُبين بلاغة اللسان .

أما حازم ، فإنه يذكر المتنبي ليقول عنه : « إنه كان يوطئ صدور الفصول للحكم التى يوقعها فى نهاياتها ، وأن ذلك منزع اختصاص به ، أو اختص بالإكثار منه » (ص ٣٦٦ - منهاج البلغاء) .

أو ليقول : « كان أبو الطيب يُحسن وضع البيت الإقناعى من الأبيات المخيلة ، لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيلة ، ثم يختمها ببيت إقناعى ، يُعَضِّد به ما قدّم من التخيل ، ويجمُّ النفوس لاستقبال الأبيات المخيلة فى الفصل التالى » (ص ٢٩٣) .

وهذا كلام مَن يُحلِّل بلاغة الشاعر ، ويُميِّز لُغته ، وشِعْره ، ومذهبه ، وهذا هو الباب الذى توقّف فى الدراسة البلاغية وهو كما ترى أهمية ونفعاً ، وإنما يهتدى إليه مَن يتفقد الشِعْر ، وطرائقه ، مع دراسة لكلام العلماء ، أما مَن يحصر نفسه فى دراسة كلام العلماء فلن يقع من بلاغة اللسان إلا على ما استنبطه عبد القاهر ، والزمخشري ، لأنك لو راجعت قصة الدراسة البلاغية فلن تجد فيها جهداً متسعاً وقف مع الشِعْر يستنبط منه أصول البلاغة إلا جهد عبد القاهر والزمخشري فى القرآن ، ثم جاء حازم بعدهما .

والمطلوب الآن هو الرجوع إلى الشعر ، والكلام الرفيع من النثر ، ودراسته ، وتحليله ، والاستنباط منه ، ليكون ذلك راقداً يتجدد به العلم ، وتطول به فروعها التى قصرت ، ونرى بين أيدينا مذاهب الشعراء ، علماً مدروساً وليس كلاماً مبهماً .

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

وصلّى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله ومَن تبعهم بإحسان .

المعادى الجديدة فى الثالث من ذى الحجة . ١٤١ هـ (الموافق ٢٧ من يونيو . ١٩٩٠ م) .

محمد محمد أبو موسى

* * *

أمثال سورة النور

لا شك أن دراسة تشبيهات سورة من سور القرآن ، دراسة متأنية ، جديرة بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات ، لأنها ما دامت قد جرت في سورة واحدة ، ذات سياق واحد ، فلا بد أن تكون فيها جامعة تجمعها ، وهذه الجامعة قد تخفى وتدق ولكنها رقيقة ورائعة كهذه الطباخ الخفية الحية التي تراها تجري في أبناء العشيرة الواحدة ، أو كهذه السبما والملاح الدقيقة التي تراها في القوم يرجعون إلى أب واحد ، لأن كل رموز السورة وصيغها وصورها ترجع إلى ما يشبه أن يكون أباً واحداً هو المَحْوَر الذي تدور حوله ، ولا بد أن يكون في كل هذه الصيغ وهذه الرموز وهذه الصور نفس واحد يجمعها ويؤلف بينها ، ويجعلها « عائلة » واحدة ذات سبما وملاح متقاربة ، والبحث الواعي الفطن وهو الذي يقع على هذا ، وهو قائم أيضاً في القصيدة كما هو قائم في الديوان ، وقائم في البقاع ، أعنى في البيئة المكانية للأدب وكذلك في البيئة الزمانية والحضارية ... إلى آخر هذا الأمر الذي لم نعطه إلى الآن حقه من العناية ، ومن الواجب أن نخصه بالدرس والاستنباط ، وأن فنحنه من الجد والدقة والروح العلمية ما يجعل نتائجه أقرب إلى الإصابة والسداد ، وأبعد عن شوائب التعميم والتهميم المجازي الذي جرى في كثير من الدراسات البلاغية والنقدية وأسقط كثيراً من نتائجها .

وهذه الدراسة لا تستطيع أن تصل إلى غاية المراد ، أو إلى ما يقارب هذه الغاية ، وإنما تسعى في جد ودأب وهي مقتنعة بأن اقتحام المخاطرة والسير في الطرق غير المعبدة باب عظيم النفع ، لأن خطأ السابق فيه يهدي إلى صواب اللاحق ، ولولا تقبلنا لأن نخطيء ما وضعنا أيدينا على صواب ، وإنني لأرضى أن أخطيء مائة مرة وأنا أبحث عن صواب واحد بشرط أن يكون مما لم يدرك بعد .

جاء التشبيه في آيات ثلاثة في سورة النور بدأ بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١).

والتشبيه الثاني ، والثالث جاء متلاحقين يكشفان حقيقة واحدة وهي أعمال الذين كفروا ، وقد جاء بعد المثل الأول بثلاث آيات قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهَا حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (٢) .

وهذه التشبيهات مبسطة ومتنوعة يجد النظر فيها متقبلاً ولهذا جعلناها موضوع هذا المبحث ، مع أن السورة فيها تشبيهات أخرى ليست على هذا الحد من السعة والغزارة ، وإنما هو ربط أمر بأمر ربطاً سريعاً مثل قوله سبحانه : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (٣) .

ومثل قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ (٤) . وفيها تشبيهان . .

ومعرفة معاني هذه الألفاظ والصيغ الجارية في هذه التشبيهات متوقف على معرفة السياق الذي جرت فيه ، لأن السياق هو الجذر الذي أمدّها بالحياة والأسرار ، وهو الأرومة والمعدن الذي إليه يرد الأمر . والسياق هو موضوع

(٢) النور : ٣٩ - ٤٠ .

(١) النور : ٣٥ .

(٤) النور : ٥٩ .

(٣) النور : ٦٣ .

سورة النور وهى من السور القرآنية التى يظهر فيها وحدة الموضوع ظهوراً لا يلتبس لأنها تدور من أولها إلى آخرها حول تنظيم وتقنين الآداب الواجب توافرها فى علاقات الرجال بالنساء ، وإلى أى مدى تجب مراعاة الحدود التى حددتها الشريعة حتى يظل تسلسل الوجود الإنسانى المثل لخلافة الله فى الأرض ، والنابع من هذين الجنسين نابعاً من منبع الطهر بعيداً عن الريبة واللبس ، ويظل الإنسان من بين الخليقة كلها مكرماً بنسبه ومعرفة آبائه الذين ينتهى إليهم : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وهذا الجانب من حياة الجماعة بالغ الدقة والحذر ومظنة الظنون والريب ، وقد تناولته السورة بشكل ظاهر وحاسم وحددت حدوده ، وأحلت حلاله ، وحرمت حرامه ، وقد بدأت السورة بذروه المأساة حين تنهدم الحدود فى هذه الأمر فذكرت أم خبائث هذا الشأن ووضعت حدّها بصرامة وبسرعة عجيبة .. تأمل : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا ﴾ (٢) .

وربطت القسوة على الخارج عن حدود الله بالإيمان بالله ، حتى لا يكون هنا مجال للمشاعر الكاذبة الناعمة ، وهذا رمى فى وجوه حُماة الخنا فى المجتمع الإسلامى والذين يصفون الحدود بالغلظة والقسوة ومجافاة التحضر ، ثم تناولت السورة ما يلى هذه الجريمة الأم فى سلسلة الآداب التى شرعتها وهو وضع الناس ألسنتهم فى أعراض بعضهم ، وجعلت السورة الشريفة رمى الأعراض بهذه الجريمة من غير بَيِّنَةٍ فى حجم فعلها ، فالزنا حده مائة والقذف حده ثمانون ، وكررت السورة خسيصة الرمى هذه فى مواضع ثلاثة وبصيغة واحدة لتثبيت بشاعتها : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ ﴾ (٥) ، وجعلت ذلك الخوض

(٣) النور : ٤

(٢) النور : ٢

(١) الأحزاب : ٥

(٥) النور : ٢٣

(٤) النور : ٦

واللغو رمياً لأنه يصيب مقاتل الأعراض كما تصيب السهام مقاتل الصيد ، ثم لمحت السورة لمحا راعياً بذكر حديث الإفك فى هذا السياق ، هذا اللحم هو بيان أن السنة أهل اللغو قد تصيب أعراضاً طهرها كأنه من طهر السماء الذى لم تدينسه الأرض بآثامها ، ولمح آخر هو أن وضع الألسنة فى أعراض الناس باب فيه إغراء وتكثر فيه غفلة أهل التقوى فتقع فيه ألسنتهم غافلين عن مقتضيات المعقول فى هذا الشأن ، تأمل قوله تعالى يخاطب الجيل الذى نزل فيه القرآن لما وضع الناس ألسنتهم فى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قال تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ (٢) ، ثم مضى الحديث فى هذه السلسلة إلى شىء آخر هو آداب الاستئذان حتى لا تقع العيون على عورات الناس ، ثم غض البصر وطلب العفاف بالنكاح ، فإن لم يكن فى الوسع فبالصبر والاستعفاف والاستعصام حتى يغنيهم الله من فضله .

ثم جاءت آية التشبيه الأولى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (٣) ...

وقد فصلت آية كريمة بين التشبيه وبين هذه الحدود وهذا التشريع ، وكانت بمثابة تلخيص لكل الذى مضى ، هذه الآية هى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) ، وقد ذكر المفسرون أن الآيات البيِّنات هى هذه الحدود ، والموعظة قصة عائشة رضى الله عنها وقوله سبحانه فى شأنها : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ ﴾ (٥) .

وكان وصف هذه الحدود بأنها آيات - أى علامات ظاهرة على طريق السلوك الإنسانى - مقدمة لوصف شرع الله ونظامه ، وأنه نور السموات والأرض -

(٣) النور : ٣٥

(٢) النور : ١٦

(١) النور : ١٢

(٥) النور : ١٧

(٤) النور : ٣٤

أى موضح لمعالم الحياة الإنسانية شارع لها طريقها ومنهاجها شرعاً لا يلتبس بها ، وقد قال على كرم الله وجهه فى بيان معنى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١) : أى نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره أو نور قلوب أهلها به ، فالنور المضروب له المثل بالمشكاة ... إلى آخره ، وصف لشرع الله وحدوده وحلاله وحرامه ، وقد جاء النور فى القرآن مثلاً لهذا ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ (٢) وإتمام النور هو تثبيت هذه العقيدة فى نفوس الصالحين من عباده تثبيتاً يكونون به حُماة لها خُراساً على حياضها ،

والمثل الذى هو مثل لشرع الله فى هذا الشأن الذى هو نظام علاقات الرجال بالنساء فى المجتمع الإسلامى جاء هكذا : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : أى كوة ضيقة ليست مثل النافذة ، وهذا الضيق يجعل نورها أكثر توهجاً ، والمشكاة ﴿ فِيهَا مَصْبَاحٌ ﴾ ، و ﴿ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ ، و ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ ، تأمل المتابعة والتداخل المؤذن بغاية التوهج وفرط النور ، وأن هذا المثل هو مثل شرع الله ، وأن ضوابط الشرع وحدوده تنشر الحق والعدل والرحمة والنور حتى تصير حياة الناس مغمورة بفيض النور الذى ترى وكأن النور هنا طبقات ودوائر تدخل كل واحدة فى التى تليها ثم هو نبع لا يفيض يستمد توهجه من ﴿ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ ، وأنه بهذا التداخل وهذا المدد المتدفق صالح لأن يمد حياة الإنسان طبقة بعد طبقة وطوراً بعد طور مهما اتسعت وتداخلت وتعددت وضل بعضها فى بعض ، وكأن هذا التداخل فى وصف النور فيه لمح إلى أنها بسخائها وتداخلها هى مشكاة لحياة الإنسان فى أطوارها وبساطتها وتعقيدها ، ثم إذا التفت إلى السياق المحدد للسورة ، وهو تنظيم علاقات الرجال

بالنساء فى دنيا المعاش المتزاحمة بالمناكب ، رأيتَ حدود الله فى هذا الشأن هى الضمان الأكيد لبقاء هذا الجانب الدقيق فى بؤرة الضوء والطهر والبعد عن الريبة ، وهذه العلاقات حية ومعاشة فى كل ساعة ، ولذلك كانت عرضة للتغيير والتعديل والتحوير ، وشرع الله إنما وضع لها ثوابت وحدوداً لا تحول هذه الثوابت والحدود بين هذه العلاقات وبين التطور الحى المتسنىر ، بل تضمن لها هذه الحدود سلامة التطور والرقى النقى السديد . لأن الخطوط العامة كأنها حصون حامية ، تأمل غض البصر ، وعدم إبداء الزينة ، والحسم فى العقوبات ، وطهارة اللسان عن الخوض فى الأعراض ... إلى آخر الآداب المذكورة ، تجد هذا حين يتأصل فى حياة الناس ويصير قيماً ثابتة يفيض على الحياة فى هذا الجانب النور الساطع الذى لا خداع فيه ، ولا مواربة ، ولا كذب على النفس .

ثم جاء التشبيه الثانى يصف الوجه المقابل لهذا الوجه ، يصف الحياة التى تهمل هذه الحدود وتنطفئ فيها هذه المعالم المشرقة ، وتعيش خارج دائرة التدين .

قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ (١) . حياة الإنسان فى دائرة التدين تضيئها مصابيح توقد من ﴿ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ لا ينضب معينها ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يعنى هو صفو الصفو وخالص الخالص ، والإنسان فى هذا المحيط آمن يعرف طريقه لا يضل ولا يخدع ، ولا تذهب نفسه بدهاء إذا ألتمت به العواصف النكباء ، وإنما هو حاضر فى الحياة بقلبه وعقله وعطائه حتى يمضى على طريقه الواضح المستنير بخطوات واعية مُحَكَّمة .

وفى المقابل ، تأتى ممارسات الحياة الإنسانية المقطوعة عن الوحي فتوصف بأنها سراب ، وضلال ، وخداع ، وأن الروح معها تعيش فى غربة متقطعة ، ظامئة إلى ما يروى غلتها ، ولكن العناد والكفر يحرق هذه الروح بظمنها ، والتشبيه يَصوِّرُ الحالة فى صورة سراب يركض من ورائه الإنسان الظامى ، والسراب هنا هو صالح أعمال الذين كفروا : كالأحسان ، وصلة الأرحام ، ومعونة المحتاج ، وإذا كان هذا سراباً فغيره من أعمال الذين كفروا من باب أولى ، وهذا يعنى أن السلوك الإنسانى فى هذا الجانب الأخلاقى والاجتماعى الحيوى من حياة الإنسان لا بد أن يكون موصولاً بالإيمان بالله ومخافته ، ماضياً على ما شرع الله ، يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، وهذا هو النور .

وإذا كانت أعمال الذين كفروا سراباً ، فأعمال الذين آمنوا نور يسغى بين أيديهم وبأيمانهم ، لأنهم حصلوها بنور الشريعة ، وقد قال العلماء : إن نور الذين آمنوا يسغى بين أيديهم وبأيمانهم لأنهم يتسلمون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، فالنور هو أعمالهم . ولك أن تتأمل التداخل بين النور الذى هو نور الله والنور الذى هو أعمال المؤمنين ، ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ (١) والمشى هو كل ما تعالجه من شئون الحياة ، يعنى الممارسات اليومية بدءاً من حركة الخواطر داخل النفس ، وانتهاءً بكل ما يعالجه الناس ملوكاً وسوقة ، حتى الكلمة تخطها الأنامل على الورق ، فهناك كاتب جعل الله له نوراً يكتب به ، فيكتب الحق والصدق والكلمة الطيبة ، وهناك كاتب لم يجعل الله له نوراً يمشى به لأنه قطع صلته بالله وسقط فى الزيف والنفاق والكذب والزور ، خدعه عقله فى ذلك أو خدع هو عقله فيه ، وهذا هو السراب الذى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الحقيقة الغراء التى عاش حياته يروغ منها ﴿ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢) .

وفى هذ المثل لح آخر ، هو أن ركض الظامىء وراء السراب فى الصحراء الحارقة المتوقدة يصف قصة الحياة المقطوعة عن الله ، ترى الإنسان فيها تائقاً ظامئاً لأن الفطرة فى داخله تدعو إلى الله ، ثم هو مخدوع وراء سراب من الأباطيل والفلسفات وخدع العقول وضلال الحكمة ، تحرقه رمضاء هذا كله وهو تائه عن النبع الذى يروى والذى أنبطه الله فى قلب أبينا الأول ، وجعلها وصاة فى عقبه من بعده : أن أقيموا الدين .

وشىء آخر يلتفت إليه فى هذ التشبيه ، وهو أن ذكر الماء والظامىء تكرر فى هذا السياق ، يعنى وصف الذين كفروا وتوجههم إلى غير الله سبحانه ، وأنهم حينما ينصرفون عن الله الذى له دعوة الحق إلى غير الله ، يكون مثلهم كمن يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، قال سبحانه فى سورة الرعد : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ (١) .

تأمل السورة تحجد ظامئاً كالذى فى سورة النور ، وهو هناك يجرى وراء سراب بقيعة ، وهنا على شاطئء نهر وهذا فارق كبير ، ثم إن مطلوبه هنا - وهو الماء - بين يديه ، ولكنه لم يُحكم الوسيلة التى تمكنه من الانتفاع بالماء ، فهو يبسط كفيه : أى يوسع بين أصابعه - كما قال المفسرون - ليبلغ الماء بذلك فاه ، وهذا خطأ لأن الماء يُعترف باليد ، ويسط اليدين إلى الماء إشارة إلى الخطأ فى طريقة النظر ومنهج التعقل والتدبر والتذكر الذى أمرنا الله به ، وجعل سداً واستقامته طريقاً إلى الإيمان واليقين .

والصورة المكانية هناك : صحراء قيعة لا حياة فيها ، وإنما فيها ركض وراء الوهم ، والصورة المكانية هنا : شاطئء نهر ، والمثال المذكور : باسط يده إليه .

وصورة السراب الذى يحسبه الظمآن ماءً قريبة من صورة جاءت فى سورة إبراهيم عليه السلام مثلاً لأعمال الذين كفروا ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ ... الآية (١). والجامع بين الصورتين هو خلو كل منهما من الماء ، وفى هذه الصورة الرماد المحترق والذى تذهب به الريح فى مهابها فى يوم عاصف ، وتأمل صياغة الكلام ، تأمل حرف التعديد ﴿ اشْتَدَّتْ بِهِ ﴾ ولم يقل : اشتدت عليه ، ليؤذن باقتلاعه وإثارته وإهاجته ، ثم تأمل إسناد العصف إلى اليوم والأصل أن يُسند إلى الريح ، وأحكم دلالة إسناد الحدث إلى زمانه - وهو باب يبلغ من أبواب المجاز - الصورة هنا مركزة على الأعمال وتبددها وضاعها واحتراقها ، وأما صاحب الأعمال فلا وجود له إلا فى التعقيب على الصورة فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ (٢).

وهو تعقيب حكيم لأن كلمة : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ ﴾ فيها محاولة واستنفار أقصى الطاقة لتبلغ القدرة مبلغاً يصل بها إلى اقتناص ما كسبت ثم إخلادهم إلى التسليم والعجز ، وهذا وصف خفى للهلول الذى لا يُحاط به ، وهذا التشبيه الذى يلخص ويكشف حالة الضياع للشيء المرجو نفعه فى وقت الحاجة إلى الانتفاع به جاء مغروساً فى موضعه من السورة كما يُغرس العضو من أعضاء الإنسان فى موضعه الذى هو فيه ، بيان ذلك أن هذا التشبيه جاء متمماً لوصف عذاب صاحب العمل وقد وصف القرآن ذلك وصفاً بخلع القلب تأمل :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ * مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ... ﴾ (٣) ، تأمل اللغة والصور التى وراء اللغة . تأمل قوله :

(٣) إبراهيم : ١٥ - ١٨

(٢) إبراهيم : ١٨

(١) إبراهيم : ١٨

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وكيف أسقطت هذه الكلمات صروح الطواغيت في مستنقع الخيبة والضياع ، ثم تأمل هذه الصورة الصارخة : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ وكيف دلَّ البناء للمجهول على أن هناك سقاة غلاظاً يعالجون سقيه وهو كاره رافض ، وهم يصبون في فمه ماء الصديد صباً بعد معالجة ، ثم تأمل قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ، والمراد أسباب الموت ، ولكن العبارة جعلت الموت جيشاً يقتحم بحشوده يحيط بهذا البائس التعس ، وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ، يعنى أشباح الموت المخيفة المفزعة قد تزاхمت بها جنبات الأرض من حوله .

هذا تحليل لمساحة لغوية محدودة قبل التشبيه ، وجاء التشبيه امتداداً لخيوط ونسج اللغة والمعاني والأحوال التي وصفها هذا الحيز اللغوي المحدود الذي بيّناه ، وبيان الامتداد والاتساق ظاهر ، لأن مقتضى المعقول أن يفكر هذا المُعَذَّب الذي يُسْقَى من ماء صديد في أى أمل يُخرجه مما هو فيه ، ومن الطبيعي أن يذكر صالح أعماله التي تُخَفِّف عنه بعض البلوى ، وقد جاء وصف الأعمال بالرماد ليُبَيِّن المدى الذي صارت إليه أعماله من الاحتراق والتبديد والضياع .

ولا يمكن أن يوضع تشبيه سورة النور هنا ، لا يمكن أن يكون الكلام في سورة إبراهيم بعد عرض حالة هذا الذي ﴿ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ هو : ﴿ كَسْرَآبٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظُّمَانُ مَاءً ﴾ ، وذلك لأمر ظاهر هو أن كل تشبيه إنما هو امتداداً للأنسجة اللغوية التي صاغت السياق كله ، وهذا يعنى ضروباً من الأنساق الخفى المكين ، فصاحب الأعمال في سورة النور حى طليق يركض وراء السراب ، وهذا متلائم مع سياق يحدد للناس ضوابط السلوك في جانب حيوى من جوانب الحياة ، فليس هنا موت ولا عذاب في جهنم ، وإنما هنا حياة فسيحة متسعة ، وفريق من الناس يستضىء بنور الشريعة التي هى كمشكاة فيها مصباح ... إلى آخره ، وفريق آخر انقطع عن نور الشريعة فَضَّلَ في أوهام الفكر وسرايب الضلال ، ولهذا كان وجود صاحب الأعمال في المثل حياً ، يسعى سعيه ويركض جهده ، أمراً طبيعياً .

وفى سورة إبراهيم : ﴿ كَرَّمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (١)
بنى المثل على العناية بالأعمال وأغفل صاحبها فليس له وجود ، وذلك لأن
صاحب الأعمال انقطع عنها بموته وهو بين الزبانية يُسقى من ماء صديد يتجرعه
ولا يكاد يُسيفه ، فكيف يكون راكضاً وراء السراب ؟

وهذه لمحة سريعة تدل على ما نريده بقولنا : إن التشبيه من حيث لغته ،
وصوره ، ولونه ، وطبعه ، امتداد للأحوال الجارية فى السورة لأنه جزء منها ،
يجرى فيه ما يجرى فيها ، بل هو جزء من كل له طبع واحد ، وفيه ماء واحد .
فلا بد أن تكون العلاقات بمثابة الشرايين الجارية فى الجسد ، أو الدم الجارى فى
الشرايين ، فكما لا يكون الدم الجارى فى بعض أجزاء الجسد من فصيلة مخالفة
للدّم الجارى فى البعض الآخر ، كذلك لا تكون الأنسجة اللّغوية والصور النفسية
والرموز المعنوية الجارية فى التشبيه معزولة عن الحركة اللّغوية العامة الجارية
فى السورة كلها أو القصيدة كلها .

ثم ننتقل إلى المثل الثانى فى بيان أعمال الذين كفروا فى سورة النور وهو
قوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ
يَرَاهَا ، وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٢) .

وقد جاء هذا المثل رادفاً للمثل الأول : ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ ﴾ ، وهو من
الباب الذى ينتقل فيه الكلام من تشبيه إلى تشبيه ، وهو قليل من القرآن كثير
فى الشعر الجاهلى ، وخاصة فى الصور المتسعة المتحركة فى أوصاف الناقة
أو حمار الوحش أو غير ذلك ، ترى الشاعر يقول بعد الفراغ من تشبيهه : « أقتلك
أم وحشية مسبوعة » ، وما يشبه ذلك مما تراه فيه يبدأ فى تشبيه آخر ، كذلك

(٢) النور : ٤٠

(١) إبراهيم : ١٨

الحال فى سورة النور جاء المثان هكذا : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي
بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ۖ ﴾ (١١) .

وكما أننا لم نوف تشبيهات الجاهليين حقها ، كذلك لم نوف تشبيهات القرآن
حقها ، يعنى لم نجب عن أول الأسئلة وأقربها فى هذا الباب وهو : ما مقصود الشاعر
من هذا الانتقال ؟ وأى فرق بين الصورتين ؟ وأى معنى فى الثانى ليس فى
الأول ؟ هذه الأسئلة القريبة لم نجب عليها فى أى قصيدة فى الشعر الجاهلى ،
نعم أجاب المفسرون عن بعض هذه الأسئلة فى تحليل تشبيهات القرآن ، وقالوا
إنه يكون انتقالاً من البليغ إلى الأبلغ ، وهذه إجابة سديدة وإن كانت قائمة على
التعميم ، والتشبيه فى الحقيقة انتقال من البليغ إلى الأبلغ ، والتعميم فى هذا
نفسه ، لأننا نريد أن نُعرّف البليغ والأبلغ معرفة محددة فنقول مثلاً : إن هذا
التشبيه الأول كشف عن كذا ، والتشبيه الثانى كشف عن كذا ، وهذا الثانى فيه
ما ليس فى الأول وهو كذا ، ولهذا كان أبلغ ، وذلك لم يحدث ، كما أننا لم نُحلل
رموز التشبيهات ولمحاتها اللغوية وأنساقها الخفية ، ولندع هذا ولننظر فى
التشبيه ونقول من غير تواضع : إننا عاجزون عن الوصول إلى حاق القول فى هذا
الشأن ، وإنما نطمح فى أكثر مما نستطيع ، أو نحاول فنخطئ ليحاول غيرنا
فيصيب .

وأول ما يبدؤك فى هذا التشبيه ، أنه قابل الذى قبله مقابلة ظاهرة من حيث
العناصر المكوّنة للصورة ، فالذى قبله صحراء مستوية ﴿ قِيَعَةٌ ﴾ يرتفع فيها
الآل ، وهذا ﴿ بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ ،
هذا فى البرّ وذاك فى البحر ، والبرّ فى الأول خراب ليس فيه إلا الصحراء
وأهوالها ، فلا زرع ولا ضرع ولا حياة ، والبحر فى الثانى ليس فيه إلا مكوّنات

البحار ، موج فوق موج فوقه سحب ، والبر الحَرَب هناك ليس فيه إلا الإنسان
الظامى الذى يركض وراء الوهم ، والبحر هنا ظلمات مطبقة فحسب ، وهذا
الفارق مما يتبادر إلى الذهن من غير تأمل .

ثم إن هذا التشبيه الثانى بينه وبين الشبيه الأول : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ : المقابلة التى بينه وبين السراب ، ولكنها مقابلة من حيث
النور والظلمة ، فالأول نور على نور ، والثانى ظلمات بعضها فوق بعض ،
وشىء آخر هو تقارب البناء اللغوى فى المثليين ، فقد احتشد المثل الأول لبيان
وهج النور ، فذكر مشكاة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ
كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ ، واحتشد المثل الثانى لتداخل
الظلمات وإطباقها وتكاثفها حادياً فى الصياغة حذو الأول تأمل : ﴿ يَغْشَاهُ
مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ ثم إن كل صورة من الصورتين لها
مدد يدها ولا ينضب ، ففي الأولى : شجرة مباركة يوقد منها ، وفى الثانية :
سحاب مطبق فوق موج من تحته موج فى بحر لجى . وكما قال هناك أيضاً :
﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ . قال هنا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا
فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ . وهذه روابط أسلوبية لا تهمل وكأنها ضرب من التلامح
أو التناغى بين المثليين ، وقد ترى هذه التشابه يتجاوز الأمثال إلى السورة كلها ،
فلا تخلو سورة من سور القرآن من هذا الضرب من التناغى والتقارب فى الصيغ
والكلمات ، ونذكر فى هذا المقام بالصيغ المكررة فى مثل : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ
الْمُحْصَنَاتِ ﴾ (١) وما بنيت عليه سورة مريم من قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِى
الْكِتَابِ ﴾ (٢) فقد تكررت مع كل قصة ، وكيف كان هذا متسقاً مع مطلعها :
﴿ ذِكْرٌ رَّحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ﴾ (٣) ... إلى آخر هذا الباب الحافل
بالبلاغة العالية والتى لا تزال هاجعة فى أوصال الكلام الربع ، ونذع هذا لنقول :

(٣) مريم : ٢

(٢) مريم : ١٦

(١) النور : ٤

إن هذه الروابط الأسلوبية بين المثليين لا يجوز لنا أن نُهمل إدراكها واستخراجها والإشارة إليها ، وهذا متوقف على ضرب من التدقيق اللازم فى القراءة ، ثم إن الوقوف عند إدراكه والإشارة إليه تقصير لا يُحمد ، وذلك لأنه لا بد من تفسير ذلك واستخراج سره ، وهذا لا يتأتى إلا بمزيد من الفقه والاجتهاد وهو مما تختلف فيه الأفهام ، ودلالته هنا أن المثليين من باب واحد يتناولان حقيقة واحدة من جهتيها المتقابلتين : الإيمان والكفر ، فالمشكاة : مثل أعمال المؤمنين الواقعة على الوجه الشرعى ، والظلمات : مثل أعمال الكافرين غير الموصولة بالله ، وهذه الظلمات ، التى فوقها ظلمات ، هى العالم البهيمى الذى تدخله البَشَرية حين تنقطع صلتها بالله ، وبمقدار ما فى عالم الظلمات هذا من وحشة وغدر ، تجرد العالم الذى تدخله البَشَرية آخذة بشرع الله نوراً ساطعاً يجعل كل ما فى الحياة إشراقة ضياء ، تفيض من كوكب دُرّى ، يُوقدُ من شجرة مباركة .

وشىء أخير فى هذين المثليين ، هو أنهما بمثابة تلخيص وتصوير لمعان جرت فى القرآن كثيراً ، تدور حول بيان الكفر والجهل بالظلمات ، والإيمان والوحي بالنور ، فالمؤمنون يُخرجهم إيمانهم من الظلمات إلى النور ، وأصحاب الجبّ والطاغوت يُخرجونهم من النور إلى الظلمات ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسله ربه داعياً بإذنه وسراجاً منيراً ، وهكذا تجرد هاتين الكلمتين فى القرآن تدوران حول هذين الأصلين .

وليس فى القرآن تشبيه حشد كل هذه الظلمات ، وكل هذه للأمواج ، وكل هذه السحب فى صورة واحدة ، إلا هذا التشبيه ، وليس فى الشَّيْء الجاهلى صورة تقارب هذه الصورة من حيث كثافة الظلمات والسحب رغم ما فى الشعر الجاهلى من روائع فى وصف المطر ، بل إن هذه الصورة أشبه بصور الشمال الأوروبى ، ولذلك عَقَّبَ عليها مالك بن نبي - رحمه الله - وذكر أنها قاطعة

فى أن القرآن ليس من كلام محمد صلوات الله وسلامه عليه ، لأن من عاش فى جزيرة العرب لا يستطيع خياله نسج هذه التصوير .

وهذا المثل له رجوع وصدى فى موضع آخر من السورة الشريفة فقد جاء بعد ذلك بآية واحدة قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ (١) ، وهذا من جنس المثل الذى معنا ، تأمل : ﴿ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ ، ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ (٢) ، وتأمل : ﴿ مَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ تجدد الكلام بُنَى على حذو واحد وكأنه من عشيرة واحدة ، وقد وجدتُ مثل هذا كثيراً فى قصائد الشعر حتى كأن كل قصيدة بُنِيَتْ واحدة متميزة تجري فيها هذه التشابهات فى نسج الكلام ، وهذا من أسرار الفن وخفايا الصنعة فيه ، ومرجعه إلى امتداد نسج لغوى واحد فى السورة كلها ، وكأن إيقاع الكلمات إنما وقعت وتتابع على خيوط واحدة ، ولا شك أن آية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ امتداد طبيعى لآية : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ وكأنه نمو الكائن الحى ، وقد زاد هنا « جبال الثلج » التى لا وجود لها فى إرث بيان العربية التى نزل بها القرآن ، وتكلم بها النبى ﷺ وكأن هذا حين يتقابل مع « سَرَابٍ بِقِيعَةٍ » مؤذن بجمع أطراف الدنيا من أقصى شمالها ، وربط ذلك بالصحراء التى انفجرت من صخورها ينابيع النور .

وهذه العناصر التى هى الماء والظلمات ، وما يتعلق بها من أمواج وسحاب ورعد وبرق ، جاءت فى سورة البقرة تشبيهاً ثانياً متصلاً بتشبيه أول على طريقة ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ .. وذلك مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال

تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ * صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ * أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِّشْوًى فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ (١) التشبيه الثانى هنا قريب جداً من التشبيه الثانى فى سورة النور ، فالظلمات التى فى الصَّيْبِ قريبة من ظلمات البحر اللُّجى وإن كانت الصورة فى النور قد تواترت فيها الكلمات والجمل لتصوير جبال من الظلمات بعضها فوق بعض ، من غير أن يكون فى داخل هذه الظلمات إنسان يعالج كربها ، والصورة فى البقرة تنوعت عناصرها ، فهناك : الصَّيْبِ والظُّلُمَاتِ والرعد والبرق ، وفى داخل هذا كله إنسان مكروب يعانى هذه الأحوال ، بل إنه هو قُطْبُ الرِّحَى فى الصورة ، والمِنَالِ الذى نُسِجَتْ عليه الصورة بكل عناصرها وخواطرها ورموزها ، ويقول المفسرون فى تفسير : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ ﴾ إن التقدير : أو كذوى صَيْبٍ ، لأنَّ المُشَبَّه به هو الإنسان الذى هذا حاله كما جاء فى التشبيه الأول : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ .

تأمل كلمات تشبيه سورة البقرة : « يجعلون .. أصابعهم .. آذانهم .. أبصارهم .. لهم .. مشوا .. عليهم .. قاموا .. سمعهم » .. تجد الضمير العائد على الجماعة الإنسانية الضالة منبثاً فى الكلام كله ، والأحداث والأحوال منسوجة عليه ، وليس الأمر كذلك فى سورة النور ، لأنَّ المثل هنا : مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والمثل هناك : أعمال الذين كفروا .

والتشبيه السابق فى سورة البقرة : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ .. ليس فيه ماء ولا سحاب ، وإنما عقد المثل على صورة رجل يبحث عن الضوء ويكده ، تأمل كلمة ﴿ اسْتَوْقَدَ ﴾ فلما أمكنه أن يستخرج ما يُضِىء به ذهب يد الله التى لا تُغَالِبُ بهذا الضوء وأطبقت الظلمات حول هذا المخدول .

وهذا المثل هو المقابل للسراب ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ فى سورة النور ، والفرق هو أن المثل هنا يدور حول الإنسان ، والمثل هناك يدور حول السراب .

ويلاحظ أن هناك إيماضات من النور فى أمثال سورة البقرة ، نجد هذا فى قوله : ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ ، وفى قوله سبحانه : ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِشْوًى فِيهِ﴾ ليس شىء من هذا فى سورة النور ، وهذه الإشارات دالة على أن الذين اشْتَرَوْا الضلالة بالهْدَى أدركوا الهْدَى وأضاء لهم ، ولكنهم ابتاعوا الضلالة وآثروها ، وقد ذكر المفسرون أن « الاشتراء » هنا مجاز عن الاختيار ، والاختيار لا يأتى إلا بالمعرفة ، فالذين اختاروا الضلالة وآثروها على الهْدَى لا شك أنهم عرفوا الهْدَى وإلا فلا يصح أن يكون اختياراً ، والهْدَى الذى أدركوه كان إيماضاً سرعان ما يغوص فى أعماق ظلمات الضلال والعناد .

والمثل الثانى فى سورة البقرة أبلغ من المثل الأول - كما قال الزمخشري - ولا حَرَجَ علينا حين نقول : إن فى القرآن بليغ ، وأبلغ لأن البليغ قد بلغ حد الإعجاز ، وإن كان البعض يرى أن الاختلاف فى ظهور البلاغة يعنى أنها فى بعض الآيات أظهر منها فى البعض الآخر ، أما البلاغة فهى فى الكل على حد واحد لا تفاوت فيها ، وفى المسألة كلام آخر ، والمهم أننا نرى فى المثل الثانى مزيداً من التنوع والغزارة فى العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال ، وترى المثل بهذا أفسح مدى من المثل الأول .

تأمل المحيط الذى تتحرك فيه الأحداث ، تجد الصَّيْبَ والظُّلُمَاتِ والرعد والبرق وخطف الأبصار ، ثم تأمل الإشارات اللغوية ذات الدلالات المتسعة على الأحوال النفسية ، تأمل : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾ والأصل : أناملهم ، وقد دلَّ هذا على أن القوم انخلعت قلوبهم وطاشت من هول المخافة ، لأنهم صاروا فى فم الموت ، ثم تأمل كلمة « الخطف » وما فيها من حدة وشراسة وقسوة ، وتأمل : ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِشْوًى﴾ وكيف كانوا قائمين وهم خائفون يترصدون شعاعاً من الضوء ليفلتوا من هول الهلاك ... وهكذا .

أما المثل الأول : فليس فيه إلا المستوقد وحالته المخدولة ، من حيث تراه يكدح حتى يستخرج ناراً ، أى نار ، تقطع هذه الوحشة المطبقة على النفس ،

حتى إذا أضاءت ما حوله وآتاه الهدى ضربه الخذلان ، وذهب الله بهذا النور ،
وبقى مغروساً فى جوف الظلمات ، وهنا إشارك لمأحة فى إسناد الذهاب بالنور
إلى الله الرحيم الرحمن ، هذه الإشارة هى فيض الخذلان الذى أصابه وما آل إليه
من ضلال وفساد وجفوة . حتى إن الله سبحانه ، الذى وَسَّعَ كل شىء رحمةً
وعِلماً ، يذهب بنورهم ويتركهم فى ظلمات لا يُبصرون .

وهكذا نجد الأمثال تتقارب وتتنوع وتتفق وتختلف .

والمثل الثانى فى سورة النور : « ظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ جُمُيٍّ » ... إلى آخره
تصوير لأعمال الفجور والفسوق والغدر وما هو من هذا الباب ، وليس فى المثل
ما يدل على أن لهم فيها مطمعاً فى الآخرة ، بخلاف السراب ، فإنه نوع من الأمل
وإن كان وهماً ، ولهذا قلنا : إنه مثل لأعمال البر كصلة القرى والإحسان .

وهذا سر اختلاف المثليين فيما ترى ، وكذلك اختلف المثلان فى سورة البقرة
وقد ضُربَ لجماعة واحدة هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ويبدو أن المثل
الأول تصوير لضلالة أهل الضلالة حين لا يخوضون صراعاً مع الحق وأهله ، يعنى
تصويراً لضلالهم فى أنفسهم من غير أن تحتشد هذه النفوس لمواجهة الحق ،
والمثل الثانى : تصوير لضلالتهم وقد خاضوا لمواجهة مع أهل الحق ، وهذه الحركة
وتلك الأحداث وهذا الصراع القائم بينهم وبين الطبيعة « الصَّيْبُ ، والظلمات ،
والرعد ، والبرق الذى يخطف أبصارهم » رمز لهذا الصراع الذى يخوضونه مع
أهل الحق ، ولا تجد شيئاً من هذا فى المثل الأول ، وإنما تجد رجلاً يستوقد ناراً
ثم تنطفئ ويبقى فى ظلماته ، من غير أن يكون حوله رعد وبرق يخطف أبصاره ،
ومن غير أن ينخلع قلبه من هول المخافة فيضع أصابعه فى أذنه ... وهكذا .

وأذكر بما قلته من أننا نحاول فنخطئ ، ليحاول غيرنا فيصيب ، وأرجو أن
يغفر الله لنا بهذا القصد ما يقع فيه من فساد الرأى ، وإنما غايتنا أن نحرك
العقول نحو هذا الباب الزاخر بالبلاغه العالية والتى لا تزال فى أكمائها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن يتبعهم بإحسان .

* * *

مدخل ... إلى دراسة مصادر عبد القاهر الجرجاني

لا يتسع هذا البحث إلى الكشف الدقيق عن مصدر كل فكرة في تراث عبد القاهر وذلك لكثرة وتنوع ما أثار من مسائل وطرائق .

وكان عبد القاهر وهو يضع بلاغة هذا اللسان الشريف يهد الطريق إلى علم آخر هو علم الإعجاز .

ويبدو أنه امتهد الطريق فحسب ثم وقف حيال الباب ولم يطرقه الطرقات التي تُفضى إلى باحاته الغربية والعجيبة والخارقة والتي لا نزال نحوم حولها ولا نرد عباها .

وغاية هذا البحث أن يدل على طريق معرفة مصادر عبد القاهر .

وهذا شيء والدلالة على مصادر عبد القاهر وعدّها مصدراً مصدراً شيء آخر ، وبهذا يكون هذا البحث توطئة وقهيداً لباب من الدراسة يستقصى مسائل البلاغة عند عبد القاهر مسألة مسألة ، ويبحث في جذورها ومنابعها ، حتى يصل إلى موضعها في التراث الذي كان بين يديه ، ثم يصفها في هذا التراث وصفاً دقيقاً يبين ما فيها من جوانب الوضوح وجوانب الإبهام ، ثم يبين كيف تراحت وتحررت وخلصت في فكر عبد القاهر .

وهذا مسلك دقيق يحتاج إلى مزيد من التنبيه والتروى والمراجعة ، لأن وصف الأحوال العلمية في مراحل تطورها المختلفة ليس أمراً سهلاً كما يبدو عند كثير من الدارسين . ولا ينكشف على وجهه الصحيح إلا بمكابدة تنكئ على خبرة واسعة ودقيقة بهذه الأصول .

ثم إننا نرى أن الكشف عن مصادر الكتب ذات الأثر الواضح فى علومنا وحضارتنا أمر بالغ الأهمية ، لأن هذه الكتب تشغل مساحات متسعة فى حياتنا العلمية ، والكشف عن منابعها كشف عن منابع هذه المساحات التى تشغلها وهذا مما لا يجوز التساهل فيه .

ويجب أن يكون الكلام فى هذا حذراً كل الحذر ودقيقاً كل الدقة لا يتجه الباحث إلا إلى الكشف عن الحقيقة ، ولا يجوز له البتة أن يكتفى شيئاً من الحقيقة لهوى أو عصبية فيكابى مثلاً فيما يراه ظاهراً من أثر الثقافات الأخرى ، كما لا يجوز له البتة أن يتزبد على الحقيقة فيتكلف ما ليس له دليل ينهض به . والعلم من أمانات الله وعهده .

والكلمة الطائشة فى هذا الباب تهدم أموراً نفيسة يجب أن تُصان عن الهدم ، وقد جرت هذه الكلمة الطائشة فى بيان مصادر كثير من علومنا ورجعت بأصول كثيرة من المعرفة فى علوم العربية بلاغة ونحواً إلى أمم أخرى وخاصة أمة اليونان وقد صار هذا كأنه مقرر عند كثير من الدارسين ، ونقلوه إلى طلابهم حتى صار من المألوف لدى المعلمين والمتعلمين أن نقل العلوم اليونانية إلى تراث المسلمين كان خيراً وبركة ، وأن علماء المسلمين كان ينقصهم المنهج والنظام حتى ثقفوا ما عند اليونان فاستقامت طرائقهم ، واستنارت عقولهم ، وفى ضوء هذا الهدى اليونانى المبين نظروا واستخرجوا . وفقهوا ، ولولا ذلك لبقيت علومنا ركاماً غير منظم . وعقولنا فوضى لا يضبطها نظام .

ويهلنى أن أرى بعض شبابنا الدارس والواعد بذكائه وحبه للعلم تقوم فى نفسه هذه الأوهام وكأنها مقررات وثوابت ومضى فى بحثه على هديها ، ثم أراها - وهذا أضر - وقد هيات نفسه لتلقى الفكر الحفيد للفكر اليونانى وهو الفكر الغربى فيقوم بعملية عجيبة وشاذة ولكنها صارت عند الناس علماً ، هذه العملية هى اقتباس بعض ما شاع فى مرحلة من مراحل الفكر الغربى فى باب

من أبواب العلم . ثم يُعَدَّل ما لديه من أفكار ومعارف مقررة فى أصول العربية وطرائقها وأسرارها فى ضوء هذه الفكرة المقتبسة التى لم يُحكم فهمها ، ثم إن هذه الأفكار والمعارف التى عدلها قد محصتها وأصلتها عقول أهل العلم على مدى أجيال متلاحقات ، وهذا عجيب لا تراه يحدث فى ثقافة ولا فى أمة ولا عند باحثين إلا عندنا .

والقول بأن العقلية الإسلامية تنظمت وتمهجت واستقامت على طريق البحث بخطة واضحة بعد نقل علوم اليونان لم أقرأه فى كتاب قبل هذا العصر ، مع أن هناك مراحل طويلة وخصبة كانت مراحل مراجعة وتوصيف للحياة العقلية وتكوين لها ، لم أقرأ لعالم يُعتمد به قبل عصرنا هذا كلمة تدل على أن نقل علوم اليونان هى التى أخصبت حياتنا العقلية .

والذى ينظر إلى مخرج هذه القضايا التى ولدت فى نفوسنا الإعجاب والعرفان لليد البيضاء التى أسداها حكماء اليونان للعقلية الإسلامية يجد أشياء كثيرة تحيط بمخارج هذه الأفكار لا تتصل بالمنهج العلمى من قريب ولا من بعيد ، وإن كانت تلح دائماً على أن تتزيا بلباس المنهجية والموضوعية . وهذا أمر لا يجوز أن تمر عليه مروراً سريعاً ، لأن فيه ريباً لا ريب فيه ، فليس إشاعة القول مثلاً بأن عبد القاهر ليس إلا تلميذاً شارحاً ومُعلِّقاً على بعض ما استطاع شرحه وتعليقه من كلام المعلم الأول بالأمر الهين ، وإنما هو كلام يرج قلوب طلاب العلم رجاً . ويحاول ببشاعة خنق الإحساس بالأمجاد الفكرية العظيمة التى ينادى بها هذا الشراء الشامخ وهذا العطاء المذهل ، ويجتهد فى أن يخلق جيلاً من الباحثين العرب المسلمين ، وقد صيغت نفوسهم على الثقة بالعجز والدونية وأنهم هكذا هم ، وهكذا كان سلفهم ، ولا سبيل إلى حياة علمية مقبولة إلا إذا اتجه هذا الجيل إلى منابع المعرفة عند هؤلاء الأحفاد الذين ورثوا التفوق كابراً عن كابر ، وهذا كلام ينادى به رجال منا جهاراً نهاراً وعلى ربوات هذه الأمة . ومن ينكره

أو يشكك فيه يُضرب على أنفه بمقامع الرجعية والتخلف وضيق الأفق ... وغير ذلك مما صار يقوله كل من يعرف ألف باء .

أقول : إن هذا القول الذى يرمى عبد القاهر بأنه تلميذ صغير لأرسطو ، يفهم بعض كلامه ، ولا يفهم أكثره ، لم يقف أثر شؤمه عند تراث عبد القاهر ، وإنما أحاط ببيان العربية وبلاغتها ، وصارت هذه البلاغة عند أكثر من يكتبون « قبسة » من قبسات يونان انطفأت لما انتقلت إلى تراث العربية . وصارت رماداً لا قيمة له إذا قيس بأصولها اليونانية المبهرة .

ولا يحتاج القارىء إلى أن أدله على الكتب التى تذكر ذلك وتُشيعه فى جامعاتنا لأنها مطروحة فى كل الجهات ، ثم هى فى أفواه كثيرة ، وتنتقل من الكبار إلى الصغار ، وكم عانينا فى مناقشة كثير من المبتدئين الذين تأصلت هذه الفكرة فى نفوسهم لما قُذِفَتْ فيها وهى خَلاء .

وقد قامت الدراسة البلاغية بعد عبد القاهر على تراثه وتصنيفه وتحرير مصطلحاته .

ولم أقرأ فى كلام واحد من البلاغيين المتعقبين - على كثرتهم وتتابع أجيالهم وسعة كلامهم - كلمة واحدة تشير إلى أن عبد القاهر قبس علمه من علوم اليونان ، ولم أعرف أحداً فتح هذا الباب قبل طه حسين فى مؤتمر المستشرقين الذى ختم كلامه بين أيديهم فيه بقوله : « لم يكن أرسطو مُعَلِّم العرب الفلاسفة والأخلاق فحسب ، وإنما كان معلمهم البيان أيضاً » .

• وهذا الكلام - من حيث مدلوله وزمانه ومكانه وسياقه - له مرمى غير بعيد ، وقد شاع بعد طه شيوخ كل كلام طه . الذى صار بعد ذلك عميد الأدب ورائد التنوير .

أقول : لم يشر واحد قبل طه حسين إلى هذا على مدى قرون متطاولة شاع فيها فكر عبد القاهر بين طبقات من العلماء وأجيال كان منهم من اغترف من ثقافة اليونان ما يؤهله إلى مثل هذا الإدراك لو كان له أصل .

ومعالجة هذه المسألة تقوم على معرفة طريقة عبد القاهر فى استخراج حقائق المعرفة وهذا رأس الأمر فى دراسة مصادره ، ومرادى بمعرفة طريقة عبد القاهر فى استخراج حقائق المعرفة وصف معالجته لما بين يديه من أفكار ، ووصف موقفه منها ، لا من حيث قبولها أو مناقشتها ، وإنما من حيث ما يضيفه إليها من تفصيل وتحليل ، ليس كالتفصيل والتحليل المؤلف فى دلالة هاتين الكلمتين ، وإنما التفصيل الذى لا يزال يجاذب الفكرة من جهاتها القابلة لأن تمتد ، حتى تتسع ، وتتسع ، وتصير شيئاً كأنها غير ما كانت عليه حين بدأ حوارها ، ثم أعنى أيضاً قدرته على التغلغل فى خوافى مطاويها ثم قدرته على استخراج هذه الخوافى ، وما تنطوى عليه من أصول فى تراكيب اللغة وطرائق دلالاتها على المعانى ، وكان عبد القاهر ينهج فى تحليل بعض عبارات الأقدمين منهج الفقهاء فى استنباط الأحكام ، وباب الاستنباط هذا أحد ينابيع المعرفة وأحد كنوزها ، وإذا نظرت إلى منازع الأحكام من الآيات والأحاديث وجدت عجباً لا ينتهى منه العجب ، من حيث ترى عقول الفقهاء تنغل فى بطون الكلمات ، وتستخرج مضمير الخواطر منها ، ثم تؤسس عليها أحكاماً ثابتة ، وربما يقرأ هذه الكلمات كثير من الناس ولا يلتفتون إلى هذا المضمير الذى انغل إليه عقل الفقيه المستنبط ، وشواهد ذلك كثيرة ولكنها فى كتب الفقه وليست فى كتب اللغة ، وهذا من الأبواب التى تهذى ليس إلى علم فحسب ، وإنما إلى طريقة بناء العلم واستخراج حقائقه ، وهذا هو الباب المسدود دون عقولنا .

ودراستى لمصادر عبد القاهر تقوم أولاً على معرفة طريقة عبد القاهر فى استخراج حقائق المعرفة كما قلت ، وهذه المعرفة صعبة لأن استخراج مادتها العلمية لا ينقاد فى كل حال ، ثم هى ضرورية ليس فقط فى معرفة مصادر عبد القاهر ، وإنما لأنها من وجه آخر تشرح لنا طرائق بناء العلوم وتطوير المعارف ، ويجب أن تكون لدينا دراسات دقيقة حول كل عقلية نبغت فى فرع من فروع المعرفة تحدد لنا خطوات هذه العقلية وكيف كانت تمتهد السبل ، وتكتشف الحقائق ،

وتستخرج المسائل ، أو قل باختصار : كيف كانت تفكر ، وحاجتنا إلى أن نتعلم التفكير فى مسائل العلم كحاجتنا إلى تحصيل العلم ، وربما كانت الأولى أهم ، ولن نربى علماء إلا إذا عرفنا كيف كان يفكر العلماء ، وربما هجس فى النفس أن غيبة هذا الباب فى دراستنا الجامعية وغيرها وراء هذا الشحوب العجيب الذى نعيشه والذى شارف حد العقم .

وطريقة عبد القاهر فى تقليب وتدوير حقائق المعرفة التى كانت بين يديه من تراث سلفه أخذت موقفين مختلفين ، موقف وهو يكتب فى النحو ويعالج مسائله ، وموقف وهو يكتب فى البلاغة ويعالج مسائلها .

ترى فى دراساته النحوية رجلاً وجد بين يديه حقائق متسعة ، ودراسات مستوعبة أحاطت بمباني الكلام ، ودققت فى معرفة أصول النظام فى هذه المباني ، كما أحاطت بمباني الألفاظ واشتقاقها وتصاريقها فى الجمع والتصغير والنسب وغير ذلك ، فكان فى هذا الباب يشرح المسائل ويزيدها جلاء ، ثم يكون قصاراه بعد هذا البيان أن يُرجَّح فى مسائل الخلاف رأياً على رأى ، ولهذا لا تجد النحو فى كتبه يختلف كثيراً عنه فى مصنفات غيره ، إلا ما يرجع إلى طبعه وطريقة تأتبه للمسائل وما يشبه ذلك مما يختلف فيه الناس ، لأن مرده إلى ضروب التصور واختلاف الفهوم فى تنظيم صور المعرفة وعرضها .

وهناك كتب كثيرة تتفق فى مادتها العلمية وتجد لكل كتاب طبعاً يتميز به ، هذا الطبع هو لغة عقل كاتبه قبل أن يكون لغة لسانه وقلمه ، وأعنى منازعه فى تقليب حقائق المعرفة المعلومة وبعث صورها وتجليته فقهه لها وغير ذلك مما لو تأملته اهتديت إلى وصفه .

حرص عبد القاهر على أن يظل علم النحو قائماً على ما أقامه عليه الأئمة بحدوده ورسومه ، ثم اقتبس من هذا النحو قبسات أضاء بها جانباً آخر من جوانب اللغة من حيث هى تراكيب دالة على خافيات المعانى .

وهذا هو موقفه الثانى الذى يختلف تماماً عن موقفه الأول ، لأنه هناك نظر فى التراث النحوى فوجده حافلاً محيطاً باللغة كما بينا فاكتمنى بالتحليل والشرح والترجيح . ثم نظر فى التراث البلاغى الذى بين يديه فوجده إشارات ، وكلمات مبهمّة تنطوى على معارف كأنها الأجنة فى بطون الألفاظ فأملى عليه ذلك موقفاً عقلياً مختلفاً تماماً عن موقفه من النحو ، واسمعه وهو يصف لك تجربته فى أولى خطواته على هذا الدرب ، وكيف كان يقف ملتاعاً يتلده من الحيرة وهو مستغرق فى تأمل ما بين يديه من كلام الأئمة ليستخرج منه حقيقة يطمئن إليها عقله وكيف كان يكابد فى ذلك .

يقول : « ولم أزل منذ خدمتُ العلم أنظر فيما قاله العلماء فى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفى بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد منها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة فى خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبىء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيُخرج ، وكما يُفتح لك الطريق لتسلكه وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها » .

وهذا النص يصف لنا طريقة عبد القاهر منذ حدوثه وكيف كان يفكر وكيف كان يقرأ .

تأمل قوله : « منذ خدمتُ العلم .. انظر .. بيان المغزى ... تفسير المراد .. » تجد هذا الطالب كلفاً باستخراج حقائق المعرفة من مغارزها وتجليه أوصافها وحدودها .

تأمل النص مرة ثانية ؛ تجد فيه ضروباً ثلاثة من المعارف البلاغية كانت هى تراثه الذى يعمل فيه ؛ ضرب سكت عنه ودلّ عليه بكلمة « بعض » فى قوله : « فأجد بعض ذلك » وهذه الكلمة تفيد أن غير هذا البعض ليس داخلاً فى الوصف اللاحق وهو الرمز والإيماء والإشارة فى خفاء ، وغير داخل أيضاً فى البعض الذى وصفه بأنه كالتنبيه على مكان الخبىء ليطلب .

وأحسب أن هذا القسم الذى سكت عنه واكتفى بالإشارة إليه هو « علم البديع » وبعض مباحث « علم البيان » ، وقد اتسع كلام العلماء قبل عبد القاهر فى التشبيه والاستعارة والكناية وأبواب البديع ، وكان عبد القاهر يُعَوِّل على كلام مَنْ سبقوه فى مباحث بيانية مهمة مثل الفرق بين الاستعارة والتشبيه ، ومثل تحديد الاستعارة وأن المعوِّل عليه فيها نقل اللفظ ، ولم يكن كلام العلماء فى هذا ومثله رمزاً ولا إشارة .

ثم ماذا أراد بهذين الضربين ؟ الضرب الذى هو كالرمز والإشارة فى خفاء . والضرب الذى هو كالتنبيه على مكان الخبىء ليُطلب ؟

أعتقد أن تمييز هذين الضربين ليس أمراً متعذراً وإن كان فى حاجه إلى مزيد من المراجعة ، ويمكن أن ندل الآن على شىء من ذلك ليكون كالتنبيه على غيره .

ويترجح أن يكون من الباب الذى هو كالرمز والإشارة فى خفاء قول سيبويه فى التقديم : « إنهم يُقدِّمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى » .

لأن هذه الكلمة مبهمة ومتسعة ، وقد استل عبد القاهر منها باب التقديم كله سواء فى الاستفهام أو فى النفى أو فى الخبر المثبت . وهذه التراكيب الثلاثة يرجع تقديم ما قُدِّم فيها إلى أنه الأهم لأنه المقصود بالسؤال أو بالنفى ، وسوف نبين ذلك .

كما يترجح أن يكون خلاصة كلام أبى على الفارسى فى « إنما » من باب الإشارة إلى مكان الخبىء ليُطلب ، وذلك لأن الفارسى انتهى عند القول بأن « إنما » متضمنة معنى « ما » و « إلا » .

وقد نظر عبد القاهر فى هذا فوجده منطقياً على إشارة هى أن ثمة فرقاً بين « إنما » و « ما » و « إلا » لأن كون الشىء متضمناً معنى الشىء لا يعنى أنه هو ، ومن هنا بدأ عبد القاهر يتلمس الفرق بين التركيبين وكانت حصيلة هذا البحث هى باب القصر لأن أهم ما فيه هو الفرق بين أدواته .

وهكذا ...

ولو أن عبد القاهر اطلع على تراث أرسطو لذكره فى هذا المقام الذى وصف فيه خيوط المعرفة البلاغية الأولى التى ترامت إليه والتى صاغ منها علمه ، وليس ذكر أرسطو مما كان يتحاشاه علماؤنا وقد ذكره الجاحظ كثيراً فى غير سياق تحليل اللغة والكشف عن أسرارها ، وكان عبد القاهر شديد الحفاوة بالجاحظ .

ثم إن بلاغة اليونان لم تكن رموزاً وإشارات ، وإنما شرح أرسطو مسائلها ، وفصل أبوابها .

وكان عبد القاهر زكى القلب مستنير العقل ، وكان كثيراً ما يفتن إلى الظواهر الأسلوبية التى ترجع فى اللغة إلى طبع الإنسان ، أو كما قال : إلى ما هو « معقول متعارف عليه فى طبقات الناس وأصناف اللغات » كما كان يشير إلى الظواهر التى هى مقتبسة من طبيعة اللغة وطبيعة الجنس الذى تمثل خصائصه ، وهذا موطن يدعو إلى ذكر اليونان وبلاغتهم ، ولم يكن السطو على علوم الآخرين ثم كتمان ذلك كتماناً مريباً من خلق عبد القاهر ، وأقف هنا وقفة قصيرة أخرج بها عن السياق وهى أن الدكتور طه حسين الذى رعى هذا العالم المتميز بهذه البائقة - أعنى السطو على تراث أرسطو ثم كتمان ذلك - هو الذى سقط فى خسيصة السطو سقوطاً بشعاً منكراً فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى كان صورة منكرة لمقالة « مرجليوث » ، وقد فتح الدكتور طه بذلك باباً من أبواب الشر الماحق فى حياتنا الفكرية ثم اتسع هذا الباب ، وقد وصف الأستاذ محمود محمد شاكر باب الشر هذا وصفاً دقيقاً أميناً ، ويحرص بعض الكتّاب على تبرئة ساحة الدكتور طه من هذا السقوط الوخم ، وآخر هذه المحاولات تلك المقالات التى نُشِرت فى جريدة « الأهرام » معتمدة على ما كتبه « مارجليوث » من أن الذى انتهى إليه الدكتور طه فى شأن الشعر الجاهلى لم يكن سطواً على كلامه ، وإنما هى نتائج الدرس الذى انتهى إليه الدكتور طه كما انتهى إليه

« مرجليوث » ، وأغفل أصحابنا دلالة كلام « مرجليوث » وأنه يؤكد به ما ذهب إليه من الطعن الخبيث فى الشعر الجاهلى ، وهذا عنده أهم من أن يقال إن طه أخذ مقالته فى هذا الشعر .

ولسنا نشك فى أن للدكتور طه حسين من الجهود ما لا يجوز دفعه ، وإذا كان من الخطأ أن ننظر إلى الرجل من خلال هذه الكبوات ، فإنه من الخطأ أيضاً أن نسكت عنها فضلاً عن أن ندفع عنها من غير برهان بَيِّن .

ثم أعود إلى بيان خطوات عبد القاهر فأقول : وقف عبد القاهر عند مقالة سَلَفه وجعل ذلك بداية طريقه ، وهذا سديد جداً - وهو كاشف كشفاً مبيناً عن مصادر عبد القاهر - ووجد المعول عليه فى هذا الباب « أن هنا نظاماً وترتيباً وتأليفاً وتركيباً وصياغة وتصويراً ونسجاً وتحبيراً » .

وهذه الألفاظ لا تكشف حقائق ظاهرة ، ولم يكن عبد القاهر يقبل الاكتفاء بما تدل عليه الألفاظ من غوامض المعرفة ، وتحدثه فى النفس من صور لهذه المعارف ينقصها التحديد المفصل ، وكثيراً ما ترضى عقولنا بما ترسله هذه الألفاظ وأمثالها من إبهام ، ونرسلها أحياناً فى دروسنا وكتبنا ، ويرضى طلابنا بضبابها كما رضينا نحن ، وهذا كله ضار لأن تحديد معانى الألفاظ من صميم العمل العلمى . ولعبد القاهر فى هذا السياق كلمة جيدة ذات لغة قوية تؤكد بحسم ضرورة تحديد معانى الألفاظ ، وتجلية حقائق المعرفة ، والبُعد بها عما يلتبس ، ويؤكد أن هذا شىء فى طبع النفس ، وفى سوس العقل ، وبذلك يطرح عن الحياة الأدبية هذا الضباب واللُبس الذى صار فى السنوات الأخيرة سائراً « عصرياً » يتستّر وراءه الفارغون و « المهرشون » .

يقول عبد القاهر : « إن التوق إلى أن تقرر الأمور قرارها ، وتوضع الأشياء مواضعها ، والنزاع إلى بيان ما يشكل ، وحل ما ينعقد ، والكشف عما يخفى وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالخبئة ، واستظهاراً على الشبهة ،

واستبانة للدليل وتبييناً للسبيل شيء في سوس العقل ، وفي طبع النفس إذا كانت نفساً » .

وكانت خطوات عبد القاهر في بيان ما يشكل ، وحل ما يعتقد ، والكشف عما يخفى ، هي تحليل هذه الألفاظ التي عليها المعول « النظم والترتيب والتأليف والتركيب .. » .

وهذه هي الخطوة الأولى التي تلتها خطوات تنكشف كل واحدة منها تلو الأخرى ، وهذه الألفاظ تقع في وصف الكلام على سبيل المجاز لأنه ليس في الكلام نظم حقيقي ، إذ النظم الحقيقي هو نظم الدر في السلك ، وهكذا بقية هذه الألفاظ ، فالصياغة للذهب ، والنسيج للشوب ، والتصوير من الصور المعروفة

ولكى نتبين مراد العلماء بها في وصف الكلام ، لا بد أن نعود بها إلى معانيها التي تجرى عليها في أصل الوضع ، وأن نتفهم المراد بنظم الدر ، وأنه ليس توالي الحبات في السلك ، وإنما هو نظم يراعى فيه حال المنظوم من حيث أحجام المفردات ، وأشكالها ، وأصواتها ، ومواقعها ، وتشكيلاتها ، وتعليقاتها ، وهذه الاعتبارات هي التي بها يكون عقد أفضل من عقد ، مع اتحاد النوع والمقدار .

وهكذا النسيج لا بد أن نعلمه علم من يعلم كل خيط فيه ، وكيف تختلف أنواع هذه الخيوط ، وأوصافها ، ومداخل بعضها في بعض ، وكيف تكون هذه المداخلات على أوضاع مختلفة ، وأحوال متعددة ، وغير ذلك مما يدخل في نسيج الشوب ، ويفضل به ثوب ثوباً ، وتتفاوت فيه مراتب الفضل ، والأمر كذلك في التصوير ، والنقش ، والصوغ ... إلى آخر هذه الألفاظ التي عليها المعول .

وهذه هي الخطوة الأولى ..

والخطوة الثانية العودة إلى الكلام الذي نقل أهل العلم إليه هذه الألفاظ ، ولا بد أن يكون في الكلام شيء يشبه نظم الدر ، وصياغة الذهب ، ونسيج الشوب ،

وتصوير الصور ، والكلام ألفاظ تتوالى ، ولا بد أن يكون وراء تتابعها هذا نظام ، كما أنه لا بد أن يكون فى حبات العقد نظام ، والذى يتكلم بالآفاظ لا نظام لها يكون كالذى يعد الحصى يتبع الواحدة الأخرى لا على وجه من وجوه القصد ، كالذى يُجرى ألفاظ اللّغة فى النطق لا على وفق نظام من الفكر ، ولا بد أن يكون فى الكلام شىء يشبه النسج ، وقوامه الروابط الدقيقة التى بين الخيوط ، ومثلها الروابط الدقيقة التى بين الألفاظ ، ولا بد أن تكون هذه الروابط بين الألفاظ قابلة للتنوع والتعدد ، كما هو الحال بين الروابط القائمة بين الخيوط ، ولا بد أن يكون وراء التنوع فى الروابط تفاوت فى المزية ، ودرجات الفضل ، وهكذا وضع عبد القاهر يده على الأمر المهم وهو أن قوام الكلام هو الروابط ، والنظام ، وأن ذلك يتعدد تعدداً واسعاً ، ويتباين ، ويتكاثر ، وهذه حصيلة جيدة ، لأنها رأس الأمر فى كتاب « دلّائل الإعجاز » .

ثم وقف عبد القاهر بعد ذلك يراجع ويتأمل ، ويرى أنه لا يجوز لنا أن نكتفى فى تحليل بلاغة الكلام بمثل قولنا : كلام جيد النظم ، دقيق الصوغ ، رقيق النسج ، لأن ذلك كقولنا : هذا دُرٌّ جيد النظم ، وخاتم دقيق الصوغ ، وثوب رقيق النسج ، وهذا الكلام لا يُعد علماً يُلفت إليه فى نظم الدر ، وصياغة الذهب ، وتحبير الثياب ، كذلك قولنا : جيد النظم ، دقيق الصوغ ، لا يُعد علماً يُلفت إليه فى نقد الكلام .

وهذا الموقف الذى يتنقل فيه فكر عبد القاهر بين أحوال نظم الدر ، ونسج الثوب ، وصوغ الذهب من جهة ، وأحوال نظم الكلام ، ونسجه ، وصوغه ، من جهة أخرى ، كان موقفاً بالغ الأهمية ، والخصوبة ، لأنه هدى إلى معرفة الخصوصيات التى قامت دراسته بعد ذلك على مسائلها وأبوابها ، وكانت هذه الأحوال ، والخصوصيات ، من أهم ما يتوق عبد القاهر إلى معرفته ، بل ويتحرق فى طلبه ، ولم يكن هذا مدروساً فى كلام من سبقوه ، وإنما هى إشارات

كما ترى فى الكلمات التى عليها المعول ، وبقي عبد القاهر واقفاً عند هذه الكلمات يضرب بعقله فى أبهامها لعله يُضىء الطريق إلى الخبىء فى مضمورها .

يقول عبد القاهر :

« ولا يكفى أن تقولوا : إنه خصوصية فى كيفية النظم ، وطريقة مخصوصة فى نسق الكلام بعضها على بعض ، حتى تصفوا تلك الخصوصية ، وتبينوها ، وتذكروا لها أمثلة ، وتقولوا : مثل كيت وكيت ، كما يذكر لك مَنْ تستوصفه عمل الديباج المنقش ، ما تعلم به وجه دقة الصنعة ، أو عمله بين يديك حتى ترى عياناً كيف تذهب تلك الخيوط وتحجى ؟ وماذا يذهب منها طولاً ، وماذا يذهب منها عرضاً ، وبِمَ يبدأ ؟ وبِمَ يُثنى ؟ وبِمَ يُثَلَّث ؟ وتبصر من الحساب الدقيق ، ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم معه مكان الحدق ، وموضع الأستاذية » .

الحقيقة التى يسعى عبد القاهر نحوها ويطرق على بابها هى كشف الأوضاع التركيبية التى تتنوع وتختلف بتنوعها درجات الكلام فى الفضل .

وتأمل قوله : « حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها وتذكروا لها أمثلة » تراه واقفاً على باب علم مغيب مسدولة حوله الأستار وهو بهذا الإلحاح ينبّه إلى هذا الخبىء المغيب ، ووصف الخصوصيات وبيانها وضرب الأمثلة لها هو خلاصة ما فى « دلائل الإعجاز » وما سُمى بعد عبد القاهر بـ « علم المعانى » .

وأجدنى وأنا أمتهد الطريق إلى معرفة مصادر عبد القاهر مرتبطاً بهذه النقطة المهمة لأنها وقفة كشفت عن وجه علم جليل ليس فى علوم اللغات مثله ، كما يقول شيخنا الأستاذ محمود محمد شاكر . ثم هى إستخراج من اللغة ومن كلام السلف وهذا مذهب ، ونقل علوم الآخرين مذهب آخر ، والمذهبان لا يلتسان عند أهل هذا الشأن .

قلت : إن مباحث علم المعانى تكاد تسمع غمغماتها من تحت هذه الكلمات :
 « خصوصية فى النظم وطريقة مخصوصة فى نسق الكلم بعضها على بعض »
 وهذه الكلمات لم يكن هو الذى استخرجها لأنها كانت دائرة قبله ، تأمل قوله :
 « ولا يكفى أن تقولوا ... » إلى آخره . نجد كلامه صريحاً فى أنها كانت
 شائعة إلا أن عبد القاهر وقف عليها يقدحها وينبّه إلى إبهامها وإلى ما وراء هذا
 الإبهام من مجال فسيح يحتاج إلى تفسير ووصف وبيان وضرب أمثلة .

وكان عمل عبد القاهر فى تحليل الكلمات التى عليها المعول . وفى إلحاحه
 على ضرورة تفسير العبارات وإزالة إبهامها مثل « خصوصية فى كيفية النظم ،
 وطريقة مخصوصة فى نسج الكلام » ... إلى آخره . أقول : كان عمله هذا
 مقدمة لكلام جليل حدّد فيه المراد بالنظم تحديداً علمياً محكماً .

وقد اختار عبد القاهر كلمة « النظم » من بين الكلمات التى عليها المعول
 - أعنى النظم والترتيب والتأليف والتركيب والصياغة والتصوير - ،
 ولا أعرف مزية ظاهرة لهذا اللفظ « النظم » تجعله أولى من بقية الألفاظ ،
 وربما كان لفظ « الصياغة » أكثر ثراء فى الدلالة على تنوع الروابط ودقتها
 وأثرها ، والذى أغرى عبد القاهر بلفظ « النظم » هو شيوخه وكثرة تداوله عند
 من سبقوه ، فقد جعله الجاحظ الأصل الذى احتج له فى كتابه « الاحتجاج لنظم
 القرآن » . كما ذكره القاضى عبد الجبار وغيره .

ويظهر من كلام عبد القاهر الذى قدّم به لتعريف « النظم » أنه كان مصطلحاً
 غالباً فى زمانه ، وأنه يتعلق به التحليل والتذوق والحكم فى الأدب ، ولا شأن
 لما يتضمنه الشعر من حكمة وأدب ، وإنما الشأن كله لهذا النظم .

ولما رأى عبد القاهر هذه الحفاوة بهذا المصطلح كلف بطول ملاحظته والتفكير
 فيه وتحليل معناه ، تأمل هذه التقلبات الغريبة التى كان يُقلب هذا المصطلح
 عليها ليتقع منها على الوجه المقصود ، تأمل ما قاله فى الفرق بين قولنا : حروف

منظومة ، وكلم منظومة ، وكيف كان يحتفل لبيان هذا الأمر البين وهو أن نظم الكلمات وراءه أمر عقلى يقتضى ترتيب هذه الكلمات فى النطق ، وليس نظم الحروف فى الكلمة قائماً على أمر عقلى ، فلو أن واضع اللغة وضع « رضى » مكان « ضرب » لاستقام له ما أراد ، ثم يستشعر المزيد من الرغبة فى بيان هذا الأمر البين ، فيفترض أننا لو خلعنا من ألفاظ اللغة دلالاتها وأبقيناها أصواتاً فارغة لما كان هناك ما يقتضى لها ترتيباً خاصاً .

وهذا فى تقديرنا ليس من فضول الفكر ، وإنما هو وقفة جهيرة عند النظم الذى عظم العلماء شأنه وفخموا أمره ، وتقليب هذا المصطلح على كل وجوهه حتى نقع على الوجه الذى أراداه العلماء حين وضعوه بهذه المثابة .

وأعتقد أن وقفة عبد القاهر عند النظم وبيان مبهمه وتفصيل مجمله وعد مسائله كان فتحاً باهراً فى تاريخ هذا العلم لأنه أساس علم عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ، إذ هو المعنى الكلى الجامع لما عُرِفَ بعد أبواب « علم المعانى » الثمانية ، تلك الأبواب الجليلة فى فقه هذا اللسان الشريف ، وأحسب أن اللحظة التى انفتحت فيها لعبد القاهر تعريف النظم كانت اللحظة التى انفتحت فيها باب علمه الذى صار به فى الناس إماماً ، وكانت حفاوة عبد القاهر بكلام سلفه هى القبس الذى أضاء له طريق علم جديد ، لا يزال فى علوم العربية متفرداً ، وكان عبد القاهر حريصاً على بيان ذلك .

تأمل قوله بعدما وصف عناية العلماء بأمر النظم ، وبشهم الحكم بأنه الذى لا تمام دونه ، ولا قوام إلا به . إلى آخر ما وصف بلغة حاسمة بيّنة قال : « وما كان بهذه المثابة كان حرى بأن توقظ له الهمم ، وتوكل به النفوس ، وتحرك له الأفكار ، وتستخدم فيه الخواطر » .

وهذا الذى ذكره من إيقاظ الهممة وانصبابها نحو الشيء ، وجمع الفكر فيه ، وحبس الخواطر عليه ، هو سبيل إزالة الحُجُب عن ينباع المعرفة الجديدة الباهرة .

وقد كتب عبد القاهر بعد هذا عدة صفحات ، كانت تحت مغارس ألفاظه فيها
فصول ضافيات فى دقائق فروق الصياغة .

تأمل لغته فى تحديد معنى النظم تجدها دالة على جهد شاق يتحرى وجه
الصواب فى إزالة إبهام هذا المصطلح .

يقول : « إننا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل
باب وفروقه ، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولنا : زيد منطلق ،
وزيد ينطلق ، وينطلق زيد . ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد
هو المنطلق ، وزيد هو منطلق ، وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها فى
قولك : إن تخرج أخرج » ... إلى آخره . وقد ذكر هذا بعد الوقفة الطويلة العميقة
الساطعة التى أشرنا إليها ورأيناه فيها رجع إلى المعنى الحقيقى لكلمة النظم ،
وأنها نظم حبات الدر ، وأنه لا يكون نظم كيفما اتفق ، وإنما فيه اختبار
ومراجعة ، وأنه لا بد أن يكون الأمر كذلك فى نظم الكلام ، وأنه يستحيل
أن يكون المراد ضم لفظة إلى لفظة ، من غير نظر إلى ترتيب المعانى ... إلى
آخر ما قال مما تراه فيه يطرح مفاهيم خاطئة ، ومتعجلة لمعنى النظم ، ثم يقف
ليقول : « إننا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم .. » فيدل على المعنى الصحيح لهذا
المصطلح بعبارة لا يقولها عالم إلا بعد تفتيش ومكابدة ، وليست هذه عبارة من
ينقل معارفه عن مصادر ، وإنما هى عبارة من يستخرج حقائقه من ينبوعه ، بعد
ما أدمى أظافره فى البحث عنه ، قلت : إن هذه الصفحات غرس عبد القاهر
تحت كل نقطة فيها باباً من أبواب المعرفة ، وعُد إلى النص الذى اقبتسناه فى
فروق الخبر ، واذكر أن كتاب « دلائل الإعجاز » بُنى على بيان الفروق ...
الفرق بين تقديم اللفظ وتأخيرها ، الفرق بين ذكره وحذفه ، الفرق بين تعريفه
وتنكيره ، الفرق بين مجيء الواو وتركها ... وهكذا .

والذى ذكره عبد القاهر هنا فى فروق : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ... إلى آخره ، كلام مجمل عاد إليه بالتفصيل شارحاً دقائق المعانى الفارقة بين صيغة وصيغة ، مؤكداً حقيقة مهمة هى أن هذه التراكيب على كثرتها وإتساعها وإن اتفقت فى الدلالة على معنى عام ، هو : إنطلاق زيد ، إلا أنه ليس فيها صيغتان تتفقان ، وإنما كل واحدة فيها شىء ليس فى الأخرى .

وقد دار كلام العلماء بعده فى هذه المسائل على كلامه مع شىء من التصنيف والتحديد ، وهكذا القول فى الشرط والحال ، والجمل التى تُسرد بعاطف ، أو بغير عاطف ، والتصرف فى التعريف ، والتذكير ، والتكرار ، والإضمار ... إلى آخر ما أجمل فى تلك الصفحات المشرقات .

قلت : إن هذا البحث مدخل إلى دراسة مصادر عبد القاهر ، وترى أننا ندل على رجوعه إلى تراث سلفه ، ثم إعمال عقله فى هذا التراث ، ودوام قدحه وطرقه ، وهذه الطريقة هى التى كشفت له ملامح الطريق الذى سار فيه ، وهذا شىء والاقتباس من مصادر الآخرين وصياغة معارفهم شىء آخر ، والأمران مختلفان جداً . فرق كبير بين ما تراه تحت السطور من جهد مبذول فى استخراج المعرفة ، وجهد مبذول فى تحصيل المعرفة .

ولا أجد فى الأغاليط الجارية فى حياتنا الفكرية أغلوطة عارية شوهاء كتلك التى ترمى هذا الإمام الجليل المنقطع المبدع بأنه تلميذ لليونان . وشيوعها يعنى فقد الإحساس بطبع العقل المبدع ، وهذه بلوى .

وواضح أن الفروق التى كشفت جوهرها معاناته فى تحديد معنى النظم والتى هى قاعدة هذا الكتاب أمر مقتبس من جوهر العربية ومستمد من أصلها لأنه نظر فى صياغاتها وتحديد الفروق بين الصيغ .

وبقى فى هذا البحث أن أشير إلى طريقة بحث مصادره فى المسائل التى لم يبق فى كتابه بعد تحديد معنى النظم إلا هى ، وأعنى بها مباحث التقديم والحذف والقصر ... إلى آخره .

وهذه المباحث هى التى قصد إليها بقوله : « وأعلم أن ههنا أسراراً ودقائق لا يمكن بيانها إلا بعد أن نقدّم جملة من القول فى النظم وفى تفسيره والمراد منه » (١) .

وإنما كان تفسير النظم أمراً لازماً قبل الحديث فى هذه الأبواب ، لأنه منها بمثابة الأمر الكلى الجامع لها ، وهى منه بمثابة الأبواب الشارحة لهذا المعنى الكلى .

وقد ذكرتُ فى دراستى لقصيدة « القوس العذراء » أن عبد القاهر بنى بحث التقديم على عبارة من عبارات سيبويه لا تتجاوز سطرأ واحداً ، وأريد الآن أن أفصل هنا ما أجملته هناك .

ويرى قارىء « دلائل الإعجاز » أن عبد القاهر غالباً ما يُجمل فى أول الباب الذى يكتبه خلاصة ما قاله أهل العلم ، ثم يبين ببراعة ونفاذ وسعة علم أن هذا الباب فى متصرفات العربية شعراً ونثراً أوسع وأغزر من هذه المقالة المختصرة . ثم يبدأ فى استخراج حقائق جديدة ، وهذا مسلكه فى الأبواب كلها ، وهو مسلك من يؤسس معرفة ، وليس مسلك من يشرح كلام غيره ، ثم هو مسلك من يحرك تراثه من داخله ، ويدفع المعرفة خطوة جديدة على دربها ، وليس مسلك من يقتبس من تراث الآخرين ، ويلصقه بتراثه ، أو يداخله فيه ، ويزعم أنه عالم أو مجدد . هذا كذب أبقاء ضعف الحاسة الناقدة عند جمهور الدارسين .

وهكذا مضى فى باب التقديم ، أشار إلى سعة هذا الطريق وغزارته ، وأنه لا يزال « يفتر لك عن بدیعة ويفضى بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً

(١) دلائل الإعجاز ص ٨ .

يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء ، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان .

وهذه الإشارات الدالة على أهمية الطريقة من طرائق مبانى العربية اعتاد أن يذكرها فى مقدمات الأبواب ، كقوله فى الفصل والوصل : إنه من أسرار البلاغة « وما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلص ، والأقوام طُبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة فى ذوق الكلام هم به أفراد » ، تأمل هذا الكلام وأحكم فهمه .

وقوله فى باب الحذف : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المآخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين » ... وهكذا ، وكل ذلك يدل دلالة ظاهرة على أن عبد القاهر كان ينظر فى الشعر كما كان ينظر فى كلام العلماء ، بل إنه كان يتدبر الشعر وتراكيب الكلام أكثر مما كان يتدبر كلام العلماء ، وكان يجمع شواهد كثيرة ويدرسها ، ويتأمل دلالاتها ، حتى تعظم عنده وتكثر فى عينيه . ثم يكتب هذه المقدمات وهى بين يديه ، وراجع هذه الإشارات الجامعة تدلك دلالة ظاهرة على أن طريق الرجل هو تفقد الشعر ، ثم تفقد النمط من أنماط التراكيب ، فى صبغ شعرية متعددة ، وكان هذا مما يجعل الباب غزيراً بين يديه . وحاول أن تسلك هذا الطريق فى دراستك البلاغية لأنه كما ترى طريق العلماء .

وهكذا مضى فى التقديم وجمع قدراً من صيغه ، وأعمل فيها النظر ، فاستخرج منها دقائق معان ، وكشف اللثام عن لطائف ، وتأمل قوله : « ولا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويُفضى بك إلى لطيفة ، وقد اعتدنا ألا نقف عند مثل هذا مع أن فيه إشارة إلى أنه لم يقع على دلالات التقديم فى الشواهد التى يتأملها وهو يكتب إلا بعد مراجعة ، دلّ على ذلك قوله : « يفتر » أى ينكشف بعد

غطاء ، ويسفر بعد احتجاب ، وقوله : « يفضى بك إلى لطيفة » ، أى أنه لا يقع على اللطيفة من أول النظر ، وإنما يفضى به أى يسير فى الطريق ويقطعه ثم ينتهى إلى اللطيفة .

وهكذا تأمل بقية عباراته لتنتهى إلى حقيقة واحدة وهى أن الشيخ رحمه الله كان يفرغ وقته وجهده فى تحليل تراكيب الكلام ، وأنه كان يتأمل ذلك طويلاً ، وأن هذا التأمل كان ينتهى به إلى تكاثر صورها ، ومعانيها ، وطرائقها ، وهذا كله هو الذى يدعوه إلى القول بأنه باب متسع وأن محاسنه لا تُحصى ، وحسبك فى هذا أن تدرس التقديم فى قصيدة فتجمع صورة ثم تصنفها ثم تبحث أسرارها .

نظر عبد القاهر فى باب التقديم الذى هو جَمُ الفوائد ، كثير المحاسن ، فوجد ما قالوا لم يزد عن قول سيبويه : « إنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى » هذا هو الغرس الأول لهذا الباب ، ثم إن النُحاة بعد سيبويه أضافوا إلى هذه الفكرة إضافة محدودة لم تزد على ذكر مثال بوضوحها ، لأن سيبويه أطلقها هكذا خرساء من غير أن ينطقها بمثال ، وما زاد ورثة علم سيبويه من شيوخ النحور على أن قالوا : إن عناية الناس قد تتعلق بوقوع فعل معين على مفعول معين ، من غير أن تتعلق عنايتهم بالذى وقع منه الفعل ، وفى هذه الحالة يبنى الكلام على تقديم المفعول ، فيقال : قتل الخارجى فلان .

وقد عَقَّب عبد القاهر على هذا بقوله : « وهذا جيد بالغ » فأغرى طُلاب العلم به ، ثم أشار إلى أن المسألة بعد ذلك تبقى منظوبة على تفاصيل دقيقة ، لأننا يجب أن نبين وجه العناية فى كل كلام قُدِّم فيه لفظ ، وهذا يفتح باباً متسعاً ، لأن الجواب يتطلب الوعى الدقيق بالسياق الذى اقتضى تقديم هذا اللفظ ، وجعله موضع عناية واهتمام ، وليس هذا بالأمر الهين ، ثم إننا وإن كنا أمام قاعدة عامة إلا أن ميدانها الذى تُدرس فيه هو تحليل الشعر والأدب وهى قاعدة خرساء - كما قلت - ما لم تندس فى هذا الميدان ، ثم إن كل شاهد يُعد قضية مفردة لا سبيل فى تحليله إلى القول المجمل ، وإنما يُنظر إلى خصوصياته

الخاصة ، وتُستخرج دلالة التقديم فيه ، وهى مرتبطة بذلك ، وهذا لو أحكمناه يصير به كل نص من النصوص مقتضياً دراسة تبحر مواقع الكلمات فيه ، ولماذا تنزلت كل لفظة فى منزلها الذى تنزلت فيه ؟ وإلى أى مدى أصابت ، وتمكنت ، وتلاقت ، وتناسقت مع صواباتها ، وحين يكون ذلك مرتبطاً بترتيب المعانى فى النفس ، ومتنزلاً فى اللفظ على منازلها هناك تجد الأمر يدخل بنا فى صميم بحث المعانى وترتيبها ، وبناء ثانٍ منها على أول ، وثالث ورابع ... وهكذا ، وبذلك ينغل هذا البحث فى صميم البنية الأدبية قصيدة أو رسالة ، نعم إننا ونحن نبحت هذا الأسلوب فى الشعر والنثر لا نتوقع أننا سنجد حكمة بيانية وراء كل لفظة قُدِّمت ، وإنما سنجد هذا الحكمة وراء بعض الكلمات التى تقدمت لتومئ بتقديمها إلى أن مدلولها له علاقة بنفس القائل ، أو علاقة بالمعنى الذى تقدمه ، وأن الكلمات لتتنادى تنادياً خفياً ، تدعو به السابقة اللاحقة ، فإذا أجابتها وتهادت فى موقعها ، تناسق الكلام ، وتوأم ، وتأنس ، وإذا وقعت غيرها فى موقعها لم تتمكن ولم تتألف ، وإنما تبقى غريبة ، منفردة ، تقول : يخوض بحراً ماؤه نقعه ، فتجد كلمة « ماؤه » تأنس بكلمة « بحر » ، ولو قلت : « نقعه ماؤه » لنبا الكلام ، وهكذا تقول : « رأيت أسوداً غابها الرماح » فتتلاقى كلمة الأسود مع كلمة الغاب ، ولو قلت : رماحها الغاب ، لاختل النسق . وهذا من تنبيهات العلامة سعد الدين فى « المطول » . وهو من الكلام النفيس يكشف عن تناغى الكلمات وتهامسها وكيف تكون هذه أمساً رحماً بتلك .

ثم إن بحث التقديم لا ينبغى أن يقف عند حدود الكلمات فى الجملة ، وإنما يجب أن يتناول ترتيب الجمل فى الفقر ، ثم ترتيب الفقر فى النسق ، وهكذا تجد باباً جليلاً فى بحث ترتيب المعانى ، وتناميها ، وبيان مواقعها ، وكيف تتفق ؟ وكيف تختلف ؟ وبيان ذلك فى سورة ، أو قصيدة ، أو رسالة ، محتاج إلى أناة ، ودقة ، ولطف نظر ، ووفرة طبع .

ويجب أن يكون ذلك جزءاً من منهج الدراسة البلاغية ، وبذلك نكون حققنا ما أشار إليه الشيخ ، وقد ذكرتُ أن ذلك كله أوماً إليه عبد القاهر فى قوله :
« إنه ينبغي أن يُعرف فى كل شيء قُدُم فى موضع من الكلام ، مثل هذا المعنى ، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير » .

وأعتقد أن الباب الأوسع فى الدراسة البلاغية لا يزال مغلقاً ، أعنى به التنوع والافتنان الذى ليس له غاية ، والذى تقع عليه الفنون البلاغية فى الشعر والنثر ، تأمل بحث الاستعارة فى كتب البلاغيين ، تجده مع تنوعه ، وسعته ، محدوداً ، ثم تأمل رحابة درس الاستعارة حين تتناوله فى الشعر والنثر ، وهب أنك تريد استعارات المتنبي مثلاً ، أى مادة تراها بين يديك ؟ وأى تنوع ؟ وأى إفتنان ؟ والمهم أن تُحكم خطة البحث ، لأن البحوث التى من هذا النوع تعتبر أحكام الخطة فيها أصلاً لصلاحها ، تأمل مثلاً مجالات المعانى التى كثرت فيها صور الاستعارة عنده ، مثل المرأة ، وأوصافها ، والمشاعر المتعلقة بها ، والشوق والنحول ، وكثرة الأسفار ، وقلق الرواحل ، وغير ذلك من المعانى التى تتردد فى شعره ، ثم سجّل صور الاستعارة فى هذه الأبواب ، ثم ادرس هذه الصور ، وكيف تنوعت ، واختلفت ، وحدّد الفروق التى بينها تحديداً دقيقاً ، والتمس فى سياق القصيدة المناسبة بين هذه الصورة ، وبين هذا السياق ، وهكذا تجد البحث يتسع ، ويغمض ، بل ويتأبى أحياناً إلا على رَيّض مرتاض .

وقد نبّه عبد القاهر إلى هذا ، وإلى ما هو أوسع منه ، ولو قرأت أسرار البلاغة بإمعان لوجدت عبد القاهر يطرح صوراً كثيرة ، وخططاً متنوعة ، لأمثال هذه الدراسات .

وكثيراً ما ترى فى كتابات عبد القاهر إشارات إلى مباحث بدأ الكلام فيها ، ثم بقيت على الذى تركها عنده .

من ذلك بدايته الباهرة لبحث طرائق تكوينات الجُمْل ، وكيف تتداخل جُمْلَة من الجُمْل في بنية جُمْلَة واحدة ؟ وهذا باب متنوع وجيد ، ثم كيف تترتب المعانى في هذا الضرب من الكلام الذى سماه الباب العالى والنمط الأعظم ، والذى لا ترى سلطان المِزِيَة يعظم فى شيء كعظمه فيه ، وراجع هذا الباب ، وأحكم النظر فيه ، واستخرج غط التركيب ، وطريقة السبك ، والرصف ، واعلم أن الشرط ، والتشبيه المركَّب ، والتقسيم ، والمزاوجة ، ليست إلا أمثلة فحسب فى فقه طريقة من طرائق البيان لم تُعَبَّد أقلام الكاتبين بعد عبد القاهر جهاتها ، وصورها ، وتفصيلاتها .

وكنْتُ أُنَبِّهُ طُلَّابَ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَا أَقْرَأُ مَعَهُمُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ وَالشَّعْرَ إِلَى النَّظَرِ فِي طَرَائِقِ تَكْوِينَاتِ الْجُمْل ، والتعرف على الجُمْل التى طالت ، وكيف تلاهقت فيها اللواحق ، وتداخلت فيها الفروع .

وَإِذَا وَضَعْتَ بَيْنَ يَدَيْكَ صَفْحَةً مِنْ كَلَامِ الرَّافِعِيِّ وَصَفْحَةً مِنْ كَلَامِ الْمَنْفَلُوطِيِّ ، وَأَخَذْتَ تُرَدِّدُ النَّظَرَ فِيهَا مُحَاوِلًا التَّعَرُّفَ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَدْبِيَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَحَدَّهَا ، رَأَيْتَ فَرْقًا يَبْدُو ظَاهِرًا ، وَإِنْ كَانَ وَصَفَ هَذَا الْفَرْقُ وَصْفًا دَقِيقًا يَحْتَاجُ إِلَى مَرَاجَعَةٍ ، وَأَنَاةٍ ، وَقِطْنَةٍ ، وَشِدَّةِ تَنْبِهِ ، وَهَكَذَا إِذَا وَضَعْتَ صَفْحَةً لِأَبِي الْعَلَاءِ ، وَأُخْرَى لِلْجَاحِظِ ، أَوْ الْخَوَارِزْمِيِّ ، وَأَخَذْتَ تَنْقُلُ النَّظَرَ بَيْنَ طَرِيقَةِ الْبِنَاءِ فِي الْكَلَامَيْنِ ، وَجَدْتَ مَا يَفْرِيكَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْمَرَاجَعَةِ ، وَالِاسْتِخْرَاجِ ، وَهَذَا بَابٌ يَتَسَّعُ وَتَعْظُمُ فَوَائِدُهُ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمَعْوَلُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَدَبِ الْأَدِيبِ لِأَنَّ النَّظَرَ فِيهِ نَظَرٌ فِي صِلْبِ صَنْعَةِ الْأَدَبِ .

وَأَدْلَكَ أَيْضًا عَلَى قَوْلِ عَبْدِ الْقَاهِرِ فِي أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ وَأَنْ غَرَضُهُ مِنْ كِتَابِهِ هُوَ « أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى أَمْرِ الْمَعَانِي كَيْفَ تَخْتَلِفُ ؟ وَتَتَّفَقُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تَجْتَمِعُ ؟ وَتَفْتَرِقُ ؟ وَأَفْضَلُ أَجْنَاسِهَا ، وَأَنْوَاعِهَا ، وَأَتَّبِعُ خَاصَهَا ، وَمَشَاعِهَا ، وَأَبَيِّنُ أَحْوَالَهَا فِي كَرَمِ مَنْصِبِهَا مِنَ الْعَقْلِ ، أَوْ قَمَكْنِهَا فِي نِصَابِهِ ، وَقَرَبِ رَحْمَتِهَا مِنْهُ ،

أو بعدها حين تنسب عنه » ... إلى آخر ما قال ، ثم عليك أن تدلنى على موضع هذه المسألة فى دراستنا البلاغية . أين الباب الذى ندرس فيه المعانى ، ونحللها ، ونعرف ما بينها من اتفاق ، واختلاف ، ونفصل فيه أجناس المعانى ، وأنواعها ، وندرس فيه خاصها ، ومشاعها .

وكثيراً ما تحثنى رغبة فى أن أفرد بالدراسة مباحث عبد القاهر التى لم يشرحها البلاغيون المتأخرون الذين كان يعنيه أن يستخرجوا من تراثه - رضى الله عنه - ما يتصل ببابى علم المعانى والبيان ، وتركوا بقية تراثه ، ولا يزال جائماً فى مهاجعه ، يطوف القائلون فى النقد فى زماننا ببعضه ، وهم عجلون وحسبهم أن ينثروا عليه ورودوا من الشناء ، أو أشواكاً من الهجاء ، كل حسب ما فى وطابه .

أشرتُ إلى أن مصدر بحث التقديم عند عبد القاهر كلمة سبويه التى ذكرناها ، وكانت من الكلمات التى لها فضل تعلق بنفس عبد القاهر ، لأنه ذكرها فى غير سياق التقديم أيضاً ، وهو يتكلم فى الصياغات المحكمة التى سبق إليها أصحابها ، ولا تجد فى الدلالة على معناها ، أوفى منها ، وقد اقتنصتها عقولهم المكابدة فى البحث عن الحقائق فى أوليات نشأة العلوم ، وأحكمت الإبانة عنها ، فتداولها العلماء بلفظها .

وأول ما استخرجه عبد القاهر من هذه الكلمة هو تعميمها على كل تقديم ، أى القول بأن كل تقديم لا بد أن يكون لفائدة ، وما دام قد ثبت أن التقديم فى بعض صورهِ مفيد فلا بد أن يكون كذلك أبداً ، لأنه من الخطأ أن يقال إنه يكون مفيداً فى بعض مواقعه ، ويكون توسعة على الشاعر ، والكاتب ، فى بعضها ، ثم عمّم عبد القاهر هذه القاعدة على كل معانى النحو ، أعنى التعريف ، والتذكير ، والحذف ... إلى آخره ، وهذه المعانى وهى أحوال اللفظ أفراداً وتركيباً ترتبط بها دلالات ، وهذا أمر قاطع عند الشيخ ، ثم إن هذه

الدلالات المرتبطة لا محالة بهذه الأحوال منها ما يكون موضع مزية ، ومنها ما لا يكون ، فإذا راقك التنكير فى موضع فلا يجب أن يكون كذلك فى كل موضع ، نعم هو مفيد فى كل موضع ، وفرق بين الفائدة وبين تعلق المزية ، يعنى أن تكون هذه الفائدة ذات مزية تشارك فى تحديد طبقة الكلام .

الخطوة الثانية التى خطاها عبد القاهر فى تفصيل كلمة سبويه هى بيان العناية واهتمام فى صور التقديم ، مع أنماط الكلام الثلاثة المشهورة ، يعنى الاستفهام ، والنفى ، والخبر المثبت ، وقد اهتم بالاستفهام وذكره أولاً لأنه أظهر الصور فى الدلالة على الفرق بين تقديم اللفظ وتأخير ، وأظهر ما يكون ذلك فى الاستفهام بالهمزة ، والهمزة يُسأل بها عن كل جزء من أجزاء الجملة ، « فعلاً وفاعلاً ومفعولاً وحالاً وتمييزاً ... » إلى آخره ، ولذلك كان المقصود بها هو ما يليها لإزالة اللبس .

وقد حلل عبد القاهر ترتيب الكلمات فى جملة الاستفهام تحليلاً دقيقاً ، لم أقرأه فى تراث العربية قبله ، وكان مصدره فى ذلك هو جمع ضروب مختلفات من صور الاستفهام ، ثم دراستها ، واستخراج ما بينها من فروق ، فهو مثلاً يريد أن يؤكد لك أن الهمزة إذا دخلت على الفاعل كان المقصود بها ، فبدلك على قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (١) ويستخرج من جواب إبراهيم عليه السلام ما يحقق القول بأن المستؤل عنه بالهمزة هو ما يليها ، وذلك أن جواب إبراهيم عليه السلام كان تحديداً لفاعل الفعل ، وهذا يعنى أنه فهم أن السؤال عن فاعل الفعل ، وهو ما ولى الهمزة ، ولو فهم إبراهيم عليه السلام أن السؤال عن الفعل لكان له جواب آخر ، وهكذا تكون تراعى المعانى فى قلوب المخاطبين وجهاً ومن وجوه تحليل نظام اللغة ، وكان عبد القاهر يعالج هذه التراكيب ، وبين يديه وفرة من شواهد

(١) الأنبياء : ٦٢ - ٦٣

الشعر ، والكلام المختار ، وكما رأيناه يعتبر فى استخراج القاعدة ما وقع فى فهم المخاطب ، تراه كذلك يعتمد الصور المهملة التى لم يجر بها اللسان لمخالفة القاعدة ، فإذا كان المسئول عنه بالهمزة هو ما يليها فلا بد من أن تخلو العبارة مما يدل على علم المتكلم بما دخلت عليه الهمزة ، وإلا كان ذلك تدافعاً وتناقضاً ، فليس من كلامهم أن نقول : أقلت هذا الشعر ؟ أكتبت هذا البحث ؟ لأن الإشارة هنا دالة على وقوع الفعل ، والسؤال عنه دال على أنه موضع الشك ، وهذا باطل ، والوجه أن تقول : أنت قلت هذا الشعر ؟ أنت كتبت هذا البحث ؟

وهكذا أسسَ عبد القاهر التقديم فى النفى على علة إهمال الصيغ المهملة ، فإذا قلت : ما أنا قلتُ ، أفاد توجه النفى إلى المقدم أنه المخصوص به ، وما دام النفى مخصوصاً به ، فلا بد أن يكون قد وقع الفعل من غيره ، ولهذا تقول : ما أنا قلتُ ولكن غيرى ، ولا تقول : ما أنا قلتُ ولا غيرى .

وأريد أن أختم بحثى هذا بتلخيص ما أردته مع زيادة توضيح .

والذى استحکم عندي أن مصادر عبد القاهر لم تتجاوز أمرين :

الأول : قبسات من كلام القدماء ، انتقاها ، وأحس بمضمورها ، ثم اجتهد فى تحليل التفاصيل المنطوية وراء هذه المجملات ، وهذا طريق تتسع به العلوم وتتكاثر حقائقها .

الثانى : وفرة من صيغ كلام أهل الطبع فى المسألة التى يدرسها ، ثم إعمال ذهنه بصبر ، ومراجعة ، وطول تأمل ، يساعده على ذلك طبع موات ، وعلم غزير .

وبهذا استخرج الأصول التى استخرجها ، وفَتَّشَ كلام عبد القاهر كلمة كلمة ، فلن نجد فيه شيئاً يرجع إلى غير هذين المصدرين .

وسأعرض لك مسألة التقديم فى الخبر المثبت ، وكنت أستحسن أن تراجعها فى « دلائل الإعجاز » مراجعة من يحاول أن يتعرف على مخرج الفكرة عند

الباحث ، ومَن يتعرف على طريقة حركتها ، وليست مراجعة مَن يُحصَل فحسب ، وقد وقرَ في عقولنا أن العلم بالمسألة ينتهى عند تحصيلها ، والحق الذى كان عليه علماؤنا أن طلب علم المسألة يبدأ عند تحصيلها ، وهذا واضح فى كثير مما كتبه فى هذا البحث ، فإن عبد القاهر كان يبدأ طلب المسألة حين يفرغ من تحصيل مقالة العلماء فيها .

والمهم أنه فى بحث التقديم فى الخبر المثبت بدأ وبين يديه أمران ، الأول : جملة من شواهد الشعر وكلام أهل الطبع ، بُنيت على تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى ، والثانى : كلمة لسيبويه فى باب المفعول إذا قُدّم وبني الفعل الناصب كان له عليه ، وعدى إلى ضميره ، فشغل به كقولك فى : عبد الله أكرمت : بنصب عبد الله ، عبد الله أكرمت ، فترفع عبد الله بالابتداء ، والفرق بين الصيغتين هو أنك « إنما قلت عبد الله (بالرفع) فنبهته (المخاطب) ثم بنيت عليه الفعل » .

نظر عبد القاهر نظراً طويلاً فى قول سيبويه : « فنبهته » واستخرج منه تركيد الجملة مع التقديم ، وقد قسّر عبد القاهر هذا التنبيه بقوله : « أشعرت قلبه (يعنى السامع) أنك أردت الحديث عنه (أعنى المسند إليه) - فإذا جئت بالحديث فقلت : قام ، أو قلت : خرج ، أو قلت : قدم ، فقد علّم ما جئت به ، وقد وطأت له ، وقدمت الإعلام به ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المهيا له ، المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوت ، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل فى التحقيق ، هذا تحليل لكلمة : « فنبهته » وهو كما ترى سعة ، وخصوبة ، وصحة طبع ، ثم هو أصل الكلام فى تقديم المسند إليه على الفعل فى الخبر المثبت ، وأنه يفيد التقوية ، والتوكيد ، يعنى أنه أشد لثبوت ، وأنفى للشبهة ، وأدخل فى التحقيق .

هذا التحليل مبنى على ما تحدثه الألفاظ من أثر فى نفس السامع ، وكما كان عبد القاهر يقف عند مغارس الكلمات فى نفس قائلها ، تراه يقف عند مطارقها فى قلب سامعها .

وواضح أن جملة - الهواجس والخواطر التى تكون مع البداية بالاسم ، لا تكون مع البداية بالفعل ، لأن طرق النفس بالاسم المعرى من العوامل لا يكون إلا بقصد الإخبار عنه .

وأن هذا الطريق إعداد ، وتهيئة لهذا الإخبار ، وأن هذا الإعداد ، إنما هو لحفاوة المخبر بخبره ... وهكذا ، ولو أنك بدأت بالفعل قلن يهيج الفعل فى نفس سامعه شيئاً ، وإنما يعلم السامع أنك ذاكر فاعلاً بعد هذا الفعل لا محالة لأن كل فعل لا بد له من فاعل ، فليس فى الكلام ما يلفت وينبّه ، وبذلك ترى عبد القاهر كما أشرت يقف مع الكلمات ، ومواقعها فى نفوس متلقيها ، وأثر هذه المواقع ، أو يتأمل ، ويرصد ، ويرى فى لفظة سيبويه فقهاً دقيقاً لا يتناول اللفظة من حيث هى لفظة من غير ، تقع فى تركيب ، ولا من حيث هى من منتزعة من نفس قائلها ، وإنما أيضاً من حيث هى ضربات ، تتواتر على أجهزة حساسة ، وطبائع يقظة .

وبعد الاستغراق فى هذا الأمر ينظر عبد القاهر نظر المثبت فى شواهد الشعر ، والقرآن ، وبين يديه جملة صالحة ، فيرى فى سياقات تراكيب هذه الأبنية ما يؤكد هذه الملاحظة النفسية فى كلام سيبويه ..

يقول عبد القاهر بعد شرح كلمه سيبويه : « ويشهد لما قلناه من أن تقديم المحدث عنه يقتضى تأكيد الخبر ، وتحقيقه له ، أننا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجىء فيما سبق فيه إنكار منكر ... » إلى آخره .

وراجع المسألة ليتحقق عندك ما هو محققٌ عندي وهو أن عبد القاهر كان يستقى من منبعين ؛ أولهما : إشارات أهل العلم ، مثل لفظة : « فنبهته » التى استحالت فى فقه عبد القاهر فكرة فيها سعة ، وفيها خصوصية ، وثانيهما : التأمل فى تراكيب كلام أهل الطبع لإدراك قوة الإصابة فى إشارات أهل العلم ، وبذلك تتحقق الملازمة فى الدراسة اللغوية بين الدعوى والبرهان ، فإذا قلنا : إن تقديم المُسند إليه على الخبر الفعلى يفيد التحقيق ، فهذه دعوى يعوزها البرهان ، وحين نُقدِّمُ كلام أهل الطبع الذين تراهم فيه يجرون هذا التركيب فيما سبق فيه إنكار منكر ، نكون بذلك قد قدّمنا البرهان .

ويلاحظ أن هذا منهج حذر ، لا يقول فى اللغة قولاً إلا بعد مراجعة ، وبعد تأكد ، لأن قوانين اللغة تتأسس عليها قواعد شرعية ، ومعان دينية ، لأننا نصطحب هذه القوانين ، ونُفسِّرُ بها كلام الله ، وكلام رسوله ﷺ ، فنقول فى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) : إن تقديم المُسند إليه يفيد تأكيد الخبر ، فإذا كانت القاعدة التى أسسنا عليها استخراج معنى التوكيد فى خبر الآية ليست صحيحة ، نكون بذلك قد كذبتنا على الله وأدخلنا فى كلامه سبحانه ما ليس فى معناه ، وفى هذا ما فيه .

وهذا هو الذى كان وراء حذر علمائنا ، ومراجعاتهم ، وهم يؤسسون أصول العربية ، وليس من المعقول والحال هذا أن تكون بلاغة أرسطو المنتزعة من أصلاب اللغة اليونانية أصلاً لبلاغة تبحث أسرار المعانى الشريعة فى كتاب الله الذى نزل بلسان عربى مبين .

ونحن بدورنا نحصر على تثبيت هذا المنهج الحذر ، ونرفض رفضاً باتاً هذه الجرأة التى يتقحمها مَنْ لا يعلمون هذا الأمر . نرفض عبث الصغار وإن شابت قرونها .

(١) البقرة : ١٤٦

ونرى أن ضرب هذه العلوم بهذه المقتبسات الشاحبة التي اقتبست من العلوم الغربية ومناهجها ليس إلا ضرباً في أصول الدين ، وأن هذا الدوران الذي يدور به المهوشون من تلاميذ الكبار وعقائيلهم في أصقاع هذه الأمة مرتلين أناشيد الحداثة والمعاصرة والتجديد وما شئت ، مما يجب بتره لأنه مظهر من مظاهر سخافة العقل ، ودليل ساطع على جهلنا بأبجديات حضارتنا ، ومعارفنا ، وأرجو بذلك أن أكون قد مهدتُ السبيل لدراسة مصادر عبد القاهر دراسة تتناول كل مسأله أثارها تبحث عن أصولها في ثراث سلفه من العلماء ثم تصف موقف عبد القاهر منها ، وكيف بسطها ؟ وإلى أن مدى كانت فكرة القدماء تصيب عنده أرضاً خصبة ، تُمسك الماء ، وتثبت الكلاً ، واللّه يهدي مَنْ يشاء لما يشاء .. وما توفيق إلا باللّه ، عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

الصورة فى التراث البلاغى

طغى مصطلح « الصورة » بمعناه الأعجمى المحدث على معناه العربى القديم فى دراساتنا الحديثة ، حتى تضائل هذا المصطلح القديم فى بعض الكتابات ، وصار خاصاً بألوان البيان .

والواقع أن هذا المصطلح البلاغى له دلالة دقيقة فى إطلاقات القدماء .

وهو بإيجاز شديد - ما يدركه المتأمل فى المعانى من فوارق دقيقة وشفيفة بين هياتها وأشكالها ، وشياتها ، وملاحمها . وأشياء كثيرة غامضة يفترق بها المعنى فى الذهن عن المعنى ، وتكون له فى النفس بها حياة لا تكون لغيره ، وهذا ما سماه العلماء « الصورة » .

وقد نبه البلاغيون إلى أن لفظ الصورة بهذا المعنى مقتبس من المبصرات على وجه التمثيل والقياس .

وذلك لأن الفروق القائمة بين المرثيات ترجع إلى أحوال فى صورها ، تُفرّق بها العين بين إنسان وإنسان ، وفرس وفرس ، وخاتم وخاتم ، وسوار وسوار ... إلى آخر ما قالوا .

وتعبير العلماء عن هذه الشّيات ، والنّمّاتِ الدقيقة التى تتمايز بها ضروب المعانى ، فيه ما فيها من دقة يحتاج معها إلى فضل نظر ، حتى يستخلص منه المراد ، تراهم يقولون : حياة الكلام .. وطبعه .. ونصبته ... وعموده ... وسمته .. ونهجه .. ورقته .. ويريدون حالته التى قام عليها فى نفس قائله ومتذوقه .

والجُملة فى ذلك كالفقرة والخطبة ، والبيت كالقطعة والقصيدة .. كل ذلك له سمت كسمت الوجوه .. ونهج كنهج السُّبُل ، يعرفه أهل العلم به معرفة لا تلتبس .

وكما أن لكل معنى حياة وسمتاً في الجملة والبيت والقطعة والقصيدة ،
صار بالضرورة لكل شعر شاعر حياة وسمت ملامح ، يتميز بها عن غيره
ولا يلتبس .

فلكل شاعر نهج يتكوّن من هيآت معانيه وأحوالها ، لا يخطئ ذلك أحد من
أهل العلم في هذا الباب .

وأخبار ذلك كثيرة نذكر منها واحدة مشهورة في الكتب .

قالوا : مرّ جرير على ذى الرمة وهو ينشد قصيدته :

نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى عَقَتْهُ الرِّيحُ وَامْتَنَحَ الْقِطَارَا

فقال له جرير : ألا ألحجّك بأبيات تزيد فيها ؟ فقال : نعم .

فقال :

يَعُدُّ النَّاسِبُونَ بَنَى تَمِيمٍ بَسُوتَ الْمَجْدِ أَرْبَعَةَ كِبَارَا

يَعْدُونَ الرِّيَابَ وَآلَ تَيْسَمٍ وَسَعْدَا ثُمَّ حَنْطَلَةَ الْخِيَارَا

ويذهب بينها المَرْتِي لَغَوَا كَمَا أَلْغَيْتَ فِي الدِّيَةِ الْخَوَارَا

فوضعا ذو الرمة في قصيدته ، ثم مرّ به الفرزدق فسأله عما أحدث من
الشعر ، فأنشده القصيدة ، فلما بلغ هذه الأبيات ، قال الفرزدق : ليس هذا من
بحرك ، مضيفها أشدّ لحين منك .

قال أهل العلم : فاستدركها بطبعه ، وفطن لها بلطف ذهنه . والذي أدركه
الفرزدق بطبعه . وفطن له بلطف ذهنه هو الفرق الذي لا يلتبس على مثله بين
حياة ، وسمت ، وطبع ، أو صورة هذه الأبيات وما دخلت فيه .

وقد ذكر أهل العلم أن إدراك البينونة بين صورة كلام ، وكلام لا يعين فقط
على تمييز بيت أو بيتين اندسا في شعر شاعر آخر .

وإنما ذكروا أنه لو رمى حاذق بكلمة فى شعر شاعر كامرىء القيس ، لفظن لها أهل العلم ، لأنها تدخل فى كلامه دخول الغريب ، وتُرى فيه مستوحشة ، غير متمكنة ولا مأنوسة .

وإدراك ذلك بالنسبة لنا قد يكون ممكناً ، وإن كان طريقه شاقاً لأنه يحتاج إلى طول النظر فى كلمات الشاعر ومعرفة مذهبه فى الاختيار ، وهذا شاق وملبس . ثم طول النظر فى جُملة ، وطرائق تركيبها ، ونسجها ، والمذهب فى ذلك متسع جداً ، ثم طرائق وصل جُملة ، ومدى إتقانه فن دمج بعضها فى بعض ، وتولد بعضها من بعض ، ثم طرائق وصل فقره ، وجمع معانيه . وإدخال أواخر هذه فى أوائل تلك ، وكيف يحتال بدهاء فنه فيحسن ذلك ، حتى يجعل الأول مهاداً للثانى ، ووطاء له . وهذا أيضاً باب متسع جداً وفيه غوامض كثيرة . ومهمتنا هى تقليب ذلك كله بألسنتنا ، وتذوقه بذائقتنا . وتأمله فى ضوء خبرة نحوية وبلاغية ، ولغوية واسعة ، وبذلك - وبأكثر منه - نستطعمه استطعاماً تقوم له به فى نفوسنا حياة وصورة ، يتميز بها عن غيره .

ويمكننا بعد ذلك أن نتلمس ملامح هذه الهيئات والصور ، وأن نصفها وصفاً دقيقاً فيه حذر ، ودقة ، ومعاناة ، وحذق . وسوف يفتح لنا ذلك آفاقاً فى بحث لغة كل شاعر من جهات لا تزال مغلقة على كثير من الأسرار ، وهذا كله يمكن أن نسميه خصائص لغة هذا الشاعر ، التى ينماز بها عن غيره ، وسوف يكون هذا غير الذى يكثر فى الكتب المستهينة بهذه الحقائق ، وبلغه الشاعر التى نراها تذكر خصائص شاعر يمكن أن تنطبق كلها على غيره ، ممن فى عصره ومن ليس فى عصره ، وهذا فضلاً عن فساد فى نفسه ، فهو مفسد للعقول التى تقرى عليه ، حيث تطمس فيها ما فطرها الله عليه من وجود حدود للأشياء ، فإذا قلنا للناشئ قبل أن نفسد فطرته بتهاوننا : هذه خصائص كلام فلان ، أدرك بطبعه أنها ليست خصائص غيره .

ثم إن هذه الشِّئَات والملاحم وكل ما سمَّاه البلاغيون « صورة » من الفوارق البالغة فى الدقة والشفافية ، إنما هى ولائد تصاريف الكلمات فى النظم والضم ، فكل تعلق أو احتكاك بين لفظتين يلد لا محالة صورة خاصة لمعنى خاص ، لا ينطبق على غيره ، ولو نفضت اللُّغة لفظة لفظة ، وعُلِّقت كل كلمة بكلمة ، مستقصياً وجوه التعليق لتستولد هذه الصورة من رحم أخرى غير هاتين الكلمتين ، لن تجد إلى ذلك سبيلاً . وهذا قاطع .

وإذا أردنا أن نحقق المسألة تحقيقاً يعود بها إلى جذورها ، وجدنا ذلك الأمر اللُّغوى مردوداً إلى أمر آخر ، هو أن انبثاق المعانى وانبعائها فى النفوس ، إنما تكون على هياث خاصة ، وصور خاصة ، تتكاثر ، وتستفيض وتزخر كل نفس بما تزخر به منه ، وهى مع هذه الكثرة ، وهذا الفيض ، تتباعد أو تشقارب ، وتتشابه أو تتباين ، ولكنها لا تتطابق أبداً . وما قام معنى واحد على هيئة واحدة فى نفسين مختلفتين من نفوس البشر من يوم أن نفخ الله فى طينة آدم إلى يومنا هذا ، وإلى يوم أن يرث الله الأرض ، وأكثر من ذلك ، لا تجد معنى واحداً بشيئاته ، وملاحمه وسمته وكل ما سمَّاه العلماء « صورة » يتكرر قيامه فى نفس واحدة ، والمعانى التى نتكلم عنها هنا بهيئاتها ونمئاتها ، وصورها غير التى يذكرها أهل العلم فى باب إغارة الشعراء بعضهم على بعض ، وأخذ بعضهم من بعض ، لأنهم أرادوا أصل المعنى المخترع ، أما هيئاته وصورته فلا توجد إلا فى اللفظ الذى نطق به الشاعر .

والمهم هنا هو بيان أن التباين القائم لا محالة بين صور المعانى المتولدة من الألفاظ ، هو نفسه التباين القائم بين صور المعانى المتولدة فى القلوب ، لأن بنية الكلام فى جوهرها بنية خواطر وأفكار ومعان ، واللُّغة فى الفؤاد ، وليست فى اللسان ، والبلاغة بلاغة القلوب ، وليست بلاغة الأشداق ، وأحوال اللُّغة وخصائص بلاغتها هى أحوال الإنسان ، الذى أضمر نفسه وقلبه وعقله وجوهره فى هذا الكلم الذى علَّسه الله إياه .

ولا تظن أننا فى شىء من ذلك نتجاوز سبيل ما قاله سَكْفنا لأنهم ذكروا ما هو أبين ، فقد ذكر عبد القاهر الرابطة بين قوانين نحو العربية ، وطبائع الأقسام الذين رققوها وصقلوها ، وأن ما يوجب النحاه تقديمه ، إنما هو منتزع من مغارسه فى فطرة العرب وسليقتهم حيث لا يكون فيها إلا مقدماً ، وقوانين النحو ، فى جوهرها قواعد ذهنية ، وعادات عقلية ، تصف مزاج الأمة وطرائق تناولها ، وهذا باب لم تقف عنده أقلام العلماء لتستخرج خوافيه .

قال عبد القاهر فى تقديمه كتاب أسرار البلاغة :

« إن المعنى الذى كانت له هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب هو ترتيبها على طريقة معلومة وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ، وهذا الحكم - أعنى الاختصاص فى الترتيب - يقع فى الألفاظ مرتباً على المعانى فى النفس المنتظمة فيها على قضية العقل ، ولن يتصور فى الألفاظ وجوب تقديم وتأخير ، وتخصص فى ترتيب وتنزيل . وعلى ذلك وصفت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدونة فقليل : من حق هذا أن يسبق ذاك ، ومن حكم ههنا أن يقع هنالك ، كما قيل فى المبتدأ والخبر المفعول والفاعل ، حتى حظر فى جنس من الكلم بعينه أن يقع إلا سابقاً وفى آخر أن يوجد إلا مبنياً على غيره وبه لاحقاً ، كقولنا : « إن الاستفهام له صدر الكلام ، وإن الصفة لا تتقدم على الموصوف إلا أن تزال عن الوصفية إلى غيرها من الأحكام » . انظر إلى قوله : « وعلى ذلك وُضِعَت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة ... » إلى آخره ، وأعد النظر لأنه من النصوص السخية .

وهو واضح فى أن أصول مبانى الكلام قد تقررت وانتظمت على ثوابت عقلية أصلتها طرائق تفكير القوم ، ومنازع تصورهم . هذه الثوابت اقتضت أن يكون الموصوف سابقاً للصفة ، وأن يكون للاستفهام الصدارة ، وأن يكون التقديم للعناية ، وهكذا نجد وراء كل ظاهرة أسلوبية قضية عقلية انتظمتها ،

وحصيلة هذه الظواهر الأسلوبية هي نفسها حصيلة المقررات الذهنية التي صيرتها الأمة دعائم بيانها وقواعد لغتها ، خذ أمن اللبس تجده ينتقل في كثير من مسائل اللغة وكأن اللبس والتعمية والإبهام وما هو من هذا الباب كل ذلك من الأمور التي ترفضها هذه العقلية ، وتحذر كل الحذر وكأن الوضع الظاهر الذي لا شوب فيه كان من الخصال الجوهرية لهذه العقلية ، وهكذا نقول في مسألة الخفة وما وراءها من إعلال وإبدال وإدغام ، وبناء أكثر الكلمات على ثلاثة أحرف ، واحد يبدأ به وآخر ينتهي عنده وثالث بينهما ، يدلك هذا دلالة ظاهرة على تقدير نبيل للجهد الإنساني وضرورة توفره والاقتصاد في إنفاقه ، ولا بد أن تأخذ ضروب النشاط الإنساني حظها منه بحذر وحساب دقيق .

ثم إن هذه الطباع ، وهذه الخصائص تنتقل من أجيال الأمة جيلاً بعد جيل بواسطة اللغة ، وبهذا التوارث اللغوي تحتفظ الأمم بخصائصها فلا يزال اللبس مثلاً عدواً لدوداً للغة تنفر منه ، ولهذا لا يزال كريهاً بغيضاً عند أصحاب اللغة ، فإذا ما ألحّ قوم على فرض الغموض على الشعر والأدب فلن يستطيع إلحاحهم هذا أن يفتح له أبواب البيان ، وسوف يبقى الغموض أمراً شاذاً وغريباً .

خصائص اللغة وجملة ضوابطها هي في فقهها القريب خصائص الأمة التي تتكلمها - كما قلنا - ومن دخل في اللسان دخولاً يصوغ طبعه ويندس في ذات فؤاده يكون قد دخل في الأمة لأنه اكتسب صفو خصائصها ، وهذا هو معنى الأثر الذي يُنسب إلى رسول الله ﷺ في بعض الكتب وهو : « مَنْ تكلم بلسان العربية فهو عربى » وتأمل الدقة في قوله : « بلسان العربية » ولم يقل : بلسان العرب ، لأن لسان العرب قد ينتقل ، وإنما لسان العربية ، أى الفصحى السديدة التي هي جوهر هذه الأمة أى صفو خصائصها المتوارثة ، وهذا باب متسع ودعه وانتقل إلى مجالات درس الصورة في التراث البلاغى .

* * *

وقد عَنَىَ البلاغيون عناية فائقة بروابط الجُمْل ، وعلاقات الفقر . ومن علاقات الجُمْل ضرب أبانوا فيه عن صلات بين جُمْلَة من الجُمْل ، ثم بيان الرابطة بين هذه الجُمْلَة من الجُمْل وما قبلها ، وقد كشفوا في ذلك عن دقائق في نسيج الكلام ، حين ترى الجُمْلَة الأم ، وقد عطف عليها عديد من الجُمْل متصل بها على وجه متميز من وجوه الاتصال ، وقد يكون من هذه الجُمْل القرعية ما هو متنام على وجه من وجوه التنامى الذى تتوَلَّد فيه جُمْلَة أو جُمْل ، ترى هذه الجُمْلَة بكل ما تعلق بها وقد عطف على جُمْلَة سابقة ، ربما كانت على مثل حالها من النسيج ، والتركيب ، بحيث يكون هناك جُمْلَة تمثل جذراً من جذور المعنى ، تولدت منه فروع تنامت وامتدت ولكنها موصولة بخيط قوى بهذا الأصل ^(١) .

وهذا غير صلات الفقر ، وعلاقات الأغراض التى يُطلق عليه أحياناً عطف القصة ، والمراد قصة المعانى وحكاية الأغراض وصلاتها . وهذا تحليل دقيق لنسيج الصورة وبيان حياة الكلام وسمته .

ولأهل العلم فى هذا كله كلام سخرى ، ولكنه جائم فى مكانه من تراثهم لم تشره عقول أهل العصر ، وهو قمين أن يُستخرج وتُسْتَنْبِط منه حقائق تعين على تجليه كثير من الغوامض ، وخاصة ما يتصل بطريقة تنامى المعانى فى القصيدة ، واستخراج ذلك الأصل الذى بُنِيَتْ عليه ، والبحث عن تلك الروابط الغائرة فى نسيجها ، وهى كائنة لا محالة .

ومن المقرر عند أهل العلم أنه لا بد من مناسبة وتراحم بين الكلمات فى الجُمْل ، فلا يجوز أن تقول : خاتمى ضيق ، وخفى ضيق ، لأنه لامناسبه بين الخف والخاتم ، وإذا كانوا يستنكرون فقدان المناسبة فى مثل هذا الكلام الجارى فى

(١) يُنظر تحليل عبد القاهر لقول المتنبى :

تهبينى ففاجأنى اغتيالاً	توَلَّوْا بَغْتَةً فَكُنْ بَيْنَهُمَا
وسير الدمع أثرهم إنهالاً	فكان مسير عيسهم زميلاً

(دلائل الإعجاز ص ١٨٨)

المخاطبات من غير عناية ، فكيف يُجيزون فى الشعر ، وقد هذبوه ورققوه أن يجمعوا فيه بين أغراض لا تتلاءم ، وأن يصير حال القصيدة عندهم على حد ما يصفها « نزار قباني » وأنها تلتصق ببعضها ببعض التصاقاً كقطع الفسيفساء ، أو يُصَيِّرون القصيدة لوناً من « الريبورتاج » السريع يجمع الشاعر فيه كل ما يخطر بباله ، وأن الشاعر العربى صيَّاد مصادفات من الطراز الأول يشب من غرض إلى غرض حتى يصل إلى حضن الخليفة . فى خفة بهلوان (١) ... إلى آخر هذا الكلام الفاسد الذى خرَّب عقول الناس وأفندتهم وأذواقهم .

أقول : إن الذى جرَّ على الشعر هذه الويلات فى زماننا هو إهمال دراسة لغته وطبائع بناء كلامه ، والتستر وراء كلمات عاتمة فارغة ، مثل التذوق الفنى أو الجمالى ، مع أن اللسان الفارغ من العلم بطرائق بناء الكلام هو بالقطع عاجز عن تذوقه الصحيح ، ولا يستطيع أن يستطعم بناء الجملة ، إلا مَنْ كان بصيراً بأحوال هذا البناء ، وقد كان الجاهليون يستطعمون ، ويضعون الكلام على ألسنتهم فيميِّزون ، لأن هذه العلوم كانت مفرغة فى أسلة ألسنتهم وهذه الألسنة منبعها ، وإنما استخرجها العلماء منها ، أما ألسنتنا نحن ، فلا سبيل إلى تذوقها تذوقاً مقبولاً إلا بالعلم ، والصبر ، والصدق ، والمثابرة ، ودَعَكَ من هذا الباطل الذى يغريك بأنه من الممكن أن تكون نابهاً فى نقد الكلام وأنت تجهل لغته ، ونظام نحوه ، وأحوال سبكه ، ومزايا نظمه ورففه ، إكتفاءً بالتذوق الفنى ، أو الجمالى ، أو ما شئت من ألفاظ فارغة ، تولدت وتنامت فى ضباب الجهل ، واستحلى الفارغون مضغها ، لا بد إذن للأحكام السديدة من علم واسع مستنير ، وقرأ تاريخ الشعراء تجد المتنبى كان يزاحم أبا على الفارسى وهو من هو ، فى علوم النحو والتصريف ، ومعرفة الغريب ، وأبا الفتح الذى فتح مغاليق الكلام كان يحضر بحلب ، ويناقش المتنبى فى أمور من النحو والتصريف ، والحسن بن هانىء الشاعر الخليلع الماجن كان من علماء عصره فى اللُّغة والقراءات ... إلى آخر ما تجد مما يؤكد أنه لا سبيل إلى فهم هذا الشعر إلا بإحكام طرائق القوم فى درسه وتحليله وتذوقه .

* * *

(١) يُنظر : الشعر قنديل أخضر ، ص ٣ وما بعدها .

بيننا أن القدماء بسطوا القول في وسائل دراسة الصورة في إطارها العام الذى يشمل القصيدة والرسالة والمخطبة ، فأحكموا دراسة علاقات الجمل ، والفقر ، والأغراض ، وذكروا ضرورياً من العلاقات بين مقاطع الكلام ؛ منها ما هو لفظى كالواو والفاء ، واسم الإشارة ، ومنها ما هو معنوى ، كالاستئناف البيانى ، وهو مبحث جليل وإن كان متوارياً ، وليس قاصراً على علاقة الجملة المنزلة منزلة الجواب كما هو مشهور فى الكتب الملخصة ، وإنما يتراحم هذا الاستئناف ، فيُحلل علاقة الفقرة بالفقرة . والغرض بالغرض ، ويكشف الوشيجة المعنوية بين هذا وذاك ، ثم هو يمثل علاقة أقوى من علاقة الواو ، والفاء ، لأن الوصل فيه وصل داخلى كما قال العلماء ، أى مائل فى تنامى المعانى ، وتوالدها وتلاحمها .

وهكذا تعين هذه الوسائل على أن تبين علاقات أوائل الكلام بآخره ، وتحلل طريقة ترتيبه ووجوه تتابعه .

وفى ضوء هذا الفقه لطرائق تلاحم الكلام ، عاب أهل العلم من لا يُحسن هذا ، وإن كان متقدماً فى صنعة الشعر كالبُحتري ، واعتبروا هذا الباب من أبواب البلاغة العالية ، التى لا يُحسن سياستها إلا الأفراد من أهل البيان ، ويرى البعض أن إحكام علاقات الكلام وتداخل أطرافه وتلاحمها ، مما لا يقع فى كلام الناس على الإطراد والتمام ، ولذلك كان فى القرآن وجهاً من وجوه بلاغته التى فأت بها طاقات البشر ، وللباقلاى فى هذا كلام نبيل .

والذى نزعناه من أن الصورة فى التراث البلاغى تُطلق على ذلك كله مستمد من كلام عبد القاهر ، وذلك لأن تنوع العلاقات بين الفقر والأغراض مما تختلف فيه هيئة المعانى ، وتظهر بها للذهن بينونة فارقة بينها وبين غيرها وهذا الذى يسميه عبد القاهر « الصورة » .

ونذكر هنا عبارة عبد القاهر لنبيين وجه استمدادنا منها ، قال - بعد ما ذكر أن البيئونة بين آحاد الأجناس والمصنوعات راجعة إلى صورها - : « ثم وجدنا بين المعنى فى أحد البيئتين وبينه فى الآخر بينونة فى عقولنا ، وفرقاً ، عبرنا عن ذلك الفرق ، وتلك البيئونة بأن قلنا للمعنى فى صورة غير صورته فى ذلك » .

ولا يدفعك عن ما قلناه أن عبد القاهر ذكر الصورة فى البيت والبيت ، وذلك لأن الأصل فى إطلاق الصورة عنده ليس راجعاً إلى قلة الكلام وكثرته ، وإنما هو هذا الفرق الذى يتميز به الكلام عن غيره ، فإذا كانت هذه الفروق قائمة فى قصيدة ، وهى كذلك لا محالة . قياًماً يبين به ويتميز ، كان إطلاق الصورة على ذلك أمراً مقبولاً ، بل إن هذا أشبه بأصلها الذى اقتبست منه وهو الفرق بين آحاد الأجناس كالفرق بين إنسان وإنسان ، وفرس وفرس ، فالفرق بين قصيدة وقصيدة كالفرق بين إنسان وإنسان ، كل له سمت لا يلتبس بغيره ، وكذلك يقال فى الديوان ، وهذا قريب .



وقد عنيَ البلاغيون عناية بالغة بدراسة الصور الجزئية التى تتكوّن منها الصورة العامة لأنها أصل الكلام ، وكانت دراستهم لهذه الصور تنصب على نواح ثلاثة تميز وتتداخل فى وقت واحد ، وهذه النواحى هى :

١ - النظر فى علاقات الكلمات ، وما تولده هذه العلاقات من أحوال وهيئات ، وهو باب الصياغة وقد أفردوا له « علم المعانى » .

٢ - دراسة ما داخل الكلام من أحوال وأشياء وأحداث اصطُنعت وسائل للإبانة ، سواء أكان ذلك على سبيل المقارنة كمقارنة الغيث والليث للجواد والشجاع ، فى أسلوب التشبيه ، أو كان ذلك على سبيل الممازجة وتداخل الأشياء ، وذهاب ما بينها من حدود ، وصياغة الأشياء صياغة جديدة فى سبيل الإبانة عليها ، فالجواد يصير غيثاً ، والشجاع يصير ليثاً ، أو كان ذلك قائماً

على إبراز علل وملابسات كالغيث الذى يُعبر عنه بالنبات ، للإشارة إلى أنه كائن عنه لا محالة ، أو الإبانة عند الندم بالعض على الأصابع ، لأنه من أحواله ... إلى آخر هذا الباب الذى تقوم عليه دراسة « علم البيان » .

٣ - النظر إليها من جهة ما سمي « وجوه تحسين الكلام » كالنظر إلى علاقات الألفاظ لا من جهة ضم بعضها إلى بعض ، بل من حيث دلالتها الإفرادية المعزولة ، وما بين هذه الدلالات من علاقات كالذى بين الليل والنهار من تطابق ، والذى بين الشمس والقمر من تناظر ، أو من حيث ما يجرى فى أوصال الكلام من ذبذبات لها أحوال تخامر بها النفس ، وتستولى على هوى القلب ، كالازدواج والمماثلة والترصيع والتسجيع ... إلى آخر ما استخرجه من محاسن العربية فى هذا الباب ، وهو باب غنى جداً ، ومحتاج إلى عناية أكثر ، والجهود فيه قليلة ، لأن بابى الصياغة والبيان استأثرا بجهود العلماء ، وبقي هذا العلم منظوياً على خمائر فى بلاغة اللسان تنتظر من يشيع شذاها .

وهذا التمايز الواضح بين طبيعة البحث فى هذه المجالات الثلاثة هو الذى اعتُبرَ عندهم فى تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة ، وهو تقسيم قائم على نظر صحيح ، وفروق بينة فى طبيعة الدراسة ، ولهذا لم نر وجهاً مقبولاً للطعن فى هذا التقسيم .

والذى يُحسن فهم كلام القدماء فى هذه المجالات يتبين أنهم قلبوا الكلام على وجوه كثيرة ليسبروه من كل وجه وليستخرجوا منه أسرار بلاغته .

وواضح عند كل منصف أن دراستنا الأدبية الحديثة متخلفة عن استيعاب هذا المنهج ، والقدرة على اصطناعه بفهم ومهارة وحذق ، فضلاً عن أن تُفرغ عليه عطاءً جديداً يستخرج ما انطوت عليه من ذخائر ، وهذا حق ، وإن أنكره المنكرون ، وتستروا وراء رعى هذه الدراسات ووسائلها بما تجده مبثوثاً فى كتب الكبار والصغار ، وباصطناع وسائل بديلة من دراسة الأدب ليست بالطبع

موصولة بأسرار العربية التى هى أداة الأدب ، وإنما هى ما يصلح لدراسة الآداب المختلفة ، ثم إنها ليس فيها شىء يُنسب إلى هؤلاء الذين يصطنعونها بحماس ، محاولين إزهاق هذه الوسائل بها .

* * *

أما نظرهم فى الصياغة فقد قام على جهات ، منها :

النظر إلى حال الكلمة المفردة من حيث نوعها وبنيتها ، ففرقوا بين دلالة الفعل ودلالة الاسم ، ودلالة الماضى والمضارع ، واسم الفاعل واسم المفعول ، والمعرف والمنكر ، وذكروا الفروق الكامنة بين طرائق التعريف ، فالعبارة عن المعنى باسم الإشارة ، غير العبارة عنه بالموصول ، وهكذا الألف واللام التى قد تكون للنوع ، وقد تكون للجنس . وهذا باب لا يعرف أسرار الكلام من يجهله ، فقلوه تعالى : ﴿ وَكَلَّبَهُمْ بِأَسْطُرْ ذِرَاعِيهِ ﴾ (١) فيه ما ليس فى قولنا : وكلبهم ببسط ، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشْقُقُوا كُفُّكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَبَسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢) جاء الماضى بين الأفعال المضارعة ليفيد معنى لا يكون لو قلنا : وبودوا ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَقَّأَكُم ﴾ (٣) فيه ما ليس فى قولنا : ولكن أعبد الله ... وهكذا .

ومنها : النظر إلى الكلمات من حيث مواقعها . وكان بناء العربية على الإعراب وتعلق المعانى به مما أتاح للكلمات فى التراكيب إمكانات هائلة من حيث تنظيم مواقعها فى بناء الجملة ، فقد يتقدم الذى فَعَلَ الفعل على الفعل ، وقد يتأخر ، وقد يتقدم المفعول على الفاعل ، وعلى للفعل ، وكذلك الظرف ، والجار والمجرور ، وقد يكون هذا التقديم فى الخبر ، وقد يكون فى الاستخبار ، وقد يكون فى الإثبات ، وقد يكون فى النفى ، وفى كل ما ليس فى غيره ،

(٣) يونس : ١٠٤

(٢) المتحنة : ٢

(١) الكهف : ١٨

فقول المتنبي : « وما أنا أسقمت جسمي به » ليس كقولنا : ما أسقمت ، وقوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ^(١) ليس كقولنا : أيقسمون رحمة ربك ، أو أيقسمون هم ، وقوله تعالى : ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا ﴾ ^(٢) ليس كقولنا : أأخذ غير الله ولياً .

وهكذا ترى إهمال ذلك والصد عنه صداً عن فهم أسرار الكلام .

ومنها : النظر فى معانى الحروف ودقة المعانى معها ، وجمع ما يجرى منها فى باب واحد ، ثم تحقيق القول فيما تشابه منها وتغاير ، كالقول بأن « إنما » تفيد إثبات الشيء للشيء ونفيه عن غيره ، وأنها متضمنة معنى النفي والاستثناء الذى هو إثبات ونفى ، وأنها تخالفه ، وفرق بين أن يتضمن الشيء معنى الشيء وأن يكون الشيء الشيء ، وأن قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ ^(٣) ليس كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ ^(٤) وأن هذا له سياق يجرى فيه ، وذلك له سياق . وأنه مما يغمض إلا على المتمرس بدراسة أحوال الكلام ، وقول الشاعر :

أَلَا أَيُّهَا النَّاهِي قَزَارَةٌ بَعْدَمَا أَجَدْتُ لِهَيْبِهِ إِنَّمَا أَنْتَ حَالِمٌ

ليس كقولنا : ما أنت إلا حالم .

وهكذا يعظم الفرق بين أن تكون الكلمة بعد « إلا » أو أن تزجر عنها قليلاً ، ففرق بين أن يقول الشاعر :

لَوْ خَيْرَ الْمَنِيرِ قُرْسَانُهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسًا

وأن نقول : ما اختار منكم إلا فارساً .

وفرّق بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(٥) وقولنا : إنما يخشى العلماء الله .

(٣) فاطر : ٢٣

(٢) الأنعام : ١٤

(١) الزخرف : ٣٢

(٥) فاطر : ٢٨

(٤) هود : ١٢

وهذه المعانى التى استخرجوها فى هذه الأبواب ، وأقاموها فروقاً بين الصيغ ليست وهماً توهموه كما يقول ذلك مَنْ لا يعلم ، وإنما كانوا حذرين أشد الحذر فى تحديد دلالات فروق الصيغ والتراكيب ، وقد قدروا هذا الباب حق قدره ، لأن اللبس فيه يوقع فى مهلكة ، لأنه تدمير لنعمة البيان التى جعلها الله سبحانه عديلاً لنعمة الخلق ، وميّز الإنسان بها من أجناس خلقه ، ثم إن الأمر لا يقف عند هذا مع خطره ، وإنما يتصل بتحديد شرع الله من كلامه تعالى ، فكان لا بد من استقصاء الأحوال ومراجعة النظر قبل الاجترار على القول بأن هذه الأداة تفيد كذا ، أو أن هذا التركيب يفيد كذا ، واقرأ ما نقله عبد القاهر عن الشيخ أبى على ، حول تحديد دلالة « إنما » ، وانظر كيف يصف النص حركة عقل أبى على ، وطبيعة نظره ، وهو يستخرج دلالة « إنما » ، ويوثقها ، وكيف كان يستقصى ويصغى بأذن عجيبة ، كأن نظام تراكيب العربية قد أفرغ فى هذه الأذن إفراغاً ، وهكذا استخرج أبو على تلك الحقيقة التى جرت على السنة صغار طلاب العلم ، وهى أن : « إنما » متضمنة معنى « ما » و « إلا » . هذه الحقيقة الشائعة شغلت هذا الرجل شغلاً ، واستخرجها بنظر وقياس وسماع ، لأن هذا ما توجهه أمانة العلم القائمة فى صدور هؤلاء العلماء ، ثم هى ذات خطر لأن القول بأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ (١) معناه : ما حرم عليكم إلا الميتة ، إذا لم يؤسس على علم ثابت ، يهلك به قائله ، ويتبوؤ به مقعده من النار .

قلت : إن هذا الباب من أبواب العربية لا يستقيم كلام فى أسرار الشعر والأدب مع إهماله ولو استرهبنا أعين الناس بكل حيل الحداثة ، لأنه كما ترى بحث فى نسيج الكلام ، واستخراج ما تلبس بدقائق هذا النسيج ، مما ينبض به قلب قائله من معان وأحوال ، هى التى تبعث للكلام حياة وصورة فى نفس سامعه .

(١) البقرة : ١٧٣

وقد بسط عبد القاهر هذا بسطاً شافياً .

وقد وصف أستاذنا الأستاذ محمود شاكر صنيع عبد القاهر هذا بقوله :

« والذى فعله عبد القاهر فى كتابه « دلائل الإعجاز » هو أول تحليل للغة من حيث هى تركيب يحتمل ألوفاً من وجوه الأوضاع ، ودلالة هذه الأوضاع على المعانى المستورة التى يحملها كل تركيب ، ومزية كل تركيب فى اشتماله على وجوه « البيان » القائمة فى نفس المبين عنها ، وبهذا الكتاب وصنوه (كتاب أسرار البلاغة) أسس عبد القاهر علم « تحليل البيان الإنسانى كله » لا فى اللسان العربى وحده ، بل فى جميع ألسنة البشر ، ووضع عبد القاهر هذا الأساس فلم يسبقه إليه سابق ، ولا لحقه من بعده لاحق فى لسان العرب ، ولا فى غير لسان العرب » (١) .

قلت : إن دراسة الكلام من هذه الجهة بابه هو ما سماه العلماء « علم المعانى » وعرفوه تعريفاً حدّده ، وميّزه عن غيره تمييزاً لا يلتبس ، وهو قولهم : « هو علم يُعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال » ، وتأمل هذا التعريف تجده وصفاً دقيقاً جداً لكلام عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » ، ومرادهم بـ « أحوال اللفظ » التعريف والتنكير ، والتقويم ، والتأخير ، والحذف والذكر ... إلى آخره ، وقولهم : « التى بها يطابق مقتضى الحال » هو ما مازوا به هذا العلم عن علم النحو تمييزاً لا يلتبس كما قلت ، لأن للفظ العربى أحوالاً كثيرة لا تدخل فى باب المطابقة ، أعنى توخى المعانى واختيار الأحوال على وفق الأغراض ، التى تؤم - أى يقصد إليها المتكلم - وهو غير ما استأثر به علم النحو من دراسة علاقات الكلمات على أصول قوانين العربية ، فإذا جرت علاقاته على مجارى كلام أهل الطبع كان عربياً ، وإلا فهو ملحون مطروح ، وعروبة اللغة ليست بألفاظها ، وإنما بنظامها النحوى الذى تقرر فى سلبقتها .

(١) مداخل إلى إعجاز القرآن ص ١٢٠ - ١٢١

وحين وضع المتأخرون هذا الفرق الحاسم بين علم المعانى ، وعلم النحو . وأدخلوه فى صميم تعريف العلم لم يكن اجتهداً منهم ، وإنما هو متابعة لكلام عبد القاهر ، وكان عبد القاهر إماماً فى النحو كما هو إمام فى علم المعانى . إلا أنه فى النحو سبق بالشيوخ الأوائل الذين ألانوا عصبه . ونهجوا سبله ، فنُسِبَ النحو إليهم . أما علم المعانى فلم يُسبق فيه بمن له مثل جهده فنُسِبَ العلم إليه (١) .

وقد ذكر كلاماً يفيد أن الذى أودعه فى « دلائل الإعجاز » ليس نحواً ، وإنما هو بحث فيما ترجع إليه مزايا الكلام . ثم هو بيان سبيل إدراك هذه المزايا إدراكاً تضع فيه اليد عليها ، « تعدها واحدة واحدة . وتسميها شيئاً شيئاً ، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق » (٢) .

وهذه المزايا توجد فى كلام ولا توجد فى غيره ، ثم هى حين توجد يختلف بها الحال ، فقد تتلاحق فى بطن ، وينضم بعضها إلى بعض على مهل ، وتجدك فى حاجة إلى أن تستوفى القصيدة أو الديوان ، حتى تشهد لصاحبه بسعة الذرع ، وشدة المنة ، وقد تراها تتكاثر بين يديك حتى تعرف من البهت الواحد « مكان الرجل من الفضل ، وموضعه من الخلق ، وتعلم - إن لم تعلم قائله - أنه من قِبل شاعر فحل ؛ وأنه خرج من تحت يد صناع » (٣) .

وهذا شئ غير النحو ، لأن النحو - كما يقول - يوجد فى كل ضروب الكلام على حد واحد ، فالنحو الذى فى الجيد المختار هو النحو الذى فى غيره ، وهكذا النحو فى القرآن هو النحو الذى فى كلام الناس ، لكل لسان عربى مهما كانت منزلته من الفصاحة أجرى كلامه على قوانين النحو جرياناً كاملاً ، وما زاد القرآن فى ذلك شيئاً يعجز واحداً منهم ، فرفع الفاعل فى القرآن كرفع الفاعل فى :

(١) ينظر : مداخل إلى إعجاز القرآن ص ١١٣ وما بعدها .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٣١ (٣) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٧٠ - ٧١

جاء زيد ، زيد أما التنكير فى قوله تعالى : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (١) فليس كالتنكير فى قولنا : جاء رجال .. وهذا قاطع فاعرفه .

قال عبد القاهر - بعدما أجمل الأصول العامة التى تتسلسل منها مسائل النحو : « ثم إننا نرى هذه كلها موجودة فى كلام العرب . ونرى العلم بها مشتركاً بينهم » ، وقال : « إنها حقائق لا تتبدل ولا يختلف بها الحال ، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ أو صفة لموصوف . أو حالاً لذى حال . أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل فى كلام حقيقة هى خلاف حقيقة فى كلام آخر » (٢) .

وهذا واضح فى أن أمر النحو بمعزل عن أوصاف الجودة والرداء ، أو تحديد منازل الكلام من هذه الجهة .

وقد كتب عبد القاهر ذلك فى مدخل كتاب « دلائل الإعجاز » ليبين أن الذى سوف يعالجه فى هذا الكتاب هو الكشف عن عناصر بلاغة الكلام التى يرجع إليها التفاضل ، والتى يعلو بها طبقاً عن طبق ، ومربكاً بعد مربك ، حتى تنقطع القوى ، وتخرس الشقاشق ، وتستوى الأقدام فى العجز .

وكان الشيخ حفيماً بما هُدى إليه فى هذا الكتاب ، وكان حفيماً أيضاً ببيان الفرق بينه وبين النحو ، وقد نظم ذلك فى شعر أودعه صدر كتابه .

وبهذا يظهر فساد ما قيل من أن عبد القاهر أراد أن يسلك بالنحو طريقاً غير طريقه الذى مهده سيبويه وشيخه الخليل ، وأننا إذا أردنا تجديد النحو فلنأخذ سبيل هذا الكتاب - يعنى « دلائل الإعجاز » - لأن فى هذا الكلام مخالفة لصريح كلام عبد القاهر كما بينا ، ثم هو صرف عن النحو الذى هو بحر يزخر ويفيض ، ومنظور على دقائق لا تُخطئها عين من يريد أن يعمل فيه عملاً نافعاً . أما خلط العلوم بعضها ببعض . والتلبيس بأن هذا من ذاك فليس من عمل العلماء .

* * *

(٢) ينظر : المدخل فى دلائل الإعجاز .

(١) الأحزاب : ٢٣

أما دراسة الصورة من حيث يستعين صاحبها بالأحداث والأحوال ، وبصير هذه الأحداث والأحوال كأنها ألفاظ دالة على معان ، فيذكر الغيث مع الجواد ، ليفهم من فيض غزارته معنى العطاء الوفر ، والجود البالغ ، ويذكر الليث مع الشجاع ، ليفهم من عزته ، وبطشه ، وشرفه ، وجسارته ، وإقدامه ، وأنه لا يخامر خوف ، ما أراد من معنى الشجاعة ، والقوة والعُلبة ... إلى آخر ما تفيض به هذه الصورة - أعنى صورة الأسد لا لفظه - لأن المعنى المراد فى هذا الطريق لا يُفهم من الألفاظ المكوّنة للصور ، ولا ينفذ العقل منها إليه ، وإنما من معانى هذه الألفاظ - أى مدلولاتها - التى تصير لغة من حيث هى دوال على معانٍ هى المرادة من المتكلمين ، وهذا ما بسطه عبد القاهر حين تكلم فى طريق الدلالة وذكر المعنى ، ومعنى المعنى ، وأن الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل إلى معناه من لفظه ، كقولنا : خرج زيد . وضرب يدلك لفظه على معنى ، ثم يدلك هذا المعنى على المعنى المراد وهو صور البيان .

أقول : إن دراسة الصورة من هذه الجهة أول ما يلفت فيها أنهم أكدوا على ضرورة أن يكون كل ما فى الصورة من تركيب ، وتكوين ، وغزارة ، وتفصيل ، وتوشية ، وترقيق ، وجرس ، وتنغيم ، أن يكون كل ذلك نابعاً من داخلها بحيث تكون كل صفة من صفاتها وراءها أمر معنوى قُصِدَ إليه بها ، وأنه لا سبيل - وهذا هو الأهم - إلى الإبانة عن هذا الأمر المعنوى إلا بهذا الوصف ، أو بهذه الإضافة ، أو بهذا التفصيل . أو بهذا الترقيق ، والتنغيم ... إلى آخر ما فى الصورة من هذه الناحية الشكلية ، وإذا اجتلب الشاعر ، أو الأديب ، واحدة من هذه الآحاد ، زينة ، وحلياً ، أو تفنناً تسقط صورته ، وتستردل وتستوخم . مهما أُفْرِغَ فى بنائها من جهد وإتقان .

وهذا شىء دقيق جداً . وإدراكه موقوف على سبر الصور . وسبر المعانى . ومعرفة الطرائق . وناهيك بكل ذلك سعة وشفافية وإيماضاً . وقد أبدع الجاهليون

فى ذلك ذخائر لا تزال مخبوءة وراء ما شغلنا به من دراسة هذا الشعر مما لا يتصل بطبعه . وللجأظ وغيره إشارات حكيمه فى تفسير صور صراعات حيوانات الصحراء فى الشعر ، وربط هذا الصراع بالأحوال النفسية الغالبة على الشاعر ؛ كأن ترى كلاب الصيد تصرع الثور أو يصرعه الصائد فى شعر الرثاء أحياناً ، أو ترى الثور يصرعها حين يكون الشاعر منتشياً بنفسه أو بقومه كما فى الغزل والفخر ، إلى ما يتسع القول فيه .

ومعروف أن الصورة البيانية فى الشعر الجاهلى قد تتنامى وتستغرق أكثر أبيات القصيدة ، حين يُشَبَّه الشاعر ناقتة بالثور ، مثلاً ، ثم ينقل الكلام إلى ذكر قصة هذا الثور ، ومرعاه ، ومبيته ، وحكايته مع الكلاب ، أو الرامى ، ويستوفى الكلام فى ذلك .

وقد جاء فى القرآن الكريم وكلام رسول الله ﷺ صور كثيرة من هذا الباب المعهود فى اللسان وفيها ما لا يتسع له القول هنا .

وانظر إلى تشبيهات سورة البقرة - تصوير أحوال المنافقين - والذين يُنفقون أموالهم رِثاء الناس - والذين يُنفقون أموالهم فى سبيل الله - والذين يأكلون الربا ... إلى آخر ما نجد .

ثم انظر الأمثال فى الحديث الشريف ، والتى تنامى منها ، وهو كثير جداً . ثم انظر تصوير الشنفرى - لنفسه وأصحابه - بالذئب الذى غدا طاوياً فلما دعا أجايبته نظائر نحل . وكيف لخص فى التشبيه حياته وحياة رهطه من الصعاليك .. إلى آخر ما لا ينحصر ولا يجمع روائعه ضابط فى هذا الباب .

والمهم هو كشف الصلة بين كل دقيقة فى هذه الصور ، وما وراءها من مغزى .

ولم نر في الكلام المعتبر من كلام القدماء شيئاً في الأدب يُؤتى به للتفنن أو التحلية ، أو الزينة ، وإنما كل شيء فيه لا بد أن يكون مبيناً عن معنى لا يبين عنه غيره ، وأن يكون قد جرى به لغرض ما ، ولا يقبل أن يجاء به لغير هذا الغرض ، يستوى في ذلك التشبيه . والمجاز ، والكناية ، والسجع ، ورد العجز على الصدر ، والتقديم ، والجناس ، والتقصير ، وهذا قاطع . « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ، ويستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده » (١) .

وهذا الأمر الذي يقع من المرء في فؤاده ، والفضل الذي يقتدحه العقل من زناده . ليس إلا كشفاً وإبانة عن دقيقة من دقائق المعاني ، التي تراها خبيثة وراء حال من هذه الأحوال ، والتي استطاع هذا اللفظ الحلو الرشيق والعذب الأنيق ، وهذا الجرس وذاك الحفيف ، أن يبين عنها فضل إبانة ، وأن يكشف عنها غواشيها فضل كشف ، وهكذا ينبغي أن يحكم من يحكم - في تفاضل الأقوال ، إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان » (٢) .

وإذا كنت كلفاً بقراءة مقدمات الكتب ، معتقداً أن فيها شيئاً ربما لا يكون في بطونها ، فاقراً مقدمة « أسرار البلاغة » ، ومقدمة « دلائل الإعجاز » ، تجد أمرين مختلفين ، وذلك أن عبد القاهر كان في مقدمة « الدلائل » حريصاً على أن يحدد الفرق بين النحو وما كتبه في هذا الكتاب ، وأن هذا الذي كتبه باب من أبواب علوم العربية يكشف أسرارها ، وطرائق تأتيها ، ووجوه التفاضل في صياغات أهل الأدب ، وذلك غير مراعاة تعلق الكلمات على أصول النحو ،

(٢) أسرار البلاغة ص ٢

(١) أسرار البلاغة ص ٣

لأن ذلك يقع فى الكلام كله على حد واحد ، ثم تراه فى مقدمة « أسرار البلاغة » الذى أودعه دقائق علم البيان ، حريصاً على أن يؤكد أن الأمر موقوف على الإبانة ، وأن فضل الكلام لا يرجع إلا إليها ، وعلى الشاعر ، والمتكلم المبين ، أن يضع ذلك نصب عينيه ، يعنى أن يتكلم ليبين عن حقائق العقل والقلب ، لا ليوشى كلامه بنمنمات البديع ، وصوره ، أو يجتلب شيئاً يتعلق بحسن الكلام ، من غير أن يكون نابعاً من جوهر المعنى ، ولا بد أن يكون كل شئ فى الصورة كما قلنا نابعاً من جوهرها ، وداخلها ، « ولن تجد أئمن طائراً ، وأحسن أولاً » وآخر ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان من أن تُرسل المعانى على سجيته ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتسب إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها » (١) .

هذه المعارض ، وهذه الزينة ، وهذه التصاویر النابعة من المعانى ، هى التى تكون زينةً للكلام . فجذور التصوير والتشكيل هناك حيث يخامر المعنى القلب ويجيش به ، ويلبس النفس وقور به ، ويتوكد فى أعماق الضمير . أما إذا أخذ الشاعر والكاتب بسحر اللغة ، واستغوته الصورة واجتلبها ، وألصقتها بمعانيه ، كان كلامه كالحلى على السيف الددان (ككهام - وزنًا ومعنى) وليس ذلك من الجمال فى شئ ، لأن الجمال ليس هو ما تراه العيون ، وإنما ما تحسه القلوب ، وتنعطف نحوه الأفئدة ، وهى لا تنعطف نحو الصور الفارغة ، ولا ترتاح للأشكال الملتصقة الزاهية ، وإنما ترتاح إذا شاهدت ما هو من معدنها .

إذا لم تُشاهد غيرَ حُسْنِ شِياتِها وأعضائها فالحسنُ عنكَ مغيبٌ

وهذا البيت الذى تمثّل به عبد القاهر من السياق له معنى رحب وعميق كما ترى . ولو أحكمنا فهم هذا الكلام لسقط من أفواهنا كثير مما علق بها نحو البلاغة والشعر ، وأن الأمر أمر ألفاظ ، وتلاعب بها تلاعب « البهلوانات » ، وأن الشعراء لما أعياهم أن يجدوا فى قلوبهم معانى وأحوالاً ، شغلوا أنفسهم

(١) أسرار البلاغة ص ١٠

بالتفنن فى الصور ، وإعادة تشكيلها ... إلى آخر ما يقوله مَن نقص علمه بمقالة القوم .

نعم كان هناك شعراء وأدباء أجذبوا ، ولم يجدوا فى نفوسهم من جليل المعانى ، وعظيم الخواطر ، ما يرسلونه على سجيته ، فيطلب لنفسه من الألفاظ والصور ما يبين عن جلاله وخطره ، فكان أدبهم فى أفواههم لا يتجاوزها ، وكانت بلاغاتهم فى ألسنتهم ، وكان أهل العلم يدلون عليهم ، وعلى زيفهم ويخرجونهم من دائرة النظر .

« وقد تعجب فى المتأخرين كلاماً حمل صاحبه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين » (١)

ويكثر فى كلام عبد القاهر اقتداح العقل ، وتغلغله ، وتعطف الفكر ، وسرعة الخاطر ، وتوقده ، وما يشبه ذلك مما ترى فيه جهاد النفس ، وكفاحها . وكيف تلامس الأشياء لتستخرج حقائقها ، وكيف تواصل الاحتكاك بها ، والطرق عليها ، حتى تفيض لها بما تفيض ، وتلتمع لها منها بوارق .

وهذا هو طبع الإنسان الحى ، الذى يظل عقله فى مجاذبة دائمة مع الأشياء يطرق أبوابها ، ويستخرج أسرارها ، لا يدع شيئاً إلا لامسه ، وساءله ، ولا حدثاً إلا فكَّرَ فيه وحلَّله . ولا فكرة إلا وخامرها ولا بسها ، وكان عبد القاهر كأنه يوقظ العقل ويستنهضه فى البيئة العلمية التى يجب أن ترى فيها العقول حية هذا الضرب من الحياة ، حتى تستخرج الأشياء من الأشياء ، بالصبر والملازمة ، والطرق والمكافحة ، كما يستخرج الحجر الصلد من الحجر الصلد ناراً تورى ، وتلتمع ، وتشرق وتبهج ، وتذهب بظلمة تلك الدروب المهجورة المحوشة .

وهذا جوهر عمل عبد القاهر ، فقد قدح بعقله تراث سلفه ، واستخرج خبأه ، وليس الذى قدَّمه عبد القاهر من فكر واستخلصه من أصول ، تتناول أدق ما فى

(١) أسرار البلاغة ص ٦

اللِّسان ، وأرق ما فيه ، والذي وصفه الأستاذ محمود شاكر بأنه لا نظير له في لغات الأمم ، أقول : إن كل ذلك ليس إلا شيئاً استخرجه من تراث سلكه ، بالحاح عقله ، وإستعانة فكره ، وصبره نفسه على التأمل ، والمراجعة ، والنظر .

وقد دخل هذا أصلاً عنده في تكوين صورة البيان ، واعتبر قيامها على كشف العلاقات البعيدة المجهولة بين الأشياء دليل قوة النفس ، وقدرتها على التغلغل ، والاستبطان والاستخراج .

وقد أجمع أهل العلم من بعده على ذلك .

ثم إنه إذا كان الجمع بين المتباعدين ، وما وراءه من رحابة ونفاذ في رؤية الأشياء ، دليل الأصالة ، والصحة ، والتقدم ، فإن عبد القاهر ومن بعده أكدوا على ضرورة التناسق والتلاؤم بين هذه العناصر الماثلة في الطرفين ، وأن هذا التناسق والتلاؤم إنما يكون بكشف العلاقات الصحيحة المرضية في العقول . والنفوس ، وهذه العلاقة هي رابطة الألفة والمواءمة بين الأشياء . فإذا جمع الشاعر هذه العناصر على غير أساس مقبول في العقل والحدس ، كان « بمنزلة الصانع الأخرق ، يضع في تأليفه وصوغه ، الشكل بين شكلين لا يلائمانه ، ولا يقبلانه . حتى تخرج الصورة مضطربة ، وتجي ، فيها نتو . ويكون للعين عنها من تفاوتها نبو » ^(١) .

وهذا كلام مهم كما ترى ، تسقط بإحكام فهمه اعتراضات كثيرة ماثرة في الكتب لا نريد تتبعها .

وعوامل التلاؤم لا تقوم - كما قلنا - إلا على الشبه الصحيح القوي ، لأنه هو المقصود في بناء الصور ، وهو طريق الإبانة بها ، أو هو طريق الإبانة عن معنى لا يبين عنه إلا هذه الصورة التي عمودها هذا الوجه .

(١) أسرار البلاغة ص ١٣ .

وبهذا يعود أمر التناسق فى طرفى الصورة إلى ما فى نفس المتكلم من معان ومشاعر وأحوال ، وإلى طبيعة إحساسه بذلك ، لأن هذا كله هو الذى تلبس بالصورة . واستخرجها . وتكون الصورة معيبة إذ لم تكن حاملة ذلك كله بشيئاته مفصحة به على قدر مقتضياته من التصريح أو التلويح ، فالمهم أن تكون العلاقات الكائنة بين عناصر الصورة حاملة فى تضاعيفها أحوال النفوس وشيئاتها ، مبينة عن غوامضها ، وبهذا لا يكون الجمع بين العناصر كجمع الصانع الأخرق ، وإنما يكون كهندسة الصانع الحاذق ، الذى يقسم الألوان ، والأشكال ، والأحوال ، بحساب دقيق ، وبصورة نافذة ، وذوق رهف ينطبع على كل شكل ، وحالة ولون ، فتستروح له النفس ، وينعطف نحوه الطبع .

وقد يكون ذلك فى جمع العناصر المتصادمة والمتنافرة فى رأى العين ، لأن المعول عليه هو ما يقع من المرء فى فؤاده ، حين تنكشف له تلك الروابط الموائمة والجارية فى بواطن الأشياء ، والتى أضمرها فيها خالقها ، والتى تتغلغل عين الشاعر إلى آفاقها المجهولة ، وترمى فى ضباب غيبها ، فإذا ما وقعت عليها عادت بها وكأنها عائدة بقبس من نور الحق ، يقول عبد القاهر فى هذا :

« ولم أرد بقولى : إن الحذق فى إيجاد الائتلاف بين المختلفات فى الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل فى العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحقت الفضل » (١)

هذا ضرب من تأنيس الأشياء ، وإزالة وحشة الاغتراب ، والتباعد القائم على سطوحها ، وتبديد هذه القشرة السائدة ، التى ابتذلتها عيوننا وأرهقنا ما فيها من تغابر وتباعد وتصادم ، حتى ينكشف لنا ما فى الأشياء من أحوال ومعان ودلالات تتقارب بها وتتناغى بلغة عذبة حلوة ، تسمعها الآذان الراهفة

الحساسية التى أودع الله فى فطرتها ما تسمع به اللحن الصامت وما ترى به الأسرار الهاربة المودعة فى الأشياء ، والتى ترى ذروتها فى استخراج الحى من الميت واستخراج الميت من الحى ، وإيلاج الليل الموحش فى النهار الأليف .

وهذا هو المثير للحنين المركز فى أعماق الفطرة ، والذي لا ينقطع توقه إلى الألفة الدفينة فى الأشياء .

يقول عبد القاهر : « والمتألف للناظر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقه الإنسان وخلال الروض » (١) .

يحتاج هذا الكلام إلى أن نعطيه حقه من التأمل ، ليكشف لنا عن جوهره ، وأقرب ما فيه إلى يد المتناول هو أن المثير للدفن من الارتياح أن ترى الأشياء قد انخلعت من وجودها المألوف المعتاد وصيغت صياغة جديدة ، بقوة الحس والوجدان ، فصارت « الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقه الإنسان وخلال الروض » .

وقد استحسّن عبد القاهر قول عبد الله بن المعتز ، وكان ذا لسان لا يزال رطباً بفصاحة قريش :

وَلَا زَوْرَدِيَّةٌ تَزْمُو بِزُرْقَتِهَا بَيْنَ الرِّياضِ عَلَى حُمْرِ اليَواقِيتِ
كَأَنَّهَا فَوْقَ قَامَاتٍ ضَعُفْنَ بِهَا أَوَائِلُ النَّارِ فِي أَطْرَافِ كَبْرِيتِ

ووجه استحسان هذه الصورة ، أنها قرنت بين أمرين متباعدين جداً ، بين « نبات غض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار مُسْتَوِلٍ عليه

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٩

اليبس ، وبادٍ فيه الكلف » واستخرجت شيئاً منهما يجمع ويقارب ، فترى النار فى قرن الماء ، واليابس المحترق يلامس الغض الذى يرف ، وهكذا ترى ما تتواصل به وتتراحم ، أو هكذا ترى استخراج الشيء الغائر فى بواطنها مهما تلاطمت ظواهرها ، وهذا هو المثير للدفين من الارتياح ، وهذه الصورة قد قبحتها الدراسات المعاصرة لأمر قد نتكلم فيه ، ومن المهم أن نبعد عن نفوسنا ما ألصقوه بهذه الصورة وغيرها من صدأ الكلام حتى ننشط للتعرف على جوهر ما قاله العلماء ، وبذلك نكون قد منحنا نفوسنا قدراً من الحرية فى الفهم والاختيار ، ومن الخطأ أن يكون ما نقرؤه من صحيح أو فاسد غِلاً يشغل عقولنا ، وإنما نحاول دائماً أن نوفر لعقولنا قدراً من الحرية والطلاقة حتى تكون نشطة نظارة تتدبر وتختار . واحذر أن يكون عقلك كالكهف الفارغ تتردد فيه كل الأصداء . ولا يخدعك أنك تجد الكلام يردده خلق كثير ، لأن التلبيس فى حياتنا الفكرية هو الوجه الثانى للتلبيس فى حياتنا الساسية ، كلاهما له جوقات مستعدة بآلاتها لإثارة الصخب فى وقته المناسب .

قلت : إن أصل الاستحسان عند عبد القاهر فى بناء هذه الصور هو ما فيها من إدناء الأشياء بعضها من بعض ، وإزالة ما بينها من اختلاف أو نفرة ، أو وحشة وتضاد ، وأن هذا مما تنعطف نحوه النفس التى تراها دائماً ملهوفة بالألفة ، تلوذ دائماً إلى التواصل الحانى ، والتقارب المؤنس ، ويؤكد ما ذهبتُ إليه أن البلاغيين استمدوا من كلام عبد القاهر ما أقاموا به سلماً فى بناء الصور ذا درج متقارب ومتصاعد ، وهو نفسه درجات الإحساس بالروابط والعلائق ، يبدأ بالإحساس باكتشاف العلاقة بين الشيتين ، فإذا كانت هذه العلاقات فى « صورتها الأولى ذكرت الطرفين والأداة ووجه الشبه ، وقلت : هو كالغيث فى الجود ، فإذا ما قويت العلاقة قليلاً ، حذفت الوجه وقلت : هو كالغيث ، فإذا ما قويت أكثر حذفت الأداة ، وقلت : هو غيث ، وهذه هى قصوى درجات الاقتران بين الأشياء مع بقاء تميزها ، وتشخصها ، والحدود الفاصلة بينها ،

وهذه الدرجات هي درجات التشبيه من حيث التوكيد والإرسال ، أو هي درجات الإحساس بقوة هذه العلاقات ، فإذا زاد الإحساس بقوة هذه العلاقات درجة فوق ما نجد في مثل : هو غيث ، انداحت تلك الحدود الفاصلة بينها ، وتغيرت الحقائق ، وتداخلت الأجناس ، وصار المشبه فرداً من أفراد المشبه به ، وداخلاً في جنسه .

وصار الشيء ليس هو ، وحينئذ نجد في الشعر والأدب مخلوقات غير هذه المخلوقات التي نراها بيننا ، وضوابط غير الضوابط التي نراها ، وكأن نظام الأشياء ينهدم ، ويتوارى هذا العالم المرئي ليظهر من باطنه عالم آخر هو عالم اللغة كأنه يمثل حلم الإنسان في رؤية خلق جديد ، أو في صياغة جديدة لهذا العالم تدخل فيها إرادة هذا الإنسان المغلولة العاجزة ..

إن أمر الخلق ونظام الأشياء باب معجز ، وموصد بكل رتاج في وجه قدرة الإنسان ، وهذا يجعل الإنسان في توق دائم إلى تلك الأسرار والغوامض والعوالم وراء هذا الباب الشاهق ، فيزداد تأمله ويستغرق فيه بقلبه وعقله وإحساسه . لعله يكشف قطرة من نور يطفىء بها شيئاً من لهف نفسه ، ولكنه لا يعود إلا بعجز فوق عجز . فبلوذ إلى هذه اللغة التي أودعها الله في فؤاده ويجلي بها قدرته على صياغة الأشياء فينطق الأخرس ويحيى الجماد ، ويوقف الريح أو يرسلها . ويحمل غواصي المزن إلى حيث شاء ، ويضع في فم الجبل لساناً يحكى العبر والعظات . ويخلق في ثبج البحر صدىً يتقد بالغيظ ، أو قلباً يخفق بالحنين ، ويجعل للصبا أذنً فيسألها عن ربى نجد ولساناً تحببه به ، وللنبات فماً يناغى به المزن ، وللجوزاء أذنً تصغى بها إلى أخبار الأرض ، وللموت عيناً ينظر بها إلى من أراد ، وللمجد رداء يلقيه على من يشاء ، فيصير سيداً شريفاً ، منعقاً من حمأة الضعة التي لغبت بها النفوس وأعييت ... إلى آخر ما نجد من هذه الصور التي تفيض بما تفيض به ، وتنطق بلغة لا يعرفها إلا من علم منطق الكلام .

قال عبد القاهر - مشيراً إلى ما هو أرحب من ذلك وأشد - وهو يذكر فضيلة الاستعارة : « إنك ترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية بادية جليلة » (١) .

وهذا كلام سخي كما ترى ، ثم اسمعه يواصل بيان فعل البيان فى الأشياء : « إن شئت أترك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا الدنرل كأنها قد جُسِّمَت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطف الأوصاف الجسانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون » .

ولا ألفتك إلى ما يجهر هذا الكلام به من فكر واضح سديد فى :

١ - التجسيم الذى يعنى إفراغ المعانى الروحية والأحوال النفسية فى الصور المحسة . وهذا صريح كلامه .

٢ - الإحياء أو الأسلوب الإحيائى الذى يعنى إفراغ الحياة على مالا حياة فيه كنطق الجماد .

٣ - أسلوب تأنيس الأشياء . ونريد به إفراغ المعانى الإنسانية على غير الإنسان ، وصيرورتها بذلك أناسى تجد ما يجده الإنسان ، وكأن الإنسان أربه صمتها المطبق فأنطقها ، وأفرغ عليها معانى الإنسان لتشاركه حسه وشعوره ، ويحادثها بما يجد ، وبهذا المعنى خاطب الأطلال وساءلها . وخاطب الناقة ويثها ما يجد ، وخاطب الشجر والأشياء ، واحتضن الشام وموقد النار وبللها بدموعه ، فناغته بما يشتهى من حلو الأخبار .

ولا تظن أنى أضيف إلى كلام عبد القاهر شيئاً لا يحتمله ، لأنى أعتقد أنى لم أستطع أن أدل على ما فى كلامه من ثراء ، وخاصة أنه ذكر أن الذى قاله تلويحات وإشارات « لفضيلة هذا الأسلوب ، وما خفى وراء هذه التلويحات

(١) أسرار البلاغة ص ٣٤

يكون أعظم ، وهو محتاج إلى نقاب يتاح له من البصيرة والحس ، والصبر والنفاذ ، وصفاء النفس ، غير الذى هو متاح لنا ، ليكشف لنا عن هذه الودائع التى طال تركها فى الأرض رغم أننا بلغنا أشدنا ولم نستخرج كنزنا ، والله غالب على أمره .

وأقول مرة ثانية : لا مفر من أن نزيل عن نفوسنا ذلك الصدا الأثم الذى ألقته عليها الدراسات الفاسدة والفارغة حول التراث ، والتى حجزت نفوسنا عن إدراك هذه الودائع لكثرة ما رمت به فى وجوه هؤلاء الغر ، وألهتنا بمضغ رجيع فارغ طرحه أصحابه ، وخبا وجهه من بيناتهم ، وأتلفت فى سماواتهم فراقداً أخرى ، لأنهم قوم طرحوا التقليد وأنفوا أن يفكر لهم غيرهم كما يفعل إخواننا المتنفجون بالجهل والخطف والتدليس .

ثم إن كلام عبد القاهر فى التصوير باللغة الحسية - أعلى تصوير المعانى الروحية والعقلية - كلام مشهور ، وقد أشار فيه إلى أهمية هذه اللغة وقدرتها على أن تسلك سبيلها إلى ما لم تصل إليه اللغة المجردة ، وذلك لأن هذه اللغة التصويرية المحسنة هى اللغة الأولى ، التى كانت سبيل الإنسان إلى العلم الأول الذى أتى النفس من طريق الخواس ، وكأننا حين نخاطب النفس بهذه اللغة إنما نرجعها إلى طفولتها الأولى ، ونناغيها بهذا اللسان القديم الحلو الذى كان يغويها وهى حاملة فى نقائها ، وهذا بلا ريب أفعل وأكثر إثارة وتهيجاً ، وأقدر على سياستها وإلانتها وتعطفها ، ولعبد القاهر فى هذا كلام جيد لا يُخطئ من يطلبه .

* * *

عنى فريق من البلاغيين بالملاءمة بين المُشَبَّه به والمعنى الذى سيق ليبيانه ، وأعنى بالملاءمة هنا : ما هو زائد على بيان المعنى الأصلى المقصود فى وجه الشبه ، أعنى ملاحظة ما سماه عبد القاهر « المعانى المتطفلة » على الوجه ،

فقد يتحقق الجامع ويكون التشبيه معيباً لشيء آخر يتصل بوقعه على النفس ،
أى استيحاش النفس له لبشاعة فيه ، على حد ما قيل فى وصف الروض :

كأن شقائق النعمان فيه ثيابٌ قد رُوِيْنَ من الدِّماءِ

قال ابن رشيق : « فهذا وإن كان تشبيهاً مصيباً ، فإن فيه بشاعة ذكر
الدماء ، ولو قال : « من العصفَر » أى الصبغ أو ما شاكلة ، لكان أوقع فى
النفس وأقرب إلى الإنس » (١) .

انظر إلى قوله : « أوقع فى النفس وأقرب إلى الإنس » وقد ذكر ابن رشيق
صوراً كثيرة من هذا التشبيه الذى هو مصيب لعين الشبه ، إلا أنه « غير طيب
النفس ، ولا مستقر على القلب » .

ويبدو أن هذا كان فكراً شائعاً عند كثير من المشتغلين بالأدب فى عصره ،
وأنه كان يتردد بين علماء المشرق كما كان يتردد بين علماء المغرب .

فهذا هو عبد القاهر يروى عن أهل الأدب ما قالوه فى بيان الملاءمة فى بيت
النابغة : « فإنك كالليل الذى هو مدركى » يريد سعة سلطانه ، وأن له يداً
تناله وإن كان فى أى ركن من أركان الأرض ، لأنه كالليل فى سعته وعمومه ،
لا يدع زاوية من زوايا الأرض إلا بسط سلطانه عليها ، قالوا : إنه ذكر الليل
ولم يذكر النهار ، مع أن النهار واصل لكل مكان كالليل تماماً ، وأصل الشبه
قائم فيهما على حد واحد لا يختلف ، لأن فى الليل وحشة ورهبة فهو أنسب لحال
الشاعر المسخوط عليه ، ولهذا المعنى جاء التشبيه بالشمس فى قول الآخر :

نِعْمَةٌ كالشَّمْسِ لما طَلَعَتْ بِثَّتِ الإِشْرَاقَ فى كُلِّ بَلَدٍ

(١) العمدة ج ١ ص ٣٠٠

والمراد عمومها لعموم الشمس ، وهذا العموم كائن فى الليل ، ولكن لا يصح أن يقال : نعمة كالليل ، « لأن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصى البلاد وانتشارها فى العباد بالليل ، ووصوله إلى كل بلد ، وبلوغه كل أحد ، لكان قد أخطأ خطأ فاحشاً ، إلا أن هذا وإن كان يجىء مستوياً فى الموازنة ، ففرق بين ما تكره من الشبه وما تحب ، لأن الصفة المحبوبة إذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريباً مما يناله الغرض نفسه ، وأما ما ليس محبوب فيحسن أن نُعرض عنها صفحاً وندع الفكر فيها » (١١) .

قلت : إن عبد القاهر روى هذا عن أهل العلم ، وتراه أحياناً يعرضه وكأنه مقتنع به ، ثم ما يلبث أن يضربه بكلام آخر ، ثم هو لم يكن من مداخلة فى دراسة التشبيه ، وإنما كان مدخله الأوضح هو استخراج العلاقات القوية التى يصير بها المختلف مؤتلفاً ، والمتناكر متناظراً ، وكلما أمعن التشبيه فى هذا كان أجزل وأنبّل ، وأدل على قدرة قائله ، وشاهد عبد القاهر على ذلك كثيرة ، منها أنك : لا تجد تناكراً أشد مما بين طلى الإبل الجربى ، وإصابة عين المعنى فى الكلام ، هذا شىء له دلالاته ومشاراته وظلاله ، وهذا شىء له دلالاته ومشاراته وظلاله ، ويمكن أن تقول على الأصل الدائر بيننا فى هذا الشأن : إن طلى الإبل الجربى يثير الإشفاق والانقباض والوحشة ، وإصابة عين المعنى فى الكلام فيه استرواح وغبطة وشعور بالإصابة والظفر ، وهما أمران مختلفان جداً ، فلا تقوم بهما صورة أليفة ، يفصح فيها المشبه به عن المعانى الروحية والوجدانية التى يستخرجها صاحب الكلام من المشبه .

(١١) أسرار البلاغة ص ٢٣٥ - ٢٣٦

ولكن عبد القاهر يقول فى هذه الصورة ، وهو يذكر فضائل التمثيل :
 « وهل يخفى تقريبه المتباعدين ، وتوفيقه بين المختلفين ، وأنت تجد إصابة الرجل
 فى الحجة ، وحسن تخليصه للكلام ، وقد مثلت تارة بالهناء ومعالجة الإبل
 الجربى ، وأخرى بحز القصاب اللحم ، وإعماله للسكين فى تقطيعه ، وتفريقه ،
 فى قولهم : « يضع الهناء مواضع النقب » وهو الجرب يطبق المفصل ، فانظر
 هل ترى مزيداً فى التناكر والتنافر ، على ما بين طلا القطران وجنس القول
 واليان ، ثم كرر النظر ، وتأمل كيف حصل الائتلاف ، وكيف جاء من جمع
 أحدهما إلى الآخر ما يأنس إليه العقل ، ويحمده الطبع ، حتى إنك لرأيت وجدت
 لهذا المثل قبولاً ، ولا ما تجده عند فوح المسك ، ونشر الغالية » (١) .

وهذا نظر آخر كما ترى ، والأصل فيه هو النظر إلى المُشَبَّه به من حيث مثول
 الجامع فيه وإشاعة هذا الجامع - بحسن التأنى فى سياسة الكلام - حتى يصير
 غالباً عليه . وكأنه ليس فيه إلا هو ، فهذا الطالى ينظر فيه إلى أنه يضع الهناء
 على عين الألم فيطفئه ، وهذا المتكلم يرمى بحجته الساطعة على ظلمة الشبهة
 فيذهبها « والمشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى به يجمع
 الشئين وينفى عن نفسه الفكر فيها سواء جملة » (٢) .



أثار بعض الدارسين شُبُهات حول تكوين الصورة البيانية فى تراث القدماء .
 ولا أريد أن أتابع هذه الشُبُهات ، لأن فيها سخائم لا تُطاق قراءتها فضلاً
 عن الاعتداد بها ، ومناقشتها ، وخاصة فى الكتابات المبتدئة ، والتى سلكت غير
 طريق الهدى منذ الخطوات الأولى ، ودلت على جهل مطلق وكامل فيما تعالجه
 من « مشكلات » البلاغة و « فلسفتها » و « وتقنياتها » ، أو الصورة ،
 وما فى باطنها من « الأسطورة » ... إلى آخر ما يُصاح به ، مما يحسن

أن نرّميه حيث يستحق ، ونتجه إلى كلام أهل العلم لمدرسة ما فيه ، سالكين فى ذلك مسلك سلكنا الذين أكدوا أنه لا يرد إلا على من يؤخذ عنه ، أى من له اجتهاد وفهم ، وهذا الرد محاماة عن صوابه وتخليص له ، أما ما لا يؤخذ عنه صواب فلا يرد عليه خطأ ، وهذا نظر دقيق .

ذكر الدكتور عز الدين إسماعيل أن الشعر القديم غلبت عليه النزعة الحسية ، وأن هذه النزعة انعكست على الصورة فامتازت بـ « الحرفية » و « الحسية » و « الشكلية » واستخلص ذلك كله من بيت ابن المعتز فى وصف الهلال :

انظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولُهُ مِنْ عَنَبٍ

ثم قال : وكذلك كانت الصورة القديمة جميلة ، ولكنه الجمال الذى يتمثل للحس ، وإعجاب الناس بها راجع إلى ذلك الجمال الذى يروع الحواس لأن فهمهم للجمال - كما ذكرت - كان يقف عند هذا المدى ^(١) .

وفى هذا الكلام تجاوز واضح لأنه أولاً لم يؤسس على نظر فى الشعر القديم ، وإنما هو مقتبس من كلام العقاد ، وسوف نذكر نص الأستاذ العقاد الذى لا يخرج حرف من كلام الدكتور عز الدين عنه ، ولأنه أيضاً استمد حكماً عاماً من بيت واحد اعتبره قياساً للأدب العربى كله ، وهو لا يصلح بأى حال أن يكون قياساً للقصيدة التى جاء فيها ، فضلاً عن أن يكون قياساً لفن ابن المعتز .

وكثيراً ما عينا القدماء لأنهم كانوا - أحياناً - يفضلون الشاعر ببيت واحد مع أن الفضيلة قد تتجلى فى كلمة ، ولم نجد منهم من أسقط شاعراً بقصيدة فضلاً عن أن يُسقطه ببيت ، والذى نحن فيه ليس إسقاط الشاعر ببيت ، وإنما هو إسقاط أدب أمة ببيت . وتأمل هذا لأنه جليل الدلالة على مقاصد الفضلاء .

(١) الأدب وفنونه ص ١٤٣

وهذا البيت وضعه البلاغيون موضعه ، وساقوه ضمن شواهد كثيرة لبيان حقيقة بلاغية محدودة بين حقائق البيان التي هي كالفوضى ، وهي أن التشبيه قد يُثير إعجابك ويُخرجك إلى روعة المستغرب حين يضع بين يديك شيئاً هو من افتنان شاعر ، وإبداعه ، ولا وجود له في غير شعره ، وإن كانت عناصره مما تراها في الواقع ، إلا أن تركيب هذه العناصر جاء على وجه آخر ، غير الذي تراه ، جاء صياغة ثانية للأشياء ، وتشكيلاً لها على وجه آخر ترى فيه أشياء أخرى وعوالم أخرى ، ترى « لَيْلاً تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ » و « زَوْرَقاً مِنْ فَضَّةٍ قَدْ أَنْقَلَتَهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنَبَرٍ » و « قُضْبَاناً مِنَ الدَّرِّ قُمَعَتْ يَوَاقِيتُ حُمْراً » و « إِبْرَأَ تَخِيطُ بَرُودِ الرِّيحَيْنِ » و « فَضَّةً بَيْضَاءَ سَائِلَةً مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا » و « ضَرِيحاً قَامَ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ » و « حِكْمَةً عَمِيَاءَ نَائِمَةً فِي عَاطِلٍ مِنْ فِجَاجِ الْفِكْرِ » ... إلى آخر ما تراه مما لا سبيل إلى رميه . وهذا شيء والأشكال الحرفية « الجامدة » شيء آخر ، و « الأشكال الحرفية الجامدة » ليست من هذا ولا من الشعر بسبيل ، كيف وقد صاح ابن الرومي لما سمع هذا البيت ، وقال : « واغونها » إنما يصف ماعون بيته ، وواضح أن ابن الرومي ليس منطقياً الحس ، ميت الباطن ، مكفوفاً عن أسرار الصور ، وإنما أهاجه أنها « حرفية - شكلية - جامدة » .

وواضح أن التشبيه يقع موقعه المقبول المرضى حين يبين عن المعنى الذي أراد المتكلم أن يبين عنه ، وحين يتعلق غرض الإبانة بالشكل أو اللون كان المتعلق به الغرض هو الأصل ، وإذا كانت حول المشبه مغان وأحوال ومشاعر ، وقصد من التشبيه أن يبين عنها وأبان ، فذلك حسبه ، وليس بلام دائماً أن تطرح الصور الحسية ، كيف وهي أكثر ما بُنِيَ عليها الشعر والأدب . والأستاذ العقاد - الذي كان أول مَنْ أثار هذا ، والذي اقتبس منه الدكتور عز الدين وغيره .. ديوانه فيه تشبيهات لا يمكن أن تَتَمَحَّلَ وتزعم فيها دلالات إيحائية قد أثارها المشبه في نفس قائله ، ولن أحيلك على شواهد معينة وسوف تجد في القصائد الأولى صوراً حرفية وأشكالاً حية وليس غير .

والتشبيهات التى لا يُنظر فيها إلا إلى الوصف الجامع ، ويُنفى ما سواه عن الفكر جملة - كما يقول عبد القاهر - كثيرة فى الكلام جداً ومقبولة ما دامت قد أبانت عما قصد الإبانة بها عنه ، وقد جرت فى كلام الذين رموا فى وجه من قرروا ذلك من القدماء ومنهم الدكتور عز الدين ، وإليك شاهد ذلك ، قال وهو يذكر الأدب والناقد ويبين عن مهمة كل منهما فى كلام خفيف طريق مُسلّ :

« وهنا يحضرنى مثال طريف قرأته ، هو أننا لا نرصد للوصف لوصفاً آخر ، وإنما نرصد له الشرطى ، فكذلك الأمر فيما يختص بالأدب ، فنحن عادة لا نرصد للأديب أديباً آخر ، وإنما نرصد له ناقدًا ، صحيح أن اللص قد يكون أعرف بأساليب اللص ، وصحيح أن الأديب قد يعرف الأديب ، ولكننا نضمن أداء بصورة أكثر إرضاءً عندما نعهد بها إلى الشرطى أو إلى الناقد .

ولسنا بطبيعة الحال نقصد بهذا المثل تشبيه الأديب بالوصف ، والناقد بالشرطى ، وإنما أردنا أن نضع يدنا على الفارق الواضح بين نوعين من العمل ، ومهمتين متباينتين ، هما مهمة الأديب ، ومهمة الناقد » ^(١) .

وهذا المثل لا تجانس بين طرفيه ، وحين نتكلم فيه بلغة العصر ، نقول : إن الإيحاءات والمشاعر والمعانى التى تفيض بها صورة اللص المرتجف فى قبضة الشرطى الشرسة ، لا تلتقى أبداً بما تثبته رؤية العمل الأدبى النابض برواجف القلوب تحت مجهر الناقد الحبير العضل ، وقول الدكتور : ولسنا بطبيعة الحال نقصد بهذا المثل .. إلى آخره ، هو ما يريده عبد القاهر حين قال : إنه ينظر فى المثل والتشبيه إلى الوصف المعين والمقصود قصده ، وما عدا ذلك فكأنه ليس موجوداً ، ولا تقل : إن هذا سياق آخر يقصد فيه إلى بيان الحقائق العلمية ، والتشبيه فى ذلك غير التشبيه فى الشعر والأدب ، لأننا نقول : إن سياق الشعر

(١) الأدب وفنونه ص ٧٠ .

والأدب لا يخلو من كشف حقائق وغوامض فى الفكر والوصف وغير ذلك مما يتخلله لسان الشاعر والأديب (١).

. قلت هذا ، وأقول : لماذا لا يكون الزورق الفضى منصفاً عن شعور بالبهجة ، والوضاء والصفاء ، والجمال المتجدد ، والصنعة المتألقة التى يفيض بها الهلال ؟ لماذا لا يكون لجوء ابن المعتز إلى اختراع هذه الصورة : « زورق من فضة .. » هو ذاته إحياء بالنماء ، والخصوبة والثراء ، وهو نفسه المفصح عن أناقة الشاعر ونعيمه واختياره وإحساسه بالأشياء - كما أشار ابن الرومى - وهى إشارة من بصير ؟ وإذا كانوا قد ذكروا - كما سنبين - أن البقار - أى راعى البقر - يُشَبَّه البدر بقطعة الجبن ، والمعلم يُشَبَّه بالرغيف ، فابن المعتز يُشَبَّه بزورق الفضة المثقل بحمولة من عنبر . وكل إناء ينضح بما فيه . ثم كيف يقضى الباحث على التشبيهات كلها بأنها من النوع الذى يضع شكلاً بإزاء شكل وضعاً حرفياً جامداً ، والشعر ملىء بالصور المفعمة بالأحوال والأسرار والغوامض . وهذه الصور شائعة مطروحة فى الكتب . وقل أن تخلو منها قصيدة من الشعر القديم . وأشير هنا إلى أبيات شائعة هى أبيات نصيب :

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قَبِيلٌ يُغْدَى	بَلَيْكَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ	تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
لَهَا فَرُخَانٌ قَدْ تَرَكَا بَوَكْرٍ	فَعَشُهُمَا تُصَفِّقُهُ الرِّيحُ
إِذَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ نَصًّا	وَقَدْ أَوْدَى بِهَا الْقَدْرُ الْمُتَاحُ
فَلَا فِى اللَّيْلِ نَالَتْ مَا تَرْجَى	وَلَا فِى الصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَّاحُ

(١) الأدب وفنونه ص ٧٠ .

وهذه كما ترى صورة - وإن كانت حكاية - يثوى وراء كلماتها وأحوالها ومداتها ، وغنائها ، الكثير مما اختلج به قلب نصيب ليلة « قيل يُغذى بليلي العامرية أو يُراح » وفي القطاة وألفتها وحنينها ، والشرك وسطوه وقهره ، وعاطفة الأمومة حول الأفراخ المضيفة في عش تصفقه الرياح . في ذلك كله أشياء وأشياء . تُدرس وتُستخرج . هذا فضلاً عما في بنائها اللغوي من أحوال كبناء الفعل للمجهول في قوله : « قيل » والترديد المستفاد من كلمة : « أو » ، والتنكير في : « قطاة » ، وإيثار كلمة : « عزها » على غلبها مثلاً . وفي صيغة المضارع : « تجاذبه » ... إلى آخر ما يمكن أن يقع عليه باحث متمكن ومتمرس كالدكتور عز الدين إسماعيل .

وأقول ثانية : إن هذه الصور في الشعر القديم باب لا تنتهي عجائبه .

وقول الفاضل : إن إعجاب القدماء بالصور « راجع إلى ذلك الجمال الذي يروع الحواس لأن فهمهم للجمال - كما ذكرت - كان يقف عند هذا المدى » (١) .

كلام فاسد جداً . ومخالف لصريح المعقول والمنقول . أما أنه مخالف لصريح المعقول : فلأن الذين لا يتذوقون الجمال إلا بعيونهم وأنوفهم ، وبقية حواسهم ، لا يكونون إلا قوماً لم يودع الله في هياكلهم قلوباً وأفئدة . ولم يُنبئ الحق جُلَّ جلاله أنه خلق أقواماً كذلك ، وإنما أنبأ أن ارتباط الحواس الظاهرة بالأحوال والحقائق الباطنة ، أمر في الإنسان لا ينفك ، فالذي لا يتأمل ما يرى ويسمع تأملاً يستخرج به من الأشياء دلالاتها ، كأنه قد فقد هذه الحواس ، وصار من الذين لهم أعين لا يُبصرون بها ، وآذان لا يسمعون بها ، وقلوب لا يفقهون بها (٢) .

وأما أنه مخالف لصريح المنقول ، فقد ذكرنا أن عبد القاهر كان يذكر أن النبيء عن مزايا الشعر إنما ينبئك عن أمر يقع « من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده » وأنه كان يتمثل بقول الشاعر :

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥١

(١) الأدب وفنونه ص ١٤٣

إذا لم تُشاهدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيْئَاتِهَا وأعضائها فالحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبٌ
وكان كثيراً ما يردد أن بلاغة الكلام ليست لك حيث ترى بعينك وتسمع
بأذنك « بل حيث تنظر بقلبك ، وتستعين بفكرك ، وتُعمِلُ رَوِيَّتَكَ ، وتراجع
عقلك ، وتستنجد في الجملة فهمك » (١) .

ولو كان فهم الجمال واقفاً عند هذا المدى الذى يروع الحواس لتساوت فيه
الأقدام ، لأن الناس جميعاً شركاء في رؤية الأشكال الحرفية الجامدة .
وقد ذكروا أن هذا العلم « قليل رجاله كثير أدعياءه » وقال الأصمعى
وطبقته : « العلم بالشعر أعز من الكبريت الأحمر » .

وهذا وأكثر منه واضح جداً في كلام العلماء والاستشهاد له تكلف ، ولكنى
اضطرتُّ إلى ذكره لأن هذا الفساد يغزو القلوب والعقول ، وخاصة حين يكون
في كتابة رجل جهير كالكتور عز الدين .

ثم قال - بعد ما قُبِحَ الصورة القديمة - مائلاً حائداً - يُنَوِّه بالصورة الحديثة :
« إن الصورة حديثاً تتخذ أداة تعبيرية ولا يُلتفت إليها في ذاتها ، فالتقارىء
لا يقف عند مجرد معناها ، بل إن هذا المعنى يثير فيه معنى آخر هو ما سُمى
معنى المعنى . بعبارة أخرى : أصبح الشاعر يُعَبِّرُ بالصور الكاملة المعنى كما
يُعَبِّرُ باللفظة ، وكما كانت اللفظة أداة تعبيرية ، فقد أصبحت الصورة ذاتها هى
هذه الأداة » (٢) يعنى أن الصورة صارت كأنها كلمة من حيث دلالة كل على
معناه .

ولو رجع الدكتور عز الدين إلى كلام القدماء لأراح واستراح ، لأن هذا الكلام
هو نفسه ما قالوه . وقد ألمعنا إليه . والآن أضع نص عبد القاهر بين يديك ،
قال رحمه الله : « الكلام على ضربين : ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة
اللفظ وحده ، وذلك إذ قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت :

(٢) الأدب وفنونه ص ١٤٤

(١) دلائل الإعجاز ص ٥١

خرج زيد ... وضربَ أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده . ولكن
يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد
لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر :
الكناية والاستعارة والتمثيل » (١) .

وهذا تفريق لا يلتبس بين العبارة عن المعانى بالألفاظ - أى اللغة المجردة -
والعبارة عنها بالصور والأحداث . تأمل قوله : « يدلك اللفظ على معناه الذى
يقتضيه موضوعه من اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى
الغرض » تجده صريحاً فى أن الصورة تُتخذ أداة تعبيرية . ولا يلتفت إليها فى
ذاتها لأنها ليست مقصودة . وإنما جرىء بها لنتنقل من المعنى الدالة هى عليه
« الصورة الحسية » إلى المعنى المقصود ، كدلالة غلظ رأس الحمار على تفوقه
فى البلادة .

ويقترّب عبد القاهر أكثر من الذى قاله الدكتور فى الصورة الحديثة حين يقول :
« وإذا فرغت من هذه الجملة فههنا عبارة مختصرة . وهى أن نقول : المعنى
ومعنى المعنى ، نعى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ . والذى تصل إليه بغير
واسطة ، ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى . ثم يُفضى بك ذلك المعنى إلى
معنى آخر » (٢) .

وقد بسط عبد القاهر ذلك فى مواضع كثيرة ، منها ما هو أصرح من هذا
الذى ذكرناه .

وكثيراً ما أرى نكراناً لكلام القدماء لا يقوم على فهم ، كما أجد تنويعاً
بكلام للمحدثين يوشك أن يكون هو نفسه فى كلام القدماء ، كالذى رأيت .
والذى يراجع كتب الدكتور عز الدين إسماعيل - وهو من لهم صلة بكلام القدماء

(٢) المرجع نفسه .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢١

- يستخرج من ذلك ما يُسوّد صفحات كثيرة وخاصة كتابه « الشعر المعاصر .. قضايا وظواهره الفنية » وهو من أحكم ما كتب ، وفيه من هذا ما يملأ جوف حمار .

* * *

لا ريب أن الدكتور محمد غنيمي هلال - رحمه الله - له في صدور أهل العلم ما لا يُجحد ، ولا ريب أنه واحد من قلة قليلة كتبت في النقد الحديث وهي قادرة على قراءة وفهم كلام القدماء ، وقد كان رحمه الله ينفذ بذكاء وصبر إلى مراد عبد القاهر وكان حفيظاً به . وبمقدار علمه وفضله - رحمه الله - يكون خطر الهفوة التي لا ينجو منها عالم على عقول قرائه وعارفي فضله ، وخاصة إذا كانت عامة تلم بالتراث البلاغي والنقدي كله .

ذكر رحمه الله أن تشبيهات القدماء كانت مستمدة من حياتهم وبيئاتهم وتجاربهم ، وأنها لا ينبغي أن تكون عقبة في سبيل التزود بكل جديد . تسفر عنه المعارف ، والتجارب الجديدة . فلكل شاعر تجاربه وبيئته الخاصة ، ولكل موقف مقتضياته . وهذا كلام جيد إلا أنه قال بعده : « ولكن هذا ما لم يسر عليه هؤلاء النقاد ، ولم يريدوه في حصرهم لتشبيهات العرب وضروب خيالهم ، وإنما أرادوا أن يجعلوا منها ما يشبه السُنن لكي يحتذيقها الشعراء » .

ثم نقل نصاً لابن طاطبا يقول فيه : « فالشاعر الحاذق يمزج بين هذه المعاني في التشبيهات لتكثر شواهدا ويتأكد حسنهما ، ويتوقى الاقتصار على ذكر المعاني التي يغير عليها ، دون الإبداع فيها والتلطف لها . لئلا تكون كالشئء المعاد المملول » .

ثم علق بقوله : « وبهذا لا يكون النقد إشادة بأصالة الكاتب وكشفاً عن الصلة بين أدبه وتجاربه ، أو بين أدبه وفكره ، ولكنه صار تلقيناً لكيفية الإغارة على معاني الأقدمين » ... إلى أن قال : « وبهذا سيطر التقليد على دراسة

المعانى والوجوه البلاغية ، وكان الخطر فى دراستها بهذه الروح أسوأ أثراً من تركها جملة » ، ثم أوجز حال البلاغة القديمة فى أوروبا وأنها أصابها مثل ذلك ، ثم رجع إلى البلاغة العربية ليقول : « ثم تعرضت البلاغة العربية لما هو شر من ذلك ، إذ ولع أصحابها بالمماحكات اللفظية وبكثرة التقسيمات التى لا جدوى من ورائها والجدل المنطقى العقيم ، وبلغ الأمر فى ذلك أقصى ما قدر عليه على يد السكاكى ومَن تبعوه » (١) .

وواضح من هذا السياق أن كلمة ابن طباطبا هي التى جرت هذا الذى انتهى إلى القول بأن الخطر فى دراستها بهذه الروح ، أسوأ أثراً من تركها ، ثم يأتى السكاكى ومَن بعده فيغشى عليهم وتعصب أبصارهم وبصائرهم ويكدحون فى سبيل معرفة ضارة تفسد العقول إفساداً أبشع وأشنع من إفساد الجهل .

وليس فى الخذلان الذى يضربه الله على مَن يشاء من عباده أهول من أن يخذل أجيال العلماء فيعمى عليهم ، ويُعلموا الناس علماً أسوأ من الجهل ، وإذا كان علمهم هذا هو المصباح الذى كان فى أيديهم وهموا أنهم يجوسون به خلال غوامض الشعر وأسرار الأدب والقرآن والحديث ، فياضيعه ما فعلوه ، وما سواه ما قالوا فى ذلك كله .

وبديهية العقل تقضى أن هذا الحكم إنما يكون بعد الإلمام الدقيق بكل ما قاله العلماء فى هذا الباب ، ونفضه كلمة كلمة ، وليس التأكد من أنه ليس وراء كلمة منه فائدة فحسب ، وإنما التأكد من أن وراءه شيئاً هو شر من الجهل ، ولا يجوز فى أى منهج - متطور أو متخلف - الانتهاء إلى هذا الحكم الطاغى من خلال نص واحد . مهما كانت منزله قائله . ومهما كان من صريح الخطأ الذى لا يحتمل وجهاً من الجنباب . فما بالنا إذا كان هذا النص قد قُسرَ تفسيراً راق أهل العلم . ومنهم الدكتور غنيمي رحمه الله .

(١) النقد الأدبى الحديث ، صفحات ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

وأقول : إن نص ابن طباطبا لم يجعل تشبيهات القدماء كالسُنن التي تُحتذى وليس فيه ما يدل على ذلك ، لا من قريب ولا من بعيد ، وإنما يقول : إن الشاعر الحاذق حين يقع على هذه التشبيهات فى شعره ، عليه أن يضيف إليها من فنه ما يجدها به ، وأن يُفرغ عليها من ذات نفسه وحسه ما يجعلها أشبه به ، وهذا هو معنى « الإبداع فيها » وهذا شيء ووجوب احتذائه لها شيء آخر . إلا إذا أزلنا اللغة عن دلالاتها ، وقرأ النص مرة ثانية . وواضح أن الشعراء كان ينظر بعضهم فى صور بعض نظر مَنْ يعرف أسرار الصنعة ويميز صحيحها من زائفها ، وكانت الصور المتقنة تطفئ على نفوسهم فتهيجها وتستثير قُوى الإتيقان فيها ، فلا يقر قرار الواحد منهم حتى يقذف خاطره بما يفوقها ، أو يساويها ، أو يدانيها . كالذى كان من بشار لما سمع قول امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَأْسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

فلم يقر له قرار حتى قال تشبيهه الرائع :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وكالذى كان من أبى نواس لما سمع ابن الضحَّاك ينشد :

كَأَنَّمَا نَصَبَ كَأْسُهُ - قَمَرٌ يَكْرَعُ فِي بَعْضِ أَنْجُمِ الْفَلَكَ

فنعر أبو نواس نكرة منكرة . فقال له الحسين : ما لك فقد رعتنى ؟

فقال : أنا أحق بهذا المعنى منك . ولكن سترى لمن يُروى . ثم أنشده بعد أيام :

إِذَا عَبَّ مِنْهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خَلَّتْهُ يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكْبَا

وهذه صورة من صور الإغارة ، لأنها لم تكن تعنى ما يُراد بها فى استعمالنا ، وهناك صور كثيرة فتحها واحد ، ثم تتابع عليها كبار الشعراء ، كقول النابغة :

إذا ما غَزَوْا بالجيشِ حَلَقَ فوقهم
عصائبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بعصائبِ

تتابع عليها أبو نؤاس ومسلم وأبو قحافة وسلم الخاسر والمتنبى وغيرهم .

وقد جهد كل منهم في أن يقيم هيأتها على الوجه الخاص به . وهذه واحدة من صورة الإغارة أيضاً .

لحظ البلاغيون ذلك ، ولحظوا أيضاً أن هناك تشبيهات مشتركة وعامة ومبتذلة . كتشبيه الشجاع بالأسد . والجواد بالغيث . والناهب بالبدر . وليست هذه من الإغارة ، لأنها من المدرك بالفطرة ، ثم إنها مع شيوعها وقربها وابتذالها ، قد يفرغ عليها الشاعر الحى الحاذق من حسه وفنه ما ينفذ عنها هذا الشيع والابتذال ، ويجعلها أشبه بالصور الخاصة التى تقع لواحد دون آخر ، وأن ذلك كائن أيضاً فى الاستعارة . فعقد البلاغيون باباً فى « إخراج القريب المبتذل إلى البعيد الغريب » فتح عبد القاهر هذا الباب ، وذكر له شواهد تناقلها البلاغيون ، وأضافوا إليها . وإن ظلت شواهد عبد القاهر هى العدة فى الباب .

ومن الشواهد التى ذكرها الدكتور غنيمى هلال قول كثير : « وسالت بأعناق
المطى الأباطح » وقول الآخر :

سالتُ عليه شِعَابُ الحَيِّ حين دعا
أنصاره بوجوهٍ كالدَّانِيرِ

وقول ابن المعتز :

وإِنِّى على إِشفاق عيني من العدا
لَتَجْمَعُ مِنِّى نَظْرَةٌ ثم أُطْرِقُ^(١)

ومن شواهد التشبيه :

يكساد يَحْكِيكَ صَوْبُ الغَيْثِ مُنْسَكِبًا لو كان طَلَقَ المَحْيَا يُمْطِرُ الذُّهْبَا
والبدرُ لو لَمْ يَغِبْ وَالشَّمْسُ لو نَطَقَتْ والأسدُ لو لم تُصَدِّ . والبحرُ لو عَذَّبَا

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٢٨١

وقول ابن الجهم :

عَشِيَّةَ حَيَانِي بَوْرِدٍ كَأَنَّهُ خُدُودُ أُضِيْقَتْ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ

وقول أبي سعيد المخزومي :

والوردُ فيها كأنما أوراقُهُ نُزِعَتْ وَرْدٌ مَكَانَهُنَّ خُدُودُ

وأنت ترى أن هذا الشيء ، وتشبيهه الجواد بالغيث ، والنابه بالبدر ، والشجاع بالأسد ، والورد بالحد ... شيء آخر .

وهو باب جيد فيه روائع لا ينكرها أهل الطبع .

هذا وجه كلام ابن طباطبا كما فهمه أهل العلم ، وهذا سياق الفكرة في حركة التراث .

وقد كان ابن طباطبا ذا بصر أدرك بلطف طبعه أن الخالفين قد يغمض عليهم كلام سلفهم ، وأن ذلك مظنة التهمة التي قد يتورط فيها الخلف فتسوء مقالته في سلفه ، فأسدى إلى الخلف نصيحة طيبة قال فيها :

« فإذا اتفق في أشعار العرب التي يُحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول ، أو حكاية تستغربها ، فابحث عنه ، ونقّر عن معناه ، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيثة إذا أثرتها عرفت فضل القوم فيها ، وعلمت أنهم أدق طبعاً ، من أن يلفظوا بكلام لا معنى له » (١) .

وهب أن ابن طباطبا كما فهمه الدكتور ، فهل يجوز أن يؤخذ ابن طباطبا بهذا ، وأن يُهدم كله ، ثم يهدم تراث الأمة التي هو منها ؟ هذا خطأ شاع وألفناه ، وهو زلة مبيرة ، أغلقت وتغلق في وجوهنا كثيراً من أبواب الصواب . وقد سبق أن ذكرت في مناقشة مثلها عند الدكتور عز الدين أننا عيّنا القدماء

(١) عيار الشعر ص ١١ .

لأنهم رفعوا الشاعر ببيت . ثم رقعنا فيما هو أسوأ منه لأننا هدمنا الشاعر ببيت ، والفرق كبير . لأن البيت الجيد قد يكشف عن موهبة تريك مكان الرجل من الفضل ، والبيت الضعيف لا يدل على فساد الطبع ، وإنما هو الفتور والانقطاع ، والنقص الذى هو ضربة لازب على كل عمل من أعمال الإنسان ، لأنه ضربة لازب فى فطرة الإنسان ، وجل الذى يقول : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ (١) ، وكم بين أيدينا من شعر فاسد صدىء قاله الشعراء الذين طالما أصغت الأحقاب والأجيال لرائق غنائهم ، ثم إننا تورطنا أكثر فأسقطنا الشعراء كلهم ببيت ، والنقاد كلهم بنص . وهذا خطأ كأنه النار تحترق بها عقولنا ، قبل أن يحترق به ثرائنا . وليت شعرى هل يدرك الأماجد هذه البديهة ؟ أم أنهم إلى هذا الحريق يقصدون !!

وأقول ثانية : هَبْ أن كلام ابن طباطبا كما فهمه الدكتور ، فهل كان ابن طباطبا رحمه الله إلا ورقة متواضعة فى دوحة شامخة ربانة ؟ وإذا كان كذلك ، وهو كذلك بلا ريب ، فأين يقع نصه هذا من ثراث هو كالبحر يفيض ويزخر ؟

وإليك نصوصاً أخرى فى بابيه مما استخرجه الدكتور من نص ابن طباطبا وهى جاهرة بالذى يريده رحمه الله وأثابه :

قال ابن رشيقي : « وقد أتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون إلا القليل عن مثلها ، استبشاعاً لها ، وإن كانت بديعة فى ذاتها » (٢) .

وقال : « إن طريق العرب القدماء فى كثير من الشعر قد خولف إلى ما هو ألبق بالوقت وأشكل بأهله » (٣) .

وفى ملخصات البلاغيين حكاية طريفة لبيان أن المشبه يستمد صورته من حياته هو ، لأن الأشياء لا تقع فى النفوس على حد واحد . وإنما يكون ذلك وفق

(٣) العمدة ١/١ : ٣٠

(٢) العمدة ١/١ : ٢٩٩

(١) النساء : ٢٨

الأحوال والتجارب ، فالشيء الواحد يثير فى نفوس مَنْ يرونه صوراً مختلفة باختلاف أحوال هذه النفوس ، واهتماماتها ، وما تمارس وتعيش فى تجاربها وصناعاتها . لأن كل ذلك يداخل الطبع وينفث أثره وصوره فى ضمير النفس . قالوا : يُحكى أن صاحب سلاح ملك ، وصائغاً ، وصاحب بقر ، ومعلم صبية سافروا ذات يوم ، ووصلوا سبر النهار بسير الليل . فبينما هم فى وحشة الظلام ، ومقاساة خوف التخبط والضلال ، طلع عليهم البدر بنوره فأفاض كل منهم فى الثناء عليه ، وشبهه بأفضل ما فى خزانة صورته ، فشبهه السلاحى بالترس المذهب يُرفع عند الملك ، والصانع بالسبيكة من الإبريز تفتت عن وجهها البوتقة ، والبقار بالجبن الأبيض يخرج من قلبه طرياً ، والمعلم برغيف أحمر يصل إليه من بيت ذوى مروءة .

وذكروا أيضاً : أن ورأقاً وصف حاله فقال : عيشى أضيق من محبرة ، وجسمى أرق من مسطرة ، وجاهى أرق من الزجاج ، وحظى أخفى من شق القلم ... إلى آخر ما قال . ثم علق أهل العلم بقولهم : ولصاحب علم المعانى فضل احتياج إلى مثل هذا . هذا كله يمكن أن يكون هامشاً على قول ابن الرومى السابق : « إنما يصف ماعون بيته » وأنه - أى ابن الرومى - يُحسِّن وصف الخباز الذى يدحو الرقاقة مثل اللحم بالبصر ، فاستمداد صور الكلام وبنيته من داخل نفس المتكلم هو فِطْرَةُ اللَّهِ التى فَطَرَ الناسَ عليها ، وإذا عمل أحدكم عملاً ألقى الله عليه رداء عمله ، فيرى عمله هذا فى شمائل منطقته ، وليس من الممكن أن تكون صور واحد سُنْناً تُحتذى لغيره ، إلا إذا نزعنا قلب الأول ووضعناه فى صدر الثانى .

وهذه بدائه كما ترى ومطروحة فى الكتب كبيرها وصغيرها ، فليس من الصواب فى شيء أن يُقال : إن القدماء أهملوا الكشف عن الصلة بين أدب الأديب وتجاريه . وأنهم عنوا بتلقين كيفية الإغارة وهذا من محض الباطل ، وأن خطرات البلاغة فى بحث المعانى ووجوه بلاغتها كانت تحت سيطرة التقليد ... إلى آخر ما جاء فى كلام الأستاذ مما لا ينهض على ساق صحيحة ولا على ساق عرجاء .

وهناك أمر مهم ؛ وهو أن تجارب الأدباء والشعراء ليست فيما يتقلبون فيه من شئون عيشهم فحسب ، وإنما يدخل فيها - وفي القلب منها - تراثهم الأدبي ، لأنه أنهم ما يغذو القلوب والعقول ، وأطهر ما يطهر الأفواه من ساقط القول ورذله ، ثم إن هذا الموروث منظور لا محالة على بيئة هي أفسح وأرحب من البيئة الضيقة التي يعيشها الشاعر في زمان ومكان محدودين ، وهذه البيئة المضمرة في الكلمات تحيا في نفوس الشعراء حياة تقوى أو تضعف بمقدار عكوفهم على هذا التاريخ وهذا التراث ، وطول ممارستهم لتجاربه . ومن هنا بقى إحساسنا بمضاء السيف وحسمه وبمائه وفرنده ، إحساساً يقرب من إحساس الذين لازموه .

وهذا هو المنفذ الطبيعي والمشروع لتسلل تشبيهات القدماء إلى أفواه المحدثين ، وهذا لا يصادم ما نسميه أصالة الكاتب والصدق الفني ، والمبين بهذه الصور التراثية التي مازجت نفسه ، وصارت جزءاً من لغته مبين بلسانه هو وماتح من بثره هو ما دام يجرى على سجية طبعه ، وراجع كلمة « ماتح من بثره » تراها جرت في الكلام .

ولم أقف على فم قليب ، وراجع كلامك تجد فيه الكثير من هذا .

وهكذا تجد شعراءنا يذكرون الفارس ، والحسام ، والسهام ، والدروع مع خشخشات الزنايق ، والزورق الفضي ، واليم المسحور ، وهكذا تتواصل الأجيال والآداب ، والأمم .

وكلمة « الأصالة ، والصدق الفني » من الكلمات الآخذة ، ذات الرواء ، والتي امتدت إليها السنة كثيرة لتأخذ حظها من بريقها ، وطرافتها ، وهذا حسن ، ولكن في غمرة الانبهار بعصريتها وحداثتها رُمي السلف بأنهم لم يفتنوا إلى مدلولها ، ناهيك عن ما يرمى به من تزين له هواجسه الذود عن حياض من أخلصوا للحقيقة إخلاصاً غاب في ضباب زمن ردىء .

ومما علّق به الدكتور غنيمى رحمه الله على نص ابن طباطبا السابق أنه ذكر أن هذا النقد ومثله - وهو يعنى النقد العربى لأنه بتّ أن النُّقَاد ساروا على الطريق الذى يمثله نص ابن طباطبا كما فهمه - خطر على الأدب وأصالة الكاتب ، والقيم الخُلُقِيّة معاً ، إذ يصبح الأدب عبارات تُقال لا تنم عن شخصية الكاتب ، وحقيقة الموقف .

والشئ الذى يُحِبُّ أن كثيراً مما رُمى به علماء هذا العصر سَلَف هذه الأمة هو مما يُدرك ببداهة العقول ، وتصيبه الفطرة .

فإدراك صدق الكلام وزائفه ، أى ما يتسلسل منه من ينابيع القلب ، وما يعضه اللسان لا يتجاوزه لا يخفى وإن زوّرَ اللسان وتَمَقّق .

تسمع العامة يقولون : إنهم يعرفون صدق الرجل وكذبه من لهجته ، ومن عينيه ، فكيف نقضى بجهل علمائنا بما يعرفه أخطاؤنا وأفناؤنا ؟

نعم .. هم لم يُكثروا الكلام فى ذلك ، لأنه من البدائى كما قلت ، وإن كانوا لم يهملوه ، فهذا رجل ليس من المعروفين بصناعة الأدب ، وإنما أخذ منها الحظ الذى كان يأخذه كل عالم من علماء المسلمين يقول فى بيان قيمة الكلام على دواخل نفس قائله ، ويفصح عن الصلة بين الأدب وتجارب الأديب ، وكيف ينم عن شخصيته وحقيقة موقفه كما يعبر الدكتور غنيمى رحمه الله :

« وقد ينبىء الكلام عن محل صاحبه ، ويدل على مكان متكلمه ، وينبئ على عظيم شأن أهله . وعلى علو محله ، ألا ترى أن الشعر فى الغزل إذا صدر عن محب كان أرق وأحسن ، وإذا صدر عن متعمل وحصل من متصنع ، نادى على نفسه بالمداجاة وأخبر عن خبيثته فى المراءاة . وكذلك قد يصدر الشعر فى وصف الحرب عن الشجاع فيعلم وجه صدره ، ويدل على كنهه وحقيقته . وقد يصدر عن المتشبه ، ويخرج عن المتضع ، فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه . ويظهر من أمره خلاف ما يبديه » (١) .

(١) إعجاز القرآن ص ٢٧٧

وذكر أيضاً : « أنك تعرف من الكلام : الباكي المتضاحك ، والباكي الحزين ، والضاحك المتباكي ، والضاحك المستبشر . وأن إبانة الكلام عن هذه السرائر البعيدة الدفينة تحتاج إلى لطف فى الطبع ولطف فى اللسان » (١) .

وحين ينوه النقد بالكلام الذى ينبع من هذه المنابع . وينال هذه السرائر لا يكون « خطراً على الأدب ، وأصالة الكاتب ، والقيم الخلقية » ، ولا يصح « عبارات تُقال لا تنم عن شخصية الكاتب ، وحقيقة الموقف » .

ولا يُتصور أن يكون هناك علماء يستخرجون من الكلام الذى حذقوا نقده ، وأحكموا عبارته أصولاً ، تكون هذه الأصول خطراً على الأدب . وأصالة الكاتب ، والقيم الخلقية ... إلى آخر هذه السلسلة الباغية ، إلا أن يكون هؤلاء العلماء فى أمة لم يخلقها الله بعد . وجَلَّتْ حكمة الحكيم سبحانه أن يبعث فى الأرض أمة فارغة ضالة ، يكون أهل العلم منها على هذا الحد الذى يصفه هذا الكلام .

بقى أن أذكر شيئاً من كلام الدكتور غنيمى هلال رحمه الله وفى كلام غيره ، وهو أنهم إذا تكلموا فى البلاغة نعتوها نعتاً رديئة ، وقبَّحوها من جهاتها كلها ، وإذا تكلموا عن عبد القاهر نوَّهوا به وبخصوبة فكره ، وأنه تعود فى معرفة أسرار الكلام وتراكيبه ، إلى أصول تُذهل عقل الباحث المحدث ، حين يقارنها بما يقوله فلاسفة الجمال ، وعلماء الأسلوب ، لأنه يجد هذا الشيخ الجليل ، قد فطن إلى أشياء تُعد من جوهر الفكر المعاصر ، وأصول النقد الحديث .

وكان البلاغة شىء ، وتراث عبد القاهر شىء آخر ، وهذا كلام خطأ وفاسد لأن البلاغة التى قبَّحوها هى تراث عبد القاهر الذى نوَّهوا به ، فهو الذى طرق طريقها ، ونهج سبيلها ، وفتح مغاليقها ، ووسع باب الكلام فيها .

(١) إعجاز القرآن ص ١١٩

وكان التراث البلاغى الذى ورثه هو - كما وصفه : « وحيأً ورمزاً وكالإشارة إلى مكان الخبىء ليُعرف » وهذا هو الذى جعله ينصب بعقله ، وقلبه ، ووقته ، وكده للاجتهاد فى هذا الباب ، فانفتح له ما انفتح ، وأودع خلفه تراثاً شغله ، فكان كل من جاء بعده مستمداً منه ، دائراً فى محيطه ، إلا فى القليل كابن أبى الإصبع الذى يستمد من قدامة ، وأبى هلال ، وابن رشيق ، وكابن الأثير الذى كان يقتبس مما تقع عليه يده ، وليس هؤلاء هم المقصودين برمى من يرمى ، وإنما المقصود هو السكاكى والخطيب القزوينى وشرأح التلخيص ، ومن سار على دربهم ، لأن هذا « آخر ما استقر عليه الأمر وثبت ، وأضحى هو المراد عند الإطلاق ، وهو المتناول الآن فى معاهد درس هذه المادة » على حد تعبير المرحوم الشيخ أمين الخولى الذى كان من أوائل من أطلقوا قالة السوء فى هذا العلم وأهله .

وهؤلاء هم الذين أقول فيهم : إن مادتهم البلاغية لا تعدو أن تكون صياغة ثانية لكتابه عبد القاهر إلا فى مسائل محدودة ، ولو نفضت « مفتاح العلوم » ، الذى هو رأس هذا الطريق من تراث عبد القاهر ، لكان أكثره صُحفاً بيضاء ، ومفتاح العلوم هذا ، مبنى كما هو صريح كلام صاحبه على « تلخيص ما قاله الأصحاب » هؤلاء الأصحاب هم عبد القاهر ، والزمخشري ، وابن الخطيب الرازى ، أما الزمخشري فهو امتداد لعبد القاهر ، وصياغة تطبيقية لأفكاره ، وأما ابن الخطيب فقد دخل هذا الباب محمولاً على فكر عبد القاهر ، لأنه ليس له فيه إلا كتابه الذى لخص فيه أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، وقد أودع ذلك فى تسمية كتابه .

وبهذا يظهر ظهوراً قاطعاً أن كتاب « المفتاح » هو الشكل المصنّف والمقنّن لتراث عبد القاهر ، والذى كان يضيفه أبو يعقوب هو كما قال : « ضبط معاهد العلم » والذين جاؤوا بعد « المفتاح » ملخصون له وشرأح ، وكان العلماء أمناء

غير متزידين ولا متنفجين لأنهم كانوا يشيرون فى تسميات كتبهم إلى ما يُنصح عن أصول مادتها ، فالخطيب القزوينى يسمى كتابه الأول « تلخيص المفتاح » ، وكتابه الثانى « الإيضاح لتلخيص المفتاح » ، وابن يعقوب المغربى يسمى كتابه « مواهب المفتاح فى شرح تلخيص المفتاح » ، وابن السبكى يسمى كتابه « عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح » ... وهكذا .

فالذى يمدح عبد القاهر ويقدر فى هؤلاء العلماء ، إما أن يكون جاهلاً بتراث عبد القاهر وإنما مدحه لأن الناس مدحوه ، أو جاهلاً بتراث هؤلاء العلماء وقدر فيهم لأن الناس قدحوا ، ولا يصح فى العقل غير هذا .

وبقى أن أقول : إن الذى نقص من بلاغة عبد القاهر عند هؤلاء العلماء شىء واحد هو « سنجية عبد القاهر » كما قال أستاذنا الأستاذ محمود شاكِر ، أما أصول تراكيب الكلام ، وصوره ، وقواعده ، وشواهدة فهو هو ، إلا فيما قلَّ بما لا يتجه به إلى العلم مدح ولا قدح .

وتجد هذه العجيبة فى النحو ، يذكر الناس نبوغ الخليل وسيبويه ، وتهديهم إلى سرائر فى علوم اللسان ، ثم تشتد المقالة فى النحو وجموده ، وبنائه على شواهد الزور ، وأخيراً تخلفه عن ركب « التطور اللغوى » .

وتجد ناساً من النحويين المخلصين يجتهدون فى البحث عن « توليفة » ينهض بها هذا النحو العجوز المتشاقل ليخف نشاطاً ، وثأباً جذعاً ، فيلحق بركب « التطور اللغوى » .

وهذه الألاعيب الفارغة هى التى تقلأ دور العلم عندنا ، وتفرغ فى قلوب طلابه ، وتستهوئ عقول الصغار والكبار برنة الحداثة التى صادفت قلوباً أوجعها التخلف ، فرنت إلى كل ما يخلصها منه ولو كان وهماً من الوهم .

وقد وصف الأستاذ محمود شاكر صنيع الأئمة بعد عبد القاهر فى تراثه كما
أولم إلى موقف أهل العصر من هذين العلمين الشريفين « النحو » و « البلاغة »
بكلام شريف منه :

« وقد جاءت الأئمة بعد عبد القاهر ، وبلغوا غاية البراعة والحذق فى البيان
عن « البلاغة » ، وفى الزيادة على ما قاله شيخ البلاغة من وجوه مختلفات ،
ولكن لم يكن لأحد منهم مثل سجايا عبد القاهر ، فى تذوق البيان ، ولا فى
الإبانة عن وجه هذا التذوق ، ولجميعهم فضل باهر ، ولكنه بان منهم بفضل
لا يدانيه فيه أحد ، وبمزية لم يؤت مثلها منهم أحد » .

تأمل أدب ذكر العلماء ولك أن تقارن ، ومنه :

« ونفثة مصدور أختم بها هذا التاريخ ، إن طائفة من متهورى أهل زماننا ،
وهو زمن التهور والثرثرة ، قد أوغلوا إيغالاً شنيعاً يلحق بالعبث فى التهوين
من شأن النحو ، الذى بنى عليه عبد القاهر نظره فى الكشف عن إبهام
« البلاغة » ، فوضع أساس علم تحليل التركيب اللغوى ، تحليلاً يبين عن
درجات « البيان » الإنسانى فى جميع لغات البشر ، وعن سر تأثير الكلام
المركب من الألفاظ فى نفس الإنسان المتذوق لهذا الكلام ، فيهتز لبعضه اهتزاز
الأريحية ، ويجد له من العذوبة والبشاشة ما يحمله على حفظه ، وترديده ،
وتأمل جماله ، وروعته ، وجهلة الدعاة إلى « تبسيط النحو » الموهنين من شأنه ،
إنما يريدون علماً فارغاً ، لا يزيد على أن يكون مجرد عاصم من الخطأ فى ضبط
أواخر الكلمات رفعاً ، ونصباً وجراً ، وجزماً لا غير » . ثم قال يصف الموقف
من البلاغة :

« وطائفة أخرى من الأدباء والشعراء الذين هبطوا إلى أرض الأدب والشعر .
وهى خواء مقفرة ، هم أشد إيغالاً فى الطعن على « علم البلاغة » بفرعيه :
« علم المعانى » ، و « علم البيان » وتابعهما « علم البديع » ، وهم أيضاً أشد

تهويناً لشأن البلاغة ، وأبلغ فسقاً وخروجاً عن منازلها ، ومراتعها ، ورياضها ، ثم لا يدرى هؤلاء الطاعنون من جهلة زماننا ، أنهم بجهلهم يقتلون « البيان » فى أنفسهم ، وفى أنفس البشر من بنى جلدتهم ، و « البيان » هو النعمة التى من الله بها على الإنسان ، ليُخرجه من حيز البهائم والعجاوات ، فهم أخرى أن يدركوا أنهم بجهلهم وتهورهم يقتلون لغة يسر الله نزول القرآن بلسان أهلها ، وهم نحن العرب ، والله سبحانه يقول لنا ، فى سورة الأنبياء : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، وأسأل الله ألا يتم علينا وعليهم قوله سبحانه فى سورة المؤمنون : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

وذلك يرجوع هؤلاء الطاعنين إن شاء الله عما هم اليوم فى شأنه مسرفون ، فإذا فعلوا فعسى أن يأتى يوم ، يأذن الله فيه بأن ينشأ منا ، أو من أعقابنا ، من يتمم عمل عبد القاهر ويكشف ما عجز عن بيانه وتفسيره ، فى شأن « طبع القرآن ، ومخرجه ومخرج آياته » ويومئذ يتغير القول فى مسألة « إعجاز القرآن » تغيراً يخرجنا من هذه البلبلة التى استمر إبهامها قروناً طويلة (٣) .

هذا شىء ، والكلام الذى يبطش بعقول طلاب العلم ويُميلها إلى جانبه عنوة وقسراً شىء آخر ، وفرق بين كلمة تُغرى طالب العلم بالمعرفة ، وكلمة تصرفه عنها ، والفرق بينهما كالفرق بين الصاد عن السبيل والهادى إلى صراطه .

* * *

بقى أن نذكر نصاً للأستاذ العقاد رحمه الله كان أصلاً لما قيل فى هذا الباب ، وإنما أقامه ورمى به فى أفواه من ردوده تدفق العقاد وزكائته ، ولولا ذلك لكان من طرح الكلام ، ولا ينقص من قدر العقاد شيئاً أن نطرح من كلامه ما لم تنهض به حجته .

(٢) الآية : ٧١

(١) الآية : ١٠

(٣) مداخل إلى إعجاز القرآن صفحات ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

قال رحمه الله فى تعليقه على قصة ابن الرومى مع تشبيهات ابن المعتز ، بعدما ذكر أن لابن المعتز تشبيهات أبلغ وأنقى من هذه التشبيهات التى اختاروها : « ولكن الذين كانوا يتعاطون الأدب فى زمان ابن الرومى اختاروا هذه الأبيات ، لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تُقاس بنفاسة المشبّه به ، وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض ، وأصفر على أصفر ، ومستدير على مستدير ، ومستطيل على مستطيل ، مما يُرى بالعين ، ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذى يصف النجوم ويُشبهها بالجواهر والحلى هو الشاعر غير مدافع ، وهو المثل الأعلى فى هذه الصناعة ، ثم يليه الشعراء على حسب الأسعار فى سوق المُشَبَّهات ، وقُصارى ما يطلبه الشاعر فى التشبيه أن يُثبت لك أنه رأى شيئين من لون واحد ، وشكل واحد ، كأنك فى حاجة إلى مثل ذلك الإثبات الذى لا طائل تحته ، فأما أنه أحس وتخيل وصوّر إحساسه وتخيله باللفظ المبين ، والخواطر الذهنية الواضحة ، فليس ذلك من شأنه ، ولا هو مما يدخل عنده فى باب البلاغة والشاعرية » .

وإذا وضعتَ نص الدكتور عز الدين الذى ذكرناه وغيره مما تقرأ حول هذه المسألة ، وجدتَ التطابق حذوك النعل بالنعل - كما يقول المثل .

ثم إن هذا النص ليس فيه صواب ولا ما يحتمله ، وكأن الأستاذ العقاد نسجه من خياله أو وصف به أدهأ غير الأدب الذى نقرّؤه ، وعلماء غير العلماء الذين نعرفهم ، لأن الذين نعرفهم من أهل الأدب فى عصر ابن الرومى وغيره قالوا : إن التشبيه لا يُؤتى به إلا للإبانة عن أغراض النفوس ومقاصدها ، وليس هناك تشبيه بناه قائله من هذه الطبقة ليقول إنه رأى أحمرين ، أو أصفرين ، أو مستديرين ... إلى آخر هذا الطنز ، لأن ذلك ليس من مقاصد العقلاء .

ثم إنَّ ما ذكرناه فى مناقشة كلام الدكتور عز الدين هو مناقشة لهذا النص ،
لأنه ليس للدكتور عز الدين فيما قاله شيء ، وإنما هو الصُّدى ، وكلام العقاد هو
الصائح المحكى كما قال أبو الطيب .

وكل ما ذكره العلماء فى نفاسة التشبيه مما هو مشهور أو مغمور ، راجح
أو مرجوح ليس فيه شيء يتعلق بنفاسة المشبَّه به ، لأنهم أحكم من أن يقولوا
هذا ، وإنما كان إعجابهم بالمشبَّه به النفيس هنا لأنه صورة مستمدة من داخل
قائلها ، وما انطبع فى نفسه من أحوال حياته ، كما ذكر ابن الرومى ، وهذا
استحسان لا ينقضه ذوقه .

أما نفاسة المشبَّه به ، ومقدار دخولها فى تقدير التشبيه فهناك نصاً يشرحها
وكان قائله رحمه الله قد أعدَّ منذ تسعة قرون لما نحن فيه .

قال محمود بن عمر الزمخشري : « ليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل
إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له ، وتستجره إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل
على حسب تلك ... وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور ، وأحتاس
الأرض ، والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة فى حواضرهم
وبواديهم ، قد قتلوا فيها بأحقر الأشياء ، فقالوا : أجمع من ذرَّة ، وأجرأ من
الذباب ، وأسمع من قرادة ، وأجرد من جرادة ، وأضعف من فراشة » (١) .

وقول الأستاذ العقاد : « أما أنه أحسُّ وتخيل ، وصوّر إحساسه باللفظ المبين ،
والخواطر الذهنية ... إلى آخره » .. ليس شيئاً يجهله الأدب لا فى عصر
ابن الرومى ولا فى غيره ، وإنه لقليل من كثير نبّه إليه القدماء فى شرحهم لكلمة

(١) الكشف ج ١ ص ١١ - ١٢

« الداعى » التى أرادوا بها داعية القول - أى ما يجده المتكلم فى نفسه مما يختلج به قلبه ، ويجيش به صدره ، وتغلى به قريحته - من الصور والأحداث والأفكار والوقائع ، وغير ذلك مما يثير النفس الحساسة ، والقلب اليقظ ، والعقل الدراك ، وكلامهم فى هذا أبعد مرمى وأذهب غوراً من قول العقاد : « أحس وتخيل » .

ثم إنهم نظروا فى اللفظ المبين ، وكيف يقع على دقائق هذه الخواطر ، ويلتقط خفى هذه الأنباض حتى تمثل فى الكلام ، وتستكن فى أحواله ، وأنغامه ، وصوره ، وجعلوا ذلك وغيره رأس الأمر فى بلاغة الكلام ، وأودعوه فى كلمتهم الشريفة : « أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال » وقرأ تحليلها فى الخواشى والشروح التى يقولون أنها « مماحككات » ، وأنها « مفرقة فى الجفاف » و « التشويه » ، وأنها « يسيرة الحظ فى الحيوية والنضرة » وأنها « معروقة الوجه » بادية العظام ... إلى آخر ما تراه فى كتاب « فن القول » وغيره مما صرف عنها عقولاً كانت حربة باستخراج ودائعها ، وغفر الله للشيخ أمين الخولى .

ليس من الصواب فى شيء أن يقول الأستاذ العقاد : إن ذلك ليس من شأن من كانوا يتعاطون الأدب فى عصر ابن الرومى الذى هو من القرون الثلاثة المفضلة فى تاريخ هذه الأمة ، والذين كانوا يتعاطون الأدب والشعر ، منهم مسلم بن الوليد ، وعلى بن الجهم ، وأبو تمام ، والبحتري ، والعباس بن الأحنف ، وغيرهم ممن عرفوا كيف يستخرجون من اللغة أعذب ألحانها ، ومن القلوب أنبل معانيها ، بل إن منهم ابن الرومى الذى قال الأستاذ العقاد فيه ، وفى فنه وصوره ما قال .

ولكنها الغفلة التى لا ينجو منها واحد من ولد آدم ، ورحم الله العقاد ، فقد كان جليل العطاء ، وكان يمكن لهذا النص كما أشرنا أن يبقى فى تراث العقاد

أُخْرَسَ مَقْطُوعاً ، وَلَكِنَّهُ اسْتَطِيرَ فِطَار ، وَاسْتُنْطِقَ فَنطِق ، لِأَنَّكَ لَا تَجِدُ قَوْماً
أَجْرًا عَلَى حُرْمَةِ تَارِيخِهِمْ مَنَا وَكَأَنَّهُ يَشْفَى شَيْئاً غَرِيباً شَاذاً خَسِيساً فِي صُدُورِنَا
أَنْ نَرْمِيَ هَذَا التَّارِيخَ بِالْجَهْلِ وَالتَّخْلُفِ وَالْوَهْمِ ، « رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَتْ » ،
وَصَارَ ذَلِكَ « شَارَةً » التَّنْوِيرِ وَالْحَدَاثَةِ ، وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ لِمَا يَشَاءُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ .

* * *

دراسة فى الشعر

« واعلم أن من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال تحدث بسببها وعلى حسب الأغراض والمعانى التى تقع فيها دقائق وخفايا لا إلى حد ونهاية ، وأنها خفايا تكتم أنفسها جهدها حتى لا يُتنبه لأكثرها ، ولا يُعلم أنها هى ، وحتى لا تزال ترى العالم يعرض له السهُو فيه ، وحتى إنه ليقصد إلى الصواب فيقع فى أثناء كلامه ما يوهم الخطأ ، كل ذلك لشدة الخفاء وفرط الغموض » .

« عبد القاهر الجرجاني فى « دلائل الإعجاز » ص ٢٨٥ »

* * *

الصورة البيانية فى قصيدة الأعشى

« مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ »

هذا البحث ليس دراسة مستقلة تنهض وحدها بنتائجها وآثارها التى يحمدها أهل العلم ، وإنما هو جزء من دراسة ينبغى أن تكون شاملة لشعر الأعشى قصيدة قصيدة على حد ما سنحاول فى هذه المعلقة ، ثم بعد ذلك يُنظر فى هذه القصائد وتُضاف البحوث بعضها إلى بعض وتُنظم فى نسق علمى واضح ، وبهذا نكون قد درسنا الصورة البيانية ، عند الأعشى .

ثم إن هذا المسلك الذى سوف نسلكه فى هذه القصيدة لا يجوز أن يُنظر إليه على أنه مسلك متقن ، وإنما هو محاولة تفتح باب البحث فى هذا الموضوع الذى ينبغى أن تتجه إليه الهمم ، وأن تتوفر له الجهود التى تتنوع محاولاتها ، كل يفتح طريقاً حتى تتوافر لدينا التجارب ، والمحاولات ، التى تُعين على الاختيار القائم على الدرس والتروى .

ويجب أن يستوعب هذا اللون من الدراسة الشعر والأدب فى العصور كلها ، وأن تضع بين يدى الباحثين كل تشبيهات المتنبنى وأبى العلاء وجريز وشار والخوارزمى وابن المقفع وغيرهم من أهل البيان ، وكذلك تصف لنا مجازات كل ، وكناياته ، لأن هذه الفنون من جوهر الأدب والشعر ، أو هى الأقطاب التى تدور عليها المعانى كما يقول عبد القاهر ، وقد تكررت عندنا البحوث التاريخية حول كثير من أعلامنا ، فهناك دراسات متعددة عن الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، وغيرهما . تدور حول حياته ، وآثاره ، مع أن الكثرة أو التكرار كان يجب أن يدور حول جوهر أدبه ، ونسيجه بيانه ، وأحوال كلماته ، وأجناسها ، وأحوال تراكيبه ، وصوره ، ومعانيه ، ومنازعه ، وهذا باب جليل وفيه علم غزير ، وعلمه يقترب بنا من سر الشعر ، وسر الأدب ، وسر النفس التى أبدعت هذا الشعر وهذا الأدب .

والتشبيهات فى هذه القصيد قليلة ، وقد جاءت فى أربعة أبواب من أبواب المعانى :

١ - المرأة . ٢ - الناقة .

٣ - وصف الصحراء . ٤ - وصف الرجال .

ففى حديثه عن المرأة ذكر الطيبة وشبه المرأة بها ، كما ذكر جيد الطيبة وشبه به عنق المرأة .

وذكر الخمر وشبه بها ماء الشجر ، وقد تضمن هذا التشبيه تشبيه أسنانها بشوك السّيال - بفتح السين .

وفى آخر القصيدة شبه النساء فى أسر الأسود اللخمي بالسعالى وهى الغيلان .

وقد كانت تشبيهات الأعشى للمرأة فى أول القصيدة حين ذكر صاحبة والأطلال .

والقصيدة تبدأ بذكر الأطلال والتعجب من البكاء عليها ، وإنكاره سؤالها وأنها لا ترد سؤالاً :

مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأُطْلَالِ وَسُؤَالِي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤَالِي

دِمْنَةُ قَفْرَةٍ تَعَاوَرَهَا الصَّبِي فَبِرَّيْحَيْنِ مِنْ صَبَاً وَشَمَالِ

لَا تَهْنَأُ ذِكْرَى جُبَيْرَةٍ أَوْ مَنْ جَاءَ مِنْهَا بِطَائِفِ الْأَهْوَالِ

لم يقل إن الأطلال شاقته كما قال : « شاقتك من قتلة طلالها » ولم يقل أنه تأملها وعرفها فهاجت شوقه كما قال يخاطب نفسه :

عَرَفْتَ الْيَوْمَ مِنْ تَيِّبٍ مَقَامًا بِجَوْ أَوْ عَرَفْتَ لَهَا خِيَامًا

فَهَاجَتْ شَوْقَ مُحْزُونٍ طُرُوبٍ فَأَسْبَلَ دَمْعُهُ فِيهَا سِجَامًا

وللأعشى فنون ومذاهب فى افتتاح القصائد وذكر الصاحبة والديار تحتاج إلى دراسة مفردة تربط كل مطلع بما جاء فى القصيدة من صور ومعان ومقاصد .

وكان الأعشى ذا قدرة متميزة فى بث مقصوده من القصيدة فى ذكر الصاحبة وحديثها ، وذكر الصبوة وشجونها ، تأمل قصيدته التى يعاتب فيها بنى مرثد وبنى جحدر أبناء عمومته وكيف قطع الكلام على طريقته هنا يقول :

لَمِثَاءَ دَارٍ قَدْ تَعَفَّتْ طُلُوهُهَا عَفَّتْهَا نَضِيبَاتُ الصَّبَا فَمَسِيلُهَا
يقول فيها :

لَمِثَاءَ إِذْ كَانَتْ وَأَهْلُكَ جَبَرَةً رِثَاءً وَإِذَا يُفْضَى إِلَيْكَ رَسُولُهَا
وَإِذَا تَحْسِبُ الْحُبَّ الدَّخِيلَ لَجَاجَةً مِنَ الدَّهْرِ لَا تُمْنَى بِشَىءٍ يُزِيلُهَا
وَأَنْتَى عَدَانِي عَتَكَ لَوْ تَعْلَمِينَهُ مَوَازِيءُ لَمْ يُنْزَلْ سِوَاىَ جَلِيلُهَا
مَصَارِعُ إِخْوَانٍ وَقَحْرُ قَبِيلَةٍ عَلَيْنَا كَأَنَّا لَيْسَ مِنَّا قَبِيلُهَا

والنضيب : المطر القليل ، وقوله : « رثاء » : المراد أن منزلها بحيث يراها ، ومنزله بحيث تراه ، والحب الدخيل : هو الداخل فى القلب ، والمستقر فى السرائر ، ولا تُمْنَى بشىء يزِيلها : أى لا ينالها ما يصرفها عن الحب .

والموازىء : الأمور الصارفة المتدافعة الشديدة المكتنزة ، تأمل كيف ذكر الصوارف التى تصرفه عنها بعد ما ذكر غاية الألفة والمودة والنعمة بالجيرة المترائية ، ويفضى إليه رسولها ، والحب داخل الشغاف ، وملك القلب ، وثبت وتأيد أهد الدهر ، وكأن هذا كان مقدمة لبيان أهمية الصارف الذى يصرفه إلى ما هو أهم .

وإنكار البكاء ، وذكر الصاحبة ، ثم الانصراف عنها ، بهذه السرعة وبهذا القطع مناسب لموضوع القصيدة ، لأنه نفثة من نفثات الشاعر ، أبان بها عما

يجده من هَمْ وَوَجَدَ ، لأن القصيدة معقودة على مدح الأسود اللخمى ، وطلب أسرى قومه ، وكان الأسود قد استباح قوم الأعشى ، وكان الأعشى غائباً ، فلما رجع وجد قومه قد كسرهم الأسود ، واستاق أموالهم ، وأسر نساءهم ورجالهم ، وهذا سياق القصيدة وباعثها ، وهو أمر لا يساعد على الصبوة ولا يهيج به شوق طروب ، وهو متناسق مع قول الأعشى الذى فتح به القصيدة : « مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ » ولا وجه - فيما نرى - لما ذكره العلوى حيث استجفى هذا المطلع ورأى أنه لا يُفْتَحُ بمثله ، لأنه « بما لا يُستحسن فى المخاطبات » وقد نقل ذلك المرزبانى وارتضاه .

ولم يذكر الأعشى البكاء فى مفتتح قصيدة إلا فى هذه ، لما وجد قومه بين مأسور ومقتول ، وكان الأسود اللخمى جباراً شرساً ، ولما وجد نعل ولده شرحبيل الذى قتله الحارث بن ظالم المرى فى ديار بنى محارب أحمى لهم الصفا التى بصحراء أضاح وسيرهم عليها ، وهذه هى النعال المذكورة فى قول الأعشى « نَعَالاً مُحَذَّوَةً نِيعَالِ » .

الشاعر ينفى البكاء بالأطلال ، وكأنه يرى أن الأسى إنما يكون على :

« شُبُوخُ حَرَّتِي بِشَطْطِي أَرِيكَ وَنِسَاءٌ كَأَنَّهُنَّ السَّعَالِي »

وهم أسرى قومه عند الأسود ، والحربى : جمع حربى ؛ وهو المسلوب ماله وسلاحه .

وقد ذكر الأعشى بعد ما أشاع فى مطلعهِ رُوحَ الجَدِّ والصرامة ، وبعد ما ذكر البُعد الذى بينه وبين ديارها ، وأنه « خَرَقُ يُخْرَسُ السَّفَرُ » و « مِيلٌ يُفْضَى إِلَى أُمِّيَالٍ » . وأنها « قَفٌّ وَسَبَسَبٍ ، وَرِمَالٌ » ، أى أرض غليظة ومستوية ، وأنها لآماء فيها ، وأن مَنْ يقطعها يوكى - أى يربط - سقاءه ، وأنه لمن يستقى منها إلا وشلاً ... إلى آخر ما قال مما تراه ينطق بالحزم ، والصرامة ، والجلادة ، والهول بعد الهول ، ويبتعد عن اللُهو والصبوة .

وهذا يعنى أن الشاعر لن يتسع كلامه فى ذكر الصاحبة ، وأنه إنما يذكرها ليقتص قصة صبوة قديمة ، ثم يقطع الكلام وينصرف عنها انصرافاً ظاهراً ، ذاكراً الشغل ، والههم الذى عداه عن ذلك كله ، قال فى ذلك يصف الأرض التى هى دونها :

رُبَّ خَرَقٍ مِنْ دُونِهَا يُخْرِسُ السُّفْ	رَ وَمِيلٍ يُفْضِي إِلَى أُمِّيَالٍ
وَسِقَاءٍ يُوَكِّى عَلَى تَأْقِ الْمَلِ	ءِ وَسَيَّرٍ وَمُسْتَقْى أَوْشَالٍ
وَادْلَاجٍ بَعْدَ الْمَنَامِ وَتَهْجِيـ	رَ وَقَفٍّ وَسَبَسَبٍ وَرِمَالٍ
وَقَلْبٍ أَجْنٍ كَانَ مِنَ الرِّبـ	ش بِأَرْجَائِهِ لِقُوطٍ نَصَالٍ
فَلَثْنٍ شَطٍّ بَيِّ الْمَزَارِ لَقَدْ أَغْـ	دُوا قَلِيلَ الْهُمُومِ نَاعِمِ بَالٍ

انتقل بعد ذلك إلى ذكر الصاحبة وقوله : « فَلَثْنُ شَطٍّ بَيِّ الْمَزَارِ لَقَدْ أَغْدُوا » ... إلى آخره ، إشارة واضحة إلى أن ما هو فيه قد أبعدته عن أن يكون « قَلِيلَ الْهُمُومِ نَاعِمِ بَالٍ » وكأن هذا الخرق المتسع الذى يخرس السفر ويُقطع بمشقة وظماً وادلاج « وتهجير ، وَقَفٍّ وَسَبَسَبٍ وَرِمَالٍ » ، إشارة إلى ما يواجهه من مشقة وصعوبة ، وقوله : « يُوَكِّى عَلَى تَأْقِ الْمَلِّ » يعنى يُربط بعد المبالغة فى امتلائه وهو كناية عن صعوبة الطريق ، وأنه يخلو من ماء ، إلا قليلاً آجناً : أى متغير الماء ترده القطا ، يعنى لا ترده السابلة ، وبأرجائه الريش كأنها نصال ، ثم قال فى ذكر الصاحبة :

إِذْ هِيَ الْهَمُّ وَالْحَدِيثُ وَإِذْ تَعُـ	صِي إِلَى الْأَمِيرِ ذَا الْأَقْوَالِ
ظَبِيَّةٌ مِنْ ظَبَاءٍ وَجَرَّةٌ أَدَمَا	ءُ تَسْفُ الْكَبَاثَ تَحْتَ الْهَدَالِ
حُرَّةٌ طِفْلَةٌ الْأَنَامِ تَرْتـ	بُ سَحَاماً تَكْفُهُ بِخِلَالِ
وَكَاَنَّ السُّمُوطَ عَكَّفَهَا السَّلـ	كُ يَعِطْفِي جَيْدَاءَ أُمِّ غَزَالِ
وَكَاَنَّ الْحَمْرَ الْعَتِيقَ مِنَ الْإِسْفِنـ	طِ مَمْرُوجَةٍ بِمَاءِ زُلَالِ
بَاكْرَتْهَا الْأَغْرَابُ فِي سِنَةِ النَّوْ	مِ قَتَجَرِي خِلَالَ شَوْكِ السِّيَالِ
فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرَكْنِي الْحِلـ	مُ عَدَانِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي

ولم يذكر المرأة بعد ذلك إلا عرضاً حين ذكر هبات الممدوح ومنها :
 والبَغَايَا يَرْكُضْنَ أَكْسِيَّةَ الْإِضْ — رِيحٍ وَالشَّرْعَبِيَّ ذَا الْأَذْيَالِ
 والبغايا يراد بها الجوارى . والإضريح الحبر الأصفر ، والشرعبي : الحبر
 الأحمر .

ثم حين ذكر النساء الأسيرات : « ونساءٍ كأنهنَّ السَّعَالِي » .
 وقوله : « إِذْ هِيَ الْهَمُّ وَالْحَدِيثُ » : يعنى أنها شاغل قلبه ولسانه ، ثم هى
 تعصى فيه أميرها — أى القيم عليها .

وقد شبهها بالطيبة وقد قطع الكلام عند هذا التشبيه وبناء على حذف المُسْنَدِ
 إليه ، أى هى طيبة ، وهم لا يكادون يقولون : هى طيبة ، وإنما يذكرون الخبر
 عارياً من مبتدأ لأنها حاضرة فى النفس ولا يخطر فيها سواها ، فلا ينصرف
 الوصف إلى غيرها ، وهذا معنى جيد ، وقد وصف الطيبة بأنها أدماء ، أى
 خالصة البياض ، وأنها تسف الكبات — أى تصيب ثمر الأراك ، تحت الأغصان
 المتهدلة ، وقد بنى البيت الثانى على ما بنى عليه البيت الأول .

« حُرَّةٌ طَفْلَةٌ الْأَتَامِلِ » رجوع إلى وصف المرأة بعد ما وصف الطيبة التى
 شبه المرأة بها فى البيت قبله ، وكما بنى البيت على مثال ما بنى عليه سابقه ،
 ذكر صورة قريبة من الصورة التى فى الأول تأمل قوله : « تَسْفُ الْكَبَاثَ تَحْتَ
 الْهَدَالِ » ، وقوله : « تَرْتَبُ سُخَاماً تَكْفُهُ بِخِلَالِ » والمراد : ترعى شعرها وتكفُّه
 بأمشاطها .

وهذا التشبيه يؤكد الرخاء والنعمة والرفق ، ثم إن هذه طيبة تتهدل عليها
 فروع شجر ، وتلك امرأة تتهدل عليها فروع شعرها الأسود ، تأمل البيتين تجد
 ذلك واضحاً ، ثم انظر إلى قوله : « طَفْلَةٌ الْأَتَامِلِ » ، وهو يريد ناعمة رطبة ،
 وهو يشبه قول امرئ القيس : « وَتَعْطُوْهُ بِرَخْصٍ غَيْرِ شَتْنِ » أى بأنامل رطبة
 غير خشنة ، ويزيد امرؤ القيس كلمة « تعطو » فأوماً إلى الحركة وأشاع الحسن
 والملاحة .

وقوله : « وَكَأَنَّ السُّمُوطَ عَكَفَهَا السَّلْكُ بِعِطْفَى جِيدَاءِ أُمِّ غَزَالٍ » فيه تشبيه جيدها بجيد أُم غزال ، يعنى ظبية ، وأُم الغزال تلوى عنقها عليه ، أو تتلفت نحوه ، وفى هذا تجلية لجمال الجيد ، وكشف لبهائه ، والشاعر هنا لم يقل إن جيدها كجيد أُم غزال كما قال امرؤ القيس :

وجيد كجيد الرِّمِّ ليس بفاحشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بُعْطَلْ

وإنما قال : « كَأَنَّ السُّمُوطَ بِعِطْفَى جِيدَاءِ » ، فأمال الكلام عن الطريقة المباشرة ، ولم يشر إلى ما أشار إليه امرؤ القيس من أنها « نَصَّتْ جيدها » أى مدته تدللاً وإن كانت الحركة متضمنة فى قوله : « أُم غزال » ، ولكن فرقاً بين الحركتين فتلك حركة أمومة ، وهذه حركة دلال ، وإظهار زينة .

وقُلْ مثل هذا فى تشبيه ريقها بالخمير ، فقد ذكر أن الخمر العتيق باكرت أسنانها اللطيفة البيضاء ، التى تشبه شوك السَّيَالِ ، وهو شوك أبيض ، ولم يقل إن ريقتها تشبه الخمر ، وإنما أمال الكلام كما ترى .

وظاهر أن الأعشى لم يخالط هذه التشبيهات التى ذكر فيها صاحبته باللذة والمتعة كما فعل فى بقية تشبيهاته ، لأن الرجل كان منصرفاً انصرفاً تاماً عن لذاته ومتعه ، وهى كثيرة فى شعره ، بل وعارية ، ولكنه فى هذه القصيدة لم يذكر لفظة واحدة تُشعر بأنه قاربَ الصاحبة أو ذاق ريقتها ، أو ما يشبه ذلك .

وهذه هى تشبهات المرأة فى هذه المعلقة ، وقد قطع الشاعر الكلام قطعاً مفاجئاً وقال :

فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرَكْنِي الْحِلْـمُ سَمُّ عَدَانِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي

وهذا مهم فى سياقه ، وإشاعة روح الحزم ، والجد ، وتوفير الهم ، الذى هو بصدده من أمر قومه ، وهو فى هذا القطع الذى بناه على الالتفات حيث نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ، وذكر الصاحبة ، وكأنه أحضرها ليرمى فى

وجهها بقوله : « اذهبى » ثم هو لم يقل : اذهبى ، وإنما قال : « فاذهبى » فذكر الفاء الدالة على أنه رتب الأمر بالذهاب على هذه الصفات الرائعة التى قطع الحديث عنها إلى هذا الأمر بالذهاب والإبعاد ، وفى هذا من العناية بهمه وانصرافه إليه ما فيه .

ثم إنه أراد أن يؤكد عظم ما يجد فذكر أنه لم يصرفه عنها حلم ووقار صرفه عن النساء ، أى أنه لم يَقْصِرْ باطله ، وإنما لا يزال فى غيه وما صحا قلبه ، وإنما هى الأشغال « عَدَانِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي » ثم تأمل قوله : « عَنْ ذِكْرِكُمْ » ولم يقل : عَدَانِي عَنْكُمْ ، لأنه أراد الذكر ، أعنى مجرد الذكر فكيف بغيره .

* * *

وأما تشبيه الناقة ، فقد ذكر فى تشبيه ضخامتها وقوتها واستواء هيكلها واستقامة خلقها « قنطرة الرومى » ، وقد ذكر هذا بعدما قَدَّمَ وصف المشقة التى لحقت النوق من صعوبة الطريق وطول السير ، فالرحلة فى ديمومة - أى صحراء بعيدة الأطراف ، « تَعَوَّلُ بالسفر » أى كأنها غول يفتال السفر ، ومخوف ضلالها « إِذَا مَا الضَّلَالُ خِيفَ » والوردُ بعد خمس ، والرفاق يرمون ببعض متاعهم ليخفف عن رواحلهم ، ثم وصف الناقة بالقوة والصلابة وأنها مرحت كقنطرة الرومى :

وَإِذَا مَا الضَّلَالُ خِيفَ وَكَانَ الْـ سَوْدُ خِمْسًا يَرْجُوْنَهُ عَنْ لِيَالِ
وَأَسْتَحِثُّ الْمَغْيِرُونَ مِنَ الْقَوِ مِ وَكَانَ النُّطَافُ مَا فِى الْعَزَالِ
مَرِحَتْ حُرَّةٌ كَقَنْطَرَةِ الرُّومِ مِ تَفْرِى الْهَجِيرَ بِالْإِرْقَالِ

هذا سياق ذكر « قنطرة الرومى » ، وقنطرة الرومى برج من أبراج الروم ، والعرب ليس لهم بناء هكذا ؛ قاله أبو زيد القرشى فى شرح القصيدة .

وقد جاء ذكر « قنطرة الرومى » كثيراً فى الشعر الجاهلى ومنه قول طرفة :

كقنطرة الرومى أقسم رُبُّها لتُكْتَنَفَا حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ

ومعنى قوله « لتُكْتَنَفَا » أى لتؤتى بين أكنافها - أى جوانبها و« القَرْمَد » على مثال جعفر - واحده قرمدة ؛ وهو الآجر - أعجمى معرّب - كما قال ابن الأنبارى .

الأعشى ذكر الناقة بعد « قنطرة الرومى » وقال : « تَفْرِى الهَجِيرَ بِالْإِرْقَالِ » - أى تقطع وقت الهجير بالدأب فى السير والسرعة فيه ، وطُرفة وقف عند « قنطرة الرومى » قليلاً وذكر أن صاحبها أقسم ألا يشيدها بقرمد ، وهذا تأكيد على المشابهة بين الناقة و « قنطرة الرومى » وتأكيد لمعنى الضخامة والاكتناز والاستواء فى الناقة ، وكان طُرفة قد وقف يتأمل أعضاء ناقته ويصفها فى ثمانية وعشرين بيتاً من مُعلّقاته بدأها بقوله :

وإنى لأَمْضِي الهَمَّ عند احتِضَارِهِ بعَوْجَاءٍ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَفْتَدِي

البيت رقم ١١ ، وأنهاها بقوله بيت رقم ٣٩ :

على مثلها أَمْضِي إِذْ قَالَ صَاحِبِي أَلَا لَيْتَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْتَدِي

وتأمل البيت الذى بدأ به الوصف ، والذى أنهى الوصف به ، تجده يصف ناقة بمضى عليها إذا أضافه هَمٌّ ، أو دعاه أصحابه ، يعنى هو لم يركبها بعد ، وإنما يصفها وهى فى مباركها أو مراعيها لا رَحَلَ عليها ، ولهذا وقف وتأنى ونظر وراجع .

أما الأعشى ، فقد كان عَجِلاً على ناقته فوق ديمومة تغول بالسفر ويستحشده الراكب الذى معه ، وقد فَنِيَ الماء وبقيت منه بقية « نُطَاف » فى أفواه القرب « العزالي » ، ولهذا ذكر أنها « تَفْرِى الهَجِيرَ » يعنى انتقل إلى بيان السرعة بعد التشبيه من غير ريث ، وهكذا ترى سياق الكلام منعكساً على خافيات أجزاء صور التشبيه .

وقد شبه الأعشى عظام صدر ناقته بإران الميت ، وذلك بعد ما جهدها فى الرحلة إلى الأسود اللخمى وأتعبها حتى أعيأها وعادت طليحاً .

أى بلغ بها الجهد والإرهاق حتى كسر قوتها ، وإنما يكون ذلك فى نهاية الرحلة عندما يقترب الشعر من مخاطبة الممدوح قال الأعشى :

وَتَرَاهَا تَشْكُو إِلَى وَقَدْ آ لَتْ طَلِيحاً تُحْدَى صُدُورَ النَّعَالِ
نَقَبَ الْخُفِّ لِلسُّرَى فَتَرَى الْأَنْسَ سَاعَ مِنْ حِلِّ سَاعَةٍ وَارْتِحَالَ
أَثَرَتْ فِى جَنَاجِنِ كَارَانَ الْـ سَمِيتِ عُولِينَ فَوْقَ عُوجِ رِسَالِ

وقوله : « تُحْدَى صُدُورَ النَّعَالِ » أى أنها يُقطع لها الطبق من الحديد ويكون كالنعل لها لأن طول السير فى الأرض الصلبة أوجع أخفافها وقوله : « نَقَبَ الْخُفِّ » مفعول به لقوله : « تَشْكُو إِلَى » ونقب الخف معناه رفته وضعفه ، وكأنه قد تنقب أى تثقب ، والأنساع : جمع نسع وهو سير يُرْبَط به الرَّحْل على الناقة وَيُشَدُّ على بطنها وصدرها ، وهذا قوله : « أَثَرَتْ فِى جَنَاجِنِ » ، والجناجين : عظام الصدر ، و « إِرَان » سرير الميت ، و « الْعُوجِ الرِّسَالِ » قوائم الناقة . واضح جداً أن « إِرَان الميت » وقع فى سياق ملائم لأن الناقة قد صارت « طليحاً » أى تكاد تسقط من الإعياء وبلغ بها الجهد وانتهت الرحلة وقد قارب أعتاب الأسود اللخمى الذى عنده قوم الأعشى :

وَشَيْخُ حَرَى بِشَطْطِ أَرِيكِ وَنِسَاءٍ كَأَنَّهُنَّ السَّعَالِ

والأسود رجل موت : « رب حى أشقاهم آخر الدهر » ، « وإن يعاقب يكن غراماً » ، وهكذا نجد كلمة « إِرَان الميت » كأنها تطل من الشعر على خطاب الأسود اللخمى الذى أهلك قوم الأعشى وأقام جنازتهم وطُوفَ به طائر الموت على ديارهم ، تأمل وَحَى الشعر ورمزه ١١

وقد جاء هذا التشبيه فى شعر طُرفة مع تحريف فى العبارة سقطت به كلمة « الميت » وبقيت كلمة « الإران » مضافة إلى كلمة الألواح « ألواح الإران » وهذا غير « إران الميت » وإن كانت كلمة « الإران » كافية لجمع التشبيهين معاً فى صورة عامة لأنها كلمة متميزة بدلالة قوية النفاذ ، لاذعة الإيحاء .

قال طُرفة :

وَإِنِّى لَأَمْضَى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بَعْوَجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
أَمْوَنَ كَأَلْوَحِ الْإِرَانِ نَسَاتِهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرَ بِرُجْدٍ

والعوجاء : أراد الناقة ، والعوجاء : القوائم ، وهذه اللَّفظة تفتح باب « المرقال » : أى المسرعة فى السير « تروح وتغتدى » ، وهذا أول وصفه للناقة فى الأبيات الجياد التى هى من أجود ما وصف الناقة فى شعر العربية ، وقد ذكر « ألواح الإران » وأراد إجفار جنببها : أى سعتهما وعظمهما ، ونسأتها : يعنى حملتها على السير ، واللاحب : الطريق ، والبرجد - بضم الأول : الثوب المخطط ، أراد طريقاً تتميز طرائقه بعضها عن بعض .

قلت : إن « ألواح الإران » غير « إران الميت » ، وأن الثانية ساقها الأعشى لما هزلت الناقة ونقبت أخفافها وضجت بالشكوى من ألم النسع ومن الحفا والكلال ، وأن « ألواح الإران » ذكره طُرفة أول حديثه عن الناقة واكتمالها واكتنازها وأنها لم تجهد بعد ، لأن كلمة « إران » لما أضيفت إلى الألواح . أفادت معنى القوة والاكتناز والسعة والتماسك ، ولما أضيف إليها الموت أفادت معنى الضعف والإعياء والهزال ، وهكذا نجد فروق الكلام .

وقد ذكر الأعشى كلمة « الألواح » ، فى صياغة أخرى خلصها من « الإران » وأضافها إلى « الزهب » ، وأراد الناقة المهزولة التى لم يبق منها بعد الرحلة إلا ناقة هزيلة ضائعة :

قَابُقْسَى رَوَاحِي وَسَيْرُ الْغُدُ
وَمِنْهَا ذَوَاتَ حِذَاءٍ قِصَارًا

وَالْوَاحِ رَهْبٍ كَأَنَّ النَّسْرَ
عَبَّيْنِ فِي الدَّفِّ مِنْهَا سِطَارًا

وذوات الحذاء القصار : أراد أنها مجموعة الأخفاف غير منتشرة ، والدَّفُّ :
الجنب ، والسطار : الآثار .

وقوله : « منها » هي من التجريدية التي تدخل على المنتزع منه ، ولها هنا
موقع فصيح وقد بنى عليها البيتان وكانت أصل فصاحتها .

تأمل الناقة وقد أفناها الرواح وسير الغدو ، ثم انتزعت منها ناقة مهزولة
ضامرة ذات شقوق في جنباتها من آثار النسع .

أما عدو الناقة وما أجراه فيه من تشبيه ، فقد جاء في صورة واحدة وهو باب
من أبواب الشعر يطول فيه كلام الشعراء وتتنوع فيه الصور ، فتارة تُشَبَّه الناقة
بالبقرة الوحشية ، التي ضلت ولدها ، وعانت الغربة ، والشجو الممض ، ثم
فوجئت بكلاب الصيد فتسلل طريقاً للهرب أو تصادم الكلاب بقرنيها ، وتارة
تُشَبَّه الناقة بحمار الوحش الشرس القوي الذي يتسلط على أئنه تسلط الغليظ
ذو القسوة والعرامة ، ثم يصادفه الصائد أو لا يصادفه . وهكذا تلاحظ أن كل
قصة من هذه القصص « مأساة » ، إما طغيان « حمار » ، واستبداده - هكذا
كان منذ الزمن الأول - بإناث ضعاف ، ثم بعد ذلك يرميه القدر بكلاب تفزعه ،
وإما بقرة وحشية فقدت ولدها ، وإما ثور أضرت به الليالي وأكلب الصياد ...
إلى آخر ما ترى ، وهذا باب من أجل أبواب الشعر الجاهلي وهو زاخر بالصور
والأسرار واللطائف ، والفروق الرائعة ، والتي يجد الباحث متعة في تجليتها
واستكشاف أسرار نعماتها وروابطها الناعمة الرطبة ، وهذه هي صورة
الأعشى :

عَنْتَرِيسٌ تَعْدُو إِذَا مَسَّهَا السَّوْ طُ كَعْدُو الْمُصَلِّصِلِ الْجَوَالِ
لَا حَهُ الصِّيفُ وَالصِّيَالُ وَإِشْقَا قُ عَلَى صَعْدَةِ كَقَوْسِ الضَّالِ
مُلْمِعٍ لَاعَةِ الْفُؤَادِ إِلَى جَحْ شِرْ فَلَاهُ عَنْهَا فَيْئَسَ الْفَالِي
ذُو أَذَاةٍ عَلَى الْخَلِيطِ خَبِيثُ الدِ تَفِيسَ يَرْمِي مَرَاغَهُ بِالنُّسَالِ
غَادَرَ الْجَحْشَ فِي الْغُبَارِ وَعَدَا هَا حَثِيثاً لِيُصَوِّ الْأُدْحَالِ
ذَاكَ شَبَّهْتُ نَاقَتِي عَنْ يَمِينِ الدِ رَعْنِ بَعْدَ الْكَلَالِ وَالْإِعْمَالِ

العنتريس : القوية الشديدة ، قال الأصمعي : يقال أخذه بالعترسة إذا أخذه بجفاء وغلظ ، والمصلل : حمار الوحش . وصلصلته : نهاقه ، ولاحه الصيف : أى أضمره ، والصيال - بكسر الصاد - : المصالة ، والصعدة : المراد بها الأتان ، وأصلها القناة المستوية تنبت كذلك فلا تحتاج إلى مثقف ، والجحش : ولد الأتان من يوم تضعه أمه إلى أن يفصل من الرضاع ، والضال : شجر تتخذ منه القسسى ، والملمع : الذى أشرق ضرعها باللبن واسودت الحلمتان ، ولاعة الفؤاد : أى ملتاعة ، وفلاه عنها : أى فطمه ، والنسال - بضم النون - : الشعر الساقط منه ، والمراغ : المكان الذى يتمرغ فيه ، والصوة : ما ارتفع من الأرض وخالطه غلظ ، والأدحال : أماكن شبه آبار فى أرض صلبة ، رؤوسها ضيقة ، وأجوافها واسعة .

المشبه الناقة فى عدوها السريع القوى الشرس ذى العرامة والحمى والاندفاع ، والمشبه به هو هذا الحمار بهذه القصة ، ويلاحظ أن أموراً ثلاثة أضمرت هذا الحمار هى الصيف ، يعنى الجذب وسوء الرعى ، والمطاردة ، والإشفاق على أتان ، وهذه الأتان التى همُّ أمرها حتى أضمره ولاحه هو الذى أشقاها حين عزل ولدها ، وقطعها عنه ، ودفعها دفعاً غليظاً قاسياً إلى أن تخلقه وراءها ، وقد اهتم الأعشى اهتماماً ظاهراً برجم هذا الحمار القيم الراعى بجملة صفات

خسيسة فهو خبيث النفس ، وصاحب مضرة وأذى ، وسىء العشرة ، عظيم الشر والمضرة والإساءة لكل خليط ، ظالم ، عارم ، يوقع أفدح الظلم وأغلظه بما حوله .
كما حرص الأعشى على أن تكون الأتان كريمة النفس ، حسناء ، مستوية ، ناعمة ، ملساء ، ذات شوق وشجن ، تُغَلِّلها غلالة من الشكل ، وظلم العشير ، ثم إنه يشرق ضرعها ، ويلتاع فؤادها ، وإشراقه الضرع : إشارة حيّة إلى العطاء الخصب المؤذن بإشراق الحياة .

وهذا له نظائر كثيرة فى الشعر ، ولكن هذا النسيج الدقيق لا يتكرر وإنما تتكرر الصورة العامة .

وهذه صورة ذُكِرَ فيها الحمار والأتن فى قصيدة يدح بها إياس بن قبيصة الطائي قال :

بِنَاجِيَةٍ مِنْ سَرَاةِ الْهَجَا	نِ تَأْتِي الْفِجَاجَ وَتَغْتَالِهَا
تَرَاهَا كَأَحْقَبِ ذِي جُدَّتَيْنِ	مِنْ يَجْمَعُ عُونًا وَيَجْتَايَا
نَحَائِصَ شَتَّى عَلَى عَيْنِهِ	حَلَالٍ لَمْ يُؤْذِهِ مَالُهَا
عَنِيفٌ وَإِنْ كَانَ ذَا شِرَّةٍ	يَجْمَعُ الضَّرَائِرَ شَلَالًا
إِذَا حَالَ مِنْ دُونِهَا غَبِيَّةٌ	مِنْ التُّرْبِ فَانْجَالَ سِرْبُهَا
فَلَمْ يَرْضَ بِالْقُرْبِ حَتَّى يَكْفُونِ	وَسَادَ لِلْحَبِيْبِ أَكْفَالُهَا
أَقَامَ الضَّغَائِنَ مِنْ دَرْنِهَا	كَقَتْلِ الْأَعِنَّةِ قَتَالُهَا
فَذَلِكَ شَبْهَتُهُ تَأَقَّتِي	وَمَا إِنْ لِيْغْبِرَكَ إِعْمَالُهَا

* * *

والناجية : النافذة السريعة ، وسراة الهجان : خيار الإبل الكريمة ، والفجاج : الطرق ، وتغتالها : أى تقطعها ، والأحقب : الحمار الضامر ، والجُدتان : مثنى جُدة - بضم الجيم : وهى الطريقة ، والعلامة ، والخُطة فى ظهر الحمار تخالف لونه ، والخُطة من الخط ، كالنُقطة من النقط .. هكذا فى الأساس .

والنحائص : جمع نحیصة : وهى الأتان غير الحامل ، وقوله : « لم يؤذه ما بها » أى لم يبذل لها صدَاقاً ، والعون : جمع عانة : وهى الجماعة من الأتن ، ويجتالها : يعنى يوجهها كما يريد ، ويجتليها عن مقاصدها : أى يبعدها عنها ، والشرّة : الحدة والنشاط ، والضرائر : النسوة تحت رجل واحد ، والكلام على المجاز . وشلالها : يعنى دفعها : أى هو فى حدته وشيرته ونشاطه يجمع العون ويدفعها ، والعبية : الدفعة من التراب تثيرها حوافر الحُمُر عند اشتداد الجرى ، وقوة رجم الأرض بالحوافر وطيران الحصا : يعنى أنه إذا انقطع الجرى قاربها وأنسها ، والضغائن : جمع ضغينة ، وإقامتها : تقويمها ، والدرء : الميل ؛ يعنى أنه يُقَوِّم العوج ، وقتل الأعنة : تسويتها وإقامتها .

تأمل وصف الحمار هنا فهو أولاً أحقب : أى فى حقويه بياض ، وبهذا اللفظ المُشعر بالألوان بدأ ذكر الحمار ، وقد بدأه هناك بـ « المصلصل الجوال » ، فأشاع صخباً ، وضجيجاً ، وحدة أشبه بالسياق هناك ، ثم إنه لم يذكر الذى أضمره مع أنه وصفه بالضمور ، وهو وصف متضمن فى لفظ « الأحقب » ، ثم إنه ذكر أنه ذو جُدتين ، فزاد اللون تحديداً ، وزينة وجمالاً ، ثم إن الأتن هنا حلاتله : أى زوجات ، وهذا فيه الألفة ، والتراحم ، ولم يشر هناك إلى لفظ يدل على هذا ، ثم إنه يُقَرِّب الأتن إليه بعد انقطاع الجرى ، وعيبة التراب المثار ، وأخذ يؤنسها ويجعل كفلها وساداً له .

الصورة هنا مختلفة اختلافاً ظاهراً ، فالحمار هنا ليس خبيثاً ، بل أليفاً ، ودوداً ، ولم يؤذ الخليط ، ولم يقطع عنها جحشها ، ولم يصف الأتان هنا بالشكل

ولا لوعة الفؤاد ، ولا إشراقة الضرع ، وإنما هي هنا يصرفها راع رفيق مؤنس لها ، ومقيم لعرجها ، دقائق الصورة في قصيدة الأسود تعطى مذاقاً حاداً لا ذعاً ، يلام خطاب الأسود الجبار الظالم ، الذى أنعل الرجال ناراً محمية ، وتعطى هنا مذاقاً خاصاً يشيع جواً من الألفة والمرحمة ، وكان إياس بن قبيصة سيداً حسن السياسة ، ذا كيس ، وكان مترفاً ذا نعمة .

وإذا تابعت النظر فى الأجزاء الأخرى وجدت الملاءمة بين أجزاء كل قصيدة ظاهرة ، والمفارقة بين أجزاء كل قصيدة وقصيدة ظاهرة أيضاً ، فالمهمه هناك يخرس السفر ، فيه سير ، وقف ، وسبب ، ورمال ، وقلوب أجن ... إلى آخر ما رأينا هناك ، وإنما يقطع خرقاً كهذا ناقة كحمار شرس . هو هذا ، ولا يجوز أن يكون الحمار المذكور فى سياق وصف الناقة إلا متناغماً تناغماً ما مع أوصاف الخرق ، والمسافة التى تقطعها هذه الناقة ، ولذلك يجب أن نلتفت إلى هذه اللحظة فى الشعر ، ونقارن بين وصف المهمه الذى تقطعه الناقة ، وصورة الحمار أو الحيوان الذى نحكى قصته فى تشبيه الناقة .

أما وصف المهمه فى قصيدة إياس فلم يتجاوز بيتين ، البيت الأول تهويل لسعته :

وَكَمْ دُونَ بَيْتِكَ مِنْ مَّهْمَةٍ وَأَرْضٍ إِذَا قِيسَ أُمِّيَّالُهَا

وليس فى هذا البيت إلا بُعد الشقة كما ترى .

ثم البيت الثانى :

يُحَادِرُ مِنْهَا عَلَى سَفَرِهَا مَهَامُهُ تَبِيَّةٌ وَأَغْوَالُهَا

ثم انتقل إلى مخاطبة الممدوح :

فَمِثْلُكَ تَوُوبٌ إِذَا أَدْبَرَتْ وَتَحْوِكَ يُعْطَفُ إِقْبَالُهَا

وهذا كل ما فى وصف الأرض التى تقطعها الناقة ، فلا غرابة أن يكون الحمار المذكور فى وصف الناقة التى تقطع رحلة كهذه حماراً ألوناً مترفاً ، فيه خطوط وألوان ، وله حلائل من حوله يدنعن طوراً ، ويتوسد أكفالهن طوراً آخر .

وهكذا ترى الشعر يفتح لنا باب بعد باب .

ونعرض صورة أخرى فى تشبيه الناقة وإن كانت لا تدور حول العير ، وإنما تدور حول العيناء ، وتحكى قصتها ، وغرضنا من هذا هو بيان الفروق والملابسات التى لا يجوز لنا أن نهملها فى دراسات التشبيه .

يقول فى مدح سلامة ذى فائش الحميرى - وهو أحد أذواء اليمن ، والأذواء : جمع « ذو » وهو لقب يُلقب به حُكَّام المناطق فإذا اتسعت مملكته سُمى قَبِلاً .

وكانوا يُختارون من سراة الناس وأشرافهم وليسوا من اللصوص المترحين كما هو الحال عندنا .

يقول :

تَراها إذا أدلجت لَيْلَةً	هَبُوبَ السُّرَى بَعْدَ إِسَادِهَا
كَعَيْنَاءَ ضَلَّ لَهَا جُودُرٌ	بِقُنَّةٍ جَوُّ فَأَجْمَادِهَا
قَبَانَتْ بِشَجْوٍ تَضُمُّ الْحِشَا	عَلَى حُزْنٍ نَقَسٍ وَإِنْحَادِهَا
فَصَبَّحَهَا لِطُلُوعِ الشُّرُوقِ	ضِرَاءَ تَسَامَى بِإِسَادِهَا
فَجَالَتْ وَجَالَ لَهَا أَرْعُ	جَهْدَنْ لَهَا مَعَ إِجْهَادِهَا
فَمَا بَرَزَتْ لِقِضَاءِ الْجَهَادِ	فَتَتَرَكَّهُ بَعْدَ إِشْرَادِهَا
وَلَكِنْ إِذَا أَرَهَقَتْهَا السَّرَا	عُ كَرَّتْ عَلَيْهِ بِمِصَادِهَا
فَوَرَّعَ عَنْ جِلْدِهَا رَوْقَهَا	يَشْكُ ضُلُوعاً بِأَعْضَادِهَا
فَتِلْكَ أَشْبَهُهَا إِذْ عَدَتْ	تَشُقُّ الْبِرَاقُ بِأَصْعَادِهَا

* * *

والعيناء : بقرة الوحش ، وضلّ لها جُؤذر : أى فقدت ولدها ولم يمت ، والقننة : المكان المرتفع ، والجواسم : مكان ، والأجماد : الأرض الغليظة ، والشجو : الحزن . والإيحاد : التوحد .

أى أنها باتت خزينة متفردة بعد فقد ولدها ، والبضراء : كلاب الصيد الضاريات . وتسامى : أى تتسامى وتتسابق ، والإيساد : الإغراء ، أى أن كلاب الصيد تتسابق فى حثها وإثارتها ، والمراد بالأربع : قوائمها ، يعنى أنها أسرع وأسرع لها قوائم أربع .

والجّهاد - بفتح الجيم : الأرض الغليظة ، يعنى أنها ظلت باقية لا تترك الأرض الغليظة مع إثارتها وسرعتها وجدها فى الهرب . والمبصاد : هو القرن ، والسراع : كلاب الصيد ، يعنى أنها تدفع الكلاب بروقيها . وقوله : « فورّع عن جلدها » أراد دافع عنه ، ويشك ضلوع الكلاب وأعضاها .

والغرض من هذا التشبيه كالغرض من سابقه : وهو وصف الناقة بالسرعة والقوة والاندفاع ، ولكن الصورة هنا مختلفة وهى قصة هذه البقرة الوحشية التى أتبع الشاعر ذكرها بذكر ما يحزنها ويسوؤها ، وهو ضلال الولد .

وكان الأعشى يذكر أن هذا الجؤذر تفترسه الذئاب وتعود الأم وتجده أشلاءه باقية فيستعر حزنها ، ولكنه هنا اكتفى بأنه ضلّ ، ونقل الحديث بسرعة إلى قصة العيناء مع كلاب الصيد ، وقد وصف الصراع بين الكلاب والبقرة وأن هذه البقرة الشكلى شكت بمبصاها هذه الكلاب ومزقتها .

والفرق بين هذه الصورة وصورة المعلقة ظاهر . هناك حمار صخّاب جوال بصخبه ، ظالم خبيث النفس ، وهنا عيناء مظلومة رماها القدر بالشكل والتفرد وتوحش كلاب الصيد .

ونسأل : هل هناك ملاءمات بين الصورة بدقائق خصوصياتها وبين رموز القصيدة وعناصر بنائها ؟ وهل كان يجوز للأعشى من وجهة النظر البيانية أن يضع إحدى الصورتين مكان الأخرى ؟

ويسهل علينا أن نقول فى الجواب أن هناك ملاءمات بين صورة المصلصل الجوال والقصيدة اللامية ، لأن المصلصل الجوال جزء من القصيدة ، ولبنة فى بنائها ، ومن البديهي أن يكون هناك تجانس بين الأجزاء الداخلة فى تكوين القصيدة ، وإلا كانت متنافرة متشادة ، وقُلْ مثل ذلك فى ملاءمة العينة للقصيدة التى جاءت فيها ، لأنها جزء من بنائها ، فيها ألوانها وأنغامها ، وماؤها ، وطبعها .

وأبيات القصيدة كلها ولائد موقف واحد ، لقد ذكر القدماء أن الأخوة بين أبيات القصيدة يجب أن تكون أخوة أم وأب ، يعنى أن الأبيات كلها من أصلاب مواقف واحدة ومن أرحام واحدة وغذيت بماء واحد ، ومجاز هذا فى الشعر ظاهر لا يحتاج إلى بيان ، لأن المقصود هو تجانس الرموز والصور والصيغ والهواجس والألفاظ والهواتف وكل حركة حية داخل البناء الشعري وهو عالم زاخر حافل

ذكر القدماء ذلك وأوسع منه وأغزر ولكنهم لم يفصلوا القول فيه . وظل أمر تحديدده ووصفه مغيباً .

وأول ما ننظر إليه فى بيان الملاءمة هو اللحمة التى وصلت هذه الصورة بالأجزاء السابقة لها . أو قُلْ ننظر فى الخيوط التى كان امتدادها الشعري منتجاً لهذه الصورة ، وهذا نظر قريب لا تكلف فيه .

وراجع النسج السابق للمصلصل الجوال ، وكيف كان المصلصل واقعاً فيه موقعاً يلتئم ، وأول ما يظهر لنا أن الشاعر فى القصيدة التى ذكر فيها المصلصل الجوال قد بسط الكلام فى وصف الناقة وصف قوتها وصلابتها ، فهى « عسير » أى قوية ذات مراح ، وهى « خنوف » أى ذات ميل من شدة حميتها ، ثم هى

« عيرانة » : أى تشبه العير فى قوتها وصلابتها ، ثم إنه صلبها العُضُ - بضم العين : أى علف القرى والبوادرى وهى لم تلد فبقيت قوتها موفورة .

وَعَسِيرٌ أَدْمَاءَ حَادِرَةِ الْعَيْنِ — مِنْ خُتُوفٍ عَيْرَانَةٍ شِمْلَالٍ
مِنْ سَرَاةِ الْهَيْجَانِ صَلَبَهَا الْعُضُ — وَرَعَى الْحِمَى وَطُولُ الْخِيَالِ
لَمْ تَعْطَفْ عَلَى حُورٍ وَلَمْ يَقْطَعْ عُيَيْدٌ عُرُوقَهَا مِنْ خُمَالٍ

و « حادرة العين » أى قوية - و « سراة الهيجان » : كرام الإبل ، و « طول الخيال » : أى طول الزمن الذى لم تحمل فيه ، و « يقطع العبيد عروقها » : يعنى لم تُطَبَّب .

وتأمل هذه الصفات تجدها خيوطاً ممتدة صالحة لأن تصلها بالمصلصل الجوال ، وأبين ما تراه فى ذلك أنه قال فى وصف الناقة : « عيرانة » أى تشبه العير فى قوتها ، والعير هو حمار الوحش ، وهذا إيماء واضح إلى ذكر المصلصل الجوال ، ثم إنه ذكر أنها « لم تعطف على حوار » : أى لم تلد ، وهذا يلتئم مع ذكر حمار الوحش ، أكثر مما يلتئم مع ذكر « عيناء ضل لها جوذر » ، وهذا واضح ، ثم قال قبل ذكر المصلصل الجوال مباشرة :

تَقْطَعُ الْأَمْعَزَ الْمَكُوكِبَ وَخُذًا بِنَوَاجٍ سَرِيْعَةِ الْإِنْفَالِ

و « الأمعز المكوكب » : الأرض الصلبة المتقدة ، وهذا لا يُهْمُ إلى ذكر « العيناء » وإنما يُهْمُ إلى ذكر العير ، لأنه هو الذى يطبق الأرض الصلبة المتقدة من حر الصيف .

ثم قال :

عَنْتَرِيسٌ تَعْدُو إِذَا مَسَّهَا السَّوْ طُ كَعَسَدُو الْمَصْلَصِلِ الْجَوَالِ

و « عنتريس » من العترسة : وهى القوة والشدة ، وهذا إنما يناسب الحمار الشرس العارم ، ثم إن هذه اللفظة نفسها تجد لها رنيناً فى سلوك الحمار مع أتانها ، لأنه أخذها عترسة ، وشدة ، وفصلها عن جحشها فى قسوة وعرامة .

وكذلك النظر فى القصيدة التى ذُكرت فيها « العينة » ، تأمل نسيج الشعر السابق لها والذى كان امتداد خيوطه منتجاً هذه الصورة ، وكان تيار تصويره ونغمه وإيقاعه باعثاً لها .

وقد وصف البیداء وصفاً مخالفاً لوصفه لها فى اللامية ، فهى هناك : « ديمومة تَغُولُ بالسفر » ؛ أى تذهب بهم فى مجاهلها ، وأنه لا ماء فيه ، وإنما « مستقى أو شال » ، وأن الركب أخذ يحث بعضه بعضاً لفناء الماء ... إلى آخره .
أما هنا فإن البیداء عامرة بالحياة :

وَيَبْدَأُ تَحْسِبُ آرَامَهَا رَجَالَ إِيَادَ بِأَجْلَادِهَا

و « أجلادها » يعنى أجسامها ، وأراد الضخامة ، وكانت إِيَاد تُعرف بهذا . وهكذا ترى البیداء عامرة بالآرام ، وهذا يجعلها منظرًا للعين ، تستروح فيه ، وقد دلّنا الشاعر على أنه استروح ، وملأ العين ، وعقد لهذا المنظر بيت شعر كامل ، وصف فيه الآرام فحسب ، وأظنك معنى فى أن الذى يُشبع الآرام ببيانها هذا الإشباع لا يُشَبَّه ناقتة بالمصلصل الجوال ، وإنما يُشَبَّهها بالعيناء التى من هذا الجنس الذى يتملاه ، وذلك ظاهر جداً .

ثم إن هذه البیداء قصارى صعوبتها ألا يخطئ الركب ما فيها من علامات دالة على مسالكها :

يَقُولُ الدَّلِيلُ بِهَا لِلصَّحَا بَ لَا تُحْطِثُوا بَعْضَ أَرْصَادِهَا

ولاحظ أن هنا دليلاً ، وقارن هذه بأهوال الخرق الذى يخرس الركب . ثم إنه لم يذكر من أوصاف قوتها وصلابتها ما ذكره هناك ، وإنما وصف الناقة هنا بالامتلاء والقوة :

سَدِيسٍ مُقَدِّقَةٍ بِاللَّكِيِّ — كِ ذَاتِ نَمَاءٍ بِأَجْلَادِهَا

و « السديس » : التى فى السادسة ، و « المقدفة باللكيك » : الممتلئة باللحم ، و « اللكيك » اللحم ، و « الأجلاذ » : الجسم ، أى ذات نماء وامتلاء .
لم يقل هنا إنها لم تعطف على حوار ، ولا إنها عنتريس ، وإنما كان المدخل إلى ذكر العيناء :

تَرَاهَا إِذَا أَدْلَجَتْ لَيْلَةً هَبُوبَ السُّرَى بَعْدَ إِسَادِهَا

و « هبوب السرى » : أى ذات نشاط فى السرى ، و « الإساد » : دوام السير ، ثم قال : « كعيناء ضلّ لها جوذر » .

وهكذا ترى فلامسة الكلام ، وامتداده ، وغوه نمواً حياً متسقاً ، وكلمة « هبوب السرى » متلازمة مع كلمة « ضلّ لها جوذر » ، لأن الهبوب هى ذات النشاط ، والمراح ، المندفعة اندفاع الريح ، ومثله قوله : هبّ فلان يفعل كذا ، أى بدأ مندفعاً ، قوياً كالريح ، وهذا أشبه بالعيناء حين تفاجأ بضلال جوذرها ، وهذا واضح .

أما الموقف العام فى القصيدة ، من حيث المعانى ، والأحوال ، والصور ، فإنك واجد وشائج بين المصلصل الجوّال الذى يستاق الصعدة التى كقوس الضال ، ويخلف وراء الغبار جحشها الصغير ، ويقطعه عنها قطعاً ظالماً ، وبين صور كثيرة فى القصيدة أساسها العنف والشراسة والقسوة ، فوصف الكتائب التى يحشدها الأسود بأنها : « تخرج الشيخ من بنيه » و « تلوى بليون المعزابة المعزال » ، صورة أساسها الشراسة ، والعرامة ، والقسوة ، والغطوسة ، فالشيخ من هول ما يجد ، يخرج من بنيه ، ولّى لبون المعزابة بالمعزال ، يعنى الاستبداد بالراعى وأخذ إبله . والشائج هنا تكفى فيها اللّمة الدالة ، يعنى يكفى أن نرى شبيهاً بين أن يقطع الشيخ عن بنيه ، وأن تقطع الأم عن ولدها فى قصة المصلصل الجوّال ، كما أنه يكفى أن نلاحظ علاقة بين استيق العير لهذه الأم عنوة واقتداراً ، وبين ما نجده فى استيق الأسود لرجال دودان فى قوله :

مِنْ نَوَاصِي دُودَانَ إِذْ كَرِهُوا الـ سَبَاسَ وَذُبْيَانَ وَالْهَجَانَ الْغَوَالِي

المهم أن روح الاقتدار ، والقسوة ، والشراسة ، والغلظة ، والخبث ، التى وصف بها حمار الوحش لها رنين فى مواقع كثيرة من القصيدة ، مع صرف النظر عن مشخصات الصور ، فإخراج الشيخ عن بنيه ، من حيث هو صورة مشخصة لا أربط بينها وبين قطع الأتان عن جحشها ، وإنما ألمح الأمر الذى وراء الصورتين فأجده عنفاً ، وشراسة ، وقوة ، وبأساً ، واقتساراً ، وهو واحد فى الصورتين ، وهذا حسبى ، ثم إن القصيدة التى ذكر فيها العبناء كثر فيها ذكر طربه ، وكثرت فيها الغنائية التى محورها ذات الشاعر ، فقد ذكر الغانية المعجبة بالشباب ، والتى أخذت حليها وطبيها ، وأنه بات سيدها وسيد سيدها :

وَمِثْلِكَ مُعْجَبَةٌ بِالشَّبَابِ بِصَاكَ الْعَبِيرِ بِأَجْسَادِهَا

أى التصق العبير بأجسادها .

ثم ذكر الخمر ، ومجلسها ، وسط الكلام فى ذلك فى سبعة عشر بيتاً ، ذكر الرفاق ، وذكر اختيار الخمار لها من « بكار القطاف » ، أى أول ما يُقطف من العنب ، وأنه ساومهم ، وغالى فى ثمنها ، فقال الشاعر لخادمه : أعطه ، فلما أخذ الدراهم أضاء سراجهم لينقدها ، فقال له الأعشى : دراهمنا بكلها جيد ، ثم صبّ لهم قهوة تسكنهم بعد إرعادها ، أى تحدث فى جسمهم هدواً بعد الرعدة ، لما قمشت فى مفاصلهم ، فراحوا منعمين بنشوتهم ، تجور بهم النشوة ، وتهتدى ، ثم رحل بعد ذلك ، وهذا لا يتلاءم البتة مع حمار شرس ، ذى عترسة ، غليظ ، خبيث النفس ، وإنما يتلاءم مع العبناء : أى البقرة الحسنة العين ، ويلاحظ أنه ذكرها بلفظ « عبناء » ، وهو وصف فيه نشوة ، ومغازلة ، لأنه حديث عن سعة العين ، وسوادها ، ومثل هذا تشويه لا محالة لوعة وطرب ..

ثم إن ما مدح به سلامة ذا فائش ، إنما كان صبراً على رزء الحروب ، وما يدور حول هذا . ولم يذكر أنه قتل ، وأسر ، وأن عذابه كان غراماً ، وأنه أدين أقواماً كرهوا الدين ، أى أدخلهم فى طاعته قسوة واقتداراً ، وأنه سقاها الموت

سجالاً ، وأنه قاد خيلاً إلى خيل ، وأنه أنعل قوماً الحجر المحمى ... إلى آخر ما جاء فى قصيدة الأسود ، التى هى أجزل لفظاً ، وأجزل صورة ، وأكثر قسوة ، وفحولة ، والتى لا يحسن فيها موضع العيناء ذات الشجو والأسى ، وإنما تجدد فيها موضعاً لمصلصل ، جوأل ، صخاب ، يصب الجور على من حوله .

جاءت التشبيهات التى يُعتد بها فى هذه القصيدة فى ثلاثة عشر موضعاً من درسنا الذى درسناها وبقي منها :

١ - تشبيه الريش حول البئر التى فى الخرق ، أى البيداء الذى بينه وبين جبيرة ، بلقوط النصال ، أى السهام المرمية المتناثرة ، وإنما تشبه الريش حديدة السهم فى شكلها ، وهذا التشبيه واقع وسديد لأن المراد بيان أنها موحشة ، لا حياة فيها ، وأنه لا يرد القلب إلا القطا ، ولا يرده السابلة من الناس ، لأن الطريق غير مطروق ، وذكر لقوط النصال هنا مع إفادته للشكل وتناثر الريش فيه مشوب بخوف لأنه مكان تترصده سهام الرماة ، يقصدون الوارد من الوحش .

٢ - تشبيه الإبل التى يهبها المدوح بالبستان .

يَهَبُ الْجِلَّةُ الْجَرَاجِرَ كَالْبُسْ ——— تَتَانِ تَحْتَوِ لِدَرْدَقِ أَطْفَالِ

والجِلَّة - بكسر الجيم : المسان من الإبل ، ودردق الأطفال : أى الأطفال الصغار .

وهذا التشبيه لا يُراد به العِظَم فحسب ، وإنما لوحظ فيه معنى النماء ، والسخاء ، والزيادة ، انظر إلى ذكر الأطفال ، وأنها تحنو عليها ، وأنها حديثة عهد بالولادة ، وهذا كله فيه الوفرة والنماء والشم ، ولم يأت مثل هذا فى وصف الإبل التى يرحلون عليها ، وإنما تذكر بأنها لم تعطف على حوار ، وأنها صلبها طول الحيال ، أى طول الزمن الذى لم تحمل فيه ، ولذلك تشبّه بالأحقب

أو بالثور ، وإذا ذُكِرَت العِنااء ذُكِرَ معها فقد ولدها ، ضلاله أو موته ، وهكذا نلاحظ أن التشبيهات يضيع منها أجمل ما فيها إذا أهملنا حركتها فى السياق العام ، وإيماءاتها المتناسقة مع حركة هذا السياق .

٣ - تشبيه الجياد التى يهبها الممدوح بقُضْب الشَوْحَط وهو شجر تُتَخَذ منه القُسَى قال :

وَجِيَادًا كَأَنَّهَا قُضْبُ الشَّوْ
حَطٍ تَعْدُو بِشِكَّةِ الْأَبْطَالِ

وهذا التشبيه وإن كان يفيد صلابتها ومتانتها ، فإنه يوحى بأنها جياد حرب ، لأن « قُضْبُ الشَّوْحَط » تُتَخَذ منه القُسَى - كما قلت - وقد أهان عن هذا إهانة ناطقة بقوله : « تعدو بِشِكَّةِ الْأَبْطَال » أى تعدو بسلاحهم ، وهكذا نرى اختيار « قُضْبُ الشَّوْحَط » كأنه مع أداء معنى التشبيه يهدهد لبقية البيت ، ثم ترى ذكر الإبل المسان الولود - فى البيت رقم ٤٦ - والجياد التى تعدو بِشِكَّةِ الْأَبْطَال - فى البيت رقم ٤٨ - يعطيان معاً الجود المائل فى الإبل الولود ، والشجاعة المرموز إليها بالجياد ، والتى تعدو بِشِكَّةِ الْأَبْطَال ، وبينها بيت رقم ٤٧ يقول فيه :

وَالْبَغَايَا يَرْكُضْنَ أَكْسِيَّةَ الْإِضْ
رِيحٍ وَالشَّرْعَبَى ذَا الْأَذْيَالِ

والمراد بـ « البغايا » الجوارى ، ولا معنى فيه للْبَغَى المشهورة ، و « أكسية الإضريج » : الحرير الأصفر ، و « الشرعبي » : الحرير الأحمر ، ومعنى ركضهن فيه ، رمز إلى اللهو والمتعة بهن ، وهكذا يجتمع فى الأبيات : الجود ، واللهو ، والحرب ، وهى أخلاق البطولة التى يدور كثير من الشعر حول تحليلاتها .

٤ - تشبيه الممدوح بفرع النبع ، وهو شجر تُتَخَذ منه القُسَى ، صلب لدن يُشَبَّه به الكريم ، لأنه لدن يهتز ، ولأنه شجر كريم يُحفظ ، ويُصان ، ويُرى كما تُرى النفائس ، وتُحفظ وتُصان ، وقد ذكر الأعشى أنه يهتز فى غصن المجد ، فأفصح عن المعنى المتضمن فى أنه فرع نبع ، لأن المراد به الكرم

ونفاسة الطبع والأريحية للمعروف ، وكل فعل نبيل ، وهذا - كما رأينا - ذكر الأطفال بعد البستان والعدو بشيكة الأبطال بعد قضب الشوخط ، وغير ذلك مما ترى فيه المعانى تتنامى نمواً طبيعياً كما ينمو الكائن الحى ، تأمل قوله :

فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْـ سَدِ غَزِيرِ النَّدى شَدِيدِ الْمِحَالِ

و « المحال » - بفتح الميم : فقار الظهر ، وبكسرها كما هنا : المكر ، والتلطف ، وإصابة الحيلة ، وهو المراد هنا لأنه أراد وصفه بالدهاء ، وقد جمع بين غزارة الندى وشدة المحال ، وإنما يجمعون بين الندى والشجاعة ، وإنما أراد اللفت إلى دهائه ، ومكره ، ووقيعته بأعدائه ، وكيدته لهم ، وتأمل الكلام تجدد غصن المجد تفرع منه فرعان : غزارة الندى ، وشدة المحال ، وجذر ذلك هو النبع ، والممدوح فرع منه . وهكذا نرى البيت مرة ثانية تتهادى معانيه وتتهدل وكأنه هو الآخر فرع نبع يهتز بأضواء الشعر .

* * *

● مجازات القصيدة :

جرت فى القصيدة ضروب من المجاز العقلى والمرسل والاستعارة ، وهى متفاوتة قلة ، وكثرة ، وقرباً ، وإصابة .

أما المجاز العقلى ، فقد كان محصوراً فى حديث الرعى وما يتصل به . فقد ذكر ديار جبيرة ، وأنها بعيدة عنه ، وأن قومه حلوا بطن الغميس فبادولى ، وهى أسماء أماكن بديار قومه ، وحلت هى وقومها علوية بالسخال ، ثم ذكر الأماكن التى ترتعى فيها : الكثيب ، وذا قار ، وروض القطا ، وذات الرئال .

قال :

حَلَّ أَهْلِي بَطْنِ الْغَمِيسِ قَبَادَوْ لَى وَحَلَّتْ عَلْوِيَّةٌ بِالسَّخَالِ
تَرْتَعَى السَّفْحَ الْكَثِيبَ قَدْ قَا رِ قَرَوْضَ الْقَطَا قَذَاتِ الرِّئَالِ

المجاز فى قوله : « ترتعى السفح فالكثيب » ... إلى آخره ، لأنها ترعى رعى هذه البقاع ، ولكن المجاز هو الأجرى فى مثل هذا الأسلوب ، وقُلْ أن يُقال : ترتعى رعى مكان كذا .

ومثله فى أن الإسناد المجازى هو الشائع فى الكلام قوله يصف أثر الرعى : « وطول الحِبال » : أى الزمن الذى لا تحمل فيه ، وأن الرعى من المرعى الخاص « العُضْ » - بضم العين ، وهو علف الأمصار ، والقِرَى صَلَبَ هذه الناقة ، أى جعلها صلبة قال :

مِنْ سَرَاةِ الْهَيْجَانِ صَلَبَهَا الْعُضْ — رَعَى الْحِمَى وَطُولُ الْحِبالِ

المجاز فى قوله : « صَلَبَهَا الْعُضْ » ، وما عطف عليه ، وهذا المجاز من الذى لا يكاد يجرى فى الكلام غيره ، أى لم يقولوا : قويت ، أو صلبت بسبب العُضْ ، ورعى الحِمَى وطول الحِبال .
ومثله قوله فى حمار الوحش :

لَا حَذَّ الصَّيْفُ وَالصَّيَالُ وَاشْتَفَا قُ عَلَى صَعْدَةِ كَقَوْسِ الضَّالِ

و « لاحه » : أى أضمره ، وموضع المجاز فى إسناد « لاح » إلى الصيف وما بعده ، لأنه إنما لاح بسبب هذه الأشياء ، ولا يكادون يقولون غير هذا .

وقد أحسن عبد القاهر حين أوما إلى هذا الضرب من المجاز الذى لا يكون له فاعل فى التقدير ترجع العبارة إليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَیَحَتْ تُجَارَتْهُمْ ﴾ ^(١) فإنه من الممكن أن ترجع إلى الفاعل الحقيقى وتقول : ربحوا فى تجارتهم ، ويكون الإسناد حقيقة ، قال عبد القاهر : ليس كل مجاز يمكن أن ترجع فيه هذا الرجوع ، وضرب مثلاً لذلك بقولهم : « أقدمنى بلك حق لى عليك » ، وقوله :

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

(١) البقرة : ١٦

وقد ناقش العلماء هذا وهو صواب ، وهذه الشواهد التى جاءت فى قصيدة الأعشى من الضرب الذى لم يجر الاستعمال فيها بالإسناد إلى الفاعل الحقيقى كما قلت . وإذا كان هذا المجاز كنزاً من كنوز البلاغة - كما قال عبد القاهر - فإن الأعشى لم يستخرج من هذا الكنز فى هذه القصيدة شيئاً ذا بال .

أما المجاز فى اللغة فقد جاء منه فى المفرد هذه الكلمات :

١ - كلمة « النواصى » وهى مقدم شعر الرأس ، ومجازه فى المعلّقة :
أشراف الناس وسادتهم قال :

مِنْ نَوَاصِي دُودَانٍ إِذْ كَرِهُوا الـ — بَأْسَ وَذُبْيَانَ وَالْهَجَانَ الْغَوَالِي
وهذا مجاز حسن ، كما يقال : وجه قومه ، وأنفهم ، ورأسهم ، وناصيتهم ... وما يشبه ذلك .

٢ - كلمة « الحِيَالِ » ومعناها ألا تلتقح الناقة ، ومجازها هنا فى الحرب التى شُبَّتْ بين الأقبام بعد المسألة والموادعة ، وقد شَبَّهوا الحرب التى شُبَّتْ بعد الموادعة بالناقة التى لقحت بعد طول حِيَالٍ ، وهذا أمكن لها وأصلب وأتم وأقوى .

قال الأعشى .

وَلَقَدْ شُبَّتِ الْحُرُوبُ فَمَا غُمُّ — رَرْتُ فِيهَا إِذْ قُلُصْتُ عَنْ حِيَالٍ
و « ما غمر فيها » : أى لم يكن غمراً غير مجرّب .

وقد كثرت تصاريف أحوال الناقة فى المجاز عن الحروب فذكروا لقاحها ، ونتاجها ، وأحوال أولادها ، وأنهم غلمان أشأم .

وقد جاءت هذه اللفظة بمعناها الحقيقى فى قوله :

مِنْ سَرَاةِ الْهَجَانِ صَلَبَهَا الْعُ — ضُ وَرَعَى الْحِمَى وَطُولُ الْحِيَالِ

وتأمل الكلمة فى الموضوعين تجد أنها واقعة فيهما موقعاً حسناً ، ولكنها حين نُقِلَتْ إلى الحرب أنبضت بفكرة جديدة اتسعت بها اللفظة وغزرت دلالتها ، وانشقت عن ضروب من الحيات الجديدة المستكنة فى الكلمة هى حرب تلحق !! وهذا فى نفسه عجيب ، ثم تلحق بعد طول حياء ، وامتناع ، ثم تنتج نتاجاً أشد ، وأشرس ، من أى حرب ولود ، الصور غريبة كما ترى ، وهى أشباح من عالم مجهول بلا ريب ، قد الخيال المصور بضروب ، وأفانين من الأحوال ، والأحداث ، والصور ، والأشياء ، تأمل كلمة : « لقت عن حياء » أو « قلصت عن حياء » .

وإذا كانت كلمة « حياء » فى مجازها فى قوله :

وَلَقَدْ شُبِّتَ الْحُرُوبُ فَمَا غُمُّ — سَرَتْ فِيهَا إِذْ قُلِّصَتْ عَنْ حِيَالِ

أغزر ، وأوسع ، وأخصب ، من كلمة حياء ، فى حقيقتها فى قوله :

مِنْ سَرَاةِ الْهَجَانِ صَلَبَهَا الْعُ — ضُ وَرَعَى الْحِمَى وَطُولُ الْحِيَالِ

فإن هذا البيت الذى جاء فى على سبيل الحقيقة حسن لفظه وسبكه ومعناه .

٣ - كلمة « عيرانة » ، وأصلها من العير الذى هو حمار الوحش ، وتأتى - مجازاً فى الناقة القوية الشديد التى تشبه حمار الوحش ، كما قالوا « جمالية » للناقة التى تشبه الجميل .

وهذا مجاز شائع وجاء منه قوله :

وَعَسِيرٌ أَدْمَاءَ حَادِرَةِ الْعَيْنِ — مِنْ خُشُوفٍ عَيْرَانَةٍ شِمْلَالِ

قال القرشى فى تفسير عيرانة : « مشبهة بعير الفلاة فى صلابتها ، ووقاحتها » - انتهى كلام أبى زيد . وتأنيث اللفظ ، وزيادة الألف ، والنون فى مبناه ، يعنى أنه اشتقاق من العير كما يقال : مأسدة ، للأرض الكثيرة الأسود ، وكما يقال : جمالية ؛ للناقة التى تشبه الجميل ، وهذا يعنى أنه من قبيل الاستعارة

التبعية ، وإن كانت لم تجر في المصدر ، وإما جرت في اسم جامد « العير »
الذى نزل منزلة المصدر ، ولم أجد لهذا نظيراً في تنبيهات العلماء ، وذلك لقلة
وروده ، والكلمة المستعارة لا تؤنث ، نظراً لتأنيث المستعار له ، ولهذا تستعير
البدر للحسنة ويبقى مذكراً ، والشمس للرجل النابه وتبقى مؤنثة ... وهكذا ،
لأننا لا نستعير اللفظ إلا بعد أن ندعى دخول المشبه في جنس المشبه به ،
وصيرورته فرداً من أفراد ، فلا معنى لأي تغيير في اللفظ ، وعلى هذا كان
الأصل أن تكون استعارة العير للناقة ، فيقال : وضع رحله على عير ، أو :
صار قنوده على عير ، كما يقال : كأن قنودى فوق أحقب ، ولكنهم قالوا :
« عيرانة » ، فأحدثوا هذا التغيير على غير المألوف في الاستعارة ، ولهذا قلنا :
إنه صار في حكم المشتق ... إلى آخره .

والبيت وصف جامع ، وإن كنت تراه مبنياً من ألفاظ متلاحقة ، حتى كأنه
لا صنعة فيه ، وكل لفظة فيه كأنها جملة مستقلة ، ولهذا تجب فيه خمس
سكتات ، يعنى تقول : عسير ، ثم تسكت ، ثم تقول : أدماء ، ثم تسكت ،
وحادة العين ... وهكذا حتى يخامر المعنى النفس والعقل ، وتتحكم دلالة اللفظة ،
ولا تكتمل لك صورة الناقة في هذا البيت إلا بهذه السكتات التى تتعلى فيها
أولاً قوتها ، ثم لونها ، ثم حدة بصرها ، ودلالته اكتمال خلقها وشدها ، ثم
فرط نشاطها الذى تراه من ميل فى سيرها ، ثم اكتمال خلقها ، وضخامة
جسمها ، ثم سرعتها ... وهكذا ، ثم إن سقوط الواو ، ونسق هذه الصفات من
غير نسق ، يعنى أنها توجد فيها مجتمعة ، كأنها صفة واحدة ، وهذا من بليغ
المباني ، وعليه المعول فى كثير من شعر الأعشى وطبقته .

٤ - كلمة « حبل » وهى حقيقة فى الحبل المعروف ، ومجازها : العهد ،
والذمة ، والجوار ، قال الأعشى :

وَوَقَاءُ إِذَا أَجَرْتَ فَمَا غُرٌّ تَحِبَّالٍ وَصَلَّتْهَا بِحِبَّالٍ

و « أَجَرْتُ » : أى جعلت فى جوارك ، وذمتك ، وعهدك ، و « الغر » : الخداع ، أى ما خُدِعَ فيك وبك مَن جعلته جاراً لك ، وإنما يُوفى جواره ، ويُحفظ ذمامه ، قال أبو زيد : « ما كسر مَن كان تحت ظلك وذمتك » ، وهذا تفسير حسن من أبى زيد .

واستعارة الحبلى للعهد والجوار ، إنما كانت من حيث كان العهد والجوار وصلة بين المتعاهدين ، وسبباً يصلهما ، وجامعاً يجمعهما ، فاستعير له الحبلى ، وهو من المجاز الشائع ، ومع شيوخه لا يزال يكتنز قوته وجزالته ، ولا تزال سيطرته على الفكرة ، وسطوعها فيه ، حية متجددة ، وفى البيت حبال وحبال ، وكلاهما مستعار ، الحبال الأولى : حبال المعاهد ، والمجاور ، والحبال الثانية : حبال الممدوح ، الذى عاهد ، وأجار ، وفى التعبير « انحراف » بلاغى لطيف وجيد ، هذا الانحراف هو أنه نفى الغر ، عن الحبال الموصولة بحباله ، ولم ينف الغر عن الرجال الذى عاهدوه ، يعنى لم يقل : فما غر أصحاب حبال ، أو رجال عاهدوك ، وصاروا بسبب من ذمتك ، وجوارك ، وإنما قال ما ترى : « فما غُرْتُ حبال » وهذا سلوك للطريق الألف ، والذى يجعل اللفظ يطوى لمحة إيماء ، فيفتح باب المعنى ، ولا يضع اللسان عليه ، ولهذا تلمح ومض كناية خفية هنا ، لأن نفى الضرر عن الحبلى يعنى العهد ليس هو المراد ، وإنما المراد معناه : أى معنى المعنى وهو نفى الغر عن الأقوام الذين عاهدوه ، أو جاوروه ، وهذه البقاء التى فى قوله : « فما غُرْتُ حبال » فاء التفريع ، ومعنى الجملة التى دخلت عليها هو معنى الجملة التى سبقتها : « ووفاء إذا أجرت » تأمل هذا ثم تأمل : « فما غُرْتُ حبال وصلتها بحبال » وهذا التفريع أفاد أن المعنى الثانى كأنه صفة تأسست على المعنى الأول ، فالوفاء بالجوار تأسس عليه نفى الضرر عن صاحب الذمة والجوار ، وإنما فرّع هذه الصفة خصوصاً ، لأنها تُقاس بها أقدار الرجال ، فالرجل بصدق وعده ، وصراحة موقفه ، ولا يغرنك أنك قد تهجد كباراً صاروا رؤوس أقوامهم ، ثم يقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يوفون ، ويعاهدون ويغدرون ،

فإن الصواب ما قلته لك لأن هؤلاء سرقوا مواقع الكرام ، وليسوا كراماً ، كما سرقوا مواقع القيادة ، وليسوا قواداً .

ثم تأمل كيف سلسل الأعشى من اللغة نغماً تجرى توقيعاته فى المبانى والمعانى معاً :

وَعَطَاءٌ إِذَا سَأَلْتَ إِذَا الْعِذُّ رَاةٌ كَانَتْ عَطِيَّةُ الْبُخَالِ
وَوَفَاءٌ إِذَا أُجِرْتَ فَمَا غُرُّ تَحِبَّالٌ وَصَلَتْهَا بِحِبَالِ

تأمل وتدقق وتبين كيف استطاع الشاعر أن يجعل الألفاظ منبعاً لهذا الفيض من النغم ، وأحسن التعرف على مقاطع الكلام وما يجب السكوت عنده ، وفى كل بيت وقفتان واجبتان ، وقفة بعد اللفظة الأولى من البيتين الأول والثانى ، ووقفة بعد « إذا » الشرطية وما دخلت عليه ، إذا سألت .. إذا أجرت ، وهذه الوقفة الثانية أطول من الأولى . ثم تأمل جرس المعنى الذى هو نبع جرس اللفظ ، ثم كيف أطلق المعنى بعد قيد فى البيت الأول « إذ العذرة كانت عطية البخال » يعنى كل عذرة لكل بخيل ، وكان الكلام الأول مقيداً بعطائه هو وبأن يكون السؤال له هو ، وهكذا الحال فى البيت الثانى ، أطلق المعنى بعد تقييد وشرط ، فالوفاء وفاءه ، ثم نفى الغرر عن كل حبال موصلة بحباله ، وهكذا تجد النسق فى البيتين نسقاً واحداً ، والأعشى له مذاق صوتى دقيق ولطيف فى شعره ، ولم ننبه إليه فى الذى مضى ، ويحسن أن ننبه هنا إلى شيء منه . أولاً : تأمل البيت الأول تجد حرف العين تكرر فيه ، فأحدث جرساً متميزاً ، والبيت الثانى تكرر فيه حرف الحاء ، فأحدث جرساً متميزاً ، ثم تأمل هذه الصيغ من حيث أصواتها وتنادى هذه الأصوات .

عنتريس تعدو ... مسها السوط ... الصيف والصيال ...

لملع لاعة ... ذو أذاة ... غادر الجحش فى الغبار ...

السموط عطفها السلك ... تعطف بقطع عبيد عروقه ...

مرحت حرة ... فرع نبع ... عوان فوق عوج ...

... إلى آخر هذا مما تراه أصلاً للنغم في الشعر أو من أصول النغم لأن هناك طاقات أخرى كثيرة ، وإنما نبهت إلى شيء قل أن ينبّه إليه .

٥ - كلمة « تعللتها » .. وأصلها في الدلالة هو الشرب بعد الشرب .

وقد كثر استعمالها مجازاً في العمل بعد العمل ، وقد جاءت في قول الأعشى :

قَدْ تَعَلَّلْتُهَا عَلَى نَكْظِ الْمَيْطِ — ط وَقَدْ حَبَّ لَامِعَاتُ الْآلِ

أى ركبتهما مرة بعد مرة ، و « النكظ » : السرعة ؛ وهو لفظ قليل الدوران في الشعر ، و « الميط » : شدة البعد ، قال القرشي : نكظ الميط : أى شدة البعد .

وهذه الاستعارة لا شك أنها تجدد اللفظ ، لأن كل مجاز يجدد بيان اللغة كما يقول عبد القاهر ، وكان رجلاً كأنه كان يعيش في اللغة ، ويسكن في سراديب الألفاظ ، وكثيراً ما يحدثنا عن أشياء لم تقع على وجه الفهم السديد فيها إلا بعد زمن ، ومنها قوله في وصف الاستعارة : « ومن الفضيلة الجامعة معها أنها تُبرز هذا البيان أبداً في سورة مستجدة ، تزيد قدره ثُبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت منها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة مرموقة » (ص ٤١ - أسرار البلاغة طبع ريتز) .

ولن تستطيع أن تقع على هذا وتحكم فهمه إلا إذا كان بين يديك وأنت تفهمه الذى كان بين يديه وهو يكتبه ، وأعنى بذلك ألفاظاً جرى بها مجازها في معان كثيرة ، فتنوعت دلالتها ، واتسعت .

واستعارة هذه اللفظة « تعللتها » لا ترى وراءها معنى غزيراً مغرباً ، لأن العلل الذى هو الشرب بعد الشرب لم يضاف إلى الركوب بعد الركوب فكرة جديدة ، أو يستخرج منه صورة ، أو حياة ، أو حركة ، أو غير ذلك مما يفرغه

المشبه به على المشبه حين يقوم مقامه ، مثل ما أضافته كلمة « حيال » إلى الحرب حيث صيرتها خلقاً آخر غير ما عرفناه ، ونقلتها من جنس إلى جنس .
وحين كان عبد القاهر يُنَوِّه بمثل هذا إنما كان يدرك ما وراء الكلمة المستعارة من افتنان وإبداع وخلق .

وكل الذى تراه فى استعارة « العلل » للركوب بعد الركوب هو الإيجاز والطرافة التى أحدثتها انتقال الكلمة من واد إلى واد آخر .

٦ - كلمة « الأثقال » - جمع ثقل ؛ وهو ما يشغل حمله من الأشياء المادية ، ومجازها فى القصيدة الأحداث ، والأحوال ، والأمور التى لا يعالجها إلا ذوو الهمم من الرجال الأفراد .. قال :

عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتَّقَى وَأَسَا الصَّرْعُ وَحَمْلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ

والمراد بـ « أسى الصرع » أى دواء الداء الذى هو الصرع ، وهو داء يبطل الحس كما قالوا ، وقد رواه أبو زيد القرشى ، و « أسا الشق » يعنى رتق الفتق وإصلاح الثأى كما قال ، و « الحمل » ما حُمِلَ على الرأس ، والظهر ، وهو هنا ترشيح لاستعارة الأثقال الحسية الذى يعترى الأقوام من الأمور المهمة ، وهذا من المجاز المصائب للحقيقة ، لأنه قد شاع الثقل فى الهموم والأحوال النفسية ، كما شاع لفظ الحمل للأحوال المعنوية .

٧ - كلمة « رَفْد » - بكسر الراء وسكون الفاء ؛ ومعناه العطاء ، يقولون : رَفَدَهُ وأرفده : أى أعانه ، وفلان نِعِمَّ الرافد ، إذا حَلَّ به الوافد . وروى الزمخشري : « رَفَدْتُ ذَوَى الْأَحْسَابِ مِنْهُمْ مِرْفَادِي » ، أى أعطيت الكرام عطائى ، وقد جاء مجازاً عن الحياة فى قول الأعشى :

رُبَّ رَفْدٍ هَرَقَتْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعَشَرٍ أَقْتَالَ

فقد شَبَّهَ الحياةَ بالرِّفْد - أى العطاء - لأن الحياة عطاء ، وهذا معنى جيد ، فالذى لا يعطى الحياة كأنه ميت وكأن حياته موت ، وقد كنتُ حسبتُ قولهم : « أراق رِفْدَه » من باب الكناية لأن الكتب تقول هذا ، فلما تأملتُه وتأملت نظائره من مثل قولهم فى الرجل إذا مات : « صَفَرَتْ وَطَابُهُ » و « كُفِنَتْ جَفْنَتُهُ » و « هُرِيقَ رِفْدُهُ » رأيتُ الأشبه بمعانى هذه الصيغ أن يكون الرِّفْد ، والوَطَاب ، والجفنة ، وكل ذلك مجاز عن الحياة ، لأن الحياة كأنها رِفْد يَمُدُّ بالعطاء ، ووطاب يغدق على الحياة والأحياء ، وجفنة تمد مَنْ حولها بالحياة ، وهكذا يصير الحى كأنه مائدة ممدودة فى الأرض لأبنائه ، وعشيرته ، ومَنْ حوله ، فإذا مات جف نبعه ، وهريق رِفْدَه ، وانكفأت آنيته ، وصفرت وطابه ، ولهذا استقام عندى أنه من المجاز وما حوله ترشيح .

٨ - كلمة « شوك السَّيَال » - بفتح السين ؛ والسَّيَال شجر له شوك وهو هنا مجاز عن الأسنان ، لأن شوكه أبيض يشبه الأسنان فى صفائه ، ودقته ، وبريقه .. قال الأعشى :

يَا كَرَّتَهَا الْأَغْرَابُ فِي سِنَةِ النَّوْءِ مِ قَتَجَرِي خِلَالَ شَوْكِ السَّيَالِ

وقوله : « با كرتها » : أى بكرت إليها ، والضمير عائد على الخمر فى البيت السابق :

وَكَاَنَّ الْخَمْرَ الْعَتِيقَ مِنَ الْإِسْفِنُ طِ مَمَزُوجَةً بِمَاءِ زُلَالِ

و « الأسْفِنُط » - بكسر الفاء : اسم من أسماء الخمر ، وهو فارسى معرَّب ، و « الأغراب » : جمع غرب ، وهو بياض الأسنان ، يقول : كأن خمرًا معتقَّة جرت فى أسنانها ، يريد عُذْوِيَةَ الرِّيق .

وقد جرى هذا كثيراً فى الشعر الجاهلى .

أما الاستعارة المكنية فقد جاءت فى أربعة مواقع فى القصيدة ، منها موقعان فى ذكر النافه ، وهى تشكو إليه الحفا والكلال .. قال :

لَا تَشْكِي إِلَىٰ مِنْ أَلَمِ النَّسْـ َع وَلَا مِنْ حَفَا وَلَا مِنْ كَلَالٍ
لَا تَشْكِي إِلَىٰ وَأَنْتَجِييَ الْأَسْـ ُودَ أَهْلَ النَّدَىٰ وَأَهْلَ الْفَعَالِ
وشكوى الناقة ، وحوارها ، وإن كان أصله مجازاً حياً إلا أنه شاع وألف
وصار لا فضل فيه لقائل .

وقوله : « أهل الندى ... والفعال » .

من صور الاستعارة بالكناية الشائعة أيضاً ، وكأن الندى والفعال التى هى
أعمال المكرمات ، صارت أحياء ، ولها أهل ، وعشيرة ، وهم هؤلاء ، والأعشى
هو الذى قال فى القافية المشهورة التى مدح بها المحلق : « وبات على النار
الندى والمحلق » ، ومن ذلك قوله :

وَشَرِيكَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَا لِي وَكَانَا مُحَالَفِي إِقْلَالٍ

وليس هذا كناية عن ملازمة الإقلال ، وإنما هو من الاستعارة المكنية ، لأنه
جعل الإقلال حياً ، وله أليف ، ومحالف .

وهذه الاستعارات الثلاثة تُضاف إليها استعارة رابعة وهى كل ما فى القصيدة
من هذا الصنف وهى قوله :

فَرْعٌ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ — عَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْحَالِ

و « غصن المجد » صيغة مجازية منطوية على تشبيه مضمَر هو تشبيه المجد
بشجرة بأسقة تهتز غصونها ، وقد صار الممدوح كأنه غصن من هذه الشجرة ،
وهذه الاستعارة استعارة شائعة ، ومبتذلة ، وقد هيا لها الاعشى بقوله : « فرع
نبع » فشبهه بفرع النبع ، وهو شجر تُتخذ منه القسسى ، وهو أخو الشوحط الذى
شبه به الجياد التى يهبها ، وأخو الصعدة التى يُشبه بها أتان حمار الوحش ،
ولكنهم يلاحظون التأنيث فى الصعدة ، فلا يُشبهون بها الرجال .

أما الاستعارة التمثيلية فقد كانت قليلة فى القصيدة فلم يقع منها إلا ثلاث صور كانت للشاعر فيها صنعة دقيقة .

١ - استعارة علو الكعب لارتفاع الشأن ، وعلو المنزلة ، وذلك فى قوله :

فَأَرَى مَنْ عَصَاكَ أَصْبَحَ مَخْذُودٌ لَا وَكَعْبُ الَّذِي يُطِيعُكَ عَالِي

والاستعارة هنا استعارة هيئة ، هى هيئة علو الكعب ، لحالة علو المنزلة ، ولا يجوز أن نجعل المجاز فى كلمة « علو » وحدها ، لأن الكلام معقود على ذكر الكعب ، والإخبار عنه بالعلو ، تأمل قوله : « وَكَعْبُ الَّذِي يُطِيعُكَ عَالِي » ، فكأنه قصد من الذى يطيعه كعبه ، وأقام الإخبار عليه ، وجعل حديثه الذى أراد الإبانة عن كعبه ، وكلمة الكعب جرت فى كلامهم مجازاً عن الشرف ، يقولون : أعلى الله كعبه ، وكأنهم أرادوا : أعلى قدره ، كما يقولون : ذهب كعب القوم ، إذا أرادوا : ذهب مجدهم ، وشرفهم ، هكذا قال الزمخشري .

وقد يبدو هذا المجاز مشكلاً ، لأن العلاقة بين علو الكعب ، وعلو القدر تبدو ملبسة ، إلا إذا نظرنا إلى العلو الحسى الذى هو مجاز عن العلو المعنوى ، ثم إن العلو الحسى عبّر عنه بعلو الكعب ، لأن من ارتفع مجلسه ، ارتفع كعبه .

وقد نتساهل ونقول : إن علو الكعب ، كناية عن علو المنزلة ، وفى هذا غفلة ، لأن علو الكعب لا يُقصد به حقيقة معناه ، إذ لا معنى لهذه الحقيقة ، وإنما هو مجاز عن علو المنزلة .

٢ - السقى بالسجّال مجاز عن العطاء الوفر .

وذلك فى قوله :

رُبَّ حَيٍّ أَشْقَاهُمْ آخِرَ الدَّهْرِ — وَحَيٍّ سَقَاهُمْ بِسِجَالٍ

والحى الثانى هم أولياؤه الذين يسقيهم بسجّال ، أى يعطيهم عطاءً وفراً ، فقد شبّه حالة الإغداق عليهم من عطايه ، وحياطته لهم ، بحال من يسقى بالسجّال ، وهذا ظاهر .

ثم إن هذا اللفظ نفسه جاء في مجاز مناقضاً لهذا ، ومضاداً له ، وذلك في قوله يذكر القبائل التي كسرهما الأسود اللخمى ، وأجأها إلى الدخول فى طاعته عَنوةً واقتداراً :

ثُمَّ أَسْبَقَاهُمْ عَلَى نَفْدِ الْعَيْشِ — شَيْ فَأَرَوَى ذُنُوبَ رِفْدٍ مُحَالٍ

والمراد بـ « نفد العيش » انتهاء العمر ، والرِفْدُ المحال : المراد الموت ، من قولهم : « هراق رِفده » و « كفىء إناؤه » ، و « أفرغ وطابه » ، على الحد الذى بيناه .

والجديد هنا أنه جعل الرِفْد المراق مسقياً وهذا تضارب في الدلالة ، مؤسسٌ على مجاز الكلام ، لأنه ما دام الرِفْد المراق مراداً به الموت يكون المعنى : سقاهم الموت ، أو أرواهم ذُنُوباً من الموت ، وتأمل نسيج العبارة : « أَرَوَى ذُنُوبَ رِفْدٍ مُحَالٍ » والرِفْدُ المحال مضاف إلى ذُنُوب ، والذُنُوب هو : الدلو أى أروى دلو رِفْد مَرَق !! . تأمل .. والدلو الذى يروى به دلو موت - كما قلت - لأنه أضيف إلى الرِفْد المراق الذى هو مجاز عن الموت ، ثم إن هذا الرِى وهذا الدلو مجاز أيضاً ، ولهذا ترى هذا البيت قد تكاثف مجازه ، فالسقى الأول سقى موت ، والرِى رِى موت ، والرِفْد المراق موت .

وقد جاء المجاز المرسل فى كلمتين فى هذه القصيدة :

١ - كلمة الركود وقد أراد بها التوقيير والتعظيم قال :

أُرِيحِي صَلْتُ يَظُلُّ لَه الْقَوُّ — مُ رُكُوداً قِبَامَهُمْ لِلِهَلَالِ

والأُرِيحِي : هو الذى يرتاح للمعروف ، والصَّلْتُ : الصريح المتجرد للأمر ، وقد كانوا يُعْظَمُونَ الهلال ، ويقومون له ، والعلاقة بين الركود والنوقيير علاقة سببية ولزوم ، وليست علاقة مشابهة .

٢ - كلمة صِرَّة ، وهى البرد الشديد ، وقد جاءت هنا مجازاً عن زمنه ، - أعنى زمن البرد - وهى الشقوة ، قال يصف حرويه وأنها موصولة فى الزمن :

ثُمَّ وَصَلَتْ صِرَّةً بِرَبِيعٍ — حِينَ صَرَفَتْ حَالَهُ عَنْ حَالِ

وإنما كانت الصِّرة هنا أشبه بالسياق لأنه أراد وصف جلادته وشدته وبأسه ،
وأن الصِّرة لا تمنع بأسه ، وحره ، ونزوله بأعدائه ... إلى آخره .

* * *

● كُنَايَاتُ الْمُعْلَقَةِ :

كانت الكناية أكثر ورداً في القصيدة من المجازات ، وقد جاءت في ثلاث
عشرة صورة ، وكانت كلها كناية عن صفة وكانت تدور حول المعاني الآتية :

١ - وصف المهمة وما يتعلق به وقد جاء في هذا الباب خمس كُنَايَات .

٢ - ذكر الناقة وقد جاء في بابتها ثلاث كُنَايَات .

٣ - شدة الموقف وجاء في بابته ثلاثة كُنَايَات .

٤ - الشرف وجاء فيه بكناية واحدة .

٥ - الحاجة وجاءت فيها كناية واحدة .

* * *

● الكُنَايَاتُ الَّتِي دَارَتْ حَوْلَ الْمَهْمَةِ :

وصف الأعشى الأرض التي بينه وبين « جبيرة » وصفاً أشاع فيه المخاوف
والأهوال . وقد كان الماء أصلاً في أربع كُنَايَات في هذه السياق ، قال :

وَسِقَاءٌ يُوَكِّي عَلَى تَأَقٍ الْمَلِّ وَسَيْرٌ وَمُسْتَقَى أَوْشَالٍ

و « ملأ السقاء » كناية عن صعوبة السير في هذا الخرق ، وأنه مضبعة
لا ماء فيه ، ويوكي : معناه يربط ، والتأق : الامتلاء ، أى يربط السقاء بعد
امتلائه امتلاءً كاملاً ، لا يبقى فيه متسع ، وقوله : « على تأق الملء » هو
موطن الإشارة إلى صعوبة هذه المهمة ، وأنه مهلكة لا ماء فيه ، ولو أنه ذكر
اصطحاب الماء فقط لكان خالياً من الدلالة على صعوبة الخرق ، لأن كل مسافر
يصطحب ماءً ، ولكن الإشارة إلى مزيد من الاحتياط في أمر الماء ، تلك

الإشارة التى دلت عليها كلمة : « تأق الماء » هى التى دلت على مراده ، وأكسبت الكناية سعة وغزارة .

ثم ذكر كناية ثانية فى آخر البيت وهى قوله : « ومستقى أوшал » والأوшал : جمع وشل - وهو الماء القليل غير الطيب ، وتقديم كلمة « سير » ، وعطف « مستقى أوшал » عليها إشارة إلى أن مستقى الأوшал أمر معتاد فى هذا الخرق المتسع ، وهو قرين السير فيه ، ثم إن البيت قد بُنى كما ترى من هاتين الكنايتين ، والكناية الأولى تذكر الماء المُعد للرحلة ، والكناية الثانية تذكر شربهم الماء غير الطيب فى الطريق ، وهذا يعنى أنهم قطعوا مسافات بعد الكناية الأولى ، حتى استفرغوا ما فى أسقيتهم الموكاة على تأق الماء ، وقد وقعت كلمة « سير » بين هاتين الكنايتين موقعاً حسناً وسديداً ، لأنها تطوى المسافات الزمانية والمكانية التى بين الكنايتين ، أو الحاليتين ، حالة الماء فيها يملأ الأسقية ، وحالة « يستقون الأوшал » ، وتأمل كلمة : « مستقى أوшал » وأن الشاعر لم يقل : مورد أوшал مثلاً ، لأن كلمة « مستقى » مشتقة من استقى ، أى طلب السقيا ، التى هى الأوшал ، يعنى أنهم لشدة الفقد ، وصعوبة الأمر ، كانوا يطلبون الأوшал ، فهم لم يقعوا حتى على الأوшал إلا بصعوبة ، وتجشم ، وطلب .

والكناية الثالثة التى ذكر فيها الماء قوله :

وَاسْتُحِثُّ الْمُغَيَّرُونَ مِنَ الْقَوِّ م وَكَانَ النَّطَافُ مَا فِي الْعَزَالِي

ورواه الأصمعى : واستخف المغيرون ، والمغيرون : الذين يغيرون على ركائبهم أردافاً . واستخفافهم أنهم رموا بعض متاعهم ليخف عن رواحلهم ، وهذا يكون لطول السفر ، وإعياء الراحلة ، والنطاف : هو الماء القليل الباقي فى قعر الأدواة ، وجمعه : نطفه ، والعزالي : هى أفواه القرب ، وإنما يكون النطاف - أى بقية الماء - فى العزالي ، أى أفواه القرب عند انتهائه ، لأنه أفرغ وصار من قعر الأدواة إلى فمها ، وهذه الكناية ظاهرة فى الدلالة على فقد الماء وشدة الحاجة إليه ، وكأنهم يعودون إلى أسقيتهم ليجدوا فيها ما يطفىء ظمأهم

فلا يجدون إلا نطافاً ، أى قطرات عالقة من أفواه القرب ، وهذا غير « مستقى أو شال » ، لأن المستقى - بكسر القاف - وجد وشلاً - أى ماء وإن كان غير طيب ، أما هنا فلم يجد شيئاً ، وكأنهم فى آخر الرحلة ، وقد نفذ كل شئ ، وتأمل موقع الكناية هذه :

وَإِذَا مَا الضَّلَالُ خِيفَ وَكَانَ الْـ سَوْرْدُ خِمْسًا يَرْجُوْنَهُ عَن لَيَالٍ
وَاسْتُحِثُّ الْمُغَيَّرُونَ مِنَ الْقَوِّ م وَكَانَ النُّطَافُ مَا فِى الْعَزَالِ
مَرِحَتْ حُسْرَةً كَقَنْطَرَةِ الرُّوِّ مِى تَفْرِى الْهَجِيرَ بِالْإِرْقَالِ

تأمل الصورة الحية فى هذه الأبيات ، وتأمل الحركة ، واللَّهْفَ ، والخوف ، تأمل كلمة « خيف » وكيف دلَّت على وجيب الركب كله ، وحذره ، وإشفاقه ، وأنه أصبح فى فم المضيفة التى هى الضلال ، ثم تأمل ماذا يعنى الضلال فى خرق يخرس الركب ، لا يعنى إلا أن تكون النوق رزايا والركب طعاماً للطير .

ثم تأمل كلمة : « واستحث المغيرون » وهى غير رواية الأصمعى : واستخف المغيرون ، وأحسبها أفضل لأنها تعنى أن الركب كله يصبح بالمغيرين ، وهم الذين يترافدون على رواحلهم ، يعنى يتعاقبون ، وإنما يكون ذلك من قلة الظهر ، وشمول الحاجة ، تأمل ما فى هذه اللفظة من صخب ، وتصايح ينبعث من السفر من هنا وهناك ، محذراً بالهلاك من الإبطاء .

ثم تأمل قوله : « وكان النطافُ ما فى العزالي » وكيف ترى فيها القوم الظماء ينثرون أسقيتهم ، لعلمهم يجدون فيها ما يدفع شيئاً مما يعانون ، فلا يجدون إلا النطاف فى العزالي ، أى بللاً فى أفواه القرب فحسب .

وقوله : « وكان الوردُ خمساً يرجونه عن ليال » كناية رابعة ذكر فيها الماء ، وإنما يكون خمساً - بكسر الخاء - حين يشتد الحال ، ويشق الطريق ، ويعز الماء ، ويستحث القوم ، والماء هنا يُراد به ما ترده الإبل ، بخلاف الماء فى الكنايات الثلاثة السابقة : « وسقاء يوكى على تأق الملاء » و « ومستقى أو شال » « وكان النطافُ ما فى العزالي » .

وقد بنى الأعشى كناية لطيفة من حال الرفاق فى السفر ، وأحوال الرفاق فى السفر ، من معادن الكنايات الغنية ، وقد برع ذو الرمة فى ذلك وأجاد ، وصف ثاقل رؤوس القوم ، وتمايلها ، وأنه أسكرها كأس الكرى ، كما برع شعراء البادية وشعراء هذيل خصوصاً فى هذا الباب وهو باب يجب جمعه ودراسته .

وقد يستخرج الشعراء كنايات دالة على طيب الحال من أحوال الرفاق كما فى كناية كُثِيرُ المشهورة : « وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا » ، والأعشى يجعل صمت الرفاق دليل المخافة والهول وصعوبة الرحلة . قال :

رُبُّ خَرَقٍ مِنْ دُونِهَا يُخْرِسُ السُّفْ - رَ وَمِيلٌ يُقْضَى إِلَى أُمِّيَالِ

و « يخرس » - كما قال القرشى - يعجم ، يعنى لا يبين ، والمراد هنا أنه لا يبين لفرط ما يجد ، وكلمة « أخرس » وما تصرف منها جاءت معبأة بمعانى الوحشة ، والخوف ، الذى يعلو القلب ويشقله ، قالوا : داهية خرساء ، ورماء الله بخرساء ، والحية تسمى خرساء ، ويقولون : طريق أخرس ، أى لا صوت فيه .

وهذه الكناية يُراد بها الأحوال المسكتة ، والدواهى المخوفة ، وهى كناية جيدة .

وقد ذكر الأعشى حالاً أخرى من أحوال السفر يريد بها بيان مشقة الرحلة ، وصعوبة الصحراء ، وإلباسها ، وخلوها من الأعلام الهادية ، وتلونها ، وتعدد أحوالها ، وكأنها مليئة بالصور ، والأوهام ، والخيالات . قال :

فَوْقَ دَيْمُومَةٍ تَغُولُ بِالسُّفْ - رِ قِفَارٍ إِلَّا مِنْ الْآجَالِ

وقوله : « تخيل » ، كناية عن أنها مَضَلَّةٌ مبهمة ، لا يعرف الذى يقطعها حالاً يستقر عليه ، فى مسالكها وشُعْبِها وأحوالها .

وقد ذكر الأعشى السراب ، واستخرج منه كناية لطيفة شائعة ، وهى ارتفاعه فى البید ، ويكون ذلك عند شدة القَيْظ قال :

قَدْ تَعَلَّلْتُهَا عَلَى نَكْظِ الْمَيْتِ — طِ وَقَدْ خَسِبَ لَامِعَاتُ الْآلِ

و « نكظ الميط » يعنى شدة البعد ، و « الآل » يكون فى الضحى ، ويرتفع كالشخص ، والسراب : يكون نصف النهار ، ويلصق بالأرض ، و « لامعات الآل » فى الهاجرة وحين يشتد الحر وتضعف الإبل - كما أشار أبو زيد القرشى - وقد كثرت هذه الكناية فى ديوان الأعشى ، فكثيراً ما يقول وهو يذكر البعيد القفر ويذكر الآبار الدائرة الآجن ماؤها . يقول : « قَطَعْتُ إِذَا خَبَّ رِيْعَانُهَا » .
وقد تنوعت كنايات الأعشى التى تكشف أحوالاً ، وصفات من ناقته فذكر شدتها بقوله :

لَمْ تُعْطِفْ عَلَى حَوَارٍ وَلَمْ يَقْطَعْ عُيَيْدٌ عُرُوقَهَا مِنْ خُمَالِ

فبنى البيت على كنايتين ، الأولى قوله : « لم تعطف على حوار » قال الأصمعى : « لم تنتج ، ولم يكن لها لبن فتعطف على حوار لترضعه ، فهو أصلب لها » .

وقد كانت الناقة واحدة من ينابيع الكناية ، فقد ذكر أنها لم تعطف على حوار كما هنا ، وذكر طول الحيال ، أى طول الزمن الذى لم تلحق فيه ، وقد جاء عطف الناقة على حوارها ، وتحنانها نحوه ، باباً من أبواب المجاز والتمثيل ، وكثرت صور ذلك ، وتنوعت واتسعت ، ودخلت فى نسيج بيان اللغة ، والصيغ البيانية التى استمدت نسيجها من الناقة وأحوالها كثيرة جداً ، وباب يحتاج إلى جمع ودراسة .

والكناية الثانية فى هذا البيت قوله : « لم يقطع عُيَيْدٌ عُرُوقَهَا مِنْ خُمَالِ » والعُيَيْدُ مصغر العبد ، والخُمَالُ - بضم الخاء : داء يأخذ البعير من قوائمه ، وهذه كناية عن تمام صحتها ، وأنها لم تمرض فتعالج ، والكنائتان فى البيت عن شىء واحد ، هو قوة الناقة وقوامها ، ومبنى الكنايتين مختلف ، فقوتها فى الكناية الأولى : راجعة إلى أنها لم تلد ، ولم تُرْضِعْ ، والثانية : راجعة إلى

أنها لم تمرض ، وكأنها فى الأولى أشبه بقوة الفحل ، وفى الثانية أشبه بقوة الأنثى المتكلمة ، والأولى كأنها أيضاً ناظرة إلى قوله فى البيت السابق : « صلبها طول الحيال » ، والثانية ناظرة إلى قوله : « صلبها العض » ، ورعى الحمى » ، وهكذا ترى الكلام يتعاقب نسجه ، وتجرى خيوطه ، كما تجرى خيوط الديباج ، ورحم الله عبد القاهر كأنه كان ينظر إلى مثل هذا ، وقد كُنَى الأعشى عن ضعف ناقتة وإعيائها ونقب أخفافها بقوله :

وَتَرَاهَا تَشْكُو إِلَى وَقَدْ آتَتْ طَلِيحاً تُحَذِي صُدُورَ النَّعَالِ

والكناية فى قوله : « تُحَذِي صُدُورَ النَّعَالِ » ، وإنما يكون ذلك عند وجع الأخفاف ، من كثرة السير ، وصعوبة الأرض ، وليس فى المعلقة كناية أخرى عن هذه الحالة ، والشاعر يطول كلامه فى وصف الناقة بالقوة ، أما وصف إعيائها ، وما أصابها من طول الرحلة ، وشقاء الطريق ، فهذا يأتى موجزاً فى أكثر الأحوال ، لأنه إنما يقصد إلى هذا لبيان المشقة ، والمكابدة ، فإذا كان يمدح فالمشقة والمكابدة فى الرحلة إلى الممدوح باب من أبواب الثناء عليه ، لأن الشاعر وهو ماجد فى قومه لا يكابد المشقة ليرحل إلى رجل خامل القدر ، وإذا لم تكن مدحاً . وهذا هو الأكثر - فإما تكون المشقة من صور بسط البطولة ، والاقتدار ، والغناء بالمغامرة ، والصَبوة ، وقد كانت الرحلة غالباً تقتترن بالصَبوة وذكر الصاحبة ، أو ذكر الأصحاب ، والشراب ، إلى آخر ما تراه فى الشعر .

ذكر الأعشى شدة الحال فى كُنَايات ثلاثة فى هذه القصيدة هى قوله :

وَهَوَاكَ النَّفْسِ الْعَزِيزَةِ لِلذِّكْرِ - إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورُ الْعَوَالِيِ «

وقوله :

أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ مِنَ الْقَوِّ - إِذَا مَا كَبَّتْ وَجُوهُ الرِّجَالِ «

وقوله :

تُخْرِجُ الشَّيْخَ مِنْ بَنِيهِ « وَتُلَوِّي بِلَبُونِ الْمِعْزَابَةِ الْمِعْزَالِ »

والتقاء « صدور العوالى » كناية عن شدة المقاربة فى الحرب ، حتى إن الرماح تلتقى صدورهما ، وهذا غاية المقاربة ، وليس بعده إلا الاعتناق ، وإنما يقترب أجمع الرجلين قلباً ، وأشدّهم أيداً ، وقد مدح زهير هرمأ بهذا فى قوله :
يَطْعُنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا ، حتى إذا اطَّعْنُوا ضَارَبَ ، حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا
والإلقاء : الرمى ، أى حين يرمى الأعداء بالسهام ، يقارب هو ليطعن بالرمح ،
فإذا طعنوا برماحهم ، ضارب هو بسيفه ، فإذا ضاربوا بسيفهم ، اعتنقهم
بيديه ، قال أبو العباس : أراد أن يُخبر أنه أقربهم إلى القتال .

وقريب من هذا قول الأخنس بن شهاب التغلبى :

وإن قَصُرَتْ أسيافنا كان وصلها خُطَانَا إلى القوم الذين نُضَارِبُ

والكناية الثانية قوله : « إذا مَا كَبَّتْ وَجُوهُ الرِّجَالِ » .

أى تغيرت وارتدت ، وهذا يكون عند الهول الذى لا يُدفع ، وكثيراً ما يُمدح الرجل بأنه مجتمع النفس ، قوى الأيد ، جسور ، ويُجعل وصف وجهه فى هذه الحالة كناية عن ذلك كما يقول المتنبى :

تَمَزُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِمَتْ وَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسْمُ

وهذه الكناية غير سابققتها ، وإن رَمَتْ فى مقصدها ، وهو بيان شدة الموقف ،
لأن قولنا : « كَبَّتْ وَجُوهُ الرِّجَالِ » ، غير قولنا : « التقت صدور العوالى »
ففى الأول انعكس الهول على الوجوه فكبت ، وفى الثانى احتدم اللقاء واشتجر
واستعر حميه ، وهذان مختلفان وإن كان الجذر واحداً .

والكناية الثالثة قوله : « تُخْرِجُ الشَّيْخَ مِنْ بَنِيهِ » .

والكناية الرابعة قوله : « وَتُلَوِّي بِلَبُونِ الْمِعْزَابَةِ الْمِعْزَالِ » .

والكناية الأولى من معدن ما قبلها لأنها كناية عن بلوغ الهول ذروته ، فالشيخ لا يذهله عن بَنِيهِ إِلَّا ما كان من البلوى فى طبقة الموت ، وهذا أقرب إلى قوله : « كَبَتْ وجوه الرجال » من قوله : « التقت صدور العوالى » ، لأن كِلَا الكنايتين تذكر الرجال وإن كان ذهول الشيخ عن بَنِيهِ أبلغ ، وأهول فى وصف الحرب ، لأن الذاهل عن بَنِيهِ أدخل فى الهول الساحق من الذى كَبَى وجهه .

أما « لى اللبون » يعنى استياقها ، فهذا إيذان بسقوط الحماية ، واستباحة الأموال والديار ، وكأن الحرب قد انكشفت ، وصار الحى مباحاً ، وقد وصف الراعى بأنه « معزبة » ، أى يعزب ويبعد بابله ، وهذا من حسن الرعاية ، والتوفّر على القيام عليها ، وكذلك وصفه بأنه « معزال » ، فالحرب تستاق إبل البعيد الحريص عليها ، فكيف بغيره .

ومهما يكن فهذه كناية لا تصف حالاً فى حومة الحرب كالتقاء صدور العوالى ، وذهول الشيخ عن بَنِيهِ .

ثم إن وصف شدة الحالة والكناية عنه بالذهول قد جاء فى القرآن الكريم فى وصف هول زلزلة الساعة وأنها شىء عظيم ، قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ (١) .

وهاتان كنايتان : ذهول المرضعة ، ووضع الحامل ، وكأن ذهول المرضعة يصف هول المفاجأة ، ووضع الحامل يصف شدة الوطأة ، ولهذا قُدِّمَت الأولى على الثانية ، وكأنهما كنايتان عن أمرين لا عن أمر واحد .

ثم إن الأعشى ذكر ذهول الشيخ عن بَنِيهِ ، وذكر الشيخ لأنه جرب الحرب ، ومارسها ، وخبر أحوالها وشقوتها ، وهذا يعنى أن ذهوله لا يكون إلا إذا رأى منها ما يؤكد أنها ساحقة حالقة ، ثم ذكر « بَنِيهِ » ، ولم يذكر ولده لأنه يعنى رجاله الذين يحاربون معه .

وذكر القرآن المرأة المرضعة والمرأة الحامل ، وكأنه أراد أن هول القيامة يدخل على المرأة فى كنها .

وقد جاء ذكر المرأة فى كنيات الحروب ولكن ليس فى المعنى الذى أرادته الأعشى بذهول الشيخ عن بنيهِ ، وإنما يذكرون المرأة بعد انكسار القوم ، وبرز المخدرات ، وإلقاء ثياب الحشمة ، وإبداء الخدام ، والخلخل ، وابتذال النساء ، وغير ذلك مما يكون عند عموم البلوى ، وهو أقرب إلى « لى لبون المعزابة المعزال » وهو غير حال المقارعة التى تكبو فيها وجوه الرجال ، وتلتقى فيها صدور العوالى ، وتذهل الشيخ عن بنيهِ .

بقى فى المُعلّقة كنياتان ، واحدة فى بيان العطاء فى الوقت الذى تضمن فيه النفوس بما عندها ، وهذا كثير فى الشعر ، وكناية الأعشى فيه كناية ليست فى مستوى كنياته فى وصف الحزب والناقة . قال :

وَعَطَاءٌ إِذَا سَأَلْتُ إِذَا الْعِذُّ رَةٌ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبُخَالِ

والكناية قوله : « إِذَا الْعِذُّ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبُخَالِ » يعنى إذا أمسك البخيل وأعطى عذراً بدل المال ، « وللبخيل على أمواله علل » ولهذا لا نرى فى هذه الكناية قوة على حد الكنيات الجارية فى هذا الباب ، تأمل نحت زهير لأمثال هذه الكنيات :

تَاللَّهِ قَدْ عَلِمْتُ قَيْسٌ إِذَا قَذَفْتُ رِيحُ الشِّتَاءِ بِيُوتَ الْحَسَى بِالْعَنَنِ
أَنْ نِعْمَ مُعْتَرِكُ الْحَى الْجِيَاعِ إِذَا حَبُّ السَّفِيرِ وَمَأْوَى الْبَائِسِ الْبَطْنِ
مَنْ لَا يُذَابُ لَهُ شَحْمُ النَّصِيبِ إِذَا زَارَ الشِّتَاءُ وَعَزَّتْ أَثْمَنُ الْبُدْنِ

و « العنن » - بضم العين وفتح النون : جمع عُنَّة وهى حظيرة من شجر تُعمل حول البيت لترد الريح عنه ، وإذا اشتدت الريح قلعتها فرمت بها على البيت ، وهذا كناية عن شدة الوقت ، ومثله « حَبُّ السَّفِيرِ » ، والسفير : ما نُحِت من

الورق ، وخببه تنثره ، وخبب الرياح به ، والبطن الجائع ، و « خبب السفير »
يعنى شدة الوقت ، و « من لا يُذاب له شحم النسيب » ، قال أبو العباس : يريد
نصيبه من الشحم لأنه لا يدخره يطعمه الناس عبيطاً - أى طرياً ، و « البدن »
الإبل إذا سمنت .

وتأمل كيف وصف المسيب بن علس مثل هذه الحالة ، وهو خال الأعشى :

وَإِذَا تَهَيَّجُ الرِّيحُ مِنْ صُرَادِهَا ثُلْجاً يُنْبِخُ الثَّيْبَ بِالْجَعَجَاعِ
أَحْلَلْتَ بَيْتَكَ بِالْجَمِيعِ وَبَعْضَهُمْ مُتَفَرِّقٌ لِيَحْلِلَ بِالْأَوْزَاعِ

و « الصراد » : البرد الشديد المبلل برشاش الماء ، و « النيب » : مسان
إناث الإبل . و « الجعجاع » : مباركها . و « الأوزاع » : الأماكن المتفرقة .

وقالت جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه :

وَلَيْلَةٌ يَصْطَلِيْ بِالْفَرْتِ جَاوِزُهَا يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرَيْنَ دَاعِيَهَا
لَا يَنْبِخُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ مِنْ الْعِشَاءِ وَلَا تَسْرَى أَفَاعِيَهَا
أَطْعَمْتُ فِيهَا عَلَى جُوعٍ وَمَسْغَبَةٍ شَحْمَ الْعِشَارِ إِذَا مَا قَامَ بَاغِيَهَا

و « يصطلى بالفرت » : يدخل يديه ورجليه فى الكرش من شدة البرد - كما
قال أبو سعيد السكرى - ودعوة « النَّقْرَى » أن يدعو واحداً واحداً ، والمسغبة
والجوع واحد . وقال أبو سعيد : إذا اختلف اللفظان جاؤوا بهما جميعاً ومثله :

وَهَذَا أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبَعْدُ

تأمل هذه الكنايات وكلها كنايات عن صفة هى شدة الوقت ، وقد اختلفت
وتقاربت وتباعدت ، فقول زهير : « إذا قذفت ريح الشتاء بيوت الحى بالعنن »
أقرب إلى قول المسيب :

وَإِذَا تَهَيَّجُ الرِّيحُ مِنْ صُرَادِهَا ثُلْجاً يُنْبِخُ الثَّيْبَ بِالْجَعَجَاعِ

لأن الريح فى الكلامين هى رأس الكناية ، ولكنها عند المسيب تهيج ثلجاً ينيخ الإبل المسان فى مباركها ، وإنما قال « النيب » لقوتها واكتمالها ، والريح عند زهير تقتلع الحظائر حول البيوت ، وترمى بها بيوت الحى ، وهذا عند اشتداد العصف وعتو الريح واحتدامها . فليس هنا مطر ولا ثلج ، وكأن الناس فى كناية المسيب فى حاجة إلى بيوت تأويها من هذا الثلج وهذه الغضبة ، فضلاً عن إطعامهم ، ولهذا قال : « أحللت بيتك بالجميع » ، فأشار إلى الاكتنان والإطعام والإكرام ، وكل ما هو حق لمن حلّ ببيت كريم شريف .

وقال زهير : « نِعَمَ معترك الجياع » أى يزدحم الجياع حول داره ، ويتشاحنون ولكنه تشاحن نِعَمَ التشاحن ، ومعترك نِعَمَ المعترك ، لأن الباحة باحة كريم لا تضيق . وكناية المسيب عند التحقيق ، تراها كناية مدمجة فى كناية ، وموثوقة بها وثاقاً لغوياً نِعَمَ الوثاق ، وذلك أن قوله : « وإذا تهيج الريح من صرادها ثلجاً » هو وحده كناية ، ثم وصف الثلج بقوله : « ينيخ النيب بالجميع » وهى كناية ثانية أقوى من الأولى فى بابها ، لأن إناخة الإبل فى مباركها إنما يكون عند شدة الحال ، وبلوغها فى الشدة غاية ، وهذا ضرب من الكلام المدمج ، الذى يتنوع ثم تراه مترادف على تأكيد حقيقة واحدة ، أما تنوعه فهو الفرق الواضح بين إناخة الإبل فى مباركها ، الذى هو بنية الكناية الأولى ، وأما الترادف فهو ما تراه من تأكيد للغرض الذى هو بيان الشدة بطريق الكناية الذى يتكرر متتابعاً متواتراً كما ترى كناية تلد كناية : « وإذا تهيج الريح من صرادها ثلجاً » .. ثم ترى الكلام وهو يزيد هذا الثلج بياناً وهو لفظة مفردة فى الكناية الأولى يد هذه الزيادة ويخلقها ويشكلها كناية ثانية : « ينيخ النيب بالجميع » .

ثم إن زهيراً جاء بكنايات متعددة فى أزمنة متنوعة ، وكأنها توقيعات ولحون على ضروب من المعانى والأحوال . فقيس « نعم معترك الجياع » ،

وقيس نعم « مأوى البائس البطن » أى الجائع المضروب ، وقيس « لا يذاب له شحم النصيب » لأنه ينفقه طرياً عبيطاً ولا يدخره ، وقد بدأ كلامه بجملة من التوكيد . أول هذه الجملة القَسَم بلفظ الجلالة . وأدّاه القَسَم هى التاء وهى أقل وروداً من قولنا : واللّه ، وإنما يلجأ الشاعر إلى الأداة الأقل وروداً حين يقصد إلى الإثارة واللّفَت والتنبيه ، وثانى وسائل التوكيد حرف التحقيق « قد » ، ثم إنه لم يجعل الجواب : إن هراً نَعَم معترك الجياع ، وإنما جعل الجواب : علم قيس ذلك ، وهذا شىء آخر ، فقد أقسم على أن هذه الصفات شائعة متعائلة فى هرم ولم يقسم على وصف هرم بها ، وهذا من الفروق الدقيقة التى يختلف بها الكلام .

ثم إن زهيراً نَوَّعَ الكنايات : « إذا قذفت ربح الشتاء بيوت الحى بالعن » ... « إذا خب السفير » ، يعنى تطاير الورق المتحات من الشجر ... « إذا زار الشتاء » ... « عزت أثمن البدن » .

والبدن : الإبل السمان ، تأمل الخط « البيانى » لوصف الحال ، ثم تأمل الصفات التى وصف بها « هراً » مع كل حالة من هذه الأحوال التى أبانت عنها هذه الكنايات تجدد نسقاً متقناً ، ودقائق لطيفة ، منها أن الحالة التى وصفها بقوله : « قذفت ربح الشتاء بيوت الحى بالعن » ذكر فى نسقها أن هراً « نَعَم معترك الجياع » أى أن الجياع تتزاحم وتتصاحب ، تأمل قذف بيوت الحى - أى رجمها - بالورق المتحات وغيره مع شدة العصف ، والشبه بين هذا وبين المعركة ليس بعيداً .

المعترك فيه حركة عشوائية ، وقذف البيوت مع العصف الهائج فيه حركة عشوائية ، ثم إن العلاقة الصوتية أيضاً ظاهرة فى المعترك والقذف . ثم إنه لما ذكر خبب الورق فحسب فى قوله : « خب السفير » أردفه بإيواء البائس المضروب ، وهذا الإيواء غير معترك الجياع ، كما أن خبب السفير غير قذف الرياح بيوت الحى ، هنا مسالمة وفيه تلامح خفى ، فالبائس المضروب يهرع إلى هرم ، ويخب إلى ساحتته طلباً للمأوى إذا خبَّ السفير !!

ثم إنه لما قال : « زار الشتاء » وصف هرمأ بأنه يقسم نصيبه من الشحم ، ولا يذبيبه ، ويدخره ، كما يفعل عامة الناس .

وهنا أيضاً مناسبة لطيفة ، لأن زيارة الشتاء فحسب من غير وصف لعصف الرياح ، ورجمها بيوت الحى ، ومن غير ذكر خبب السفير ، يكتفى فى هذا فقط بتقسيم نصيبه من الشحم ، ولسنا فى حاجة إلى معترك جياح ، ولا إلى مأوى البائس المضروب ، وإنما حسبنا تقسيم نصيبه ، وأنه لا يدخره ، وهذا ظاهر . وحسبك أنك لا ترى الكلام يستقيم إذا قلت : « إذا قذفت ريح الشتاء بيوت الحى لا يُذاب له شحم النصيب » ، ولا أن نقول : « إذا زار الشتاء نعم معترك الأقران » ... وهكذا . ثم إنك تجد ملامحة خفيفة بين تقسيم نصيبه ، كما يفعل الكريم عندما يزوره الضيفان ، وبين « إذا زار الشتاء » .

أما كنايات « جنوب » أخت عمرو ذى الكلب ، فقد تتابعت أربعاً متواترات ، هى : « يصطلى بالفرث جازرها » : أى أن جازر الناقة يضع يديه ورجليه فى فرث الجذور يستدفئ . بذلك ، وهذا كناية عن بلوغ الشدة غايتها . وقولها : « يَخْتَصُّ بِالنَّقْرِىِّ الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا » يعنى شيوخ الحاجة وتمكن الشح من النفوس وأن الداعى فيها يدعو النقرى ، وهو بخلاف دعوة الجفلى ، أى الدعوة العامة على حد ما قال :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر

والذى ينتقر : هو الذى يدعو النقرى ، أى يدعو البعض للطعام ، ولا يدعو الجفلى - أى الدعوة العامة - إلا الكرام المثرين .

وقول « جنوب » يختص بالنقرى المثرين ، أى أن شدة الحال أخرجت الكرام المثرين عن طبائعهم فدعوا النقرى .

وقولها : « لا ينبح الكلب فيها غير واحدة » كناية عن عرامة البرد ، وقسوته ، وقد أخرج الكلب من طبعه ، وأسكت شرته ، وأخرسه ، وهذا أيضاً لا يكون إلا عند بلوغ الغاية .

وقولها : « ولا تسرى أفاعيها » ، أى أن البرد حبس الأفاعى ، وهذا مثل :
« لا ينبج الكلب فيها » .

والمراد وراء كل هذه الصفات أنه يُطعم فى مثل هذه الليلة « على جوع
ومسغبة لحم العشار إذا ما قام باغيها » والجوع والمسغبة معنى واحد ولكنهم
يكررون ويؤكدون ، وقد بنت الكلام على خطاب أخيها فى هذا الجزء من المعنى
الذى هو مقصودها ، ولُب غرضها ، وفى هذا الخطاب حنين وشوق وشجن
واقتراب ، وقولها : « يصطلى بالفرث جازرها » فيه شراسة ، وضراوة ، وجزر ،
ودماء ، وأحشاء ممزقة ، وفى هذا كله ملح قريب لمأساة أخيها عمرو لأنه وُجِدَ
مقتولاً ، وكان صاحب ترّة عند الأقوام ، فادعت فُهم أنها قتلتها ، هذا من وجه ،
ومن وجه آخر تجدد بنية هذه الكناية ذات ملح آخر للصفة التى مدحت بها أياها ،
وهى الإطعام ، يعنى إطعام لحم العشار ، وليس مجرد إطعام ، ولست فى حاجة
إلى أن أنبّه إلى المناسبة بين الجزر وإطعام لحم العشار ، وهذه المناسبات الدقيقة
التي تكون بين بنية الكناية الواصفة حالاً من أحوال الشدة ، وبين فعل الممدوح
الماجد فى مثل هذه الصور التى عرضناها ، تشبه المناسبات بين المقسم به ،
والمقسم عليه ، كالذى تراه فى قوله سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ
صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (١) فقد ذكر النجم وهو من رموز الهداية ، وجواب
القسم هو هداه صلوات الله وسلامه عليه ، ونفى الضلالة عنه ﷺ ، ثم ذكر
كلمة « هوى » لتؤكد المناسبة من وجه آخر ، لأن الهوى هو السقوط ، والضلال
سقوط فى الهاوى ، حفظنا الله منها ، وهكذا ترانا نقول : إن بيان الشدة بذكر
جازر يصطلى بفرث ناقتة المجزورة ، ينبىء عن وجه الصفة التى ستأتى وهى أن
المذكور يطعم لحم العشار ، أى يجزرها ويطعم لحمها ، وكأنه هو الذى كان فى
صورة الكناية ، ينحر الجزور العشار ، ويصطلى بفرثها ليطعم الكافة ولا يختص بالنعري.

(١) النجم : ١ - ٢

وهكذا ، تجدد عروفاً خَفِيَّةً تسرى فى الكلام الحر المُعَبَّر تعبيراً رفيعاً عن النفس الحيَّة الواعية .

ويُلاحَظ أن كُنَايَات « جنوب » تلفها الرهبة ، ويظهر فيها هول أخرس الأشياء ، فالكلاب لا تنبح ، والأفاعى حجرت ، ورمز هذا الهول هو الجزر وقزيق الأحشاء ، وهذا مغاير لكنائيات المسيب بن عكس الذى أقام بناء كُنَايَتِهِ على الهيجان : « وإذا تهيج الريح ... » .

وكذلك كُنَايَات زهير التى قامت هى الأخرى على الحركة الغاضبة .

... قذفت ريح الشتاء بيوت الحى ... وخب السفير .. وزار الشتاء .. تأمل هذا وتأمل كُنَايَات « جنوب » تجدد الصمت يُطبق على أكثر جوانبها ، فالكلب ينبح واحدة ، والأفاعى مكفوفة فى جحورها ، حتى الداعى إلى الطعام يغلب عليه الصمت ، فيدعو واحداً ويترك آخر ، وهكذا تجد ما أطبق عليها من هم أخرسها ، إلا نوحه هنا ، وآهة هناك ، نجد ذلك قد رشح على شعرها ، وهكذا تجد فى الشعر ودائع البيان وأسرار حكمته ، وأنت واجد أفضل مما ذكرته لك إذا وضعت لساناً حراً نبيلاً على هذا اللحن الحر النبيل مستعيناً بثقافة ، ومهارة ، بتلك الوسائل التى استخرجها شيوخ البيان من ذوى الطبع الحى الحساس ، الذين انغلوا فى بيان هذا اللسان الشريف ، ورأوا فيه ودائع معان لا ينالها إلا رجال قد هُدوا إليها ، ودُلُّوا عليها « وأن هذه الودائع الحيَّة المكتنزة منها ما يناغى القلب ، ومنها ما يقع فى الآذان نغمات علوية فاعماً ، ومنها ما يقع اللسان على لفظه فيذوق به عذبةً حلالاً ، وإذا وجدت رجالنا يحدثونك عن « منجرات » الآخرين فى نقد الكلام فاقراً واستمع ، فقد تجد فيما تقرأ ما يعينك على تجلية حقيقة ، ثم إذا رأيتهم يصرفونك عن « أطر المعطيات التقليدية التى طغت على الدراسة العربية » فاحذر مثل هذا ، واعلم أنهم لم يدرسوا وسائل التفكير البيانى دراسة تكشف لهم جوهره ، ثم اعلم أن تدمير ثقافة الأمة تحت ستار

الصرف عن « أطر المعطيات التقليدية » ثم غرس ثقافة أخرى فى تربتها مستمدة من أطر « المنجرات العالمية » هو بعينه تخريب ديار الأمة ، وإباحة أرضها لأعدائها ، ولا فرق بينهما إلا عند جاهل ، أو مضلل أو مضلل - بكسر اللام فى الأولى وفتحها فى الثانية ، ومن المقرر أن حصاة أمة المسلمين وجوهر قوتها إنما يكمن فى ثقافتها الحية المتماسكة ، والمتكاملة ، وأن ضرب هذه الثقافة الحية المتكاملة والمتماسكة إنما هو ضرب فى القلب النابض أو فى الفقار التى بها القوام ، ومحاولة تدمير الثقافة الإسلامية تحت شعار الصرف عن « أطر المعطيات التقليدية » هو خيانة خسيصة مهما كانت الشعارات ، ومهما كانت الأقنعة ، وسيظهر كل ذلك ظهوراً واضحاً يوم تنحسر عن هذه الأمة العقلية السطحية فى السياسة والفكر معاً ، ويقوم بالأمر رجال لهم علم بحقائق التاريخ ، وحقائق الأمم وكيف تنهض ، وأنه من الخرافة أن تنهض أمة بعقل غيرها ، أو اقتباس فكرها وسياستها ، وأن التاريخ يقص لكل أمة قصة ليست هى قصة غيرها ، وأن قصة الأمة الإسلامية تؤكد حقيقة واحدة وهى أن هذه الثقافة الحية المتكاملة والمتماسكة هى التى ربطت على قلبها فى هذا التاريخ كله ، وأن الضرب فى هذه الثقافة الحية المتكاملة إنما هو ضرب فى هذا الرباط الجامع وليس بعد الحق إلا الضلال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

البناء اللُّغوى فى قصيدة الأعشى « مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ »

كنتُ قد كثبتُ هذه الدراسة تحت عنوان « ملحوظات حول البنية التركيبية للامية الأعشى » ، ولم أكتبها تحت عنوان « دراسة » لأنها لم تصل إلى مستوى الدراسة ، وإنما وقفت عند التأمل فى لغة القصيدة ، ومحاولة التعرف على الخبوط الدقيقة الجارية فى نسيجها ، والتي أخرجتها على هيئة لغوية ، وشعرية خاصة .

وإنما تقوم الدراسة المعتبرة فى هذا المجال على شعر الشاعر كله ، تحدد طرائقه ، وتستقصى فنونه ، وما غلب عليه من وسائل الصياغة ، ونحت الكلام . والقصيدة وإن كانت صورة لمذهبه إلا أنها محصورة فى إطار غرض ، وسباق نفسى وشعرى ألقى عليها ظلاله ، ولذلك تبقى قاصرة عن أن تكون ممثلة لتنوع المذهب الشعرى فى الأجواء الروحية المتنوعة ، وهذه الأجواء الروحية هى التى تُشكِّل الصياغة الشعرية ، بصورة كاملة ، فى إطار مذهب الشاعر ، وإمكاناته ووسائله .

وقد افتتح الشاعر القصيدة بقوله : « مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ .. » وهذا الافتتاح يرمى فى صميم مغزى القصيدة ، لأن الشاعر أفزعه ما رأى من حال قومه حين رجع فوجد الحى مباحاً ، ووجد الأسود اللخمى الذى خاطبه بهذه القصيدة قد استباح قومه ، واستاق رجالهم ، ونساءهم ، والمراد بـ « الكبير » هو الأعشى ، والبكاء المنفى هنا هو البكاء على الأطلال لأن الهم فى القصيدة قد توفر على تخليص أسرى قومه ، وليس من شأن الكبير فى هذا المقام أن يقف على طلل ، ولا أن يسأل دياراً ، وإنما هو أمر العشيرة ، الذى هو فوق الصبوة ، والدبار والحنين .

وقد ذكر الشاعر ثلاثة أبيات في أول القصيدة :

بيت أنكر فيه بكاء الكبير ، وكأنه بذكر لفظ الكبير يشير إلى أن أمر الطفل هو شأن الفتيان الأغرار .

وإذا كانت الديار والآثار هي باب الشجن والصبوة ، ونبع إلهام الشعر ، فليست هذه القصيدة من إلهامات هذا الباب ، وإنما تجاوزته تجاوزاً كاملاً وجرت في غيره صوراً ، ومعانٍ ، وخواطر .

وقد عبّر الشاعر عن هذا التجاوز في البيت الثالث تعبيراً واضحاً عالياً الصوت حاد النغم في قوله :

لَا تَهْنَأُ ذِكْرِي جُبَيْرَةَ أَوْ مَنْ جَاءَ مِنْهَا بِطَائِفِ الْأَهْوَالِ

وهنا - بفتح الهاء وتشديد النون ، معناه : هُنا ولكنه بصيغته وتشديده يدل على تبرم ، وضيق ، واهتمام بالأمر الذي هُنا ، وأنه لبس فيه متسع للذكر جُبَيْرَةَ .

ولم يذكر الديار إلا في بيت واحد هو البيت الثاني في القصيدة .

١ - مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ وَسُؤَالِي قَهْلٌ تَرُدُّ سُؤَالِي

٢ - دِمْنَةُ قَفْرَةٍ تَعَاوَرَهَا الصَّبُّ فُ بِرِيحَيْنِ مِنْ صَبَاً وَشَمَالِ

وهذا البيت الثاني وصفها كما ترى بأنها دمنة قفرة ، والدمنة : أثر خفى الدلالة لا يتبينه من يتأمله ، إلا بعد لأى - كما قال زهير بعد ما أخبر عن أن ديار أم أوفى صارت « دمنة » .

أَمِنْ أَمْ أَوْفَى دِمْنَةُ لَمْ تَكَلِّمْ بِخَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَامْتَنَلَمُ

قال :

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حُجَّةً فَلَا يَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ

لم يعرفها إلا بعد لأى - أى جهد ، وطول مراجعة ، ثم إنه عرفها بعد التوهم ، وتأمل الشطر الثاني تجد المعرفة بين لأى وتوهم وهكذا هي .

ذكر الشاعر بعد ذلك البيّنونة التي بينه وبين صاحبة

وبنى الكلام فى وصف هذه البيّنونة بناءً واحداً وقد ذكر ذلك فى أربعة أبيات بناها على كلمة « رُبُّ » فصارت كأنها جملة واحدة ، وقبل أن أقف مع هذه الأبيات الأربعة التى صارت فى بناء الشعر كلمة واحدة ، أنبّه إلى طريقة فى بناء الشاعر ظاهرة فى القصيدة كلها ، وهى قبض المعانى ، ثم بسطها ، أو إجمالها ، ثم تفصيلها ، وهذا القبض أو الإجمال يقع بيتاً أو بيتين ، فى صدر فقرة من فقرات القصيدة ، ثم تكون الفقرة كأنها شرح ، وبسط ، وتفصيل لهذا الإجمال ، وهكذا يستمر البناء فى تحليل المقاصد الجزئية ، يجمّلها ثم يفصلها ، ويكون هذا الإجمال المتكرر من حيث الطريقة كأنه معاقد تلمّ شعث الكلام .

وتأمل هذه الأبيات :

حَلْ أَهْلِي بَطْنَ الْغَمِيسِ فَبَادَوْ	لَسَى وَحَلْتُ عَلْوِيَّةً بِالسُّخَالِ
تَرْتَعِي السُّفْحَ فَالْكُثِيبَ قَدْ قَا	رِ قَرَوْضَ الْقَطَا قَدْ ذَاتَ الرُّثَالِ
رُبُّ خَرَقٍ مِنْ دُونِهَا يُخْرِسُ السُّنْ	رَ وَمِيلَ يُفْضِي إِلَى أُمِّيَالِ
وَسِقَاءٍ يُوكِي عَلَى تَأَقِ الْمَلْ	ءِ وَسَيْرٍ وَمُسْتَقَى أَوْشَالِ
وَإِدْلَاجٍ بَعْدَ الْمَنَامِ وَتَهْجِيرِ	رِ وَقَفٍّ وَسَبَسَبٍ وَرِمَالِ
وَقَلْبٍ أَجْنٍ كَانَ مِنَ الرَّيِّ	شِ بِأَرْجَائِهِ لِقُوطٍ نِصَالِ

« بطن الغميس ، وبادؤلى ، والسُّخَالِ . والسفح .. والكثيب ، وروض القطا ، وذات الرثال » : كلها أسماء وأماكن .

والخرق : المتسع من الأرض ، والسُّفْر : المسافرون ، ويخرسهم : من شدة أهواله فلا يتكلمون ، والسقاء الموكى : هو المربوط بعد امتلائه ، وتأق الملء : يعنى اكتمال امتلائه ، وهذا كناية عن شدة الحرص على الماء ، لأن الخرق لا ماء فيه ، والوشل الماء القليل غير الطيب ، والإدلاج : هو السير ليلاً ، والتهجير :

السير في الهاجرة ، والقُفُّ : الأرض الغليظة ، والسَّبَسَبُ : الأرض المستوية ،
والقليب : البئر ، والأجن : الذى تغيّر ماؤه ، والأرجاء : الجوانب ، ولقوط
النصال : النبال المتناثرة .

تأمل هذه الأبيات بعد تفهم مفرداتها ، ولغتها ، تجد الأبيات الأربعة الأخيرة
شرحاً وتفصيلاً للمسافة بين « بطن الغميس » الذى حَلَّ أهله فيها ، وبين
« علوية السُخال » التى حَلَّتْ هى فيها ، يعنى « جُبَيْرَة » ، وقوله : « ترتعى
السفح ، فالكثيب » ... إلى آخره ، تحديد للأماكن التى تتقلب فيها مع قومها ،
وهذا ما أردته بقولى : إن هناك أبياتاً تعتبر بمثابة المحاور الصغيرة داخل البناء
الشعرى فى القصيدة ، تدور حول كل محور جملة أبيات تستقى من مائه ،
وتُضِيءُ جوانبه ، وقدّمُ مجمله .

وهنا لمحة خفية هى أن الشاعر - كما قلت - قد أفزعه أمر قومه
لما استباحهم الأسود اللُخْمِيُّ ، وأنه دلّنا بصريح لفظه على أن سياقه ليس سياق
صَبَوَة ، وإنما هو همٌّ آخر ، واللمحة هنا هى ذكر قومه حين قال « حَلَّ أهلى »
ولم يتقابل هذا بقوله : وحل أهلها ، وإنما قال : « وحلّت علوية بالسُخال » فدلّنا
ذلك على أن الرجل قائم فى القصيدة بين عشيرته ، يدفع عنها ويستخلص
رجالها ، وأنه هنا رجلٌ قبيلة يدرأ عنها ، وليس رجل صَبَوَة يعالج شئونها .

والأبيات الأربعة التى صارت كلمة واحدة قد جرت فيها « واو العطف »
جريان الرباط الجامع ، أو الخيط القوى الواصل ، ووقعت فى عشرة مواقع
عطفت كل ما دخلت عليه على كلمة « خرق » ، وقد جاءت هكذا :

- ١ - وميل يُفْضَى .. ٢ - وسقاء يُوكى ٣ - وسير ...
- ٤ - ومُسْتَقَى أوْشال .. ٥ - وإدلاج بعد المنام ... ٦ - وتهجير ...
- ٧ - وقف .. ٨ - وسَبَسَب .. ٩ - ورمال ..
- ١٠ - وقليب أجن ..

وهذه هى أحوال الخرق وأحوال السُّفر فيه ، وهذا العطف جعلها غير الخرق ،
وصار المعنى أن الذى من دونها - ويفصل بينى وبينها : خرقٌ يُخرس السُّفر ،
وميل يُفضى .. وسقاء يُوكى .. وسير .. ومستقى ... إلى آخره ، مع أن الذى
بينه وبينها أو الذى من دونها - على حد عبارته - هو هذا الخرق المتسع ،
والميل المفضية إلى أميال هى نفسها الخرق المتسع ، والسقاء الموكى ، والسير ،
والسبب ، والثقف ، والرمال ، كل ذلك أحوال هذا الخرق ، وأحوال السُّفر فيه ،
وهذا واضح ولكن التفصيل والتحليل وهذه الواو وقوة الأداء اللغوى جعلها
أشياء مختلفة ومتنوعة ، وهذا كله مبالغة فى المبالغة بينه وبينها ، وأنه « لات
هنا ذكرى جُبيرة » ، وتأمل كلمة « يخرس » ، وهم يقولون : داهية خرساء ، ورماهم
اللّه بخرساء ، وكيف صوّرت هذه الكلمة الركب والخرق والهول ، ثم تأمل النسق
الذى أشاعه تكرار الفعل المضارع وصفاً للخرق والميل ، والسقاء ، فكان نسق الكلام هكذا :

خرقٌ يُخرس ،

وميلٌ يُفضى ،

وسقاءٌ يُوكى .

ثم تتوارد المفردات هكذا مفرداً ، ثم مقيداً بإضافة ، ثم مقيداً بظرف « سير ،
ومستقى أو شال ... وإدلاج بعد النوم » ، ثم مفردات خالصات : « تهجير ،
وثقف ، وسبب ، ورمال » ، وقد فرّع الشاعر على هذه الأبيات التى جاءت
تحليلاً لما بينه وبين جُبيرة ، ووصفاً بليغاً للبينونة التى بينهما على حد ما قلنا ،
فرّع عليها أبياتاً جاءت هى الأخرى ، وكأنها لبنات ، تماسكت ، وتشابهت ،
وتناغمت ، وكونت جزءاً متسعاً من البناء اللغوى ، أو الشعرى الداخلى فى
تكوين البناء الكلى للقصيدة ، وهذه الأبيات أو هذه المجموعة الشعرية هى تمام
القول فى الصاحبة التى زجر نفسه زجراً قوياً شديداً عنها ، حين قال : « لات هنا
ذكر جُبيرة » يقول فيها :

فَلْتَنْ شَطْ بِي الْمَزَارُ لَقَدْ أَغْـ
إِذْ هِيَ الْهَمُّ وَالْحَدِيثُ وَإِذْ تَعْـ
ظَبِيَّةٌ مِنْ ظَبَاءٍ وَجَرَّةٌ أَدَمَا
حُرَّةٌ طَفْلَةٌ الْأَنَامِلِ تَرْتـ
وَكَاُنَ السُّمُوطُ عَكْفَهَا السِّلـ
وَكَاُنَ الْخَمْرُ الْعَتِيقُ مِنَ الْإِسْفِنـ
بَاكَرَتْهَا الْأَغْرَابُ فِي سِنَةِ النَّوْ
فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرَكْنِي الْحِلـ

سَدُوا قَلِيلَ الْهُمُومِ نَاعِمَ بَالٍ
صَصِي إِلَى الْأَمِيرِ ذَا الْأَقْوَالِ
تُسَفُّ الْكِبَاثُ تَحْتَ الْهَدَالِ
بُ سَخَامًا تَكْلُفُهُ بِخِلَالِ
كَ بَعْطَفِي جِنْدَاءٌ أَمْ غَزَالِ
طِ مَمْرُوجَةٌ بِمَاءِ زُلَالِ
مُ فَتَجْرِي خِلَالَ شَوْكِ السِّيَالِ
مُ عَدَانِي عَنِ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي

وشط به المزار : أى بعدت به الدار ، والأمير ذو الأقوال : هو القائم عليها
وصاحب الرأي فى أمرها ، أعنى وليها . والأدماء البيضاء . والكباث - بفتح
الكاف : ثمر الأراك ، وسفّه آكله ، والهدال : ما تهدل من فروع الشجر ، والحُرَّةُ :
الكريمة ، الظبية الخالصة الأعراق ، والطفلة : الناعمة ، والسُخَام - بضم السين :
الشعر ، وتكفه : أى ترتبه ، والخلال : الأمشاط ، وترتبه : أى ترتبه وتعنى
بأمره ، والسموط : جمع سمط ، وهو العقد ، وعكفها السلك : أى نظمها ،
والأسفنت - بكسر الفاء : ضرب من الخمر وهو فارسي معرب ، والأغراب :
جمع غَرَب وهو القدح والمراد الخمر ، والسِّيَال - بفتح السين : شوك له زهر
أبيض دقيق يشبه الأسنان .

والفاء التى فى قوله : « فلتن شط بى المزار » . هى فاء التفریع ، لأن هذا
كلام تفرّع على الكلام السابق ، وفيها معنى العطف ، والعطف هنا هو عطف
قصة على قصة ، أى عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، والمعطوف
هو هذه الأبيات كلها ، التى ذكر فيها خبر الصاحبة ، على مضمون الأبيات
السابقة التى ذكر فيها خبر الفرقة ، والبيّن المتسع ، بالخرق الذى هذا خبره ،
والبيتان الأولان جملة واحدة واقراهما :

فَلْتَنْ شَطْ بِي الْمَزَارُ لَقَدْ أَغْـ
إِذْ هِيَ الْهَمُّ وَالْحَدِيثُ وَإِذْ تَعْـ
سَدُوا قَلِيلَ الْهُمُومِ نَاعِمَ بَالٍ
صَصِي إِلَى الْأَمِيرِ ذَا الْأَقْوَالِ

وقد أقام البيت الأول على شرط وقَسَمَ ، والجواب المذكور جواب القَسَمِ وقد دَلَّ على جواب الشرط المحذوف ، وقد انتقل في هذا البيت من واقع الفراق الذي ضربته هذه المسافات الحسّية والمعنوية أيضاً التي دَلَّ عليها بقوله : « لات هنا ذكرى جُبَيْرَة » - إلى شاطئ الذكرى التي يسترجع فيها زمن كانت فيه الهم والحديث ، وكأن الشاعر هنا يحط رحال المشقة والجدة قليلاً ، بعد الإدلاج والتهجير ، والقَفِّ ، والسبب ، والرمال ، ليذكر واحة ناعمة غنية من أيامه الخاليات ، مع جُبَيْرَة التي أوحشها بهذا الانصراف المهموم الغاضب العجل نحو أمر من أمور الجدة لا يتسع لذكر صاحبة ولا تُلل .

وقد اختار الشاعر كلمات مُضيئة بعد عناء القَفِّ والسبب والرمال ، منها كلمة « أغدو » وهي كلمة مشرقة من جهة دلالتها على طلاقة النهار وإشراقته الرطبة ، وكلمة « ناعم » ، وهي كلمة سخية بجمام النفس ، وخاصة أنها جاءت بعد الإدلاج والتهجير والقلب الأجن ... إلى آخر ما توحى به الألفاظ السابقة من مشقة وعناء ، والبيت الثاني تفسير لنعومة البال في البيت الأول ، وقد صاغ الشاعر هذا التفسير ووصفه في ظرفه وزمانه الذي كان فيه ، وقد كرّر كلمة « إذا » لأنها هي زمن المسرة ، وحضور النعمة ، وقد تصاعد المعنى وامتد ، مع هذا التكرار ، فالظرف الأول تراها فيه « الهم والحديث » - يعنى شاغل القلب واللسان ، وهكذا فرغ باله إلا منها ، وفرغ لسانه إلا من ذكرها ، وذكر أحاديثها وشئونها ، والظرف الثاني تراها فيه مقبلة عليه ، مجاهرة بالمعصية في هذا الإقبال ، « تعصى إلى الأمير ذا الأقوال » وهذا شيء غير الهم والحديث ، هذا نمو ظاهر للموقف ، وانتقال الشعر منه إليها ، ففي الشطر الأول هي هم وحديثه ، وفي الشطر الثاني هي مقبلة عليه ، في الجهر ، والعلانية ، عاصية أمر قيّمها ، وهذا غاية ، والحالتان المذكورتان في الزمانين الموزعين على شطري البيت تفسير للشطر الثاني الذي هو جواب القَسَمِ « أغدو قليل الهموم ناعم بال » .

وتأمل كلمة « إلى » فى قوله : « تعصى إلى الأمير ذا الأقوال » ، وكان
يمكن أن يقول : تعصى من أجلى ، ولكن قوله : « إلى » أوماً إلى أنها عصت
الأمير متجهة إليه ومقبلة عليه .

وتأمل البيتين التاليين :

طَبِيبَةٌ مِنْ طِبَاءٍ وَجَرَّةٌ أَدَمًا تُسَفُّ الْكَبَاثَ تَحْتَ الْهَدَالِ
حُرَّةٌ طِفْلَةٌ الْأَنَامِ لِتَرْتَبُ بٌ سَخَامًا تَكْفُهُ بِخِلَالِ

وفيه تقارب ظاهر فى البناء اللغوى ، فقد بنى كل منهما على تعدد أوصاف ،
هى فى الأول : « أَدَمًا .. تُسَفُّ الْكَبَاثَ تَحْتَ الْهَدَالِ » .

وفى الثانى : « طِفْلَةٌ .. تَرْتَبُ سَخَامًا تَكْفُهُ بِخِلَالِ » .

تأمل الفعل المضارع فى البيتين وهو جملة واقعة موقع الوصف ، الأولى
« تسفُّ الكَبَاثَ » ، وهى صفة لـ « أَدَمًا » ، والثانية « تَرْتَبُ سَخَامًا » أى
ترعى شعراً وهى صفة لـ « حُرَّةٌ » ، والجملة الثالثة : « تكفه بخلال » جملة
حالية ، وقد آذن موقع المضارع فى البيتين بضرب من التوازن فى نسق الكلام ،
وتشابه فى التركيب ، وصير البيتين كأنهما وحدة واحدة ، وذلك بالإضافة إلى
المفردات النكرات التى بنى منها البيتان .

اقرأ البيتين قراءة مَنْ يفكر فى طريقة صنعة الشعر الذى يقرؤه ، ثم تأمل
المعنى الذى يجرى فيه البيتان ، وهو معنى واحد يصف حُسناً ، وملاحة ،
ونعومة ، وطفولة ، ونعمة ، وثناء ، ووفراً ، والطبية فيها ملاحه العينين ،
والجيد ، وكلمة « أَدَمًا » تفيد أنها مشرقة بهجة بيضاء ، و « تُسَفُّ الْكَبَاثَ
تَحْتَ الْهَدَالِ » أى أنها رافلة فى حُلل النعيم ، والعيش الرغد ، والدل والملاحه ،
و « حُرَّةٌ » أى أنها ذات أعراق كريمة ، وذات جمال حر كريم ، و « طِفْلَةٌ »
ناعمة غير شثنة ، « وَتَرْتَبُ سَخَامًا » أى تقوم على رعاية حُسنها ، وجمالها

وشعرها ... وهكذا ، ثم إنك تجد صورتين رسمتهما الألفاظ فى البيتين :
الأولى : « تَسْفُ الكِبَاثَ تَحْتَ الْهَدَالِ » ، وأختها « تَرْتَبُ سُخَاماً تَكْفُهُ بِخِلَالِ »
وحاول أن تستوضح دلالة اللُغة لترى صورتين من معدن واحد ، صورة ظبية تحت
الهدال ، وحرّة طفلة تكف شعراً يتهدل حولها ، وصياغة هذين البيتين غير
صياغة البيتين اللاحقين وهما :

وَكَاْنُ السُّمُوْطُ عَكَّفَهَا السَّلْـ كُ بِعِطْفَى جَيْدَاءُ أُمُّ غَزَالِ
وَكَاْنُ الْخَمْرُ الْعَتِيقَ مِنَ الْإِسْفِنِ طِ مَمَزُوجَةً بِمَاءِ زَلَالِ

واضح أن هذا النحت متشابه ، وتكرار أداة التشبيه التى هى عمود بناء
البيتين قاربَ بينهما ، وليس التقارب تقارباً لفظياً ، وإنما هو تقارب فى طريقة
التناول ، فالتشبيه فى البيتين ليس كقولنا : عطفها كعطف الجيد ، وريقتها
كالخمر ، وإنما جرى المعنى الأول فى البناء الذى تراه فأفاد أن اللؤلؤ منظوم على
عطفى جيداء أم غزال .

وكان الخمر الموصوفة بما وُصِفَتْ به باكرت أسنانها الدقيقة البيضاء كـ « شوك
السيال » ، وجواب « كان » الثانية قوله :

بَاكَرَتْهَا الْأَغْرَابُ فِى سِنَةِ النَّوْ مَ فَتَجَرَّى خِلَالَ شَوْكِ السِّيَالِ

والبيت الذى ذكر الخمر متسأنف لبيان الريق ، بعد ما ذكر البيت الأول بيان
الجيد ، والبيتان يتناولان أعضاءها ، ويصفان حُسنها ، والبيتان السابقان يعمان
فى الوصف ، فالظبية يراد بها حُسن العينين ، والجيد ، والخفة ، والملاحة ،
وأشياء أخرى وهكذا قوله : « حرّة » ، « طفلة » .. إلى آخره ، وهما جملة
واحدة ، لأن قوله : « ظبية » خبر مبتدأ محذوف ، أى هى ظبية . ثم تواترت
الأخبار بعد ذلك .. « آدماء » .. « تَسْفُ الكِبَاثَ تحت الهدال » ..
« حرّة » .. « طفلة الأنامل » .. « ترتب سخاماً » ... إلى آخره ، وهناك نسق
فى تعديل الأخبار فى البيتين ، ففى البيت الأول خبران مفردان : « ظبية » ..

« أدماء » ، وخبر جملة فعلية فعلها مضارع ، وفى البيت الثانى خبران مفردان هما : « حرة » و « طفلة » وخبر ثالث هو جملة فعلية فعلها مضارع .

وهذا الذى نقوله لا يعكره أننا نعرب قوله : « تَسْفُ الكَبَاث » رصفاً ، أو نعرب قوله : « تَرْتَبُ سخاماً » وصفاً أيضاً ، لأن المقصود هو التناسق فى توزيع الكلمات فى البناء اللغوى فى الشعر .

والأبيات الخمسة قائمة على التشبيه فى : ظبية ، موصوفة بما وُصِفَتْ به ، وعقدها على جيد أم غزال ، وربقتها خمر ممزوجة بماء زلال ، وكل هذا بيان للنعمة المذكورة فى قوله : « لَقَدْ أَغْدُو قَلِيلَ الْهُمُومِ نَاعِمَ بَالٍ » .

وهذه المعانى تجتمع كثيراً فى الشعر ، يعنى الظبية مع الجيد ، مع الفرع ، مع الأنامل الرخصة ، وقد جمعها امرؤ القيس فى قوله :

تَصْدُ وَتُبْدَى عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقَى بِنَاطِرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُطْفِلٍ
وَجَيْدٍ كَجَيْدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ هِيَ نَصَتْهُ وَلَا بُعْطِلٍ
وَفَرَعٍ يَزِينُ الْمُتَنُ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثُ كَقِنُورِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَشِّكِ

وهذا شعر مختلف جداً والنشوة فيه مشرقة ربانة ، وإحساس الشاعر بهذه المحاسن إحساس حىّ مقارب ، وتصويره لها تصوير حىّ ، تأمل الكلمات التى بنى منها البيت الأول ، تجددها كلمات واصفات لحركة ، فهى تُقبل ، وتُعرض ، وتتعرض ، وتتقى ، وصيغة المضارع فى هذه الأفعال جعلت الأحداث حية ، مشهودة ، وتتقى : يعنى تنظر بناظرة من وحش وجرة ، أى يعنى بقرة وحشية ، ثم إنه أجرى الحركة أيضاً فى البيت الثانى فى قوله « إِذَا هِيَ نَصَتْهُ » ، وهى حركة دلّ وإظهار للزينة وهى متناسقة مع : تصد وتبدى ، والأسيل : الحقد السهل .

وموقف الشاعرين مختلف جداً ، فامرؤ القيس يصف طربه ، ولهوه ، ومرجه ، والأعشى يعالج همّاً قطعه عن الصاحبة ، وإنما يسترجع الذكرى ، وقد انتقل الأعشى من هذا إلى قوله :

فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرِكْنِي الْحِلْمُ مُمْ عَدَانِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي

وقد بنى الكلام على الالتفات ليكشفها بهذا الأمر كتحفاً مباشراً ، وهذه الفاء فاء الترتيب وكأن هذه الأوصاف وهذه الأحوال قد تأسس عليها الأمر بالإبعاد ، ويلاحظ أنه قال : « ما إليك أدركني الحلم » ، أى اذهبي لا لأن قلبي قد صححاً « وأقصر باطله » فإني لا زلت مشغولاً بك ولكنها الأشغال التي عدتني عن ذكركم .

وهذا واضح في أن الشاعر يريد أن يفتح باللغة باباً واحداً لهم ، وهي أشغاله التي نصّب القصيدة لها ، وأنه حينما ينصرف عما ينصرف الناس إليه من شأن صاحبة لم يكن ذلك عن زهادة ، وعفاف نفس ، وأنه حين يقول للصاحبة : « إليك عنى » ، فإن ذلك لم يكن لأنه ينقصها شيء مما تزداد به الحسان ، فهي « ظبية .. حرة .. طفلة ... إلى آخره » ولكنه الهم وشاغل القلب .

أما امرؤ القيس فإنه انتقل من هذا إلى أحوال وشئون ، فذكر كشحاً لطيفاً ، كالجديل ، أى خصرأً دقيقاً كالذمام ، يتخذ من سيور . وهو لئيم ، شبه كشحها به كما يقول الأعلام ، وأنها تضىء الظلام بالعشى ، وأنها تضحي فتيت المسك فوق فراشها ، وأنها إلى مثلها يرثو الحلیم ، وأنه « تَسْكُتُ عَمَائَاتُ الرِّجَالِ عَنْ الصَّبَا » ، و « ليس صباه عن هواه بمنسل » ... إلى آخره ، وهذا بناء وسياق غير البناء والسياق الذي يتحرك فيه كلام الأعشى .

* * *

أجرى الأعشى في هذه القصيدة رابطة لغوية انتظمت بها أبواب المعاني في القصيدة في سلك واحد ، وهذه الرابطة هي وقوع كلمة تتأسس عليها جملة أبيات يتسع بها الكلام ، ويربط جزءاً من بناء القصيدة ، ثم تعطف عليها كلمة أخرى ، يؤسس عليها هي الأخرى كلام متسع ، ثم ترى هاتين الكلمتين داخلتين في حكم إعرابي واحد ، يربط هذين الغرضين رباطاً واحداً .

بيان ذلك أن كلمة « خرق » فى قوله : « رَبِّ خَرَّقْ مِنْ دُونِهَا يُخْرِسُ السُّفْرَ .. » وهى فى البيت السادس ، تأسس عليها كلام يتوَلَّد بعضه من بعض ، ويرتبط بعضه ببعض إلى البيت الثامن عشر ، وقبله قوله : « فاذهبى ما إليك أدركنى الحلم » ، وراجع الأبيات وما ذكرناه فى شأنها تجد هذه الجملة كأنها بيت واحد .

ثم ترى الكلام عند البيت الثامن عشر يطرق الغرض الأسمى بذكر الناقة :
 وَعَسِيرٌ أَدْمَاءُ حَادِرَةِ الْعَبْـ
 مِنْ خُتُوفِ عَيْرَانَةٍ شِمْلَالِ
 مِنْ سَرَاةِ الْهَجَانِ صَلَبَهَا الْعُـ
 ضُ وَرَعَى الْحِمَى وَطُولَ الْحِيَالِ
 وهكذا أخذ يذكر أحوالها فى عشرين بيتاً ختمها بقوله :

لَا تَشْكُنِيْ إِلَى مِنْ أَلَمِ النَّسْـ
 سِعِ وَلَا مِنْ حَقَا وَلَا مِنْ كَلَالِ
 لَا تَشْكُنِيْ إِلَى وَانْتَجِعِيْ الْأَسْـ
 سَوْدَ أَهْلِ النَّدَى وَأَهْلَ الْقَعَالِ
 فَرَعٌ نَبْعٍ يَهْتَرُ فِى غُصْنِ الْمَجْـ
 سِدِ غَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ

ثم يستمر فى الحديث عن خلاله وأحواله وهباته ووقائعه ... إلى آخر القصيدة ، وقد استطاع أن يجعل أوصاف الناقة جزءاً من غرضه لأنه أدمج هذه الأوصاف فى الغرض لما جعل شكوى الناقة سبيلاً إلى الحديث عن الممدوح .

ولهذا قلت : إن ذكر الناقة كان طروقاً للباب المقصود من القصيدة .

وكلمة « عسير » التى هى أول حديث الناقة - يعنى الرحلة إلى الأسود - جاءت مجرورة لأنها معطوفة على كلمة « خرق » فى البيت السادس المجرور بـ « رَبِّ » فى قوله : رَبِّ خَرَّقْ مِنْ دُونِهَا يُخْرِسُ السُّفْرَ .

وقد ذكر الأسود فى البيت السابع والثلاثين ، وبقي الكلام يدور حول الأسود حتى البيت الخامس والسبعين وهو آخر القصيدة فى رواية الديوان ، وقبل نهاية القصيدة بخمسة أبيات أعاد هذه الرابطة وكأنه يؤكد ذلك فى قوله يخاطب الأسود :

رُبُّ رِفْدٍ هَرَقَتْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْتَالَ

والمراد بالرِّفْد المراق : الحياة التي تُراق ، أى تنتهى بالحى كقولهم : فلان أريق رِفده ، واتكفأ إناؤه ، وصَفِر وطابه ، كل ذلك مجاز عن الموت ، و « الأقتال » : جمع قتل - بكسر أوله ، يعنى أصحاب الثأر ، أى الأعداء ، وهكذا رأينا كلمة « رُبُّ » رباطاً نظم هذه الأبيات التى بلغت خمسة وسبعين بيتاً .

وقد جاءت فى جمهرة أشعار العرب أبيات عدتها واحد وعشرون بيتاً ، ويترجح فى فهمنا أنها ليست من القصيدة .

وقد ذكر القرشى أنه قيل : إن باقى القصيدة - أى الأبيات الواحد والعشرون - مصنوع عليه ، ثم قال : وما أحسب وذكر الأبيات وأولها :

فَلَيْسَ لَاحَ فِي الْمَفَارِقِ شَيْبٌ يَأْبَكُرُ وَأُنْكَرْتَنِى الْغَوَالِي

فلقد كنتُ فى الشباب أبارى حين أعدو مع الصُّباح ضَلَاكِي

ثم استمر الكلام يذكر فيه الصَّبوة ، واللَّهو ، والرحلة ، ويصف الفرس ، والصيد ... إلى أن أتم مائة بيت

وهذا القسم غريب عن سياق القصيدة لأننا رأينا الشاعر ينصرف عن الصاحبة ، لأن هَمًّا شغله ، وليس فى القصيدة صَبوة ، ولا لهو ، إلا هذه الأوصاف التى ذكر فيها جُبيرة ، ولم يذكر فى بيت واحد لهو بها ، ولم يذكر فى القصيدة بيتاً واحداً فيه عبث أو خمر ، أو صيد ، أو غير ذلك مما ذكره فى هذه الأبيات .

ثم إن الانتقال إليها مفاجئ جداً ، فالبيت الذى قبل هذه الأبيات فى رواية القرشى :

ولقد شَبَّتِ الْحُرُوبُ فَمَا غُمِّرَتْ فِيهَا إِذْ قَلَصَتْ عَنْ حِبَالِي

وهو خطاب للأسود اللخمى ، ثم جاء بعده :

فَلَنْسِنَ لَاحَ فِي الْمَفَارِقِ شَيْبٌ يَا لَبَكْرٍ وَأَنْكَرْتَنِي الْغَوَالِي

وهذا حديث عن نفسه ، وقد عطفه بالفاء وهو لا يعطف على ما قبله ، ثم إنه مقتطع من سياق آخر يذكر فيه الشاعر صاحبة ، والطلل ، ثم يذكر شبيهه على حد ما فعل هو في قصائد كثيرة ، مثل قوله :

بَانَتْ سَعَادٌ وَأُمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَا وَاحْتَلَّتْ الْغَمْرُ فَالْجُدَيْنِ قَالِقَرَعَا
وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَرْتُ مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبُ وَالصَّلَعَا
قَدْ يَتْرُكُ الدَّهْرُ فِي خَلْقَاءَ رَاسِيَةٍ وَهَيَا وَيُنْزِلُ مِنْهَا الْأَعْصَمَ الصَّدَعَا

وهذا من الكلام الحر العالى .

وقوله في قصيدته المشهورة :

وَدَعَّ هُرَيْرَةً إِنْ الرُّكْبَ مَرَّتْ حِلُّ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعَا أَيُّهَا الرَّجُلُ

قال بعدما ذكر صاحبة بما يحسن من القول البليغ :

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضْرَّ بِهِ رَبُّبُ الْمُنُونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ ؟

ومثله كثير مما تراه يقع في صدر الكلام وفي سياقه من الشعر ، تكثر في هذه القصيدة طريقة التعداد ، فإذا ذكر قفراً عدده أحواله على حد ما رأينا في الخرق الذى ذكر أنه يُخرس السُّقْرَ ، وأنه مِيلٌ يُفْضَى إِلَى أُمِيَالٍ ، وَسِقَاءٌ يُوكَى ، وسير ، وَقَفٌ ، وسبب ، ورمال ، وقليب ... إلى آخره .

وإذا ذكر الممدوح ذكر عنده الخزم ، والتقى ، وأسا الصرع ، والعطاء ، والوفاء ... إلى آخره .

وإذا ذكر الناقة قال : عسير ، وأدماء ، وخنوف ، وعيرانة ، وشمال ... إلى آخره .

وقد ذكرنا الأبيات التى وصف فيها الخرق فراجعها لترى هذه الطريقة فيها ظاهرة ، وأذكر الآن الأبيات التى ذكر فيها الناقة قال :

- ١ - وَعَسِيرٌ ، أَدْمَاءٌ ، حَادِرَةٌ الْعَيْنِ مِنْ خَنْوَفٍ ، عَيْرَانَةٍ ، شِمَالِكِلِ
٢ - مِنْ سَرَاةِ الْهَجَانِ ، صَلَبَهَا الْعُ ضُ ، وَرَعَى الْحِمَى ، وَطُولُ الْحِيَالِ
٣ - لَمْ تَعْطَفْ عَلَى حُورٍ ، وَلَمْ يَفْ طَعِ عُبَيْدٌ عُرُوقَهَا مِنْ خُمَالِ
٤ - قَدْ تَعَلَّتُهَا عَلَى نَكْظِ الْمَيْمِ طِ وَقَدْ حَبَّ لَامِعَاتُ الْآلِ
٥ - فَسَوْقٌ دَيْمُومَةٍ تَفْجُو بِالسُّفْ رِ قِفَارٍ إِلَّا مِنْ الْأَجَالِ
٦ - وَإِذَا مَا الضَّلَالُ خِيفَ ، وَكَانَ الْ بُورْدُ خِمْسًا يَرْجُوهُ عَنْ لِيَالِ
٧ - وَاسْتُحِثُّ الْمُغَيَّرُونَ مِنَ الْقَوِ مِ وَكَانَ النَّطَافُ مَا فِي الْعَزَالِي

(١) العسير : القوية غير المذلة ، والأدماء : البيضاء ، حادرة العين : حديدة النظر ، والخنوف : التي تقبل من حميها ومراحها ، والعيرانة : القوية التي تشبه العير وهو حمار الوحش ، والشمال : السريعة .

(٢) الهجان : الإبل الكريمة ، وسرائها - بفتح السين : كرامها ، وصلبها : جعلها قوية صلبة ، العُضُ - بضم العين : علف القرى والأمصار ، ورعى الحمى : أى الرعى فى الحمى ، والحمى كما قال القرشى : حميان : حمى الرَبْدَةِ ، وحمى ضربة ، والحِيَالِ : مصدر حالت الناقة إذا لم تحمل .
(٣) الحوار : ولد الناقة ، ولم تعطف على حوار : أى لم تلد وذلك أتم لها ، والخصال : داء يأخذ البعير فى قوائمه فيقطع العير عروقه لذلك .

(٤) الميظ : البعد ، وتعلتها : ركبتها مرة بعد مرة ، والنكظ : العجلة ، ويقال : أنكظته عن حاجته : أعجلته ، وحَبَّ الآل : أى ارتفع .

(٥) الديومة : المشتبهة لا عَلمَ لها ، وتخيل بالسفر : أى يرون فيها خيالات وأوهاماً ، والأجال : جمع إجل : وهو قطيع البقر .

(٦) الورد الخمس : أن يردوا الماء بعد خمس .

(٧) المغيرون : هم الذين يتواردون على البعير : أى يركب كل منهم زمناً ثم يركب غيره على البعير يغيرون أردافاً ، والنطاف : قطرات الماء فى قعر المزادة ، والعزالي : مصب الماء من المزادة ، أى أن هذه القطرات صارت فى أفواه الإداوة .

- ٨ - مَرِحَتْ حُرَّةٌ كَقَنْطَرَةِ الرَّوِّ مِىَّ تَفْرِى الْهَجِيرَ بِالْإِرْقَالِ
 ٩ - تَقْطَعُ الْأَمْعَزَ الْمُكُوكِبَ وَخَذًا
 ١٠ - عَنْتَرِسُ تَعْدُو إِذَا مَسَهَا السُّوْ
 ١١ - لَاحَهُ الصَّيْفُ وَالصَّبَالُ وَإِشْفَا
 ١٢ - مُلْمِعٌ لَاعَةُ الْفُوَادِ إِلَى جَحْ
 ١٣ - ذُو أذَاةٍ عَلَى الْخَلِيطِ خَبِيثُ الْ
 ١٤ - غَادَرَ الْجَحْشَ فِي الْغُبَارِ وَعَدًا
 ١٥ - ذَاكَ شَبَّهْتُ نَاقَتِي عَنْ يَمِينِ الْ
- مِىَّ تَفْرِى الْهَجِيرَ بِالْإِرْقَالِ
 بِنَوَاجٍ سَرِيعَةٍ الْإِيغَالِ
 طُ كَعَدُو الْمَصْلَصِلِ الْجَوَالِ
 قُ عَلَى صَعْدَةٍ كَقَوْسِ الضَّالِ
 شِ قَلَاهُ عَنْهَا فَبَشَّ الْقَالِي
 نَفْسٍ يَرْمِي مَرَاغَهُ بِالنُّسَالِ
 هَا حَيْثُهَا لِصُورَةِ الْأَدْحَالِ
 رَعْنٍ بَعْدَ الْكَلَالِ وَالْإِعْمَالِ

(٨) مرحت : أى جذت وخفت وحميت ، والحرة : الكريمة الخالصة ، وقنطرة الرومى : برج من بروج الروم والعرب لا بناء له ، وإنما يشبهون بقنطرة الرومى أو بنبان اليهودى كما قال امرؤ القيس : « أمون كنبان اليهودى خَبِيثٌ » : والخليط الطويلة ، وتفري الهجير : أى تقطع وقت الهجرة بالإرقال : أى بسرعة .

(٩) الأمعز : الموضع الغليظ ، والمكوكب : المتوقد من شدة الهجرة ، والوخد : السرعة ، والنواحي : القوائم ، والإيغال : الإبعاد .

(١٠) العنتريس - القوة الشديدة ، والمصلصل الجوال : حمار الوحش وصلصلته : نهاقه ، والجوال : الكثير الجولان .

(١١) لاحه الصيف : أى أضمره ، والطراد : المطاردة ، والإشفاق : الخوف ، والصعدة : المراد بها الأتان ، والضال : الصدر البرئ .

(١٢) الملسع : الذى أشرف ضرعها ، ولاعة الفؤاد : أى ملتاعة ، وقلاه عنها : أى قطعه عنها .
 (١٣) ذو أذاة على الخليط : إذا دنا منه خليط أذاه ، والمراغ : مكان يتمرغ فيه ، والنسأل : ما يتساقط من شعره وإنما يكون ذلك عند السمن .

(١٤) الصورة : ما غلظ من الأرض ، والأدحال : جمع دحل : وهى حفرة ضيقة الغم واسعة البطن .

(١٥) رعن الجبل : أنفه ، والكلال والإعمال : أى التعب الذى من مشقة العمل .

تأمل جمع المعانى وعدّها وكأنّه يسردها سرداً والبناء اللّغوى كأنه وحدات من المعانى صغيرة تتتابع فى نظام من غير أن يكون هناك المزج الذى يدخل الأجزاء بعضها فى بعض ويجعلها شيئاً واحداً .. انظر قوله :

« عسير ... أدماء ... حادّة العين ... خنوف ... عيرانة ... شمالال ... » .

هذا بيت شعر كله مفردات تتابعت ، وقريب منه الذى يليه من « سراً الهجان .. صلبها العُضُّ .. ورعى الحمى ... وطول الحيال ... لم تعطف على حوار ... ولم يقطع عُبيدٌ عروقه » ، هذا نفى والذى قبله إثبات والكل جمع صفات .

وكذلك تأمل البيت العاشر وما بعده :

« عنتريس .. تعذّو إذا مَسّها السوط » .. ثم يذكر حمار الوحش ويُعدّد أوصافه : « مصلصل ... جوال ... لاحه الصيف » .. ثم يذكر الناقة ويُعدّد أوصافها : « ملمع ... لاعة الفؤاد » ... ثم يعود إلى ذكر العير : « بشس الفالى ... ذو أذاة ... خبيث النفس ... يرمى مراغه » ...

ثم تأمل أسلوب الشرط الذى هو بطبيعته يمزج بين المعانى ويربط بينها ، ويجعل الجُمْل فى دلّاته بمثابة المفردات فى الجُمْل غير الشرطية ، ترى الشاعر هنا أقام كلامه على طريقة التعديد فى داخل التركيب المعقود على الشرط .

تأمل : « إذا ما الضلالُ خيفَ » هذا فعل الشرط ثم يضيف الشاعر إليه : « وكان الورد خمساً .. واستحث المغيرون .. وكان النطاف ما فى العزالى » ، هذا هو فعل الشرط الذى ترتب عليه قوله : « مرحت .. تفرى الهجير ... وتقطع الأمعر » والجواب أيضاً مكوّن من وحدات جزئية صغيرة تعدّدت ، فهى لا ترح « كقنطرة الرومى » أى مسرعة قوية ضخمة مكتنزة إلا إذا تجمعت هذه الأفعال : « خوفُ الضلال ... وقلة الماء . واستشارة المغيرين ... » وهكذا ... والمراد أنها فى الوقت الذى تتجمع فيه الشدائد والصعوبات من إيهام الطريق

وفقدان الهداية ، وذهاب الماء للنوق وللركب ، واستنفار القوم وهيجانهم ، ورغبتهم فى الإفلات من المهلكة تستخرج هى من نفسها أقصى ما عندها من السرعة والقوة والحمى والنشاط واجتياز صعوبات الزمان « الهجير » والمكان « الأمعر المكوكب » وهذا غاية ما تُمدح به الناقة .

لا شك أن هذا الشرط الجامع لهذه الجمل يسلك فى البناء اللغوى المسلك السابق فى قوله : « عسير ... أدماء ... حادرة العين » ... إلى آخره ، إلا أنه جمع الذى من رباط أداة الشرط . وهذا بخلاف قوله فى البيت الرابع والخامس :

قَدْ تَعَلَّلْتُهَا عَلَى نَكْظِ الْمَيْـِ ط وَقَدْ حَبَّ لَامِعَاتُ الْآلِ
فَوْقَ دَيْمُومَةٍ تَقُولُ بِالسُّفْرِ رِقْفَارٍ إِلَّا مِنْ الْأَجَالِ

تأمل تركيب هذين البيتين تجد الفعل قد تعلّق بجار ومجرور وبجملة حالية : « وقد خب لامعات الآل » ، وبظرف : « فوق ديمومة » استتبع الظرف جملة فعلية واقعة صفة للمضاف إليه : « تقول بالسُّفْرِ » ، ثم جىء بوصف مفرد للمضاف إلى الظرف : « قفار » ، ثم بتحرير هذه الصفة التى أفادت أن المكان قفر ، فأبان تحريرها وتحقيقها أن المكان قفر : « إلا من الآجال » - جمع إجل - بكسر الأول ، وهو قطيع البقر الوحشى .

هذا نسج مغاير لقوله : « عسير ... أدماء ... حادرة العين » .. إلى آخره ، ومغاير أيضاً للأبيات الأربعة المعقودة على الشرط ...

ولا شك أن طبيعة المعانى مختلفة ، فهذان البيتان يعالجان حدثاً يحدث منه وهو نعللها مع بعد المسافة فى وقت شديد الحر ، وفى مومة موحشة مقبضة مبهمة ، وهذا بطبيعته معنى متماسك وهذا بخلاف أوصاف الناقة مثلاً وأنها قوية ، وببضاء وذات ميل من شدة الحمى ، وأنها سريعة ... وهكذا .

وهذا لا يصرفنا عن القول بأن المفردات المتلاحقة كانت تظهر بصورة واضحة
فى القصيدة منها هذه الأبيات والأبيات السابقة ، راجع قوله : « .. ظبية ..
تسف الكبات .. حُرَّة .. طُفلة .. ترتب سخاماً .. وخرق يخرس السفر .. وسقاء
يوكى .. وسير .. ومستقى أوшал .. وإدلاج ... وتهجير .. وقف ..
وسبب .. ورمال .. » .

ثم اقرأ هذه الأبيات التى يذكر فيها الأسود اللخمى :

- ١ - قَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ - عَزِيرُ النَّدى شَدِيدُ الْمِحَالِ
- ٢ - عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتَّقَى وَأَسَا الصَّرُّ - وَحَمْلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ
- ٣ - وَصِلَاتُ الْأَرْحَامِ قَدْ عَلِمَ النَّاسُ - وَكَأَنَّ الْأَسْرَى مِنَ الْأَغْلَالِ
- ٤ - وَهَوَانُ النَّفْسِ الْعَزِيزَةِ لِلذِّكْرِ - إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورُ الْعَوَالِ
- ٥ - وَعَطَاءٌ إِذَا سَأَلْتَ إِذَا الْعِذُّ - رَأَتْ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبُخَالِ
- ٦ - وَوَقَاءٌ إِذَا أَجَرْتَ فَمَا غُرُّ - تَحِبَّالٌ وَصَلَتْهَا بِحِبَالِ
- ٧ - أُرْيَحَى ، صَلَّتْ ، يَظِلُّ لَهُ الْقَوُّ - مُرْكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهِلَالِ
- ٨ - إِنْ يُعَاقَبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْفَ - طِجْرٌ جَزِيراً قَائِماً لَا يُبَالِ
- ٩ - يُهَبُّ الْجِلَّةُ الْجَرَاجِرَ كَالْبُسْتِ - تَتَانٍ تَحْنُو لِدَرْدَقٍ أَطْقَالِ

(١) النبع : شجر تتخذ منه القسي - وهو أخو الشوحط - والصعدة ، والمحال - بكسر الميم :
الفقر ، وفتحها : شدة الكيد . (٢) أسا الصرع : يعنى علاج الكبرياء بتأديب أهلها .
(٣) الحبال : الصهود والمواثيق ، والمراد نفي الغرر والخداع عن المعاهدين . وأجاره : جعله فى
جواره .

(٧) الأريحي : الذى يرتاح للمعروف ، والصلت : الصريح الخالص الماضى فى أمره ، وقيامهم
لللهلال : لأنهم كانوا يعظمون اللهلال عند ظهوره .

(٩) الجلة - بكسر الجيم : المسان من الإبل واحدا : جليل ، وجلة كظبي وظيفية ووليدة وولدة ،
والجراجر : الضخام من الإبل ، والبستان : النخل ، والدردق - بفتح الدال : جمع لا يُعرف واحده ،
ومعناه : الصغار فى أجسامها .

- ١٠ - وَالْبَغَايَا يَرْكُضْنَ أَكْسِيَّةَ إِلاضٍ حَرِيحٍ وَالشَّرْعَبِيُّ ذَا الْأَذْيَالِ
١١ - وَجِياداً كَأَنَّهَا قُضِبُ الشُّوْ حَطٍ تَعْدُو بِشِكَّةِ الْأَبْطَالِ
١٢ - وَالْمَكَامِيكَ وَالصَّحَافَ مِنَ الْفِضْ سَةِ وَالضَّامِرَاتِ تَحْتَ الرِّجَالِ
- تأمل بناء هذا الشعر :

« فرع نبع .. غزير الندى .. شديد المحال .. عنده الحزم والثقى .. وأسا الصرع .. وحمل لمضلع الأثقال .. وصلات الأرحام .. وفك الأسرى .. وهوان النفس ... وعطاء ... ووفاء .. » هكذا أقام كلامه فى ذكر أوصاف المدوح ، ثم هكذا أقام حديث هباته فقال : « يهب الجلة .. والبغايا .. وجياداً ... والمكاميك .. والصحاف .. والضامرات » .

ويلاحظ أن صفات المدوح من قوله « فرع نبع » ... إلى آخره جاءت من غير عاطف لأنها تكون فيه كأنها صفة واحدة ، بخلاف : « عنده الحزم والثقى » .. فقد بنى الكلام على خبر مقدم هو « عنده » فحسن العطف بالواو كما تقول : عنده كذا وكذا وكذا .. تريد التكثير وهذا إنما يتحقق بالمغايرة التى تدل الواو عليها .

وقد قطع الشاعر طريقة رصف المفردات المتواترات فى قوله : « وعنده الحزم والثقى .. وأسا الصرع .. وصلات .. وهوان النفس .. وعطاء .. ووفاء » قطع ذلك ببيتين مختلفين فى إيقاع الصياغة وطريقة التركيب وذلك قوله :

أَرْحِيى صَلْتُ يَظْلُ لَهُ الْقَوُ مُرْكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهِلَالِ
إِنْ يُعَاقِبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْ حَطٍ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي

(١٠) البغايا : الجوارى ، والإضرع : الحرير الأحمر ، والشرعى : البرود منسوبة إلى شرعب ابن قيس الحميرى .
(١١) قضب الشرحط - أى تضبيب الشرحط : وهو أخو النبع تُتخذ منه القس ، وشكة الأبطال : سلاحها .

(١٢) والمكامى : أنبة كان يشرب فيها ملوك فارس ، والضامرات : الشديدات .

تأمل هذين البيتين ، وتأمل الكلام قبلهما والكلام بعدهما ..

وقوله : « أريحي » خبر مبتدأ محذوف وهذه هي طريقة القطع والاستئناف الجارية في الكلام عند ذكر الديار والرجال والصاحبة - كما قال عبد القاهر في باب الحذف ، ثم إن هذا دال دلالة ظاهرة على أن الشاعر أحدث تغييراً في الطريقة ومذهب بناء الكلام ، وقد انتهت الجملة السابقة التي بدأت بقوله : « وعنده الخزم » واستغرقت الأبيات الأربعة اللاحقة لهذا البيت لأنها كلها تعداد لمسند إليه معطوف على المبتدأ المؤخر « الخزم » ثم تأمل كيف قيّد الكلام في الأبيات الثلاثة الأخيرة بالظرف ...

« إِذَا مَا التَقَّتْ صُدُورُ الْعَوَالِي »

« إِذَا الْعِذْرَةُ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبُخَالِ »

« إِذَا أَجْرَتْ فَمَا غُرَّتْ حِبَالٌ وَصَلَّتْهَا بِحِبَالِ »

ثم انظر في هذا القيد وكيف تكرر وكيف تناسق به الكلام مع هذا التكرار وكيف توازن .

ثم تأمل بناء البيتين اللذين فصل بهما « أريحي صلت .. » تجد أن مذهب بناء الكلام اختلف فيهما من وجه واحد هو تعداد الخبر من غير عاطف ، لأن قوله : « أريحي » مبتدأ محذوف وكذلك قوله : « صلت » ، وقوله : « لَهُ الْقَوْمُ رُكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهَلَالِ » . وقد كان المذهب هناك تعداد المبتدأ بعاطف .

ثم قوله : « إِنَّ يُعَاقِبُ يَكُنْ غَرَاماً » ..

كلام آخر مستأنف لبيان حالتي الغضب والرضا ، وقد عقد البيت على تكرار الشرط فرجع إلى المذهب الأول الذي تكرر فيه الشرط « إذا » التي هي أخت « إن » ولاحظ أن الشاعر هنا قدّم المعاقبة والعذاب على العطاء الجزيل ، لأن هذا الجانب من الأسود اللخمى - أعنى جانب العقاب ، والغلظة ، والشراسة - هو الجانب الذي به استاق قوم الأعشى ، واستباحهم ، وهذا هو موضوع القصيدة ،

وهذان المعنيان : « إِنَّ يُعَاقِبُ يَكُنْ غَرَاماً » و « إِنَّ يُعْطِرِ .. » تجدهما غالباً فى الكلام مقترنين على حد ما ترى فى قوله :

أَنَا نَارٌ فِي مُرْتَقَى نَظَرِ الْحَاسِدِ مَاءٌ جَارٍ عَلَى الْإِخْوَانِ

وتقديم أحد الوجهين على الآخر له دلالة فى كل سياق .

ثم إنك تجد فى الكلام ضرباً آخر من تعادل النسق وتوازنه له أثره البالغ فى صقل الكلام وتنويع نغمه . تأمل :

« يَهَبُ الْجِلَّةُ تَحْنُو » .

« وَالْبَغَايَا يَرْكُضْنَ » .

« وَجِياداً تَعْدُو » .

ومثل هذا كثير ، ويقترب منه تكرار حرف بعينه فى كلمات البيت يُضْفَى على الكلام قدراً من العذوبة والسلاسة . تأمل تكرار العين فى قوله : « فرع نبع ، والغين فى قوله : « غصن .. غزير . » .

ثم فى البيت الثانى تجد العين فى هذه الكلمات عنده : « .. الصرع .. لمضلع » .

وفى البيت الرابع تجد العين أيضاً فى : « العزيزة .. العوالى » .

وفى البيت الخامس : « .. عطاء .. العُدرة .. عطية » .

وهكذا تجد : « الجِلَّة .. الجِراجِر .. يركضن .. أكسية .. كأنها .. بشكة .. الفضة .. والضمائم » .

وأنا هنا أنبه ولا استقصى ، وقد وجدت ذلك غالباً فى شعر الشعراء الذين يصقلون نغم الشعر ، وتلهمهم لغاتهم تلك القطرات العذبة ، والجارية فى عروق الكلام ، وتأمل شعر البحترى ، وروائع أبى قحاف ، وشعر زهير .. تجد هذا واضحاً ، ثم هو الذى لما تكاثرت وانتظم فى الكلام سميناه الجناس ، وله أركانه

وحدوده ، والذي أنبّه إليه هو التعادل والتقارب فى الحروف ، وهو شىء قبل الجناس . ولم ينبّه إليه العلماء .

وقبل أن أدع هذا الموضوع : وهو بناء الكلام على ترادف المفردات بالعطف أو بدونه ، وليس على النسج اللغوى بوسائله الأغزر على حد ما شرحنا فى بعض الشواهد ، أقول : إن هذا النمط الذى ترى فيه الفاظاً تتناسق ، وترادف ، من غير أن يكون هناك دمج ، ومداخلة ، تجد منها نماذج مختصرة فى مواقع أخرى مثل قوله فى وصف جند الأسود اللخمى :

غَيْرُ مِيلٍ ، وَلَا عَوَاوِيرَ ، فِي الْهَيْبِ ——— جَعَى وَلَا عَزْلٍ ، وَلَا أَكْفَالٍ
والأميل الذى يُركب بلا سلاح ، كما يقول الأصمى ، والعواوير - جمع عُوَارٍ : وهو الضعيف - والأكفال - جمع كِفَلٍ : وهو الذى لا يثبت على الخيل .
تأمل طريقة النظم : « ميل .. عواوير .. عزل .. أكفال » .

ومثله قوله يصف الرّباب التى منها تيّم الذين أخضعهم الأسود وكسّرهـم وكانوا قد قمنوا حرّيةً وأعدّوا له وجمعوا شتيتهم ثم دانت له . قال يصف احتشادهم قبل كسرهم :

عَنْ تَمَنٍّ ، وَطُولِ حَبْسٍ ، وَتَجْمِيمٍ ——— سَعِ شَتَاتٍ ، وَرِحْلَةٍ وَاحْتِفَالٍ
تأمل بناء الكلام . ثم قال :

رُبُّ رِفْدٍ هَرَقَتْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْتَالَ
وَشَبُوحِ حَرَّتَى ، بِشَطْطِ أَرِيكِ وَنِسَاءٍ كَأَنَّهُنَّ السَّعَالِ
والرّفْد : القُدْحُ الضخم ، والمراد : رُبُّ سيد قتلتها ففرغت آنيته . هكذا قال صاحب الجمهرة .

والأقتال : الأعداء ، والحربى - مفردة حرب : وهو المسلوب ماله وسلاحه ، وشططى أريك : أى جانباه ، والسعالى : الغيلان .

وهذا المذهب فى بناء الكلام الذى رأيناه غالباً فى مواقع كثيرة فى هذه القصيدة ليس هو الضرب الذى وصفه عبد القاهر حين ذكر الباب الذى يدق فيه الصنّع ، ويتحد فيه الوضع ، وترى الكلام كأنه وُضِعَ وضِعاً واحداً ، ترى فيه بنية لغوية واحدة متسعة ، ومتماسكة ، وكأنها كلمة واحدة ، على حد ما قال سليمان بن داود القضاعى :

فينا المرء فى علياء أهوى ومُنْحَطٌ أُتْبِحَ له اغتلاءً
وبينا نعمةً إذ حالَ بُؤْسٌ وبُؤْسٌ إذ تعقبه ثراءٌ

فهذا معنى واحد ، وهذه الأربعة الأشرطة كأنها أربعة أطراف لهذا المعنى ، أو كأنها جهاته الأربع ، تأمل طريقة البناء وانظر فى قول الآخر وهو من هذا الضرب وقد ذكر عبد القاهر أنه فى غاية الحسن :

لو أن ما أنتم فيه يدوم لكم ظننتُ ما أنا فيه دائماً أبداً
لكن رأيتُ الليالى غير تاركة ما سرٌّ من حادثٍ أو ساءَ مُطَرِّداً
فقد سَكَنْتُ إلى أنى وأنكم ستستجدُّ خلاف الحالتين غداً

تأمل كيف تكوّنت هذه اللبنة اللغوية ، أو هذه البنية اللغوية ، وحلّل تركيبها ، وتابع نسيج بنائها ، ثم ضع على لسانك شاهداً مما ذكرت من الضرب الذى نحن فيه ، تدرك فرقاً هائلاً بين صيغة الكلام هنا ، وصيغته هناك ، اقرأ : « عنده الحزم ، والتقى ، وأسا الصرع » ... إلى آخره وقد فتح الشاعر باب العطف على المبتدأ الذى هو « الحزم » وأدخل فيه هذا البيت ، وأربعة أبيات بعده ، فصارت جملة واحدة ، ولكن تشابه الكلام ليس على حد قوله : « لو أن ما أنتم فيه يدوم لكم » ، وأدعك تراجع فى الكلام ما شئت ناظراً إليه من هذه الناحية وأنت واجد فى بيان العربية ما يملأ النفس مما تراه محتاجاً إلى دراسة وتحليل ، واستنباط ، حتى ليخيل إليك كما يخيل إلى أن العربية لم تُدرس من هذه الناحية وأنها لا تزال كأنها أدغال لم تطأها قدم بعد ، وأنها مذاهب فى بناء الكلام وأنها محتاجة إلى تحليل ، وتفلية ، ورصد ، واستنباط ، وهذا

حسبى فى بيان ما أريد أن أدل عليه ، ثم راجع شواهد عبد القاهر فى باب ما يتحد فيه الوضع ، وما نقله من مقدمات كتب الجاحظ ، وأنت واجد فى تصفُّحك لبيان العربية مذاهب متعددة ، وأن عبد القاهر ذكر منها مذهبين فحسب ، أغفل بهما كثيراً من ضروب بناء الكلام .

* * *

التعريف بالألف واللام شائع جداً فى هذه القصيدة ، ومعلوم أن التعريف والتذكير لا يرتفعان عن الأسماء لأن الاسم إما معرفة أو نكرة ، وليس هناك اسم ليس معرفة ولا نكرة ، ثم إن أكثر وسائل التعريف هى الألف واللام ، ولذلك تتكاثر بين يديك فى كل كلام تنظر فيه ، ثم إنها تفيد المعهود فى الذهن أو الذكر ، ويكون موقعها موضع عناية الدارسين حين تكون فى المسند ، كقولنا : هو الجواد ، وهو الوفى ، أما ما كان فيها مثل قول الأعشى :

مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأُطْلَالِ وَسُؤَالِي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤَالِي
دِمْنَةُ قَفْرَةٍ تَعَاوَرَهَا الصَّبْ فُ بِرِيحَيْنِ مِنْ صَبَاً وَشَمَالِ

لا نجد فى تعريف كلمة : « الكبير » ، و « الأطلال » ، و « الصيف » معنى يُستثار كما نجد ذلك فى قوله : « إذ هى الهمُّ والحديث » ، « وإذ تعصى إلى الأمير ذا الأقوال » لأن الألف واللام فى « الكبير » و « الأطلال » يُراد بهما الشاعر ، وطلل صاحبة ، وقد يكون المعنى كل كبير ، وكل طلل ، أى الجنس ، ثم يُراد الشاعر ، وطلل صاحبة عن طريق اللزوم ، وهو طريق الكناية ، ويكون التعجب من بكاء أى كبير على أى طلل ، وهذا يعنى تعجبه من بكائه هو لأنه كبير ، والدلالة فى هذا الطريق أكد وأبلغ ، وهو من باب قولنا : يَفْعَتِ لِدَأْتُهُ : أى أنه يففع هو وشبت أترابه ، أى أنه شب هو .

ولم تقع الألف واللام فى هذه القصيدة فى الخبر موقعاً له دلالة يُلْتَفَت إليها وهو المواقع المعتبرة عند البلاغيين ، إلا فى قوله : « إذ هى الهمُّ والحديث »

والمعنى : على قصر الهمّ والحديث عليها ، فليس لقلب الشاعر شاغل سواها ،
وليس للسان الشاعر حديث فى غيرها ، وهذا معنى جيد .

وليس للألف واللام فى هذه القصيدة موقع يلتفت إليه إلا فى هذا البيت .
ومواقع الألف واللام الفذة قليلة فى الشعر كله وقد استشهد البلاغيون بشاهد
للأعشى فى هذه المواقع هو قوله :

هُوَ الْوَاهِبُ الْمَائَةُ الْمُصْطَفَا ةَ إِمَّا مِخَاضاً وَإِمَّا عِشَارَا

وقد كان التعريف بالإضافة قليلاً فى هذه المعلقة وبأتى من حيث الكثرة بعد
التعريف بالألف واللام ، والتعريف بالضمائر ، وقد جاء فى ثمانين موقعاً ،
وكلها فى حدود الدلالة النحوية ، ولا أجد فيها شاهداً واحداً يُذكر مع
الشواهد ذات المعانى اللطيفة على حد قوله سبحانه : ﴿ يَبْنُؤُمْ لَا تَأْخُذُ بِهِ خِيتِي
وَلَا بِرَأْسِي ﴾ (١) ، وقول الشاعر :

قَوْمِي هُم قَتَلُوا - أُمِيمٌ - أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

وإنما تجدد هذه الصور :

« بكاء الكبير ... ذات الرئال ... ذكرى جُبيرة ... طائف الأهوال ...
قليل الهموم ... ناعم بال ... طفلة الأنامل ... سراة الهجان ... طول الحيال
.. لامعات الآل ... قوس الضال ... عَدُو المَصْلَصِلِ الجَوَالِ ... أهل الندى ...
فرع نبع ... غصن المجد » ...

وقد جاءت القافية مضافة فى أربعين بيتاً ، وعدد القصيدة خمسة وسبعون
بيتاً . وأغلب القوافى هكذا :

« حكومة المُقْتَالِ ... أهل القباب والآكال ... بشكة الأبطال ... يوم القتال
... غِب الصقال » .. إلى آخره .

وكلمة « ذو » الملازمة للإضافة تكررت فى هذه القصيدة ست مرات :

« ذات الرئال ... ذا قار ... ذا الأقوال ... ذو أذاة .. ذا الأذيال ..

ذو مال » .

أما اسم الإشارة فقد جاء فى خمس جُمْل هي :

- ١ - « لَاتَ هُنَّا ذِكْرَى جُبَيْرَةَ » .
- ٢ - « هَوْلَاءُ ثُمَّ هَوْلَاءُ » .
- ٣ - « رَبُّ رِفْدٍ هَرَقْتُهُ فِى ذَلِكَ الْيَوْمِ »
- ٤ - « ذَاكَ شَبِهْتَ نَاقَتِي » .
- ٥ - « لَنْ تَزَالُوا كَذَلِكَمْ ثُمَّ لَا زِلْتُ » .

واسم الإشارة فى قوله : « لَاتَ هُنَّا ذِكْرَى جُبَيْرَةَ » . جاء بالنون المشددة . وكان يمكن أن يقول : « لَاتَ هُنَّا » - بضم الهاء والنون غير المشددة ، كما هو الأكثر . ولكن هذا التشديد كان أشبه بسباق المعنى ، لأنه فى هذه الجملة منصرف عن جُبَيْرَةَ صاحبتة ، وهو مملوء همأً وغمأً ، والحروف المشددة أشبه بحال المتوتر الغاضب المهموم ، ولهذا حسنت هذه الإشارة .

أما قوله : « ذَاكَ شَبِهْتَ نَاقَتِي » .. فقد أراد الإشارة إلى المصلصل الجوال الذى أضمره الصيف ، وإشفاقه على الأتان ، المستوية الحسناء ، التى كقوس الضال ، والتى قطع عنها جحشها ، وإنما تفعل الحُمُرُ ذلك غيرة منها على الأتان من جُحشها ، وهو من مواقع الإشارة الشائعة فى شعر الجاهليين ، وتراها مع شيوخها وإلفها ذات قوة فى الأداء ، وذات ثراء واكتناز ، لأنها تلخص كل الذى مضى من قصة الحمار ، والأتن ، وفى استعمال اسم الإشارة الذى للبعيد - وهو غالباً ما يستأثر بهذا الموقع - لمحة دالة على ما يتفرد به المذكور من قوة فى العَدُو ، وقوة فى اجتياز الصعاب ، وكأنه فى ذلك بعيد لا يلحق ، وهذا أيضاً مما أصاب فيه اسم الإشارة .

وقوله : « هؤلا ثم هؤلا » .. المراد الإشارة إلى مَنْ أوقع بهم ، وبقية البيت : « كُلاً أعطيتُ نعالاً محذوة بمثال » .

وقد تكرر هذا التعبير فى شعر الأعشى ، وقال القرشى : إن تكرار اسم الإشارة يعنى الأعداء والأولياء ، « مَنْ عصاك جزيته بعصيانه ، وَمَنْ أطاعك جزيته بطاعته » . ويظهر خلاف ما قال القرشى ، لأن قوله : « كلاً أعطيت نعالاً محذوة بمثال » ، إشارة إلى ما أوقعه ببنى محارب حين حَمَى لهم الأحجار وسيرهم عليها ، وذلك لأنه وجد نعل ولده شرحبيل ، فى موضع من بلادهم ، وكان قد أوقع ببنى ذبيان وبنى أسد ، ظناً منه أنهم هم الذين قتلوا ولده ، فلما وجد نعل ولده فى بلاد بنى محارب قال لهم : سأخذيكم نعالاً ، وأحمى لهم الصفا التى بصحراء أضح ، وهذه الإشارة وتكرارها ، وحذف همزتها ، فيها لفت إلى هذا الحدث الفظيع المنكر ، الذى هو فى سياق الشعر من محامد المدوح ، ومن مظاهر غلبته واقتداره ، وكأن الشاعر وضع فى لغته عنصراً من عناصر التنبيه الشديد ، عند هذا الحدث المروع ، ثم إن التكرار وقطع جزء من الكلمة كأنه بضع الكلمة حذو الكلمة وهى هى - « هؤلا ثم هؤلا » .. ويقطع منهما معاً حرفاً .

وهو بهذا يشير إلى النعال المحذوة بالنعال ، لا ريب أن هنا ضرباً من الملاءمة بين اللفظ والمعنى .

أما الإشارة فى قوله : « رَبُّ رَفْدٍ هَرَقَتْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ » فالمراد كما قال صاحب الجمهرة : رَبُّ سيد قتلته ، فعرفت أنيته ، والإشارة إشارة إلى وقائعته التى دانت فيها الرباب .

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ إِذْ كَرِهُوا الْـ سَدَيْنَ دِرَاكاً بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ
ثُمَّ أَسْقَاهُمْ عَلَى نَقْدِ الْعَيْنِ شِ قَارُوى ذُتُوبٍ رِفْدٍ مُحَالِ

والرباب من تميم وهى من خيارها ، ودانهم : أى أدخلهم فى دينه أى طاعته ، وقوله : « أسقاهم » يراد به النكال ، و« الرغد المحال » هو الموت ، وبهذا يكون البعد فى قوله : « ذلك اليوم » ، لتفخيم اليوم وتعظيمه لأنه قهر فيه أعداءه .

ومع أن اسم الإشارة كانت مواقعه محدودة ، إلا أنه أوفر حظاً في الدلالة البلاغية من الألف واللام ومن الإضافة .

ومواقع اسم الموصول في القصيدة محدودة جداً وليس فيها إشارات تستحق التوضيح ، وقد جاء لفظ « الذي » مرتين في القصيدة ، في قوله : « وكعب الذي يطيعك عال » يريد نفعه لأوليائه ، والكعب هنا مجاز عن المنزلة ، تشبيهاً لارتفاع المنزلة المعنوية بالارتفاع الحسى ، وعلو الكعب إشارة إلى هذا الارتفاع الحسى .

وفى قوله : « ولمثل الذي جمعت من العدة تأبى حكومة المقتال » .

والمقتال : افتعال من القول ، والمراد : المحكم .

وليس لاسم الموصول في الموضعين معنى إلا أنه أتاح التعبير بالفعل « يطيعك » وفيه دلالة على أن هذه عاداته أى الطاعة ، ولم يقل : وليك مثلاً ، وإنما قال : الذي من شأنه الطاعة وهو دائم عليها ، وهذا معنى لو تأملته لعرفت فضله ، وكذلك قوله : « الذي جمعت » فيه إبراز له ، وتفصيل ، وتحديد ، وتعريف ، كل هذا في لفظ الشاعر ، وليس منه شيء لو قال : ولمثل عتادك مثلاً .

ثم جاءت كلمة « من » في موقعين .. قوله : « مَنْ جاء منها بطائف الأهوال » أى : مَنْ جاء من صاحبته ، وقوله : « مَنْ عصاك أصبح مخذولاً .. » .

وجاءت كلمة « ما » الموصولة مرة واحدة في قوله : « وكان النطاف ما فى العزال » أى : وكان الماء قليلاً جداً ، قطرات فى أفواه القرب كأنه معدوم .

وكل هذه المعانى معان نحوية ليس وراءها ما فى شواهد البلاغيين فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَرَوَّادَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ^(١) ومواقع اسم

الموصول فى القرآن الكريم فى قمة الشراء البلاغى ، واقرأ فى المصحف وتَفَقَّد
مواقع : الذى ، والذين ...

وقد جاءت الضمائر فى القصيدة من غير أن يكون وراءها ما يُلَفَت الدارس
إلا ضمير المخاطب ، فقد وقع مواقع ذات دلالة .

وقد خاطبَ الشاعر نفسه وخاطب صاحبتَه وناقته ، كما خاطب الممدوح ...
أما خطاب نفسه فقد جاء فى مفتتح القصيدة فى قوله :

« وَسُؤَالِي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤَالِي » والمعنى على التعجب من سؤاله الأطلال
كالتعجب من بكانه عليها ، وكأنه قال : وما سُؤَالِي ؟ أى لماذا أسأل إذا كانت
الأطلال لا ترد سُؤَالِي ، ولهذا جعلناه من خطاب نفسه لأنه سؤال مَوْجَه إليها ،
وليس هذا كقوله :

وَدَعَّ هُرَيْرَةً إِنْ الرُّكْبَ مَرَّتْ حِلْ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ

والأعشى كَلَفَ بهذه الطريقة وقد ابتدأ قصائد كثيرة بخطاب نفسه مثل قوله :

رَحَلَتْ سُمَيَّةٌ غُدُوَّةً أَجْمَالَهَا	غَضَبَى عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَا لَهَا
وقوله : لَعَمْرُكَ مَا طُويلُ هَذَا الزَّمَنُ	عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا عَنَاءٌ مُعَنٌ
وقوله : أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تَلِمُ	أَمْ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مِنْجَازِمٌ
وقوله : أَلْزَمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكَارًا	وَشَطَطْتَ عَلَى ذِي هَوًى أَنْ تُزَارَا
وقوله : أَجِدْكَ لَمْ تَغْتَمِضْ لَيْلَةً	فَتَرَقَّدَهَا مَعَ رُقَادِهَا
وقوله : هُرَيْرَةٌ وَدَعَّهَا وَإِنْ لَمْ لَائِمُ	غَدَاةً غَدٍ أَمْ أَنْتَ لِلْبَيْنِ وَاجِمُ

ولم أعرف شاعراً كثر خطابه لنفسه فى مفتتح قصائده قبل الأعشى . وخطابه
لنفسه فى القصيدة التى ندرسها فيه إيعاء واضح يجمع نفسه نحو غاية نصب
نفسه لها ، وصرف نفسه عن أمور كانت مصروفة إليها . وهو بهذا يُلَفَتنا إلى
مزید همٍّ ، وعنايته ، واحتشاده ، وقد استطاع أن يجعل أول كلامه فى هذه
القصيدة غنياً بالإشارات التى تُعتبر مدخلاً واضحاً لمعالم القصيدة ، ورموزها
اللغوية .

والخطاب الثانى خطاب صاحبة فى قوله :

فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرَكْنِي الْحِلْمُ — مٌ عَدَانِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي

وأهمية هذا الخطاب أن الكلام انتقل إليه من الغيبة ، وأن الشاعر أغلظ فيه القول للصاحبة ، وكأنه يطردها طرداً ، وكان قبل هذا الخطاب يحكى أوصافها ، ويسلسلها تسلسلاً بليغاً ، مشرقاً وضأً ، فهى ظبية ، وطُفلة الأنامل ... وذات نعمة ، وملاحة ، ودلٌ ... وتراه وهو يسلسل هذا الحُسن يقارب الصاحبة أكثر فينقل الكلام إلى تُغرّها فيذكر ضياءه ولألاءه ، وعدويته ، وخمره ، وعند هذا الحد من المقاربة ينتبه إلى ما هو فيه من هَمٌ فيقول : « فاذهبي ما إليك أدركنى الحلم » وتأمل لقانة الصنعة ، بعد ما صاح بها قائلاً لها : « اذهبي » ، يؤسس جملة جديدة ذات معنى سخى وذات صنعة دقيقة . وغريبة فيقول : « ما إليك أدركنى الحلم » ، وإدراك الحلم فى هذا الباب معناه السلو ، وتقديم النفس وإيلاؤه الجار والمجرور يفيد فى نظام الكلام أن السلو قد أدركه لكل ما عداها ، وأنها هى وحدها التى بقى شأنه معها ، وليس له حلم ، فدلٌ ذلك على نفاذ سلطانها ، وأن به منها علماً لا يبرح ، وهذا التركيب كما قلت من الأساليب النادرة ، وهو من باب قولنا : ما بهذا أمرتك ، ولا تقول هذا إلا إذا كنت قد أمرته بغيره ، والأعشى لم يقل : « ما إليك أدركنى الحلم » إلا وقد أدركه الحلم فى شأن سواها ، وهذا مما يحسن تدبره لأن سخاء اللغة فيه سخاء خفى ومذاقه حسن ويعيد وإدراك الحلم يعنى السلو .

والخطاب الثالث خطاب الناقة فى قوله :

لَا تَشْكِيْ إِلَى مِنْ أَلَمِ النَّسْ — عٍ وَلَا مِنْ حَفَا وَلَا مِنْ كَلَالٍ
لَا تَشْكِيْ إِلَى وَأَنْتَجِيِ الْأَسْ — وَدَ أَهْلَ النَّدَى وَأَهْلَ الْفَعَالِ

وهذا الخطاب يهـىء الشاعر به الكلام للانتقال إلى الغرض وقد جاء فى البيت الثامن والثلاثين وقد وقف الشعر هنا وقفه بارزة لأن الشاعر كرر الخطاب ثلاث مرات ، مرتان نهى فيهما الناقاة عن الشكوى ، ثم أمرها بأن تنتجع الأسود ، وهو بهذا الخطاب الثالث يلاطفها ، ويبث فيها الرجاء والأمل . ويمسح ألمها ، وحفاها وكرالها ، وما أذماها من ألم النسج ، وهذا من موالج الشعراء السلسلة المنقادة .

ثم خاطب الممدوح فى البيت الواحد والخمسين فى قوله :

وَلَقَدْ شُبِّتَ الْحُرُوبُ فَمَا غُمٌّ رُتَ فِيهَا إِذْ قُلِّصَتْ عَنْ حِيَالِ

أراد أن الحرب لما استعرت ، واتقّدت ، لم تكن فيها غمراً - بضم الغين ، أى غير مجرّب ، وإنما كنت فيها مطيقاً لها ، وقوله : « إِذْ قُلِّصَتْ عَنْ حِيَالِ » أى شَمَرَت الحرب ولقحت بعد طول زمن لم تلقح فيه ، وهو المراد بالخيال ، وهذا إنما يريدون به أن الحرب فتية قوية ، كالناقاة التى تلد بعد الحيال .

ثم إن الشاعر مضى بعد هذا البيت على طريق الخطاب للمدوح فقال :

هَؤُلَى ثُمَّ هَؤُلَى كُلاًّ أُعْطِيَتْ تَ نِعَالاً مَخْذُوءَةً بِمِثَالِ
قَارَى مَنْ عَصَاكَ أَصْبَحَ مَخْذُوءٌ لَأَوْ كَعْبُ الَّذِي يُطِيعُكَ عَالِي

وهكذا مضى الكلام على نسج الخطاب .

وكان الشاعر قبل ذلك يتكلم عن الممدوح بطريق الغيبة بعد أن نقل الكلام إليه فى البيت التاسع والثلاثين :

قَرَعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْـ سِدِّ غَزِيرِ النَّدَى شَدِيدِ الْمِحَالِ

ثم ذكر ضروباً من أخلاقه : « عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتَّقَى وَأَسَا الصَّرْعُ ، وهباته ، وضرربها » ... إلى آخر ما ذكر فى أبيات بلغت اثنى عشر بيتاً من جيات المديح ، وقد تناولناها فيما سبق ، ثم كرر ضمير الغيبة مرتين فى بيت :

رُبَّ حَيٍّ أَشْقَاهُمْ آخِرَ الدَّهْرِ — رِيحِي سَقَاهُمْ بِسِجَالٍ

ثم نقل الكلام إلى مخاطبة المدوح :

وَلَقَدْ شُبِّتَ الْحُرُوبُ فَمَا غُمُّ — رُتَ فِيهَا إِذْ قَلَصَتْ عَنْ حِيَالٍ

وهكذا تتأمل دقة الصنعة وكأن الشاعر حين كرر ذكر المدوح بضمير الغيب في قوله : « أشقاهم آخر الدهر » ، وقوله : « أسقاهم بسجال » يؤكد غيبته وأنه يحكى قصة رجل تُروى حكاياته ثم ينقلك إلى خطابه فيظهر عندك هذا الانتقال .

وهذا المقطع من القصيدة هو الذى دخل فيه الشاعر إلى لب مقصوده من رحلته وهو تخليص رجال رهطه الذين استاقهم الأسود لما أغار عليهم واستباح ديارهم ، والأعشى لم يطلب فى القصيدة هذا المطلب باللفظ الصريح وإنما ذكر الرجال المضرورين فى أسرهم ، والنساء اللاتى هن كالسعالى ، وهم رهطه وهذا حسبه .

ولم يخاطب الأعشى المدوح إلا فيما ذكر فيه حربه ، وفتكه ، وبطشه ، وتأمل الصدر ، ثم إنه صرف الحديث عنه بطريقة ذكية هى ذكر رجاله وصرف الحديث إليهم :

جُنْدُكَ التَّالِدُ الْعَتِيقُ مِنَ الْ— سَادَاتِ أَهْلِ الْقِبَابِ وَالْأَكْمَالِ

غَيْرُ مِيلٍ وَلَا عَوَاوِيرَ فِي الْهَيْ— جَى ، وَلَا عُزْلٍ وَلَا أَكْفَالِ

والأكمال : قطع كانت الملوك تقطعها للأشراف ، وبهذا تصير كالقباة فى دلالتها على السؤدد ، والميل : جمع أميل وهو الذى يميل على السرج من الجبن ، والعواوير : جمع عوار وهو الضعيف الجبان ، والأكفال : جمع كفل وهو الذى لا يثبت فى الحرب .

ثم يذكر دروعه ، وسلاحه ، وحياطته للسلاح والدروع ، ثم يذكر حروبه وفعله فى أعدائه ، وهكذا يستمر الكلام على أسلوب الغائب ثم يخاطبه فى البيت السبعين :

ثُمَّ وَصَلَتْ صِرَّةً بِرَبِيعٍ حِينَ صَرَفَتْ حَالَهُ عَنْ حَالٍ
رُبَّ رِفْدٍ هَرَقْتَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْثَالٍ
وَشَيْخٍ حَرَبَى بِشَطَى أُرَيْكَ وَنِسَاءٍ كَانَتْهُنَّ السَّعَالِي

ووصل الصِرَّةُ بالربيع : يعنى أن حروبه دامت من الشتاء إلى الصيف ،
والصِرَّةُ : هى البرد والمراد بها الشتاء ، و « رِفْدٍ هَرَقْتَهُ » أى رجال قتلتهم ،
و « الأسرى ، والشيوخ الحربى ، والنساء اللاتى هُنَّ كَالسَّعَالِي » أحسب ذلك
كله قوم الأعشى ، وهو يريد خلاصهم من أسر هذا الطاغية ، وبذلك تظهر لنا
حركة ضمير الخطاب فى القصيدة . وكيف كان ملازماً لذكر الحرب ، والقتل ،
والأسر ، وكيف كان مرتبطاً بالموضوع الأهم فى القصيدة ، لأن التوجه إلى
الممدوح ومشافهته هو ذروة العناية بالمعنى ، وذروة الأداء الشعرى لها .

أما التنكير فإنه يكثر فى ذكر المفاوز ، والأرض المنكرة المجهولة .

تأمله فى : « دِمْنَةٌ ... قَفْرَةٌ ... خَرْقٌ ... مِيلٌ ... وَسَاءٌ ... وَسِيرٌ .. ومستقى
أوشال ... وإدلاج ... وتهجير ، وَقُفٌّ ، وسبب ، ورمال » ، والتنكير فى كل هذا
يعنى أنها أنواع غريبة وأنه خرق ليس كأى خرق ، وسير بعيد الشُّقَّة ، وإدلاج
يطول ... وتهجير يشق .. وَقُفٌّ يتعثر مجتازه ، وسبب لا تلتقى أطرافه .

وهكذا تجد وراء التنكير شيئاً تجده فى نفسك ، وقد يكون متسعاً وعميقاً ،
ولكن الشاعر رمز إليه بهذه اللمسة اللغوية ، وقد يكون قولنا : إنه للنوعية ،
أو للعظيم ، قاصراً قصوراً شديداً عن بيان ما وراء التنكير من سعة ورحابة ،
ولكننا نجعل هذه الأوصاف رموزاً على هذه المعانى كما كان التنكير نفسه رمزاً
لها ، ووحياً يحيا بها .

وكذلك كثر التنكير فى أوصاف الصاحبة :

طَبِيبَةٌ مِنْ طِبَاءٍ وَجَرَةٌ أَدَمًا تُسَفُّ الْكَبَاثَ تَحْتَ الْهَدَالِ

حُرَّةٌ ، طَفْلَةٌ الْتَامِلِ تَرْتَبُ — سُبُّ سَخَامًا تَكْفُهُ بِخِلَالِ

تأمل تجد شيئاً وراء التنكير ، والحُرَّةُ : العفيفة البرية ، والطَفْلَةُ : الرخصة اللينة ، والسُخَام - بضم السين : الشعر اللين ، والتنكير هنا يعنى أن كل صفة من هذه الصفات قائمة فى صاحبة على أفضل وجوه هذه الصفة ، فالأدمة فيها نيرة باهرة ، والعنق فيها طيب خالص . ونعومتها رطبة رائعة ... وهكذا . وكذلك كثر التنكير فى أوصاف الناقة .

تأمل :

وَعَسِيرٌ ، أَدْمَاءٌ ، حَادِرَةٌ الْعَيْ — سَنِ خُنُوفٍ ، عَيْرَانَةٌ ، شِمَالِلٌ

والعسير : هى الناقة المعتاصة غير الذلول ، والأدماء : خالصة البياض ، وحادرة العين : حسنة صحيحة ، والخنوف : التى تقيل رأسها إذا أحضرت : أى أسرع ، وهو صف للذكر والأنثى ، والعيرانة : المشبهة بالعير فى قوتها ووقاحتها ، والوقاحة : الصلابة ، والشمالل : السريعة .

تأمل هذه الصفات تجد وراء كل منها معنى أنها صفة خاصة فقله : « عسير » ، أى أن عسرهما ليس كعسر غيرها ، وكذلك : « أدماء » و « خنوف » كل هذا فيه أن هذه الصفة فى هذه الناقة لا تكون على الحد الذى تكون عليه فى غيرها ، فأدومتها أدمة خاصة ، وخَنَفُهَا خنف خاص ... وهكذا .

وتأمل كلمة « أدماء » فى وصف ناقة معتاصة غير رِيضة ولا منقادة ، ثم تأملها فى وصف امرأة ، ناعمة ذات ملاحه ، و دَل ، ونعمة ، تجد فرقاً كبيراً بين الكلمة فى الحالتين ، وهذه المشاركة فى الصفة تقارب بين صاحبة والناقة ، لأنها وشيجة بيانية لا ريب فيها ، ومثل هذه الوشيجة مثل تشبيه المرأة بالبقرة الوحشية ، وكذلك تشبيه الناقة بها ، ويصفون المرأة بأنها « حُرَّة » أى كريمة ، وكذلك يصفون الناقة ، وهذا باب من أبواب البيان متسع تتابع فيه تصاريف

الكلمة ، وكيف تتنوع مواقعها ومتى تكون لُحمة نسب ، وشيخة قُربى ، بين هذه المواقع ، فترى كلمة « حُرَّة » تدخل فى نسيج بيان صاحبة ، هذا البيان الواصف للنعمة والدّل ورونق الحسن ، ثم تدخل فى نسيج بيان ناقة « تقطع الأمْعَز المَكْوِيب وَخُذاً » .

ويُلاحَظ أن التنكير يكثر فى المصادر مثل : « سَيَرٍ ... إدلاج .. تهجير .. وخد .. اشفاق .. حثيث .. حفاً .. كلال » .. وهذه كلها فى ذكر الناقة .. وكذلك جاء فى ذكر الممدوح : « حمل .. عطاء .. وفاء .. ركود .. غرام .. قمن .. حبس .. تجميع شتات .. رحلة .. احتمال » .. كما كثر فى أسماء الأعيان وأوصافها وقد جاء فى : « سُخام (شَعْر) خلال (المدارى) عسير .. أدماء .. خنوف .. عبرانة .. شملال .. عنتريس .. جناحين .. عوج » .. وهذه كلها فى ذكر الناقة .. ثم : « جِيَاد .. نعال .. دروع .. خيل .. رعال .. رَفْد » ، وهذه كلها فى ذكر الممدوح ، كما كثر التنكير فى الألفاظ الدالة على أوصاف الناس . مثل : « حُرَّة .. أريحي .. صلت .. ميل .. عواوير .. حرمى » .

وهناك كلمات دلت على الأمكنة وجاءت نكرة .. وهى : « دمنة .. قفرة .. خرق .. ميل .. قَف .. سباسب .. رمال .. قفار » .

وأقل من ذلك ما دلّ على أحوال المناخ مثل : « صَبَا .. شمال .. صُرَّة .. ربيع » وكلمتان فقط دالتان على العدد .. هما : « خمس .. وألف » .. ويظهر من هذا أن التنكير كثر فى الكلمات ذات الدلالات القابلة للتنوع والتعدد ، واختلاف الأحوال ، وهذا ظاهر فى المصادر والأوصاف ، أما الكلمات الدالة على الأمكنة فقد كان التنكير فيها مشيراً إلى أنها مبهمة مجهولة منكورة ، وهذه دلالة جيدة فى سياقها .

وقد جاءت فى القصيدة مصادر كثيرة مُعرّفة داخلتها وتخللتها مصادر مُنكرة مثل ما جاء فى حديثه عن الممدوح .

عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتُّقَى وَأَسَا الصَّرُّ
وَصِلَاتُ الْأَرْحَامِ قَدْ عَلِمَ النَّاسُ
وَهَوَانُ النَّفْسِ الْعَزِيزَةِ لِلذُّكْرِ
وَعَطَاءٌ إِذَا سَأَلْتَ إِذَا الْعِذُّ
وَوَفَاءٌ إِذَا أُجْرَتْ ، فَمَا غُرُّ
أُرِيحَى صَلَّتْ يَظِلُّ لَهُ الْقَوُّ
ع وَحَمْلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ
سُ وَفَكَ الْأَسْرَى مِنَ الْأَغْلَالِ
ر إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورُ الْعَوَالِي
رَةٌ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبُخَالِ
ت حِبَالٌ وَصَلَتْهَا بِحِبَالِ
م رُكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهَلَالِ

جاءت المصادر معروفة في « الحزم والتقى » لتشير إلى الماهية أي أصل الحزم وحقيقته ، وأصل التقى وجوهره ، ثم جاءت نكرة في قوله : « حَمْلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ » لأنه لا يريد الحمل ، كما أراد الصرع ، والحزم ، وإنما أراد حملاً خاصاً هو « حمل مضلع الأثقال » . وجاء المصدر مضافاً في قوله : « وفك الأسرى » و « هوان النفس » لأنه وإن أراد ضرباً من الفعل إلا أن هذه الإضافة لم تجعل المصدر نوعاً متميزاً في هذا الضرب لأن قطع المصدر عن الإضافة في الأمثلة السابقة أفاداً حملاً أي حمل ، أي حملاً متميزاً مغايراً للمعلوم في هذا الشأن ، وهذا المعنى لا نجده مع الإضافة في قوله : « فك الأسرى » وكذلك « هوان النفس » لأن فك الأسرى ضرب واحد يعنى معنى لا يتنوع ، وكذلك هوان النفس ، أما حمل المهمات الشقال يعنى تدبير الأمور الصعبة ، فإن فيه تفاوتاً يتنوع ، ويُلاحظ أنه نَكَّرَ « عطاء » و « وفاء » ، وكان يمكن أن يقول : عنده العطاء ، والوفاء ، كما قال : « وعنده الحزم ، والتقى » ، ولكنه عمد إلى نوع من العطاء ، والوفاء ، هو العطاء الذى يكون « إذا العذرة كانت عطية البُخَالِ » ، والوفاء الذى يكون فى وقت حاجتك إليه « إذا أُجْرَتْ » أى عاهدت .

ويُلاحظ أن التنكير كأنه يدعو بعضه بعضاً فتراه يتنادى ويتكاثر ، ترى : « عطاء .. ووفاء .. وأريحى .. وصلت » وهكذا . وهذا التنادى والتكاثر يتكرر فى القصيدة ، انظر : « وَعَسِيرٌ أَدْمَاءَ حَادِرَةِ الْعَيْبِ - مِنْ خَنُوفٍ غَيْرَانَةٍ شِمْلَالِ »

ومثل : « سقاء .. سير .. مستقى أو شال .. وإدلاج .. وتهجير .. وقف ..
وسبب .. ورمال » ..

وتأمل كيف يتكرر نظام تنزيل الكلمة المنكرة بين الكلمات المعروفة على حد
ما فى قوله : « وعنده الحزم والتقى » ... إلى آخره . وذلك حين انتقل الكلام
إلى ذكر هباته .

يَهَبُ الْجِلَّةُ الْجَرَاجِرَ كَالْبُسْ	سَتَانِ تَحْنُسُو لِذَرْذَقِ أَطْقَالِ
وَالْبَغَايَا يَرْكُضْنَ أَكْسِيَةَ الْإِضْ	رِ رِيحٍ وَالشَّرْعَبَى ذَا الْأَذْيَالِ
وَجِبَادًا كَأَنَّهَا قُضِبُ الشُّوْ	حَطٍ تَعْدُو بِشِكَّةِ الْأَهْطَالِ
وَالْمَكَائِكِ وَالصَّحَافِ مِنَ الْفِضْ	سَةِ وَالضَّامِزَاتِ تَحْتَ الرَّجَالِ

تأمل الألف واللام فى « الجلة » والمراد المسان من الإبل ، « والجراجير »
يعنى الضخام ، و« البغايا » و« الشرعبي » و« المكايك » و« والصحاف »
و« الضامزات » أى الإبل الشديدات الأنفس .

والتعريف فى ذلك كله يشير إلى الجنس المشهور المتعالم ، ويُلاحظ أن
التعريف فى هذا المقطع يتجانس تجانساً خفياً ودقيقاً ، مع التعريف فى المقطع
السابق : « عِنْدَهُ الْحَزْمُ ، وَالتُّقَى ، وَأَسَا الصَّرْعُ ، وَحَمَلُ الْمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ » .

وتظهر الألف واللام بصورة واضحة فى هذين المقطعين : ذكر محامده ، وذكر
هباته .

والبيت : « عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتُّقَى » فيه أربع كلمات مُعَرَّفَاتٍ بالألف واللام ،
ثلاثة منها مصادر ، والبيت الذى يليه : « وصلات الأرحام » فيه أيضاً أربع
كلمات مُعَرَّفَاتٍ بالألف واللام ، كلها دالة على ذوات . وكذلك البيت الذى يليه :
« وهوان النفس » فيه أربع كلمات مُعَرَّفَاتٍ بالألف واللام .

وهكذا تأمل أبيات وصف الهبات ، تجد البيت الأول : « يهب الجلة الجراجر » فيه ثلاث كلمات مُعرَّفات ، والذي يليه فيه أربع كلمات : « ... البغايا .. الإضريح ... الشرعبي .. الأذيال » . وهكذا قوله : « والمكاكيك » تجد ألفاظه كلها مُعرَّفة بالألف واللام : « المكاكيك .. الصحاف ... الفضة ... الضامزات .. الرحال » . ثم إنك تجد هذا التكاثر يغيب في الأبيات التي بُدِّت بنكرة :

وَجِيَادُ كَانَتْهَا قُضْبُ الشُّوْ
حَطِ تَعْدُو بِشِكَّةِ الْأَبْطَالِ

وقد تجد البيت يخلو من ذلك :

وَوَفَاءُ إِذَا أُجْرَتْ ، فَمَا غُرُ
تُ حِبَالٌ وَصَلَتْهَا بِحِبَالِ

ولا خلاف في أن هذه الألف واللام ذات أثر واضح في صيغة الأبيات حين تكثر وتغلب وتكون عنصراً متكرراً بصوته ووزنه ومعناه .. وهذا ظاهر جداً في نسيج الشعر ، اقرأ الأبيات من قوله :

« وعنده الحزم والتقى » .. إلى قوله : « وَرُبُّ حَى أَشْقَاهُمْ آخِرُ الدَّهْرِ » تجد ألفاظاً متشابهة ، وصوراً متشابهة ونغماً متشابهاً ، كما تلاحظ أن النكرة تأتي بعد المعرفة ، لأن المعرفة : أى المعانى المتعالة ، هى أصل بناء الأبيات ، ثم تجد كلمات نكرة يبدأ بها البيت ، ثم تُقَيَّد الصفات بأحوال وعطاء : « إذا سألت » ، ووفاء : « إذا أجرت » وهذا التشابه الواضح فى بناء الكلام مرده إلى وحدة الفكرة والطريقة التى بنى عليها البيتان .

ثم تجد بيتاً فى القسم الثانى الذى ذكر فيه الهبات ابتدأ بكلمة منكرة : « وجياداً كأنها قُضْبُ الشُّوْحَطِ » وجاء ذلك مخالفاً لما أسس عليه هذا القسم من ذكر الجملة : « الجراجر ، والبغايا ، والشرعبي ، والمكاكيك ، والصحاف » ... إلى آخره ، وخالف النسق بهذه النكرة لأنه أراد جياداً من نوع خاص ، ولم يرد الجياد المعروفة كما أراد النوق الضخام المعروفة ، أو كما أراد المكاكيك والصحاف . وإنما هى جياد ضامرة صلبة . وقد وقعت الجملة : « كأنها قُضْبُ الشُّوْحَطِ » صفة للجياد ، وبذلك دخل هذا الوصف فى تحديد المراد - وهذا هو معنى أنها جياد غير الجياد المعروفة ، لأن ضمورها الذى صيَّرها كقُضْبِ

الشَوْحَطُ الذى تُتخذ منه القُسى فهو صلب ضامر ، هذا الضمور صيرها جنساً خاصاً ، ولو أنه عرّف الجياد لكان قوله : « كأنها قُضِبَ الشَوْحَطُ » جملة جالية ولا تدخل فى تحديد الجياد ويكون كقوله : « والبغايا يركضن » ، لأن الجملة حال ، ولم تدخل فى تحديد المراد بالبغايا ، ولو قال : وبغايا يركضن ، لكان معنى آخر لأنه لم يكن المراد مطلق البغايا - أى الجوارى - وإنما المراد بغايا موصوفات والفرق دقيق وجيد بين الجملة الحالية والجملة الواقعة صفة ، وتأمل الجملتين وسوف تجد ما قلته كما قلته . ويُلاحظ أن هناك طريقة فى بناء الكلمات المُتكررات تكررت فى القصيدة هى قوله :

« حَبَالٌ وَصَلَّتْهَا بِحَبَالٍ »

« مِيلٌ يُفْضِي إِلَى أُمِّيَالٍ »

« نِعَالاً مَحْذُوءَةً بِمِثَالٍ »

« رِعَالاً مَوْصُولَةً بِرِعَالٍ »

« يَقُودُ خَيْلاً إِلَى خَيْلٍ »

ذكرت أن النكرة تتوافى وتتكاثر حين يدخل الكلام معنى غريباً ، ويريد الشاعر بهذه الكلمات النكرات أن يشيع جواً من الغرابة ، وعدم الإلف ، وقد كان ذلك من قصائد أخرى للأعشى حين يذكر الناقة والرحلة والمهमे مثل قوله :

وَيَهْمَاءَ تَعَزِفُ جِنَائُهَا مَنَاهِلَهَا آجِنَاتُ سُدُمٍ

قَطَعْتُ بِرَسَامَةٍ جَسْرَةَ عَذَافِرَةٍ كَالْفَنِيْقِ الْقَطِمِ

غَضُوبٍ مِنَ السُّوْطِ زِيَافَةٍ إِذَا مَا ارْتَدَى بِالسَّرَابِ الْأَكْمِ

واليهماء : المفازة العمياء المطموسة المسالك ، وعزف الجنان : أى يُصَوِّت فيها الجن ، وهذا من وصفهم للخرائب المتسعة ، والآجن : الماء المتغير ، وكذلك السُدُم - بضم السين والذال . والرَسَامَة : الناقة السريعة ، والجسرة : القوية ، والعذافرة : الصلبة الشديدة ، والفنيق : الفحل ، والقطم : الهائج ، والزِيَافَة :

التي تميل من السرعة وشدة الحمى ، وارتداء الأكم - بفتح الهمزة والكاف -
السراب ؛ كناية عن شدة الحر .

تأمل أوصاف الناقة : « رسامة .. جسة .. عزافرة .. غضوب .. زبافة »
.. وراجع : « عسير .. أدماء .. خوف .. عبرانة » ... إلى آخره .

وتأمل كيف تكاثرت الكلمات المنكرة فى وصف الصاحبة :

هَرِكُولَةٌ ، فُنُقٌ ، دُرْمٌ مَرَاْفِقُهَا كَأَنَّ أَحْمَصَهَا بِالشَّوْكِ مُنْتَعِلٌ

والهركولة : الضخمة الوركين ، والفنق : المنعمة .. والدرم : المتلثة . حتى
لا يظهر عظامها .

وقوله فى هذا الباب :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَظِلٌ
يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِيقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا تَشْتَرِ رَائِحَةٌ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأَصْلُ

والمسبل : المطر ، والمؤزَّر : الملتف ، كأنه على الأرض إزار . وعميم النبت :
أى النبت العميم ، والمكتهل : المكتمل ، ورياض الحزن أطيب من رياض
السهل ، تأمل الكلمات : « روضة .. رياض .. معشبة .. مسبل .. هطل ..
كوكب .. شرق .. مؤزر .. عميم .. مكتهل » ... إلى آخره ، وكأنه يريد
روضة غريبة رائعة ، والصورة ملائمة جداً للذكر طيب الصاحبة ، وحسنها ، لأنك
ترى فيها الكوكب غزلاً ذاصبوة .

وتأمل ترادف الكلمات النكرات فى وصف السحاب :

يَا مَنْ يَرَى عَارِضاً قَدْ بَتَّ أَرْقُبُهُ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِى حَاقَاتِهِ الشَّعْلُ
لَهُ رِدَافٌ وَجَوْزٌ مُقَامٌ عَمِلٌ مُنْطَلَقٌ بِسِجَالِ الْمَاءِ مُتَّصِلٌ

والرداف : السحاب والشعل فى حافات البرق ، والرداف : التوسل ، والمراد
الأطراف ، والجوز : الوسط ، والمقام : الممتلىء ، والعَمَل : الدائم المستمر ،
والمنطق بالسجال : أى كأن الماء نطاق له ، يحيط به كما يحيط النطاق بلباسه .
تأمل البيت الثانى : « رداف .. جوز .. مقام .. عَمَل .. منطق » ... إلى
آخره .

وهكذا تجد الكلمات المُنكَرَة متكاثرة فى مواقع تتشابه فى شعره كله .



● بناء الجُمْل وعلاقاتها فى القصيدة :

أريد فى هذا الجزء وصف أحوال مبانى الجُمْل ، وكيف كان نسجها ؟ ثم كيف
تتابعت ، وتلاحقت ، وبُنِيَ بعضها على بعض ، من أول جُمْلَة فى القصيدة إلى
آخر جُمْلَة فيها .

وأول ما يبدو فى القصيدة هو قوة التلاحم مع ليونة اللُغة ، وسلاستها ، وترى
القصيدة تمتد بصورة حيّة ، كأنها كائن حىّ ينمو نمواً طبيعياً ، يطرد فى نسق
ونظام ، يمهّد أوله لثانيه ، بل ينبثق بعضه من بعض فى ترابط محكم ، فالجُمْلَة
ليس لها أول تراه معزولاً عن سابقه ، وليس لها آخر تراه معزولاً عن لاحقته .
وقد جاء ترتيب أبياتها فى « جمهرة أشعار العرب » مخالفاً لترتيب أبياتها فى
الديوان . والاختلال فى رواية « جهرة أشعار العرب » اختلال ظاهر لأن البناء
الحىّ المتكامل للقصيدة يظهر فيه أى اختلال يقع فى ترتيب الأبيات . ورواية
الديوان دقيقة ومتلائمة .

وقد كنتُ أشرتُ إلى بعض أحوال بناء الجُمْل فيما عرضتُ له من دراسة ،
وقد يكون فيه بعض الغناء ، ولكننى أردت أن أبرز هذا المبحث بدراسة مستقلة
لأضعه بين يدى المشتغلين بالدراسة الأدبية لأن تفقد الكلام من جهة أحوال جُمْلته
باب مهم - وقد أغفلناه - وهو من أظهر الأحوال الأسلوبية المنبئة عن خصائص
الشاعر والأديب وكل ذى كلام يبين به إبانة مصقولة عن أغراضه ومقاصده .

وتأمل لغتك وأنت تكتب فى أى معنى تجد أن كيفيات بناء الجملة من أظهر عاداتك ، ومذهبك ، وطريقتك ، وكذلك نفقد كلام من تقرأ لهم من الشعراء ، والعلماء ، وأهل البيان ، تجد أقرب الأحوال الأسلوبية رحماً بذات المتكلم التى تحدّد خصوصية الفردية التى يتميز بها هو أحوال بناء الجملة ، وطريقة نسجها ، وعلاقات المكونات الداخلية فيها ، وأنا أعلم أن بيان هذا مما لا يطوع بالهونا ولكننا سنحاول ولا علينا من الخطأ لأن الطريق إلى الصواب تحفه كثير من الأخطاء ... والله المستعان .

اقرأ هذه الأبيات :

رُبَّ حَرْقٍ مِنْ دُونِهَا يُخْرِسُ السُّفْرَ	رِ وَمِيلٍ يُفْضِي إِلَى أُمِّيَالِ
وَسِقَاءٍ يُوَكِّي عَلَى تَأَقُّ الْمَلِ	ءِ وَسِيرٍ وَمُسْتَقَى أَوْشَالِ
وَادَّلَاجٍ بَعْدَ الْمَنَامِ وَتَهْجِيهِ	رِ وَقُفٍّ وَسَبَسَبٍ وَرِمَالِ
وَقَلِيبٍ أَجْنٍ كَأَنَّ مِنَ الرَّيِّ	شِ بِأَرْجَائِهِ لِقُوطٍ نِصَالِ

وأصل بناء هذه الجملة هو عطف المفردات ، وبعضها موصوف بجملة مثل « وميل يفضى إلى أميال » ، « وسقاء يوكى » .. وبعضها مقيّد بزمن مثل « وادلّاج بعد المنام » ، وبعضها موصوف بمفرد ، وجملة ، مثل « وقليب أجن » ، « كأن من الريش بأرجائه » ... إلى آخره ، وبعضها مفردات عارية كأنها الحرق الموصوف مثل : « وسير ، ومستقى أوشال » ، « وقفٍّ ، وسبسب ، ورمال » ..

ثم هنا ملاحظة دقيقة تضع أيدينا على شيء من دقائق صنعة الشعر ، هذه الملاحظة هى أن الأصل الذى عطف عليه ما بعده بمثابة الأم لهذه المعانى ، لأن « الحرق الذى يخرس السُّفْر » معنى جامع لما بعده وليس مثل قولنا : « ميل يُفضى إلى أميال » ولا مثل مثل قولنا : « وسقاء يوكى » ... وهكذا إلى آخر الأبيات ، وإنما هو كما قلت بمثابة الأم لهذه المعانى المعطوفة عليه ، وهى بمثابة الشرح والتحليل له .

هذا .. وشيء آخر هو أن مراجعة هذا الترتيب تفضى إلى أصل معنوى صحيح ، فأول ما يُذكر فى أوصاف « الخرق المخرس للسفر » امتداده ، الذى دلّ عليه قوله : « وميل يُفضى إلى أميال » ، ثم احتياط السفر لمشقاته « وسقاء يوكى على تأق الملاء » ، ثم السير ، ثم المنام ، وبعده الإدلاج ، والتهجير ، ثم أحوال الطريق من حيث الوعورة ، والسهولة « وقف ، وسبب ، ورمال » ، ويأتى « القلب الآجن ماؤه » فى نهاية الوصف لأنه غائر فى الصحراء ، منقطع لا تصل إليه السابلة ، وطائره ساكن لم يفرغ ، فتناثرت ريشه هناك كأنها لقوط نصال . وهكذا ترامت هذه اللقوط فى أرجاء الصياغة الشعرية ، وقريب من حذو هذا البناء ، قوله :

فَرَعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ	دِرْ غَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ
عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالْتَقَى وَأَسَا الصُّرُ	عِ وَحَمَلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ
وَصَلَاتُ الْأَرْحَامِ قَدْ عَلِمَ النَّا	سُ وَقَدْ الْأُسْرَى مِنَ الْأَغْلَالِ
وَهَوَاؤُ النَّفْسِ الْعَزِيزَةِ لِلذِّكْرِ	رٍ إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورُ الْعَوَالِي
وَعَطَاءٌ إِذَا سَأَلَتْ إِذَا الْعِذُّ	رَةٌ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبُخَالِ
وَوَقَاءٌ إِذَا أَجَرَتْ ، فَمَا غُرُّ	تُ حِبَالٌ وَصَلَتْهَا بِحِبَالِ

تأمل البيت الأول : « فرع نبع » .. ثم تأمل الأبيات بعده تجده جذراً لها أو أمّا ، وهى تفصيل وتفريع ، وتحليل لمضمونه ، بيان ذلك أنه وصفه فى البيت الأول بأنه : « كريم من كرام » ، وهذا معنى فرع نبع ، والنبع شجر تُتخذ منه القسسى ، وهو أجود الشجر وأكرمه ، ثم وصفه بوصف آخر جامع ، وهو اهتزازة ؛ يعنى أريحته لكل ما يورث مكربة ، ونبالة ، وشرف ؛ ثم ذكر وصفين جامعين ، ولكنهما أقرب إلى التحديد من قوله : « فرع نبع » وقوله : « يهتز » .. هذان الوصفان هما غزارة الندى « الجود » وشدة المحال ، والمحال - بكسر الميم : الدهاء والكيد وقوة النكاية ، وإتقان الحيلة ، ونفاذها .

ثم تأتى الأبيات بعده وهى جملة واحدة ، ونريد بالجملة هنا ما لا يتم بيان المراد فى جزء من أجزاء المعنى إلا به ، والمراد بالجزء هنا ما فيه قدر من التماسك والتلاحم وكأنه فى بناء الكلام قسم منه أو جزء أشد تماسكاً وأقوى تراحمًا من غيره .

فإذا كان قولنا : « عنده الحزم » جملة ، من مبتدأ وخبر ، فإن تمام المراد موقوف على المعطوف ، من التقوى ، وضرب غطوسة المصروع من الكبر ، حتى يستقيم حاله ، واحتمال الأمور الصعبة ، والود لذى القربى ، وفك الأسرى ... إلى آخره ، والجملة هنا طالت وكان العطف هو جامع نشرها ، وضابط أطرافها ، وتأمل علاقات المعانى داخل هذا التكوين اللغوى الذى له حالة خاصة كما نبهت ، لأنه ليس التشابك فيه تشابكاً من النوع المتحد فى الوضع وإنما التشابك فيه هى هذه الواو وما تقتضيه من رحم بين جناحيها المعطوف والمعطوف عليه ، وتأمل تجدد : « الحزم .. والتقى .. وأسا الصرع » .. واضح أننا لو حذفنا كلمة « التقى » وقلنا : « عنده الحزم وأسا الصرع وحمل لمضلع الأثقال » لكانت صورة الممدوح أشبه بأهل الغلظة والظلم وأهل الجبروت ، ولكن « التقى » ضبطت معنى « الحزم » ، وأنه حزم أهل الرحمة ، ثم إنك تجد « أسا الصرع » ، و « حمل الأثقال » كأنه تفسير للحزم ، وإضاءة أطراف منه ، وهى أشبه به من قوله : « وصلات الأرحام » ، لأنها تصف فى الممدوح منازع القوة والصلابة فى الإرادة « الحزم » ، والفعل « أسا الصرع » ، والتدبير « حمل لمضلع الأثقال » . ثم ترى صلوات الأرحام ، وفك الأسرى والعلاقة بينهما أوضح من العلاقة بين صلوات الرحم مثلاً ، والحزم ، وأسا الصرع ، وهما معاً (أى صلوات الرحم وفك الأسرى) من منازع الرحمة والروح الإنسانية الودودة ، ولاحظ أن قوله : « وحمل لمضلع الأثقال » كأنه يمهّد لصلوات الرحم ، لأن المضلع قد يكون مضلعاً لأهل رحمه ، وهو يحملهم عنهم ، وهذا من الصلوات ،

وهكذا نرى الكلمات تتناسق ، وتتنامى ، وتتواصل ، وهذا ما أردته بالامتداد
الحى فى داخل التكوين اللغوى .

ثم تأمل علاقة « وهوان النفس » بفك الأسرى ، وكلاهما من أحوال الحرب ،
وكان من المتناظر أن يقول : « وعطاء إذا سألت » ، قبل قوله : « وهوان النفس »
لأن فك الأسرى يناغى هوان النفس ، قبل أن يناغى الذى يليه .

ثم تأمل كيف جمع الأبيات الثلاثة بوحدة لغوية جرت فى ثلاثتها ، وهى القيد
بـ « إذا » الظرفية ، وكان كل بيت منها مؤسساً على صفة : « .. هوان ..
وعطاء .. ووفاء .. » فتشابهت المباني وهى كلها داخلة فى حيز الكلمتين
المؤسستين للجُملة « عنده الحزم » وهكذا صارت هذه الأبيات الخمسة جُملة
واحدة شارحة للبيت السابق : « فرح نبع » .

وعلى حذو هذا الكلام جاء قوله :

إِنْ يُعَاقِبُ بَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْ	طِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي
يَهَبُ الْجِلَّةُ الْجَرَاجِرَ كَالْبُسْ	تَنْ تَحْتُو لِدَرْدَقِ أَطْفَالِ
وَالْبَغَايَا يَرْكُضْنَ أَكْسِبَةَ الْإِضْ	رِ يَجِ وَالشُّرْعِي ذَا الْأَذْيَالِ
وَجِيَادًا كَبَأْنَهَا قُضِبُ الشُّوْ	حَطِ تَعْدُو بِشِكَّةِ الْأَبْطَالِ
وَالْمَكَائِكَ وَالصَّحَافَ مِنَ الْفِضْ	ةِ وَالضَامِرَاتِ تَحْتَ الرِّجَالِ

البيت الأول « إن يعاقب بكن غراماً .. » هو أيضاً بمثابة الأصل للأبيات
الأربعة التى بنيت بناء واحد ، لأنها إلى قوله : « والضامرات ... » مفعول به
للفعل « يهب » ، وإن كان يلاحظ أن الشطر الثانى من البيت الأول : « وإن يعط
جزيلاً » هو الأصل ، لأن الأبيات تحدد الهبات وهى داخلة فى العطاء .

وهذه الأبيات بأصلها الذى عُقِدَتْ عليه مضمومة للأبيات فى الشاهد السابق ،
لأن قوله : « فرع نبع » لا يزال معناه سارياً فى هذه الأبيات ، وقد جاء قبل
قوله : « إن يعاقب يكن غراماً » ، ببيت هو من معاهد الكلام ومعانيه الجامعة ،
وقد رأينا هذه المعاهد تتخلل القصيدة وتكون صلتها بما بعدها على حد ما بينا ..
هذا البيت هو قوله :

أُرْحَى صَلْتُ يَظُلُّ لَهُ الْقَوْمُ مُمْرُكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهَيْلِ

وقبل هذا البيت أبيات الشاهد السابق : « وعنده الحزم » وترتيب الكلام هكذا :

وَوَقَاءً إِذَا أُجْرَتْ ، فَمَا غُرُّ تَحِبَّالٍ وَصَلَّتْهَا بِحِبَالِ

أُرْحَى صَلْتُ يَظُلُّ لَهُ الْقَوْمُ مُمْرُكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهَيْلِ

إِنْ يُعَاقَبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْطَى طَرِجَ زَيْلًا فَإِنَّهُ لَا يِيَالِي

تأمل قوله : « إن يعاقب يكن غراماً » تجده ناظراً لقوله : « يظل له القوم
ركوداً » وقوله : « وإن يعطى جزيلاً » ناظراً لقوله : « أرحى صلت » .

ثم إن قوله : « أرحى صلت » مما يرد به الشاعر كلامه بعضه على بعض -
يعنى من معاهد كلامه كما قلنا - لأنه من معدن قوله : « فرع نبع يهتز فى
غصن المجد » ، وتأمل : « أرحى صلت » تجده من قوله : « فرع نبع » ،
وقوله : « يظل له القوم ركوداً » من قوله : « شديد المحال » .

وهكذا تجد هذه الأبيات الجامعة والتى وصفناها بأنها من معاهد الكلام
تتقارب تقارباً يجعل الكلام متشابهاً شديداً الأسر ، وقد جاء بعد قوله :

وَالْمَكَائِكُ وَالصَّحَافُ مِنَ الْفِضِّ مِةٍ وَالضَّامِرَاتِ تَحْتَ الرَّجَالِ

قوله :

رُبُّ حَى أَشْقَاهُمْ آخِرَ الدَّهْرِ رِ وَحَى سَقَاهُمْ بِسِجَالِ

وهذا من المعاهد ، وقد جاء بعده وصف حروبه ووقائعه وجنده ، وهذا البيت من معدن قوله : « إن يعاقب بكن غراماً » ، وهو ناظر إلى قوله : « فرع نبع » الذى يعتبر جذر معانى المديح فى القصيدة ، والمعاهد كلها ناظرة إليه ، وتأمل واحدة من حكمة الشعر ولقائنه .

جاء هذا العقد : « رَبُّ حَىْ أَشْقَاهُمْ أَخْرَجَ الدَّهْرَ » وقد تقدّم فيه الوصف بالاعتدال والغلبة وأنه يقهر أعداءه ، ويسقيهم الشقاء آخر الدهر ، ثم أعقبه الوصف بالعطاء وغدق النعمة لأوليائه .

وقد جاءت الأبيات بعده تذكّر حروبه ، ووقائعه ، وجنده ، ودروعه ، وكأنها تحليل لهذا الجزء الذى قدّمه ، وكأنه حين قدّمه إنما قدّمه لأنه الأهم عنده ، وهو بشأنه أعنى ، على حد ما استخرج سيبويه من مثل كلام الأعشى .

وهذه هى الأبيات :

رَبُّ حَىْ أَشْقَاهُمْ أَخْرَجَ الدَّهْرَ	رَبِّ وَحَىْ سَقَاهُمْ بِسِجَالِ
وَلَقَدْ شَبَّتِ الْحُرُوبُ فَمَا غُمُّ	رَتَ فِيهَا إِذْ قَلَصَتْ عَنْ حِيَالِ
هَؤُلَى ثُمَّ هَؤُلَى كَلًّا أُعْطِيَ	تَ نِعَالًا مَحْذُوءَةً بِمِثَالِ
فَأَرَى مَنْ عَصَاكَ أَصْبَحَ مَخْذُودًا	لَا وَكَعْبُ الَّذِي يُطْعِمُكَ عَالِي
أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ مِنَ الْقَوَا	مَ إِذَا مَا كَبَّتْ وَجُوهُ الدِّجَالِ
وَلِمِثْلِ الَّذِي جَمَعْتَ مِنَ الْعُدَا	ةِ تَأْبَسَى حُكُومَةَ الْمَقْتَالِ
جُنْدِكَ التَّالِدِ الْعَتِيقِ مِنَ الْ	سَادَاتِ أَهْلِ الْقِيَابِ وَالْأَحْجَالِ
غَيْرِ مِيلٍ وَلَا عَوَاوِيرَ فِي الْهَيْبِ	عَجَى وَلَا عُزْلٍ وَلَا أَكْفَالِ
وَدُرُوعٍ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْحَرِّ	بِ وَسُوقٍ يُحْمَلْنَ فَوْقَ الْجِمَالِ

وكانت المعاهد السابقة تقدم الارتياح للمعروف « أريحي صلت » أو الاهتزاز للمجد .. ثم تلمح إلى القوة والضراوة لَمَحًا في آخرها « شديد المحال » . « يظل له القوم ركوداً » ثم تأتي الصفات اللاحقة زخائر نفس مكنوز فيها الخير : « عنده الحزم والتقى » ... إلى آخره .

وقد جاء الكلام على عكس هذا في قوله :

إِنْ يُعَاقِبُ بَكْنَ غَرَاماً وَإِنْ يُغْطِ حَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يَبَالِي
يَهَبُ الْجِلَّةَ الْجَرَاجِرَ كَالْبُسْطَانِ تَحْتُو لِدَرْدَقٍ أَطْقَالَ

إلى آخره ... لأن الأبيات كأنها تشرح الشطر الثاني كما أشرنا هناك ، والواقع أنك إذا راجعت وجدت الجزء الذي قدمه مما يدل على روح القوة والجبروت ، ليس كالجزء الذي قدمه في قوله : « رُبُّ حَيٍّ أَشْقَاهُمْ آخِرَ الدَّهْرِ » ، وذلك لأنه هناك يعاقب : « إِنْ يُعَاقِبُ بَكْنَ غَرَاماً » ، أى يكافئ بالسوى ، ويعاقب المعتدى ، ولهذا مضى الكلام بعد البيت فى شرح العجز ، وليس فى شرح الصدر ، والكلام هنا مختلف لأنه يذكر قوماً أشقاهم آخر الدهر ، وهذا شيء آخر مخالف ، ولم يُشر إلى أن هؤلاء الذين أحاط بهم شقاؤه آخر الدهر كانوا مذبذبين أو معتدين ، وفرق بين المعنيين ، ولهذا الفرق جعل صدر البيت أصلاً لما بعده .

وبناء الأبيات الشارحة لقوله : « رُبُّ حَيٍّ أَشْقَاهُمْ » ، مخالف لبناء الأبيات السابقة .

فقد رأينا هناك الأبيات كلها جُملة واحدة ، وقد عطف على المبتدأ ما بعده فى قوله : « وعنده الحزم ، والتقى » ... إلى آخره ، أو عطف على المفعول ما بعده فى قوله : « يهب الجلة الجراجر » .

ولكن الكلام هنا بُنى على أن كل بيت جُملة مستقلة .

قوله : « ولقد شُبَّتْ الحروب » بُنِيَ على الالتفات وانتقل الكلام فيه إلى الخطاب ، وحضور المدوح ، واستمر هذا إلى آخر الأبيات ، وهذا الحضور هو الذى قَسَمَ المعانى أجزاءً مستقلة .

الجزء الأول : « لَقَدْ شُبَّتْ الحُرُوبُ .. » ... إلى آخره .

والجزء الثانى قوله : هؤلاء ثم هؤلاء ، كلاً أعطيت نعلًا » ... إلى آخره ، وهو استئناف فى داخل الغرض ، لأنه يصف حالاً من أحوال الحروب التى « قَلَصَتْ عن حبالِ » أى لقحت بعد زمن طال لم تلتق فيه .

وقوله : « فَأَرَى مَنْ عَصَاكَ » معنى مرتب على البيت قبله ، والذى أَنْعَلَ فيه أعداءه الحجارة المحمية ، وقوله : « أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ » جملة أخرى يذكر فيها حالاً من أحواله فى الحرب .

والبيت بعده : « وَلِكَيْمِثْلِ الَّذِي جَمَعْتَ ... » جملة أخرى يصف فيها حالاً أخرى وهى رفضه حكومة المحكم « الْمُقْتَالِ » .

وقوله : « جندك الثالث ... » كلام جديد انتقل إلى جنده .

وهكذا كأن الشاعر وقف بإزائه يُعَدِّدُ مَحَاسِنَهُ وَأَحْوَالَهُ فى أبيات مستقلة ، ويخاطبه بهذا المحامد ، وذلك بخلاف الذى مضى .

وتأمل ترتيب هذه الأبيات التى هى جُمْلٌ مستقلة .

البيت الأول : شُبَّتْ فيه الحروب ، وهذا أولها .

والبيت الثانى : أَنْعَلَ أعداءه الصخر المحمى ، وهذا غايتها ، ولهذا بادر بذكره .

والبيت الثالث : مُرَّتَبٌ عَلَى الذى قبله وهو ظاهر .

والبيت الرابع : كَبَّتْ فيه وجوه الرجال ، وهذا هو قلب المعمة .

والبيت الخامس : رفض فيه الحكومه ، وهذا إنما يكون فى نهايتها .

وهكذا ترى ترتيباً للكلام قام عليه نسقه .

هذا ... وهناك ضرب من بناء الجُمْل بُنِيَ على تواتر الصفات من غير عاطف
مثل قوله :

طَبِيبَةٌ مِنْ طِبَاءٍ وَجَرَّةٌ أَدَمًا تُسَفُّ الْكَبَاثَ تَحْتَ الْهَدَالِ
حُرَّةٌ طِفْلَةٌ الْأَنَامِلِ تَرْتَبُ سُبُّ سَخَامًا تَكْفُهُ بِخِلَالِ

وسقوط العاطف هنا يفيد أن هذه الصفات كأنها صفة واحدة ، فهي أدماء ،
حُرَّةٌ طِفْلَةٌ ... إلى آخره ، و الفرق بين هذا وبين قولنا : هي أدماء وحُرَّةٌ وطِفْلَةٌ ،
لأننا مع الواو كأننا قلنا : هي تجمع كذا وكذا ، وبدون الواو كأننا قلنا : هي
كذا وكذا من غير إشارة إلى أنها تجمع هذه الصفات ، و الفرق بين كونها تجمع هذه
الصفات وكون الصفات مجتمعة فيها بنفسها ، قائمة مقام صفة واحدة ، تقول :
مررت برجل كاتب وشاعر وفقيه ، وتقول : مررت برجل كاتب شاعر وفقيه ، حين
تسقط الواو كأنك جعلت هذه الصفات صفة واحدة ، لا تتلاحق ولا تنتظم بنظام ،
وإنما تلاحقت وحدها ، وانتظمت وحدها ، وصارت صفة واحدة ، وهذا الأسلوب
من أساليب بناء الجُمْل ، تجده يكثر عند الأعشى فى الجُمْل التى يبدأ الحديث
فيها بنكرة ، كما فى هذا الشاهد وكما فى قوله :

وَعَسِيرٌ أَدَمَاءَ حَادِرَةِ الْعَيْنِ مِنْ خَنُوفٍ عَيْرَانَةٍ شِمَالِ
مِنْ سِرَاةِ الْهَجَانِ صَلْبَهَا الْعُ ضُرٌّ وَرَعَى الْحِمَى وَطَوَّلُ الْخِيَالِ
لَمْ تُعْطَفْ عَلَى حُورٍ وَلَمْ يَفْ طَعُ عُبَيْدٌ عُروَقَهَا مِنْ خُمَالِ
قَدْ تَعَلَّلَتْهَا عَلَى نَكْظِ الْمِي طِ وَقَدْ خَبَّ لَامِعَاتُ الْإِلِ

الصفات هنا من غير واو . تأمل : « أدماء حادرة العين .. خنوف .. عيرانة
.. شمال .. من سراة الهجان .. صلبها العض » .

ثم جاءت الواو لتعطف رعى الحمى على العُص وكذلك طول الخُمال ، وكل هذا داخل فى حيزَ جملة « صلبها » الجارية على نسق الصفات .

ومثل هذا قوله : « لم تعطف على حوار .. ولم يقطع عبيدٌ عروقتها » الجملة الثانية المعطوفة بالواو : « ولم يقطع عبيد » دخلت بالعطف من حيز « لم تعطف على حوار » وصارت فى حكمها ، لأن صنعة الشعر جعلتهما جملة واحدة ، أساسها نفى أسباب الضعف عنها وهما الولادة والمرض .. وهكذا نرى الكلام كله من غير واو وهذه الصفات وصف للناقة وهى فى مراحلها أو مباركها وليس وصفاً لها وهى تعدو به وتجتاز .

ونرى مذهباً آخر فى بناء الكلام بعد ما تعللها واندفع بها واللغة فيه تتحرك وتتداخل وتكون وحدة واحدة كأنها المرحلة التى قطعها الشاعر يرتبط أولها بآخرها وكأنه قطعها مرة واحدة وهو على ظهر ناقته لم يهدأ ولم يفتّر .

تأمل كيف صارت عدة أبيات مثلاً صفات كأنها كلمة واحدة :

- ١ - وَإِذَا مَا الضَّلَالُ خِيفَ وَكَانَ الْـ سَوْدُ خِمْسًا يَرْجُوْنَهُ عَنِ لَيَالِ
- ٢ - وَاسْتُحِثُّ الْمُغَيَّرُونَ مِنَ الْقَوِ مِ وَكَانَ النُّطَافُ مَا فِى الْعَزَالِ
- ٣ - مَرِحَتْ حُرَّةٌ كَقَنْطَرَةِ الرَّوِ مِى تَفْرِى الْهَجِيرَ بِالإِرْقَالِ
- ٤ - تَقْطَعُ الْأَمْعَزَ الْمَكْوَكِبَ وَخُدًّا بِنَوَاجِ سَرِيعَةٍ الْإِيقَالِ

(١) الورد الخمس - بكسر الخاء : أن ترد الإبل بعد خمسة أيام .

(٢) المغيرون : الذين قلَّ ظهرهم فيمتاقبون على ناقة واحدة ، والنطاف : الماء القليل ، والعزالي : أفواه القرب .

(٣) مرحت : أى حنيت واندفعت فى السير ، وتفري الهجير : تقطعه ، والإرقال : ضرب من العدو .

(٤) الأمعر : الأرض الغليظة ، والمكوكب : المتوقد من الحر ، والوخد : السرعة ، والنواجي : قوائمها ، والإيقال : السير السريع .

- ٥ - عَنَتْرِيسُ تَعْدُو إِذَا مَسَّهَا السَّوْ طُ كَعَدُوِ الْمَصْلَصِلِ الْجَوَالِ
٦ - لَاحَهُ الصَّيْفُ وَالصَّيَالُ وَإِشْقَا قُ عَلَى صَعْدَةٍ كَقَوْسِ الضَّالِ
٧ - مُلْمِعٍ لَاعَةِ الْفُؤَادِ إِلَى جَعُ شَرِ قَلَاءَ عَنْهَا فَبَيْسَ الْقَالِي
٨ - ذُو أَذَاةٍ عَلَى الْخَلِيطِ حَيْثُ أَلِ نَفْسٍ يَرْمِي مَرَاغَهُ بِالنُّسَالِ
٩ - غَادَرَ الْجَحْشَ فِي الْغُبَارِ وَعَدَا هَا حَثِيثًا لِصُورَةِ الْأَدْحَالِ
ذَاكَ شَبَّهْتُ نَاقَتِي عَنْ يَمِينِ رَعْنٍ بَعْدَ الْكَلَالِ وَالْإِعْمَالِ

هذه الأبيات كلها داخلية في حيز الشرط : « وإذا ما الضلال خيف » وهذا ضرب من البناء لا يكثر في الكلام لأنه لا ينقاد إلا في يد صناع وإلا تشارد واختل .

تأمل كيف أدمج الشاعر معانيه ، فهناك الخوف من المهلكة ، وهناك الظمأ الذي هو العدو الشرس في رحلة التيه ، وهناك القوم الذين يترادفون على الإبل ، أى يركب كل منهم قدراً من الطريق ، وهؤلاء أخذوا يرمون من متاعهم أو يستحثهم الركب ليواكبوا السير ، وقد جمع الشاعر هذه الصعوبات وجعلها شرطاً ، ثم جعل الجواب من أول قوله : « مرحت » ... إلى قوله : « ذاك شبّهت ناقتي » .

-
- (٥) عنتريس : شديدة ، والمصلصل الجوال : حمار الوحش ، وصلصلته : نهيقه .
(٦) لاحه الصيف : أى أضمره ، والصيال : المصاولة ، والمراد المدافعة عن أتنه بدفع عنها الحمر ، والصعدة : المراد بها الأتان ، وصفها بالضمود .
(٧) الملّيع : المشرقة الضرع ، لاعة الفؤاد : أى ملّاعة ، فلاه عنها : قطعه ، وهكذا يفعل الحمار غيرة على الأتان .
(٨) المراغ : ما يتعرج فيه ، والنسأل - بضم النون : الشعر الساقط .
(٩) الصُورَة : ما غلظ من الأرض ، والأدحال : هوة ضيقة من أعلى واسعة من أسفل .

ونجد في هذا الكلام قطعاً واحداً عند قوله : « عنتريس تعدو إذا مسّها السُّوط » وكأن الشاعر رجع عن تحليل أحوال السير « مرحت .. تفرى .. تقطع .. » إلى ذكر قوتها واستئناف حدث آخر عن عدوها فيه : الإسراع ، والدهش ، والشجن ، والغضب ، والشوق ، والإحساس بالغبن ، والأذى من خبيث النفس : « ذى أذاة على الخليط » ... إلى آخر ما جاء في قصة المصلصل الجوال . وفيها إيماءات إلى قصة الشاعر نفسه والغرض الذي أنشد فيه .

وهذا القطع : « عنتريس تعدو إذا مسّها السُّوط » كأنه تفصيل داخل تفصيل لأن قوله : « مرحت » ، جواب الشرط ، ومنه قوله : « تفرى الهجير » .. و « تقطع الأمعز المكوكب » وهذا وصف لحميها ونشاطها ، « إذا ما الضلال خيف ، وكان الورد خمساً » ، وما بعده ، ثم جاء قوله : « عنتريس » وما بعده ، لبيان حالها إذا مسّها السوط ، وكأن جواب الشرط قسمان ؛ قسم هو مراحتها ، وحميها ، ونشاطها ، في حَمَارَة القبط من غير أن يمسّها السُّوط ، ويستحثها راكبها ، وقسم هو بيان حالها ، إذا استحثها راكبها ، حثاً خفيفاً ، ومسّها فقط يسوطه ، وحَمَارَة - بفتح الحاء والميم وتشديد الراء - أى : وقدرته وشدّته .

وتأمل وصف الناقة تجده يتسلسل تسلسلاً واعياً مدروساً له أوّل ، ووسط ، ونهاية ، أما أوله فهو قوله : « وعسير ، أدماء حادرة العين » ... إلى آخره ، وهو وصف للناقة وتحديد ما هي عليه من قوّة ، ولم يركبها صاحبها بعد ، وإنما ركبها في قوله : « قد تعللتها على نكظ الميط » ثم تغلغل الركب في الخرق ، وخيف الضلال ، وقد دلّ الشاعر على أن هذا جزء متميز من المعنى حين بدأه بالشرط : « وإذا ما الضلال خيف » وكأنه يقص في الرحلة قصة زمن خاص اشتد فيه الهول ، فهناك تيه مهلك في خرق يخرس السُفّر ، وهناك ظمأ يتهدد الركب والركّاب - « الورد خمساً » وهذا خاص بالإبل ، « وكان النطاف ما في العزالي » وهذا خاص بالقوم .

وقد وصف حال الركب وأن منه المغيرون - أى الذين يتعاقبون على راحلة واحدة ، وقد جاء فى رواية أخرى : « واستخف المغيرون » أى جعلوا يرمون بمتاعهم كما قال الأصمعى .

وناقته تفرح حُرّة كقنطره الرومى ، وتفرى الهجير

ثم يسها بسوطه فتعدو كعدو المصلصل الجوال الذى يذكر قصته مع أتان مثل القوس ضُموراً ، وشدة ، وملابسة ، ولكنها مع ملاحظتها تخالط خبيث النفس ، صاحب أذى ، قطعها عن ولدها وأدخلها مداخل حرجة ، صعبة ضيقة : « وعداها حثيثاً لصورة الأدحال » أى أرضاً غليظة ضيقة المداخل .

وبعد ما دخل الوصف هذا المدخل الحرج « صوة الأدحال » ذكر شكوى الناقة ، قال :

ذَٰكَ شَبَّهْتُ نَاقَتِي عَنْ يَمِينِ الْـ	رُعْنِ بَعْدَ الْكَلَالِ وَالْإِعْمَالِ
وَتَرَاهَا تَشْكُو إِلَى وَقْدِ آ	لَتِ طَلِيحاً تُحْذِي صُدُورَ النِّعَالِ
نَقَبِ الْخَفِّ لِلْسُرَى . فَتَرَى الْأُنْدَ	سَاعَ مِنْ حِلِّ سَاعَةٍ وَارْتِيحَالِ
أَثَرَتْ فِي جَنَاجِنِ كَارَانَ الْـ	مَيَّتِ عُولِينَ فَوْقَ عُوجِ رِسَالِ
لَا تَشْكِي إِلَى مِنْ أَلَمِ النُّسْ	عِ وَلَا مِنْ خَفٍّ وَلَا مِنْ كَلَالِ
لَا تَشْكِي إِلَى وَأَنْتَجِي الْأَسْـ	وَدَ أَهْلَ النَّدَى وَأَهْلَ الْفَعَالِ

فَرَعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ

قوله : « آلت طليحاً » : أى رجعت مُتعبة ، وتحذى صدور النعال : أى تصنع لها نعال من وجع الحفا ، ونقب الخف : تقويه من صلابة الأرض وكثرة السير ، والأنساع : ما تُربط بها الرحال ، والجناجن : عظام الصدر ، والعوج الرسال : قوائمها .

وهكذا صارت الناقة ، بدأت عسيراً أدماء حادرة العين ، ثم تعللها - أى ركبها - ومرحت كقنطرة الرومى ، ثم مسّها بسوط فعَدَّتْ « عدو المصلصل الجوّال » ، ثم آلت طليحا نشكو إليه الحفا وألم النسع ، وهكذا رأيت المعنى ينمو نمواً متسقاً له نظام وفيه ضبط . لا تستطيع أن تقدم مسّ السوط على قوله : « مرحت كقنطرة الرومى » ولا تستطيع أن تقدم مرجها على تعلله لها ... وهكذا .

والبيت الأخير فى وصف الناقة التى جعل المصلصل الجوّال مثلاً لها ، وهو قوله :

غَادَرَ الْجَحْشَ فِى الْغُبَارِ وَعَدَا
هَآ حَثِيثًا لِّصَوَّةِ الْأُدْحَالِ

بيت فيه دلالة خفية كامنة فى ذكر هذا المكان الحرج الذى عدّى الأتان إليه « صوّة الأدحال » وأنه عداها إليه وهى ملتاعة الفؤاد على جحشها الذى قطعه عنها ، يعنى أنه أدخلها مدخلاً صعباً ضيقاً غليظاً صلباً ، وقلّبها يتمزق على ولدها الذى قطعها عنه وغادرتة فى الضباب والغبار ، أى فائدة يفيدها هذا العنصر من عناصر المعنى فى وصف الناقة ؟ هل هو إشارة إلى صعوبات الطريق وأن « صوّة الأدحال » التى أدخل الحمار أتانها فيها هى رمز لصعوبة السير فى الحرق الأخرس ؟ وأن قطع الأتان عن ولدها وتركه وراء الغبار ضالاً فيه لمح إلى قوله : « وإذا ما الضلال خيف » ؟ وأن قصة الأتان ذات الحزن والشكل والتى تعانى القهر والتسلط والاستبداد من حمار « ذى أذاة على الخلط » كل هذا رمز لهموم الشاعر ، وتقاطر من هذه الهموم التى بدأ الإشارة إليها حين قال :

لَا تَهِنَّا ذِكْرَى جُبَيْرَةَ أَوْ مَنْ
جَاءَ مِنْهَا بِطَائِفِ الْأَهْوَالِ

هل هذه هى بعض الأهوال ، وهل هناك تلامح بين قطعه نفسه عن « جُبَيْرَةَ » مع علوقه بها وأن همّاً طاغياً هو الذى شغله ؟

فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرَكْتَنِي الْحِلْـ
مُ عَدَانِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي

هل هناك تلامح بعيد بين هذا القطع وقطع الأم الشاجية عن ولدها بفعل خبيث
ذى أذاة على الخلط ؟

أى فقه يحتاجه هذا الشعر وهذه اللُغة التى بُنىَ عليها ؟

ثم لماذا يقف على عتبات الأسود وهو خارج من « صوة الأدحال » ، والناقاة
تشكو الحفا وألم النسع ؟ ووراءها هموم أم لاعة الفؤاد ، قُطِعَتْ عن ولدها بظلم
ظالم ، خبيث النفس ذى أذاة ؟

وبعد ... فإن هذا البحث لم يتناول البناء اللُغوى لقصيدة الأعشى بالصورة
التي تتطلب الدراسة الجادة. إليها ، وإنما هى مجاذبات لأطراف الموضوع .

* * *

المرأة فى تشبيهات الأعشى

وصف الأعشى من المرأة ما وصفه الشعراء ، وذكر فى تشبيهاته ما ذكره ،
وقد وصف الشعراء من المرأة جماله ودلالها ، وفصلوا هذا الجمال وهذا الدلال ،
وصيروا كل ما راقهم منها لحناً شاجياً ، وشعراً فاعماً ، وصوراً رائقة باهرة ،
فإذا كانت المرأة قد قلّدت جيدها بفرائد الدرّ وباهرات اللآلىء فقد قلّدت الشعراء
هذا الجيد بصور وأنغام تبقى جدّتها وعذوبتها وحلاوتها ما بقيت نفوس عظيمة
نبيلة تعرف حرّ الكلام وتروى خيابه .

وإذا كانت المرأة قد افتتنت فى إشاعة الملاحه والحسن فى كل ما يرى منها
ويصدر عنها ، فقد ألقى الشعر غلائله الملتاعة وأشواقه الشاجية على كل ذلك
فخلّد هذا الحُسن وانتزعه من يد الزمن التى تسحق الأشياء فى صمت بطيء
متثاقل ، وصاغه فى صيغ الكلام الرفيع ، وأبقاه نبعاً ندياً ذاكياً يلوذ الإنسان
إلى ظله عائداً به من عذاب الهجير ، ورمضاء الرحلة التى تلهب الروح بسياط
من نار .

تأمل قُتَيْلَةَ أو هُرَيْرَةَ أو سُمَيَّةَ أو ليلى ، أو ما شئت مما ذكره الأعشى ، تجد
حورية من حوريات الشعر رطبة أبداً ، كأنّها لحن من لحون الأبد اصطفاها البيان
ورفعها إلى عالم البقاء .

« قُتَيْلَةَ » فى شعر الأعشى كائن آخر غر « قُتَيْلَةَ » التى إلّاع بها ، هذه
دخلت عالم الفناء الذى تدخله كل الأشياء ، وتلك دخلت عالم الشعر الذى
يتخطى حدود الزمان والمكان ، ويُسكن القلوب الحيّة والخواطر النبيلة المترفعة
على ما يتلبس به الفناء .

ومن آبات هذا الشعر - وكل شعر عظيم - أن كوائنه لا تزال حيّة كيوم ميلادها ، تبتهج فيها وضاء لحظة الميلاد ، وبغمرها نورها الذي تَسْبِحُ فيه وكأنها قبسة من جبين الفجر .

والأكثر روعة أن هذا الصون ليس فقط للأشياء النفيسة ، وإنما هو وصف حفظ وصان أشياء تائهة صغيرة لا يلتفت إليها الإنسان ، رفعها الشاعر إلى آفاق رفيعة ، وشغل بها أصحاب الثقافات العالية ، وإنك لترى العلماء يتحاورون في تحليل وصف تطاير الحصى من تحت أخفاف ناقة يركبها راكب رائع ، شغل الناس بحصى أخفافها ، أو ترى أهل الأدب يتحاورون في تحليل تعشير أحقب صَيَره الشعر مُغَرَّدًا طروباً وصوته أنكر الأصوات ، وهكذا وضع الشعر لسانه على الحصى فصار تراه تبرا .

ولا أعرف في الآداب القديمة شعراً استطاع أن يتلقت من تراب الأرض هذه الأشياء التائهة ، وأن يرتفع بها إلى معارج البيان الرفيع ، اقرأ الإلبادة والأوديسا والآداب المصرية القديمة أو الآداب الفارسية القديمة ، تجد هذه الآداب رفعت أموراً هي رفيعة مثل البطولات والملاحم وحكايات الموتى وآداب الآلهة والملوك ... وما يشبه ذلك مما تجده ممتعاً رغم أن بناءه اللغوي الذي وُلد فيه قد تهدم وصار إلى لغات أخرى ، وهذا السمر بالأشياء التائهة يعنى أن صور المعانى التى تورقها اللغة الحية والصياغة اللقنة هي جوهر الشعر ، وهى التى عليها المعول فى شأنه ، وهذا أصل ثابت عند من يعرفون جوهر الشعر فى كل الآداب والعصور ، راجع مقالة الجاحظ فى الشعر وأنه صياغة وضرب من التصوير ، وما قاله « بول فاليرى » فى الشعر الصافى وأن الشئير بمعناه الدقيق إنما يكمن فى استخدام الوسائل اللغوية ، وأن هذا هو جوهر الشعر لا غيره ، وكلام « فاليرى » هو كلام الجاحظ وكلام البلاغيين من بعد الجاحظ حيث كان مرّة المزىة فى الكلام إلى نظمه - أى صياغته وسبكه ، وأن استثمار أحوال اللفظ

حتى تُشَمِّرَ ما يبعث الأرباحية ويشير الدفين من الاستحسان هو مناط الأمر عند العارفين بجوهر الكلام ، ولهذا كان المعنى المعتبر فى الشعر هو هذه الخواطر وتلك الصور والمرائى والأحوال التى تبعثها اللُّغة كأنها أضواء ندية ، وليس هناك اعتبار لنوع القضية التى يعالجها الشاعر ما دمنا فى الحديث عن الشعر . ولا يستطيع مَنْ له ذوق أن يفض من قول امرئ القيس فى وصف الحمار الذى سبقت إليه إشارة :

يُغَزَّوْ بِالْأَسْحَارِ فِي كُلِّ سُدُفَةٍ تَغِرُّدُ مِيَّاحِ الثَّوَامِى الْمُطْرَبِ
أَقْبُ رِيَّاحٍ مِنْ حَمِيرٍ عَمَايَةٍ يَمُجُّ لَعَاغَ الْبَقْلِ فِي كُلِّ مَشْرَبِ
بِمَحْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالُّ نَبْتَهَا مَجَرُّ جِيُوشِ غَائِمِينَ وَخَيْبِ

الحمار هنا مغرد طروب فى أعماق الظلمة بين قوم نشاوى ، وقد علاه الطرب وغلبه على نفسه فصار يتمايل ويتمايح من شدة ما يجد ، ثم عاد الشعر بالحمار حماراً بعد ما جعله طروباً مياحاً ، فوصف ضموره « أقب » وأنه من أرومة كريمة : « من حمير عماية » ، وبالله حتى الحُمر معادن فيها الكرم والحسيس وعماية : جبل بنجد حميره أرفع الحُمر قدراً ، وأحسنها عدواً ، ثم ذكر نعمته وأنه فى فضل منها إذا ورد الماء مَجَّ فيه لَعَاغُه : أى الخضرة الباقية فى فمه ، هكذا تجدد الشعر وحده هو الذى يصحبك تنشق فيه اللُّغة عن فيض من الخواطر والصور ترى الواقع فيها قد خُلِقَ خلقاً شعرياً رائعاً نبيلاً .

هذا .. وإذا كان الشعراء قد اشتركوا فى تشبيه المرأة بالغزال والرثم والشاة والدُرَّة ، والظبية ، والدُمية ... وغير ذلك ، فقد تميَّز كل شاعر تميزاً تُقاس به قدرته ، وإلى أى مدى استطاع أن يميَّز مذهبه ويخلق له نهجاً خاصاً به ، فيه وسمه ، وطبعه ، حتى ترى صورته ولها صياغة تغاير بها غيرها حتى لترى الظبية المقترنة بالمرأة فى شعر زهير غير الظبية المقترنة بالمرأة فى شعر الأعشى ، لأن لها فى كلام كل منهما نسجاً ووشياً ، ليس هو الذى لها فى شعر الآخر ،

ولا تجد هذا التمييز على درجة واحدة فى ديوان الشاعر ، وإنما تجده فى شعره الذى هو نفس من نفسه حين يعكف على ذاته ، ويرجع إلى أعماق فنه ويستخرج من نبعه ، وترى اللُّغة وكأنها قد تجددت فى لسانه ، وكأنها خارجة من بين لحمه ودمه ، وهذا باب واسع فى بيان العربية لا يقف عند ذكر المرأة ، وإنما يتجاوز ذلك إلى ذكر الديار والآثار ، فالكل يذكر الدُّمنة ، وموقد النار ، ويذكر من الحنين واللوعة ما يذكره غيره ، ولكن لكل شاعر نفثاته الدالة عليه ، وسط هذا التعميم المحيط ، وقُلْ مثل ذلك فى البطولات والمعارك وفضائل النفوس ، والنجادات والمراثى ... وغير ذلك من الأبواب التى تخللتها ألسنة الشعراء .

وهذا يعنى أن دراسة الشعر لا يُكتفى فيها بالإلمام بالمعانى العامة ، والصيغ العامة ، وإنما لا بد من البحث عن المعانى الخاصة ، والصور الخاصة ، وإلا كان كل الشعر شعراً واحداً ، وكل الشعراء شاعراً واحداً ، وحين ينفذ الدارس من خلال هذا التعميم الشامل والمطبق على أبواب المعانى إلى الخصوصيات الخاصة بهذا الشاعر دون ذاك ، تراه يستشعر الغبطة ، وتقرُّ نفسه ، بوصول فكرته إلى قرارها ، ووضع كلامه فى نصابه ، فإذا كنتُ أتكلم فى تشبيهات الأعشى وذكرت كلاماً عاماً ينطبق على تشبيهات النابغة وزهير ، كان ذلك الكلام كلاماً غير معتبر عند أهل التحقيق ، ومثاله أن أقول : إن الأعشى شبه المرأة بالغزال والرثم والدرة ، والشاة ، ورسم الصور وأبدعها ، وزرع الألوان بريشة فنان بارع ، ومصوّر متقن ... إلى آخر ما أشبعنا به الكتب . ونقول ابتداءً : هذه الخصوصيات قد يكون ظهورها أوضح فى التشبيهات المركبة ، لأن التركيب فيه مجال أوسع للافتنان والتَّنَوُّق والصنعة .

وقد وضع البلاغيون ما يمكن أن يكون أساساً للبناء فى هذا الباب وذلك فى الموازنات الكثيرة التى شاعت فى كتب البلاغة ، لأن هذه الموازنات تصلح أن تكون بداية لمعرفة دقائق صنعة كل شاعر ، وتأمل ما قاله عبد القاهر فى بيت بشار : « كأن مشار النقع » . وما قاله فى بيت عمرو بن كلثوم : « تبنى سناكبها من فوق أرؤسهم » ، وقول المتنبى : « يزور الأعادى فى سماء عجاجة » ...

إلى آخره ، وكيف استخرج دقائق الفروق ، وأعتقد أن استخراج دقائق الفروق فى صيغ الشعر وصوره هو إبراز لمذهب الشاعر ، ووصف له ، لأن بيان المذهب والطريقة لا يمكن أن يكون على حد قولنا : هو طويل أو قصير ، أو أبيض أو آدم ... إلى آخره ، وإنما يكون ذلك بالتحليل المدقق لبناء اللغة ، لأن هذا التحليل المدقق هو الذى يكشف الحُجب التى بيننا وبين دقائق المعانى ، والهواجس ، والفكر التى داخلت هذه الأبنية اللغوية ، وهذا هو عالم الشاعر الذى تراه قابعاً فيه .

وقد نبّه العلماء إلى أننا حين نستحسن الشعر لما فيه من حكمة أو مثل ، إنما نستحسنه لا من حيث هو شعر ، وإنما من حيث هو حكمة ومثل ، أو من حيث هو معنى أصاب فى نفوسنا حالة مهبة لقبوله ، كالذى استحسن قول الشاعر :

لا تحسبن الموت موت اليلَى إنما الموت سؤال الرجال

ولعله كان يواجه موقفاً هبأه لاستحسان هذا المعنى ، وكثيراً ما نسمع من العامة كلاماً يقع فى نفوسنا موقفاً حميداً لأن موقفاً ما جعل لهذا المعنى صدًى خاصاً فى نفوسنا .

وفى الشعر أشياء كثيرة تعمل فى نفوسنا وهى ليست من الشعر ، وإنما الشعر صياغة وافتنان فى تصاريف الكلام ، وإدارة اللغة على وجه يُخرج ثراءها ، وصورها ، وألحانها ، وشجرها ، وحين يتجه الشاعر إلى ذلك يكون قد سلك طريقه ، ومضى على مذهبه ، فإذا كان هناك تشبيه فهو التشبيه الخاص به ، وإذا كان هناك مجاز فهو المجاز المغموس فى لونه ، وطعمه ، وريحه ... وهكذا . وللأعشى تشبيهات لفقها من كلام الآخرين وليس لها حساب فيما تحن فيه ، وذلك مثل قوله يصف الركب الذين يحملوا :

عَلَوْنَ بِأَلْمَاطٍ عِثَاقٍ وَعَقَمَةٍ جَوَانِبُهَا لَوْنَانِ : وَرَدٌّ وَمُشْرَبٌ

وهو من قول زهير :

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ ورَادٍ حَوَاشِيهَا مَشَاكِهِ الدَّمِ
وقد وضع العقمة بدل الكِلَّة ، وكأنه نظر إلى قول امرئ القيس .
ومثل قوله :

طَرِيقُ وَجَبَارٍ رِوَاءُ أَصُولُهُ عَلَيْهِ أَهَابِيلُ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ
أراد بالجبَّار : النخل السامق ، والشرط الأول من قول امرئ القيس :
سَوَامِقُ جَبَّارٍ أَثِيبُ فُرُوعِهِ وَعَالِيَةُ قُنُونٍ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا
وقد خالف في الشرط الثانى مخالفة أصاب بها غرضاً نبيلاً حين ذكر
« أهابيل الطير ، التى تنعب » ، لأن القصيدة فى هجاء الحارث بن وَعْلَةَ :
أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي حُرَيْثًا رِسَالَةً فَإِنَّكَ عَن قَصْدِ الْمَحْجَةِ أَنْكَبُ
وكان « أهابيل الطير » إشارة غامضة إلى هذه الرسالة ، ونعيب هذه الطيور
رمز إلى مضمونها من الهجاء الموجه ، والشرط الثانى فى شعر امرئ القيس
فيه إشارة إلى الخصوبة والوفر ، والحياة الزاهية ، والقصيدة هى التى رحل فيها
إلى قيصر الروم ليُعينه على استخلاص مُلكه ، وهذه مناسبة وإن كانت بعيدة ،
وقد نعيد القول فى هذا بشىء من السِعة .. والآن نذكر :

● التشبيهات التى ذكر فيها الأعشى المرأة :

ذكر المغزل وهى الطيبة أم الغزال قال :

صَادَتْ قَوَادِي بِعَيْنِي مُغْزِلٍ خَذَلَتْ تَرَعَى أَغْنُ غَضِيضاً طَرَفُهُ خَرَقَا

والملاحظ أن ذكر العينين هو المقصود من المغزل ، وأن فى عينيها حباً وشجواً ،
وقد أوماً الشاعر إلى ذلك بذكر رعيها لولدها ، وهذا إشارة إلى الإقبال والحب
والتوق ، ثم أوماً بقوله : « خذلت » إلى قلقها ، وتوجسها ، ثم إنه لما ذكر
ولدها ذكر فغامه أى صوته فى كلمة هى قوله : « أغن » أى يخرج صوته من

خيائمه ، وذكر عينيه فى كلمتين : « غضيضاً طرفه » فذكر خفض الطرف ، وكفه ، وانكساره ، وهذه كلها من محاسن العينين فى الصاحبة .

ثم إنه قبل هذا البيت ذكر رؤيته لها وأنها هى التى لا يسد غيرها مكانها :

لَا شَيْءَ يَنْقَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَيْهَا هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقًا

والوامق : المحب ، والرهق : القُرب ؛ أى لا يشتفى المحب إلا بالقُرب ، وبيت الشاهد هو البيت الخامس ، وقد ذكر ما يشير إلى العين فى ثلاثة أبيات قبل بيت الرؤية هذا وفى مطلع القصيدة :

نَامَ الْحَلِيُّ وَبِتُ اللَّيْلُ مُرْتَفَقًا أَرَعَى النُّجُومَ عَمِيدًا مُثَبَّتًا أَرْقًا

والمرتفق : المتكىء على مرفقه ، والعميد : المعمود أى الذى أضناه الحب ، والمثبت : اسم مفعول من أثبته الهم ؛ أى أقعده ، والأرق - بفتح الهمزة وكسر الراء : صيغة مبالغة من أرق .

وهذا يعنى التناسق أو التنادى أو التناغم فى المعجم الشعرى وهو ما سماه علماءنا « مراعاة النظير » ، ثم فيه شىء آخر هو أن هذا التشبيه الذى رأيت سخاءه كان كأنه « تجميع » لأنسجة ضبابية جرت فى الشعر قبله .

وليس الأمر كذلك فى تشبيه آخر ذكر فيه الغزال وأراد الخفة والدلال وحسن الملاعبة ، مع جمال العينين ، ولكنه لم يذكر أن هاتين العينين الحوراوين قد أصابتا فؤاده ، لأنه لم يكن متهالكاً فى الصبوة ، واقعاً لا يشتفى إلا بالقُرب ، كما قال هناك ، وإنما هو فارس يطرق الحى بعد النوم تنبحه كلابه ، ثم هو يطوف بالحقى المقيم فى نعمة بعد ما يغيب قُميرٌ كان يمنعه ضياؤه ، ليلهو بهذه الصاحبة ، قال :

وَلَقَدْ أَطَقْتُ بِحَاضِرٍ حَتَّى إِذَا عَسَلْتَ ذَنَابُهُ
وَصَعَا قُمِيرٌ كَانَ يَمُـنَّ سَنَعُ بَعْضُ بَغِيَّةٍ ارْتِقَابُهُ

أَقْبَلْتُ أَمْشِي مِثْيَةَ الْـ جَشْيَانٍ مُزَوْدًا جِنَابَهُ
وَإِذَا غَزَالَ أَحْوَرَ الْـ عَيْنَيْنِ يُعْجِبُنِي لِعَابَهُ
حَسَنٌ مَقْلُدٌ حَلِيهِ وَالنَّخْرُ طَيِّبَةٌ مَلَابُهُ
غُرَاءُ تَبْهَجُ زَوَلَهُ وَالْكَفُ زَيْنَتُهَا خَضَابُهُ (١)

والحاضر : هم الحمى لا يرحلون فى طلب المرعى لفرط الخصب والماء المقيم ،
وعسلت الذئاب : خرجت تحجب ، وهذا كناية عن هدأه الليل ، والبغية : الحاجة ،
وأراد غاب القمر الذى كان يمنع ترقبه ما نبغى ، والجشيان - بالحاء المهملة :
الموجوع الصدر ، وأراد أنه يمشى متقبضاً متسترأ حذراً بضائل شخصه ،
والملاب : الطيب ، والغراء : البيضاء ، والزول : الشخص .

وتأمل السياق أو المجال الشعرى الذى جاء فيه تشبيه المرأة بالغزال هنا تجده
مغابراً مغايرة واضحة لما جاء فيه تشبيه المرأة بأم غزال ، وكأن الغزال هنا ليس
فى عينيه التوق والحب ، والشجن الذى كان هناك ، والشاعر هنا حاضر مع
الصاحبة ، وداخل عليها خدرها فلا معنى لذكر اصطيد الفؤاد ، وشجو العيون ،
وإنما هو قريب منها يجد طيب ملابها ، فى نحرها ، وهذا هو سياق اللعب ،
وليس من المقبول أن يقول هنا : إنها ترعى أغن غضيض الطرف ، فهذا شئ
غير اللعب الذى هو فيه ، والشاعر فى هذه البائية مشغول بالحديث عن نفسه
ومغامراته ، وذكر المرأة جاء لبنة فى هذا البناء ، ولم يكن أمراً مقصوداً قصده
- كما يقول شيوخنا - وقد هدد حماتها الذين يحولون دون لقائها :

وَلَوْ أَنَّ دُونَ لِقَائِهَا ذَا لَبْدَةٍ كَالزُّجِّ نَابُهُ
لَأَتَيْتُهُ بِالسَّيْفِ أَمْ شَيْ لَا أَهْدُ وَلَا أَهَابُهُ

وذا اللبدة : هو الأسد ، والزُّج : نصل السهم .

(١) ديوان الأعشى : قصيده ٥٤ : ٩ - ١٤

واقتران المعانى ذو أهمية فى دراسة بنية الشعر ، والمراد بالاقتران أن يكون هذا المعنى مقترناً بهذا أو بذاك ، فالغزال هنا مقترن بالحديث عن البطولة ، وأن الشاعر يطرق الحىّ تنبّحه كلابه ، وأنه يتهادى على فرس كالجدع ، « صَاكٍ عَلَى تَرَاتِبِهِ خِضَابِهِ » أى لصق خضاب على تراتبه ، والمراد : حُمُرُهَا الزاهية ، كأنها ذات خِضَابٍ . وهذا بخلاف المغزل فى القصيدة القافية ، لأنها كلها فى ذكر المرأة ، والصَّبْوةُ ، والتوق ، وقد وصف فيها محاسنها وصفاً كان فيه عفيفاً ، وقد شبهها بالدرّة الزهراء ، وذكر خبر هذه الدرّة وغوّاصها ، « من دارين يخشى دُونَهَا الْفَرْقَا » ، وهذا يجعل التشبهين مختلفين ، لأن المعانى حين تتقارب تتشارب ، فالمغزل فى القافية مصونة ترعى ولدها ، وهى كالدرّة النفيسة . ولم يذكر الشاعر طبيعتها لأن ذكر الطيب يعنى المقاربة ، ويكون ذلك عند ذكر الفحولة ، وهى ضرب من البطولة ، وقد شرح الشعراء الصلة بين الفحولة والبطولة حين ذكروا مخالطة الحرائر بعد اغتصابهن من بيوت الأشراف والسادة .

وقد ذكر المغزلة ، فى تشبيه ملاحه الجيد وسكت عن العينين ، وذكر أن المغزلة تقرو يانع المرد ، أى ثمر الأراك ، وذلك يكون أبين لجمال العُنُقِ ، والشاعر يتناول محاسنها ، فيصف جمال الثغر ، وطيبه ثم العُنُقِ ، ثم العين ، ثم الامتلاء ، ثم الشعر ... وهكذا ، وحينئذ لا يقف التشبيه طويلاً ، وإنما يمر بسرعة مكتفياً بلمحات دالة ، وذلك كما فى البائية التى مدح فيها إياس بن قبيصة الطائى ، فقد ذكر الصاحبة فى أبيات جياذ بناها على التذكر لشباب مضى بلذاته وصبواته ، قال :

وَأُحْدِثُ النَّأْيُ لِسَى شَوْقًا وَأَوْصَابًا	بَانَتْ سُعَادُ وَأُمْسَى حَبْلُهَا رَابَا
لَمَّا رَأَتْ أَنْ رَأَسَى الْيَوْمَ قَدْ شَابَا	وَأَجْمَعَتْ صُرْمَنَا سَعْدَى وَهَجَرَتْنَا
تَحَالَ نَكْهَتَهُ بِاللَّيْلِ سَيَابَا	أَيَّامَ تَجَلَّوْ لَنَا عَنْ بَارِدٍ رَتِلٍ
مِنْ يَانِعِ الْمُرْدِ مَا احْلَوْلَى وَمَا طَابَا	وَجَبَسِدِ مُغْزَلَةٍ تَقْرُو نَوَاجِدَهَا
صَوْتُ الذَّنَابِ ، فَأَوْقَتْ نَحْوَهُ دَابَا	وَعَيْنِنِ وَحَشِيَّسَةٍ أَغْفَتْ فَأَرْقَهَا

قوله : « وأمسى حبلىها رابا » : أى أمسى وصلها موضع شك وريبة ، والبارد الرتل - بكسر التاء قبلها راء مفتوحة : أى ثغر طيب بارد ، مستوى الأسنان ، والسُّياب - بضم السين : البلع ، وتقرو : تأكل بمد عنقها ، والنواجد : الأنبياب ، والمرد - بفتح الميم : ثمر الأراك ، ودأبت نحو الصوت : أى ذهبت مسرعة إليه .

لم يقف عند المغزلة ، وإنما اكتفى بذكر هذه الحركات التى تجلو جمال عنقها ، وقد أمعن فى بيان هذه الحالة ، لأنه لم يكتف بالقول بأنها تقرو ، وإنما ذكر المرد ، وهو من طيب طعام الأطباء ، وذكر يناعته ، وذكر أنه احلولى وأنه طاب ، وهذا كله مشعر بالنعمة ، والنضارة ، والغضارة ، وأن هذه المغزلة مقلبة على هذا الوفر إقبالا متميزا ، أو ما إليه بقوله : « نواجذها » فأشار إلى إنهاكها فى الطعام ، ومد عنقها نحوه ، ثم إنه ذكر العين هنا مع غير المغزلة ، وإنما مع البقرة الوحشية ، وذكر أنها أغفت ، كما ذكر هناك : « تقرو » ، لأن فى غفوتها تجلية لملاحظة العينين ، ثم أو ما إلى المعنى الذى يشير إليه مع المغزلة حين يريد العينين بقوله : « خذلت » بمعنى أنها مذعورة هناك ، لأنها أفردت ، ويقول هنا : أرقها صوت الذئاب ، فأشار إلى ذعر البقرة ، وأنها أصابها الدهش ، فمضت نحو الأصوات بدلا من أن تفر منها ، وقد ذكر الذئاب بصفة الجمع ليتناسب مع قوله : « فأوفت نحوه » لأن صوت الذئاب ملأ الأماكن كلها فسدت عليها المخارم .

الصور مختلفة اختلافاً بينا ، فلست بمستطيع أن تضع المغزلة « التى ترى أغن » مكان المغزلة « التى تقرو نواجذها يافع المرد » ، وهكذا لأن كل صورة لبنة فى بناء شعرى جاءت فيه كما رأينا .

وقد ذكر أم الغزال فى وصف الجيد فى قوله :

وَكَاَنَّ السُّمُوطَ عَكَفَهَا السَّلْبُ سَكَ بِعِطْفَى جَيْدَاءَ أُمِّ غَزَالٍ

وعكفها السلك : أى جعلها تعكف ، وتقيم على جيد بيضاء يشبه جيد
الظبية ، والمراد وصف حسن القلادة على جمال الجيد ، وليس المراد وصف الجيد
حسب ، كما هو الحال فى ذكر الجيد فى الشواهد الماضية ، ولهذا لم يكن معنياً
بجيد أم غزال ، فلم يذكر أنها تقرؤ الأراك ، ولم يذكر الرثم الأغن ،
ولا غضيض الطرف وإنما اكتفى بأم غزال ، فأوماً إلى حركة جيدها نحو ولدها .

والشاعر هنا عجل يذكر أوصاف الصاحبة بعناية وتركيز ، لينصرف عنها
بسرعة إلى رحلته إلى الأسود ، الذى ذهب إليه ليستخلص منه أسرى قومه ،
قال بعد قليل يخاطب الصاحبة :

فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرَكْنِي الْحِلْمُ — مُمْ عَدَانِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَشْغَالِي

وقد ذكر شبه المرأة بالظبية فى البيت السابق لبيت الشاهد وفصل بينهما بيت
واحد :

إِذْ هِيَ الْهَمُّ وَالْحَدِيثُ وَإِذْ تَعُ	صَصِي إِلَى الْأَمِيرِ ذَا الْأَقْوَالِ
ظَبِيَّةٌ مِنْ ظَبَاءٍ وَجَرَّةٌ أَدَمًا	تَسْفُ الْكَبَاثُ تَحْتَ الْهَدَالِ
حُرَّةٌ طَفْلَةٌ الْأَتَامِلِ تَرْتَمُ	بُ سَخَامًا تَكْفُهُ بِخِلَالِ
وَكَأَنَّ السُّمُوطَ عَكَفَهَا السَّلْ	كَ بِعِطْفُوسِي جِيدَاءَ أُمِّ غَزَالِ

قوله : « إذ هى الهم والحديث » كلام جيد ، وهو تمهيد لقوله بعد خمسة
أبيات : « فاذهبي ما إليك أدركنى الحلم » ، ليشير بهذا إلى أمر الجيد الذى هو
فيه ، وهو خطاب الأسود وكان طاغياً سفاحاً يُمجُّ الدماء ، وكان قد استاق قوم
الأعشى .

ويلاحظ أنه لما شبه المرأة بالظبية لم يذكر عيناً ، ولا جيداً ، وإنما اكتفى
بالملاحه ، والحسن ، والنعمه ، ورغد العيش ، الذى أوماً إليه بقوله : « تَسْفُ
الكبات تحت الهدال » .

والكبات : ثمر الأراك مثل المرد - بفتح الميم ، والهدال : الأغصان ، وفيه إشارة إلى حركة العنق فى نفث الثمار والأغصان ، والمرأة الحرة : الكريمة ، والطفلة : الناعمة ، والسُخام - بضم السين : الشعر ، وتريه : أى تربيته ، والخذال : الأمشاط ، وقد قلت إن قوله : « وكأن السموط عكفها السلك » ... إلى آخره ، ليس معقوداً على وصف العنق ، لأنه سبق التنبيه إليه بقوله : « تسف الكبات » ، وإنما هو معقود على الزينة التى هى حصيلة جمال القلادة على جمال العنق .

وشبه بهذا الإلمام السريع بأحوال صاحبة وذكر جيد المغزلة من غير تدقيق ولا ترقيق ، قوله فى قصيدته التى يهجو فيها شيبان بن شهاب :

يَا جَارَتِي مَا كُنْتُ جَارَةً	بَآتٍ لَتَحْزُنُنَا عُقَارُهُ
تَرْضِيكَ مِنْ دَلٍّ وَمِنْ	حُسْنٍ مُخَالِطُهُ غَرَارُهُ
بَيْضَاءُ ضَحَوْتِهَا وَصَفْ	رَاءُ الْعَشِيِّ كَالْعَرَارُهُ
وَسَبْتُكَ حِينَ تَبَسَّمْتَ	بَيْنَ الْأَرِيكِةِ وَالسَّتَارَةِ
بِقَوْمِهَا الْحَسَنِ الَّذِي	جَمَعَ الْمَدَادَةَ وَالْجَهَارَةَ
كَتَمْتُ لِنُشُوكَانِ يَرُ	فُلٌ فِي الْبَقِيرَةِ وَالْإِزَارَةِ
وَبَجِيدٍ مُغْزِلَةٍ إِلَى	وَجْهِ تَزِينَتِ النُّصَارَةِ

وعفارة : اسم لصاحبة ، ولعله اختارها ليناسب بنى فزارة ، وبنى زرارة ، وكلها مما عقد عليه القوافى ، والدل الذى تخالطه غرارة : يعنى دلال غير ذات التجربة ، لحدائث سننها ، والعرار : شجر له نور أصفر ، وأراد أنها تُطلى جسمها بالزعفران ، والطيب عند العشى ، وهكذا كانت المرأة المتحبيبة إلى صاحبها ، وسبتك : يعنى استبتك ، وجعلتك سبياً ، والأريكة : سرير مزين من قبة ، يريد أنها كانت تتعرض من وراء الستارة ، أى تظهر وتختفى ، وقوامها

جمع المدادة : أى الطول ، والجهازة : أى الجمال ، الذى يروعك ، ويبهتك ،
والبقيرة : ثوب يشق ويلبس من غير أكمام ، والإزارة : الملحفة ، وبجيد مغزلة
... إلى آخره ، ويلاحظ هنا أنها اختلبت به بجملة محاسن : ابتسامها ، وجهازة
جمالها ، وتثنيها ، وغضارة قوامها : وجيدها ، ووجهها الذى تزينه النضارة ،
ولهذا كان يمر بهذه المحاسن مروراً سريعاً ، فلم يقف عند المغزلة ليذكر شيئاً من
أحوالها ، وإنما أوماً فقط إلى أنها ذات ولد تعطف جيدها عليه ، وقد ذكر المرأة
فى عشرين بيتاً ، لم يقف عند وصف واحد من أوصافها ليفصل الكلام ويثريه ،
وإنما هو كلام يتوأنب كما ترى ، وقد ذكر الشجر الذى ترف غروبه ، والغدائر
السود ، والكف المخضوية ، وذكر أنها تطمع ولا تُنيل ..

وَرَأَتْ بَأْنَ الشَّيْبِ جَا نَبَهُ الْبَشَاشَةِ وَالْبَشَارَةِ

وذكر أنه كان داعراً ، وأنه أفاق من الدعارة ، وشكا شيطانه من منكراته ،
وهو بذلك يهيم الكلام للدخول فى الهجاء والقذع ، وهكذا يفعلون ، وكأنه خرج
من باب الدعارة ليقابل من يريد هجاءه ، وناهيك عن حاله هكذا ، ماذا سيكون
هجوّه وقذعه ، وأى ضابط من ضوابط الأخلاق وفضائل النفوس يحفظ منه أعراض
الناس ، وهكذا تجدد المقدمات الغزلية لشعر الهجاء يشوبها غالباً شوب كهذا .

وقريب من قوله :

وَجِيدٍ مُغْزِلَةٍ تَقْرُو نَوَاجِدَهَا مِنْ يَانِعِ الْمُرْدِ مَا احْلُولَى وَمَا طَابَا
قوله :

وَجِيدٍ أَدْمَاءَ لَمْ تُدْعَرْ قَرَائِصُهَا تَرَعَى الْأَرَكَ تَعَاطَى الْمُرْدَ وَالْوَرَقَا

فقد ذكر الجيد وامتداده ، واختلاف حركاته المظهرة لحسنه ، والفرق بين
التشبيهين ، أنه ذكر المغزلة فى الأول ، فأشار إلى أنها أم ولد تحنو عليه ، وأن
ذلك يكسوها شجواً حسناً ، وذكر « النواجذ » ، و « يانع المرء ما احلولى
وما طابا » ، وقد بينا ذلك ، وهو هنا يذكر جيد أدماء ، فيدل على بياضها ،
وهذا وصف قد فرغ له الشعر بعد ذلك لما شبهها بالدرّة الزهراء فى الصفاء ،

والرونق ، وخلوص الجوهر ، ثم ذكر رعيها ، والرعى هناك : « احلولى وطابا » وهو من « يانع المرد » ، وهى هنا : « ترعى الأراك » ، ثم بين ذلك بقوله : « تعاطى المرد والورقا » ولم يذكر أن المرد يانع ، ولا أنه احولى ، وقد عطف عليه الورق ، وهذا العطف يمنع من ذكر احلولى وطاب ، وأنه يانع ، لأنه ما دام كذلك فلا بد أن يكون طعامها منه وحده ، ورعى الورق ليس بأفضل الرعى ، وأحسب أن القافية استدعت هذا اللفظ ، وقد يكون ذلك من البذل وهو أفضل لأن « المرد » و « الورق » ليس كل الأراك إذ منه الكباش ، وهو ثمر الأراك إذا نضج ، يعنى المرد بعد نضجه يكون كباشاً ، والمهم فى هذه الجملة كلمة « تعاطى » لأن ذلك يعنى أنها وقفت على أطراف حافرها مادة عنقها ، أقصى ما يكون المد ، وفى هذا مزيد من إظهار حسن العنق ، ومزيد من المشابهة بينها وبين المرأة ، وليس فى البيت الأول شيء من هذا ، وقوله هنا : « ولم تذعر فرائصها » ، ليس له هناك ما يقابله ، والمراد أنها آمنة ، مستقرة فى هذا الخصب ، وقد ذكر قبل هذا قوله :

صَادَتْ فَوَادِي بَعَيْنِي مُغْزِلٍ خَلَلَتْ تَرَعَى أَغْنُ غَضِيضاً طَرَفُهُ خَرَقَا

وهو معقود على بيان جمال العينين ، وهذا معقود على بيان جمال الجيد .

هذا ١١ والتشبيه بالطيبة قد يكون منصرفاً إلى جملة شخص المرأة ، يعنى هياتها التى تراها مقبلة عليها ، وقد جاء هذا المعنى فى قوله :

أَصَاحَ تَرَى طَعَائِنَ بَاكِراتٍ عَلَيْهَا الْعَبَقْرِيَّةُ وَالنُّجُودُ
كَأَنَّ ظِبَاءَ وَجَرَةٍ مُشْرِقاتٍ عَلَيْهِنَّ الْمَجَاسِدُ وَالْبُرُودُ
عَلَى تِلْكَ الْحُدُوجِ إِذَا احْزَأَتْ وَأَنْتَ بِهِمْ غَدَاةٌ إِذِ مَجُودُ (١)

(١) الديوان : القصيدة ٦٥ : ١٦ - ١٨

نادى الصاحب ليعينه على رؤية الطعائن ، أى الهوارج ، أو النساء فيها ،
عليها الديباج العبرى ، والنجود : أى الثياب المزينة ، من قولهم : نجد الثوب -
أى زينته ، ثم شبه النساء بالطباء المشرفات - أى المقبلات من مكان عال عليهن
المجاسد والبرود ، واحزألت : أى ارتفعت ، وقوله : « غداة إذ » أعنى غداة
الرحيل ، والمجود : أى المعمود بحبيهن ، وإنما دعا الصاحب لأنه بات « بليلة
لا نوم فيها » وذلك لما رأى « نارها » ولا سبيل هنا إلى ذكر أن الأطباء تقرو ،
أو أنها ترعى وليدها ، لأنه يصف ما على الهوارج من بُعد سحيق ، ولم تنفرد
الصاحبة ، ولم يرها وحدها حتى يتأملها ، ويصف دقائق الأحوال ، فبذكر أن
الطبية تقرو ، أو تعاطى ... إلى آخره ، ومثله وهو غيره قوله :

عَسِيبُ الْقِيَامِ كَثِيبُ الْقُعُورِ دِهْنَانَةٌ نَاعِمٌ بِأَلْهَا
إِذَا أَدْبَرَتْ خِلَتَهَا دِعْصَةً وَتُقْبِلُ كَالطَّبِي تَمْثَالَهَا (١)

يصف أحوالاً يتلاحق الشعر فى بيانها ، فهى إذا قامت كانت رشيقة ،
كانها العسيب : أى الجريدة من النخل ، قد كُشِطَ خوصها ، وإذا قعدت كانت
كالكتيب يعنى كومة الرمل : أى هى ممتلئة ناعمة ، ثم هى وَهْنَانَةٌ : أى فاترة
هادية ذات أناة ، لا يعجلها شيء ، وإذا أدبرت خلتها دِعْصَةً - بكسر الدال
وسكون العين ، وهو بيان لقوله : « كتيب القعود » وقوله : « وتقبل كالطبي
تمثالها » بيان لحالة إقبالها ، وأنها كالطبي فى الملاحظة ، والهيئة ، وتناسق
الأعضاء .

وقد تكررت هذه الصورة فى معنى مغاير ورجعت فى القصيده مرة ثانية ،
وهو يصف ناقته وأنها تقصد ممدوحه تؤوب منه ، وتقبل عليه ، وذلك رغم أهوال
الطريق ، واختلاف مهامه ، وأغواله ، قال :

وَكَمْ دُونَ بَيْتِكَ مِنْ مَهْمَةٍ وَأَرْضٌ إِذَا قِيسَ أُمِّيَّالَهَا
يُحَاذِرُ مِنْهَا عَلَى سَفَرِهَا مَهَامٌ تَبَهُ وَأَغْوَالَهَا
فَمِنْكَ تَوْؤُبٌ إِذَا أَدْبَرْتُ وَتَحْنُوكَ يُعْطَفُ إِقْبَالَهَا

(١) الديوان : ٢١ : ٦٠٥

تأمل قوله : « إذا أدبرت » وهو يريد صاحبة ، و « إذا أدبرت » وهو يريد الناقة ، وقوله : « ونحوك يعطف إقبالها » ، وقوله : « وتقبل كالظبي تمثالها » ، وبين البيتين اشتراك ظاهر ، والإشارة إلى هذا مما نراه مفيداً فى معرفة أسرار الشعر ، لأنه تقارب فى الصيغ وأحوال المعانى مع الاختلاف فى الموضوع .
وكما ذكر « ظباء وجرة » ذكر « ظباء أم خُساف » ، بضم الخاء وسين مهملة ، وهى قرية بين بالس وحلب .

قال :

مِنْ دِيَارِ بِالْهَضْبِ هَضْبِ الْقَلِيبِ فَاضَ مَاءُ الشُّثُونِ قَيْضَ الْغُرُوبِ
أَخْلَفْتَنِي بِهِ قَتِيلَةٌ مِيعَا دِي وَكَانَتْ لِلْوَعْدِ غَيْرَ كَذُوبِ
طَبِيَّةٌ مِنْ ظَبَاءٍ بَطْنِ خُسَافِ أُمُّ طِفْلٍ بِالْجَوِّ غَيْرِ رَيْبِ (١)

وقد ذكروا أن الظباء لا تختلف باختلاف الأمكنة ، فليس هناك فرق بين ظباء وجرة ، وظباء غيرها ، وكذلك أم خُساف ، وإذا كان كذلك فلماذا ذكر الشعراء الظباء مضافة إلى الأمكنة ؟

قد يكون ذلك لقرب عهد هذه الأمكنة بهم ، ويعكر هذا أنهم ذكروا أمكنة معينة ، وقد يقال إن هذه الأمكنة لها علاقة بديار صاحبة ، أو بالأمكنة التى يجتازها ركبها ، ويرد عليه ما ورد على الأول .

والمهم أنه ذكر أمومة الظبية ، وأنها أم لطفل واحد ، لا ربيب له ، فهى ترعاه أحسن ما تكون الرعاية ، وهذا معنى يجب أن نقف عنده وأن نُحكم بيان علاقته بذكر صاحبة ، وأن نتبين المعنى المستخرج من رعاية الظبية لولدها ، ومزيد عنايتها به ، ولا أجد له دلالة إلا دلالة واحدة هى فيض مشاعر الأمومة ، التى هى الحب ، والحنان ، والإيثار ، والرقّة ، واللفظ ، وفرط التعلق بوليدها ... إلى آخر هذا الباب ، الذى زاده الشاعر عناية حين ذكر أن الولد لا ربيب له ،

فهو عندها كل شيء ، وهذا يعنى أن تلك المعانى مقصود قصدها فى المرأة ، وأن من محاسن المرأة أيضا أن تكون نبعاً دفوفاً للحب والحنان ، والرقّة ، واللطف ، والرعاية ، ويكون اقتران الطيبة بالمرأة لجمالها ، ودلالها ، وملاحظتها ، ولهذه المعانى الروحية النبيلة أيضاً ، والأعشى من أشد الشعراء إيفالاً فى الأوصاف الحسية للمرأة وأن مطلوبه منها : لهو ، وفتوة ، وصَبْوَة ، ومع ذلك يجرى هذا العرق النفيس فى شعره ، ونحن نهمله ولم نثبت معناه مع ظهوره ظهوراً واضحاً ، ويدخل فى هذا كل ما يشير إلى الأمومة من مثل : « مغزلة ، وأم غزال ، وترعى أغن ... إلى آخره .

وقد ذكر أم خشف ، والخشف ولد الطيبة أول يولد ، ولم يذكر العينين ولا الجيد ، وإنما ذكر الحُسن ، وهو شامل لكل قال :

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ نَوَاعِمُ يَجْرِي الْمَاءُ رَفْهًا خِلَالَهَا
وَمَا أُمُّ خِشْفٍ جَابَةُ الْقَرْنِ فَاقِدٌ عَلَى جَانِبَيْ تَفْلِيثٍ تَبْغَى غَزَالَهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا يَوْمَ قَامَ نَوَاعِمُ فَأَنْكَرْنَ لَمَّا وَاجَهَتْهُنَّ حَالَهَا

والحدوج : مراكب النساء ، ومفردها : حدج - بكسر فسكون ، والمالكية : نسبة إلى مالك ، وهى قبيلة . والنواعم : الرياض ، مفردة : ناعمة ، وهى الروضة ، وجرى الماء فيها رفهاً : أى ليناً سهلاً ، وهم يشبهون مراكب النساء بالنخل ، والروض ، يريدون الزينة ، وجابة القرن : ظهوره ، يقولون : جاب قرن الطبى ، والغزال : أى شق الجلد وظهر . « وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ »^(١) وتفليث : اسم موضع فى الطرق الواصلة إلى مكة ، وتبغى غزالها : تطلبه لأنها ضلّته . والنواعم : النساء المترفات ، وأنكرن حالها : أى أنها كانت متغيرة من الحزن لأنها مفارقة .

(١) الفجر : ٩

وقد أشار إلى حادثة سنّها بقوله : « جابة القرن » ، وإلى حادثة ميلادها بتسمية الولد خشفاً ، لأنه يكون يوم يولد ، ثم أشار بقوله : « فاقد » إلى ضلالها ولدها ، وهى على جانبى الطريق ، تذهب وتجيء حائرة مضطربة ، وهذا ليس كقوله : « تعاطى المرد » ، ولا كقوله : « ترعى أغن غضض الطرف » ، وإنما هنا فزعٌ ودأبٌ واضطرابٌ ، وزاده أنها حديثة عهد بالولادة ، وهذا كما ترى متناسب جداً مع قوله : « قام نواعم ، فأنكرن لما واجهتهن حالها » تأمل الخيوط الجارية فى نسج الكلام وكيف تتشابه !!

وهذا مفتتح قصيدة يعاتب فيها بنى عبادٍ ومالك ابنى ضبيعة وهم أبناء عمومته ، ويذكر أنهم يضاربون عنهم ، ويحمون حوزتهم ، وتجد فى عناصر القصيدة تلامحاً ظاهراً مع هذا التشبيه ، فقد ذكر الأخوة للأب والأب ، بعد هذا البيت بيت واحد ، وهو مناسب لأم الخشف التى لا تزال حديثه الميلاد ، قال :

فَيَا أُخَوَّنَا مِنْ أَبِيْنَا وَأُمَّنَا أَلَمْ تَعْلَمَا أَنْ كُلَّ مَنْ فَوْقَهَا لَهَا

الأمومة فى بيت الخشف ملهوفة على ضلال الولد ، وهى هنا شقية بما كان بين أبنائها من دم ، وهذا ظاهر ، وأقرب من هذا قوله فى البيت التاسع وهو يذكر دفاعهم عن أبناء عمومتهم (بنى عبادٍ ومالك) :

وَكَانِينَ دَقَعْنَا عَنْكُمْ مِنْ عَظِيمَةٍ وَكُرْبَةٍ مَوْتٍ قَدْ بَتْنُنَا عِقَالَهَا

وَأَرْمَلَةٍ تَسْعَى بِشُعْثٍ كَأَنَّهَا وَإِيَاهُمْ رُسْدَاءُ حَثَّتْ رِثَالَهَا

والريداء : النعامة فى لون الرماد ، وحثت : ساقط ، ورثالها : جمع رثل وهو ولد النعامة ، وأراد به أطفال هذه المرأة الأرملة التى ذكر موقفهم منها وعنايتهم بها ، ورعايتهم لها بقوله بعد البيت :

هَنَّاؤَا وَلَمْ نَمْنَنَّ عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ رَحِيَّةً بَالٍ قَدْ أَرْحَنَّا هُرَاكَهَا

تأمل أم الخشف حديثة الميلاد التى تعانى شعور الفقد ، وضياح المولود ،
والتي تخبط على غير هدى ، على جانبى تثليث ، ثم تأمل هذه الأرملة الساعية
بأطفال شعث غيرهم الفقر ، فصارت هى كأنها نعمة متربة بالتراب ، وهم حولها
مثلها ، تجد الشبه ظاهراً وأتينا لم نتكلف حين نشير إلى الملمح الواحد الجارى
فى القصيدة ، لأنه يجرى فيها ماءً واحداً ، وأن التلامح والتقارب بين عناصرها
ورموزها لا بد أن يكون أمراً واقعاً ، ما دمت قد صدرت عن شاعر من أهل
الطبع .

وقوله : « بتتنا عقالها » : أى قطعناه فنهضت وذهبت عنكم ، من قولهم :
بَثَّ عقال البعير - بكسر العين : أى قطعه ، فنهض البعير من عقاله ، وهو هنا مجاز
عن العظيمة ، وكربة الموت ، أى إحاطة أعدائهم بهم ، وتمكنهم من اصطلامهم .

هذا .. وقد يظن الدارس فى أول النظر أنه ليس هناك فرق كبير بين أم غزال ،
وأم خشف ، وقد جرى هذا الظن فى نفسى ، ولكن بعد الاقتراب من الشعر وتأمل
خيوطه وخطوطه ، ظهر ظهوراً واضحاً أن أم غزال هنا ينبو بها المكان ، لأن
حادثة الميلاد مع جهد البلاء بضياح الولد مع ما أصاب المرأة من تغيير بسبب
الفراق حتى أنكرها صواحبها ، مع جهد البلاء الواقع بين أبناء أم وأب ، كل
ذلك متمازج ، ومتناغم ، لا بد أن تكون لُحمتها واحدة ، وخيطة الناسج له خيطاً
واحداً ، ولا يجوز بيانياً أن أضع « أم خشف » مكان قوله :

وَجِيدٍ مُّغْزَلَةٍ ، تَقْرُو نَوَاجِدَهَا مِنْ يَانِعِ المَرْدِ مَا أَحْلَوْنِي ، وَمَا طَابَا

فرق ظاهر لا يحتاج منى إلى بيان ، ولذلك قلت : إنه من طمس بيان الشعر
أن تقول إنه شبه المرأة بالظبي ، وأم الغزال ، وأم الخشف ، وتسكت عما وراء
الصور من فروق .

وقد ذكر الرثم مشبهاً به وليس فقط موصولاً بالظبية التى هى المشبه به فيما
مضى ، ووصفه مرة بالأغْنَى ، ومرة لم يصفه ، وقصد منه إلى جمال المقلتين وإلى
الحسن والملاحة ، واللّين والنعومة .

قال وهو يذكر هُرَيْرَةَ :

مُبْتَلَةٌ هَيْفَاءٌ رَوْدٌ شَبَابُهَا لَهَا مُقْلَتَا رِثْمٍ وَأَسْوَدُ فَاحِمٌ ^(١)

والمبتلة : التَّامَّةُ الخَلْقُ مع وفرة حُسن ، والهيفاء : الخميصة البطن ، والرود - بفتح الراء : الناعمة ، والرثم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، وأراد بقوله : « وأسود فاحم » : شعرها .

وتأمل قوله : « .. مبتلة .. هيفاء .. رَوْد .. » تجدد كل ذلك أوصافاً للجسم ، وليس هنا إشارة إلى أنها صادت فؤاده ، مع أنه ذكر المقلّة ، وبياض الرثم ، وخلوص صفائه . متناسب مع ذكر هذه الأوصاف ، ولم يصف الرثم هنا بأي وصف يخص جانباً منه بالعناية .، ومعروف أن الشاعر إذا ذكر الظبي وقال : « تقرو » مثلاً ، فكأنه يخص العنق بالعناية ، وإذا قال : أم غزال ، فكأنه أراد العينين والعنق ، وإذا قال : فاقد ، فكأنه حَصَّ الحركة ... وهكذا .

والشاعر في هذا البيت لم يصف الرثم بشيء فدلّ ذلك على أنه أراد بياضه ، وحسنه ، وهذا بخلاف قوله وهو قريب منه :

يَلْعُوبٌ طَيِّبٌ أَرْدَانُهَا رَخْصَةُ الْأَطْرَافِ كَالرِّثْمِ الْأَغْنُ ^(٢)

واللّعب : هي المرأة ذات الدلّ ، والأردان : جمع رُدن - بضم الراء : وهو طرف الكم ، وطيب الأردن : كناية عن طيب الجسد ، والرخصة : هي الممتلئة الناعمة البضّة ، والأغنّ : الذي يخرج صوته من خياشيمه ، وليس هنا من أوصاف الجسم إلا قوله : « رخصة الأطراف » وليس الكلام مبنياً على تحديد الأوصاف ، وعدّها ، مثل : « مُبْتَلَةٌ .. هيفاء .. رَوْد .. » لأن هذا التقسيم هو الذي قاد إلى ذكر المقلّة .

(٢) الديوان : ٧٨ : ٣

(١) الديوان : ٩ : ٣

وقوله هنا : « لعوب » هو الذى قاد إلى ذكر الأغن ، لأن اللَّعِبَ دَلٌّ ، وطرب وغناء ، وقد سبق هذا البيت بيتان افتتح بهما القصيدة :

خَالَطَ الْقَلْبَ هُمُومٌ وَحَزَنٌ وَأَدْكَارٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَطْمَأْنُ
فَهُوَ مَشْغُوفٌ بِبَهْدِ هَائِمٍ يَرْعَوِي حِينًا وَأَحْيَانًا يَحِينُ
بِلَعُوبٍ طَيِّبٍ أَرْدَانُهَا رَخْصَةِ الْأَطْرَافِ كَالرِّثْمِ الْأَغْنُ

والهموم والحزن ، والإدكار ، والشغف ، والارعواء ، والحنين ، كل ذلك أحوال نفسه ، لاءمها الدلُّ ، والطرب ، والغناء ، وقد شاعت فى القصيدة عناصر غنائية ، فالخمر : « إذا ذاقها الشيخ تغنى وارجحن » ويذكر السماع والعزف والصنَّج ، واللحن والغناء ، والمغنُّ ، ولهذا كان وصف الرثم بأنه « رثم أغن » متناغماً مع بقية العناصر .

وهذا بخلاف البيت الأول :

مُبْتَلَّةٌ هَيْفَاءُ رَوْدٌ شَبَابُهَا لَهَا مُقْلَتَا رِثْمٍ وَأَسْوَدُ قَاحِمُ

فقد بُنِيَ على أحوال الجسد كما قلت ، وذكر كلمة : « الأغن » فى سياق الميمية يكون شاذاً جداً ، لأن القصيدة يشيع فيها السأم ، والتبرُّم ، والقطيعة ، والبغض ، والظلم ، والدم ، والليل العاتم ، والطعن ، والشر ، والسيوف ، والجماجم ... إلى آخر هذا المعجم المحتدم ، والقصيدة فى هجاء بنى شيبان بن ثعلبة فليس من المناسب أن يوصف الرثم بالغناء .

واقراً أول القصيدة وقبل أن يدخل الشاعر فى حومة الهجاء التى أشعلها على رؤوس بنى شيبان وشيوخهم يزيد بن مُسَهِّرِ الشيبانى :

هُرَيْرَةٌ وَدَعْنَهَا وَإِنْ لَامَ لَائِمُ غَدَاةٌ غَدٍ أَمْ أَنْتَ لِلْيَيْنِ وَاجِمُ
لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثَوَيْتُهُ تَقْضَى لُبَانَاتٍ وَيَسَامُ سَائِمُ
مُبْتَلَّةٌ هَيْفَاءُ رَوْدٌ شَبَابُهَا لَهَا مُقْلَتَا رِثْمٍ وَأَسْوَدُ قَاحِمُ

ولاحظ أنه ما ذكر هُرَيْرَةَ إِلَّا وأراد شراً ، وقد افتتح قصيدتين بذكرها ، قال
فى واحدة : « ودّع هُرَيْرَةَ إِنَّ الرُّكْبَ مرتحل » ، وقال فى الثانية : « هُرَيْرَةُ
ودّعها » وهما فى هجاء يزيد بن مسهر الشيبانى . والقصيدة الثالثة ذكر هُرَيْرَةَ
فى البيت الثانى وذلك فى قصيدته (١) :

كَانَتْ وَصَاةً وَحَاجَاتٌ لَنَا كَفَفْتُ لَوْ أَنَّ صَحْبَكَ إِذْ نَادَيْتَهُمْ وَقَفُوا
عَلَى هُرَيْرَةَ إِذْ قَامَتْ تُودِّعُنَا وَقَدْ أَتَى مِنْ إِطَارِ دُونَهَا شَرَفٌ

وهذه أيضاً فى الهجاء ومنها أبياته المشهورة :

لَمَّا التَقَيْنَا كَشَفْنَا عَنْ جَمَاجِمِنَا لِيَعْلَمُوا أَنَّنَا بَكْرٌ فَيَنْصَرِفُوا

والحاجات الكفف : التى تكفى وتُغْنى ، يريد بذلك ما يكون من الصاحبة ،
والشرف : المكان العالى ، « وقد أتى من إطار دونها » : أى من مكان دونها ،
والإطار : ما يحوط بالشىء ويُطلق على المكان لأنه أيضاً يحوط بالشىء ،
وفى هذه القصيدة أبيات جواد منها وهو مما يحفظه الأبناء عن الآباء :

إِنَّ الْأَعَزَّ أَبَانَا كَانَ قَالَ لَنَا أَوْصِيكُمْ بِثَلَاثٍ إِنْنِى تَلِفُ
الضَّيْفُ أَوْصِيكُمْ بِالضَّيْفِ إِنَّ لَهُ حَقًّا عَلَى فَأَعْطِيهِ وَأَعْتَرِفُ
وَالْجَارُ أَوْصِيكُمْ بِالْجَارِ إِنَّ لَهُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ يَنْثِيهِ فَيَنْصَرِفُ
وَقَاتِلُوا الْقَوْمَ إِنَّ الْقَتْلَ مَكْرَمَةٌ إِذَا تَلَوَى بِكَفِّ الْمُعْصِمِ الْعُرْفُ

والتلف : الهالك ، وتلوى العرف بكف المعصم : أى اشتدت الحرب وتساقط
الفرسان والتوى عُرف الفرس بكف المعصم به ، ويكون عند خوفه واحتراسه ،
أو سقوطه ، وعُرف الفرس : شعر ناصيته ، ولا أدرى لماذا اختار هُرَيْرَةَ ليفتح
بذكرها قصائد الهجاء ؟ ومن المفيد أن تتعرف على المعانى المرتبطة بكل صاحبة
يذكرها الشاعر فى شعره .

وهذا طريق سهل ونتائجه لطيفة حسنة .

وقد شبه صاحبتة « قَتِيلَةٌ » بالرئم ، ثم ذكر له من الصفات والأحوال ما اتسع به التشبيه وتغازر ، وهذا شائع فى وصف الناقة أو فى وصف الخمر ، أو الأرى الذى يُشبه به ريق الصاحبة ... إلى آخره ، وقليل فى التشبيه بالظباء ، قال :

فِيهِنَّ مَخْرُوفُ النُّوَاصِفِ مَسْـ	رُوقُ الْبُغَامِ شَادِنٍ أَكْحَلْ
رَخِصٌ أَحْمُ الْمُقْلَتَيْنِ ضَعِيبِ	فُ الْمُنْكَبِينَ لِلْعِنَاقِ زَجِلْ
تَعْلَهُ رَوْعَى الْفُؤَادِ وَلَا	تَحْرِمُهُ عُقَافَةٌ فَجَزَلْ
تُخْرِجُهُ إِلَى الْكِتَاسِ إِذَا أَلِ	سَجَّ ذُهَابُ الْإِيكَةِ الْأُطْحَلْ
يَسْرَعَى الْأَرَاكَ ذَا الْكَبَاثِ وَذَا أَلِ	سَمَرْدٍ وَزَهْرًا نَبْتُهُنَّ خُضِلْ
تَخْشَى عَلَيْهِ أَنْ تَبَاعَدَ أَنْ	تَغْنَى بِهِ مَكَانُهُ فَيُضِلْ
ذَلِكَ مِنْ أَشْبَاهِ قَتْلَةٍ أَوْ	قَتْلَةٍ مِنْهُ سَافِرًا أَجَلْ

والنواصف : جمع ناصفة ، وهى الوادى المتسع ، والمخروف : الذى أصابه مطر الخريف ، وهم يضيفون الظباء إلى الخريف للإشارة إلى وفرة الخصب ، قال الأعشى :

* نَظَرَ الْأُدْمُ مِنْ ظِبَاءِ الْخَرِيفِ *

والْبُغَام - بضم الباء : صوت الطيبة ، حين يكون رطباً رخباً تنادى به ولدها ، وهى حين تفعل ذلك تستخرج من صوتها أعذبه ، وأرخمه ، وأغناه ، وكأنها تناديه بحنانها الدافق فى صوتها ، ومسروق البُغَام : هو الضعيف الذى لا صوت له ، كأن صوته سرق ، والشادن : الناشئ ، والرُخَصُ : الغضُّ الطرى ، وأحم المقلتين : أسودهما ، والزجل : رفع الصوت وتطريبه ، وتعله : تسقيه المرة بعد المرة ، ورَوْعَى الْفُؤَادِ : مرتاعة ، والعفافة : بقية اللبن فى الضرع ، والجزل :

الكثير من اللبن ، والكناس - بكسر الكاف : بيت الطيبة ، والتج الذباب : صوت ، وكج واختلط ، والأطحل : الذى لونه بين الغبرة والبياض ، والأراك : شجر يتخذ منه قضبان السواك ، والكبات : ثمره الناضج ، والمرد - بفتح الميم : ثمره قبل أن ينضج ، والنبت الخضل : هو الطرى المبلى بالماء ، وتباعد : أى بعد ، ويغنى به مكانه : أى يقيم فيه ، من غنى مثال : قرح ، أى أقام ، وسفرت المرأة - من باب ضرب : إذا كشفت وجهها .

والصاحبة مشبهة بهذا الظبى الصغير ، الذى ترعاه أم مشفقة عليه ، تحوطه بكامل العناية ، والمشهور عند الأعشى وغيره أن تشبه صاحبة الطيبة الأم .

وهذه الصورة من الصور النادرة ، وأول ما فيها بسطة النعمة ووفرة الخصب والثراء ، ورخاوة الحياة ، وتقلب قتيلة فى النعيم ، وقد أوجز الشاعر ذلك بقوله : « مخروف النواصف » : أى أن الأودية أصابتها غواذى الخريف فاهتزت وربت وأنبتت المرعى البهيح ، وهذا من الكلام المتسع .

وقوله : « مسروق البغام » وصف آخر يصف عجزه عن أن ينادى ، ويدل على نفسه لوضلاً ، وذلك لحداثة ميلاده ، وطراوة طفولته ، وقوله : « شادن أكحل » وصف لجمال نموه ، وبهاء تفتحته ، ونضارة طفولته ، والرخص : وصف لطراوة الأطراف ، وامتلاتها ، والزجل للعناق : يعنى إقباله على أمه فرحاً زجلاً يقاربها ويعانقها ، وترى هذين البيتين يلخصان أوصافاً مكثفة الدلالة على الحداثة ، والطفولة ، والصفاء ، وبكارة الفطرة الدافقة بالحب ، والحنان ، والطروبة للعناق .

والأبيات بعد البيتين تتجه إلى حفاوة الأمومة بهذا الرثم الذى هو مثل قتيلة ، وقد استأنف الشاعر بها حديث الأم وذكر صفة حيّة للحب الحريص البالغ فى حرصه ورعايته ، هذه الصفة هى قوله : « روعى الفؤاد » أى مرتاعة وكأنها مشغوفة به فى كل حال وملهوفة ، وأنه مع كونه يرعى الكبات والمرد ، لا تزال

تَعْلَهُ بلبنها ، ولا تحرمه عفاة فجزل : يعنى ما قُلُّ منه وما كثر ، وهذه الأبيات استقل كل بيت منها بمعنى فوقعتُ مستأنفة كلها ، فالأُم فى البيت الأول : تَعْلَهُ ، وفى البيت الثانى : تُخرجه إلى الكِناس ، وفى البيت الثالث : تراه يرعى الأراك ، وفى البيت الرابع : تخشى عليه أن يَبْعُد فيضل ، ولأنها كلها تدور حول فكرة واحدة ، وهى رعاية الأم له ، صارت مع هذا الاستئناف مدمجة متماسكة ، وابتداء كل بيت بفعل مضارع فاعله هو الأم ، ما عدا البيت الثالث ، كل هذا زاد الاتساق بين الأبيات ، والتلاحم ، والترابط ، حتى صارت كأنها جُملة واحدة ، مع قيام كل منها على الاستئناف ، واستئناف المعنى الجديد لا يعنى اختلافاً ، وإنما هو تنوع المعانى ، وتواتر جزئياتها ، ودخولها فى البناء البيانى ، وتكون مهارة المتكلم حين يدمج بدقائق الصنعة هذا التنوع ، ويصير به كأنه جُملة ، وهذه الأبيات الأخيرة ، تختلف عن البيتين الأولين ، فى طريقة الصياغة ، لأن البيتين الأولين جُملة واحدة من مبتدأ وخبر ، والمبتدأ محذوف وهو « الرثم » الموصوف بهذه الصفات : « مخروف النواصف .. مسروق البغام .. شادن .. أكحل .. رخص .. أحم المقلتين .. ضعيف المنكبين .. زجل للعناق » .

وتأمل كيف تختلف طريقة سبك الكلام إيذاناً بانتقال المعنى من وصف الرثم إلى حفاوة أمه به ، وهذه الأبيات وإن لم تكن من جيد الشعر ومختاره ففيها من دقائق الصنعة ما لا يجوز إهماله ، وصفات الرثم فى البيتين الأولين جاءت من غير واو للإيذان بأنها صفات أدمجت ، وصارت صفة واحدة ، وفرق بين أن نقول : هو عالم ، شاعر ، كاتب ، وأن نقول : هو عالم وشاعر وكاتب ، لأننا فى الكلام الأول جعلنا هذه الصفات المستقلة القائمة بنفسها غير المعطوفة كأنها صفة واحدة ، وجِدَّت فيه على ضرب واحد ، بخلاف الواو المؤذنة بأننا نجمع بعضها إلى بعض ، ونضيف ثان منها إلى أول ، وقد مرَّ مثل ذلك .

وقد وقفت عند هذا التشبيه الذى قصد إلى الطفولة يلقي أضواء بهجة على أحوالها ، ويكشف جوهر الفطرة ، وخلوصها ، ولم يذكر كلمة واحدة تشير إلى الأحوال الحسّية ، والصفات المحتدمة بالصَبَوَة ، والرغبة ، والتوق ، على

حد ما ترى فى شعره ، ومن الغريب أن تجد حديثاً عن المرأة يتواتر كله على بيان جوهر الطفولة ، وصفائها .

وقد تأملتُ مداخل هذا التشبيه ومخارجه ، ورأيتُ هذا الوصف مسبقاً بالحديث عن كواذب الأخلاق فى الرجال والنساء ، وأن هذا الباب تكثر فيه المخادعة ، والزيف ، وزور الأخلاق ، فقد تجد الرجل يتظاهر بالحكمة والوقار ويشتد عيبه لأصحاب الصبوة ، ثم هو فى الحقيقة غارق فى هذا الذى يلوم الناس فيه ، وقد تجد المرأة مصونة ، وراء الأستار ، محوطة بالعناية والحفاظ ، ثم تسارق الطرف لمن تهوى .

قال قبل هذا التشبيه يذكر هذا النمط من الرجال والنساء :

فَهُوَ يَقُولُ لِلْسَّفِيهِ إِذَا	أَمَرَهُ فِى بَعْضِ مَا يَفْعَلُ
جَهْلُ طِلَابِ الْغَانِيَاتِ وَقَدْ	يَكُونُ لَهُوَ هَمُّهُ وَغَزْلُ
السَّارِقَاتِ الطَّرْفِ مِنْ ظُعْنِ الْـ	حَى وَرَقْمٌ دُونَهَا وَكِلْـ
فِيهِنَّ مَخْرُوفُ النَّوَاصِفِ مَسْـ	رُوقُ الْبُغَامِ شَادِنٌ أَكْحَلُ

الرجل الحكيم يؤامره السفيه ؛ أى يستنصحه ويستشيريه . فيقول له : طلاب الغانيات جهل ، وهو فى الواقع قد غلبه اللهو والغزل على همه كله ، تأمل قوله : « وقد يكون لهو همه وغزل » وهى هكذا فى الديوان وأحسب أنها : « وقد يكون لهواً همه وغزل » والجملة قبل دخول الناسخ : همه لهو وغزل ، ولا ترى فى التهالك أكثر من تهالك رجل همه اللهو والغزل ، ومع ذلك يصف هذا بالجهل لمن خُدع فى أخلاقه ، وذهب إليه ليستشيريه فى أمره .

وقوله : « السَّارِقَاتِ الطَّرْفِ مِنْ ظُعْنِ الْحَى » وصف للغانيات .

وتأمل سرقة النظر من النساء للرجال ، ثم هى تسرقه ودونها ستور بعدها ستور ، « رَقْمٌ دُونَهَا وَكِلْـ » والرقم . ضرب من البرود الموشاة .

فإذا كانت قُتِيلَةً بين هؤلاء السارقات النظر ، كان لازماً أن يكون التشبيه متجهاً إلى بيان نقاء النفس ، وصدق الفطرة .

هذا مدخل التشبيه ، أما مخرجه فهو وصف قَتِيلَةٍ بأنها بيضاء وأنها ربا العظام ، وأن لها فرعاً حثيثاً كالحبال ، وأن حبها قد شقَّ عليه وشغل ، وأنها تصطاد الرجال ، ثم وصف ثغرها ، ثم ذكر الضجيج ، ثم ماء الشجر ، وتأمل هذه الصفات لأن لمواقعها فى الشعر شأناً ليس بالقرب ، وقرأها كما رتبها الشاعر ثم تأمل ترتيبه لها :

ذَلِكَ مِنْ أَشْبَاهِ قَتْلَةٍ أَوْ	قَتْلَةٍ مِنْهُ سَافِرًا أَجْمَلُ
بَيْضَاءُ جَمَاءِ الْعِظَامِ لَهَا	فَرْعٌ أُثِيتَ كَالْحَبَالِ رَجُلُ
عُلِقَتْهَا بِالشَّيْطَانِ فَقَدْ	شَقَّ عَلَيْنَا جُحُهَا وَشَغَلُ
إِذْ هِيَ تَصْطَادُ الرِّجَالَ وَلَا	يَصْطَادُهَا إِذَا رَمَاهَا الْأَبْلُ
تَحْرِى السَّوَاكِ بِالْبَنَانِ عَلَى	أَلْمَى كَأَطْرَافِ السِّيَالِ رَتِلُ
تَرْدُ مَعْطُوفِ الضَّجِيعِ عَلَى	غَيْلٍ كَانَ الْوَشْمَ فِيهِ خِلَلُ
كَأَنَّ طَعْمَ الزُّنْجَبِيلِ وَتَفَّ	سَاحاً عَلَى أَرَى الدُّبُورِ نَزَلُ

ثم ذكر أبياتاً طوالاً ذكر فيها أحوال المشتار لهذا الأرى ثم قال :

يَعْلُ مِنْهُ قُو قَتِيلَةٌ بِأَلْ
سَافِرٌ قَدْ بَاتَ عَلَيْهِ وَظَلُ

تأمل كيف انسل الكلام من أحوال الطفولة النفية البريئة ثم دبَّ دهباً خفياً إلى أحوال الشهوة حتى بلغ منها غايتها ، بيان ذلك أنه قال : إن هذا الرثم الذى هو رمز البراءة ، والطهارة ، والصفاء ، وأبعد ما يكون عن أحوال التوق والشهوة ، شبه قَتْلَةً ، ثم بدأ يَنْسَلُ فقال : إن قَتْلَةً أجمل منه إذا سفرت فذكر السفور وهذه خطوة ، ثم ذكر البياض وامتلأ العظام ، واسترسال الشعر ، ثم ذكر توقه وأنه عُلِقَها ، وأن حبها شقَّ عليه ، ثم اقترب فذكر السواك ، والشفة اللمياء ، والأسنان التى كشوك السِّيَالِ ، وهو نبات أبيض يُذكر كثيراً فى وصف

الأسنان ونسقتها وفلجها ، ثم ذكر الضجيع ، ثم ذكر ماء الشجر ، وبعد أبيات فى هذا الشأن ذكر الرحلة والناقة العنتريس .

وهكذا جاء توق الشعر إلى قَتْلَة ، ولهجه بمفاتها ، إنما كان بعد هذا التشبيه وما كان له أبداً أن يجرى قبل هذا التشبيه ، إذ لا يصح أن يذكر قَتْلَة بالفاظ مشبوبة ، مثل : بيضاء ، وجماء العظام ، وتجرى السواك على ألمى ، وترد معطوف الضجيع ، ثم يشبهها بمسروق البغام الذى تَعْلُهُ أمه عفاة فجزل .

وقد جاء تشبيه قَتْلَة فى قصيدة أخرى وذكر الظبية الخذول التى ترعى رخص العظام ، وذكر أحوالاً وصوراً ، ومدخل التشبيه ومخرجه مغاير لمدخل التشبيه هناك ومخرجه ، فقد ذكر بعد ما شافته الحدوج الراحلة ، وبعد ما وصف الطريق الذى تجتازه ، وأنها جعلت جوز اليمامة عن شمالها ، وجزعت بطن العتيق : . . إلى آخره - وهذا يكون فى الشعر للدلالة على فرط التشوق - أقول : ذكر قَتْلَة بعد ذلك ، وجرى الشعر على محاسنها ، فأبدى منها جيداً طلقاً تزينه الأطواق ، ثم ذكر الأسنان ، وشبهاها بالأقحوان ، ثم أوماً إلى العذوبة بذكر الطل ، الذى جرى على هذا الأقحوان ، ثم ذكر الشعر الجمل ثم الظبية الخذول .

قال :

يَوْمَ أَبَدَتْ لَنَا قَتِيلَةً عَنْ جِبِ	دِ تَلِيْعِ تَزِيْنُهُ الْأَطْوَاقُ
وَشَتَّيْتُ كَالْأَقْحُوَانِ جَلَاءُ الـ	طُلُ فِيهِ عُدُوْبُهُ وَأَتْسَاقُ
وَأَثِيثِ جَفَلِ النَّبَاتِ تُرْوِيـ	هِ لُعُوبُ غَرِيْرَةٍ ، مِفْتَاقُ
حُرَّةٍ بَطْفَلَةِ الْأَتَامِلِ ، كَالْدُمـ	يَةِ ، لَا عَابِسٍ وَلَا مِهْزَاقُ
كَخَذُولٍ تَرَعَى النُّوَاصِفَ مِنْ تَفـ	لِيْثٍ قَفْرًا ، خَلَا لَهَا الْأَسْلَاقُ
تَنْقُضُ الْمَرْدَ وَالْكَبَاثَ بِحِمْلَا	جِ لَطِيْفٍ فِي جَانِبِيْهِ انْفِرَاقُ

فِي أَرَاكِ مَرْدٍ يَكَادُ إِذَا مَا
وَهَى تَتَلَو رَخْصَ الْعِظَامِ ، ضَنْبِيلاً
مَا تَعَادَى عَنْهُ النَّهَارَ ، وَلَا تَعَف
مَشْفِقاً قَلْبُهَا عَلَيْهِ ، فَمَا تَعَف
وَإِذَا خَافَتْ السَّبَاعَ مِنَ الْغَيْبِ
رَوْحَتُهُ جَيْدَاءُ ذَاهِيَةً الْمَرْ
فَاصْبِرِي النَّفْسَ إِنَّ مَا حَمَّ حَقٌّ
وَقَلَاةٌ كَأَنَّهَا ظَهَرُ تُرْسٍ

ذُرَّتِ الشَّمْسُ سَاعَةً يُهْرَاقُ
قَاتِرَ الطَّرْفِ فِي قُوَاهُ انْسِرَاقُ
جُوهُهُ إِلَّا عُقَاقَةً ، أَوْ فُوقَ
نَدْوُهُ ، قَدْ شَفَّ جِسْمَهَا الْإِشْفَاقُ
لِ وَأُمْسَتْ وَحَانَ مِنْهَا انْطِلَاقُ
تَعِ لَا حَيَّةٌ وَلَا مِغْلَاقُ
لَيْسَ لِلصَّدْعِ فِي الرُّجَاجِ انْفَاقُ

والجيد التليع : أى الطويل ، والشتيت : الأسنان المفرقة ، والأقحوان : نبت
زهرة أبيض ، والاتساق : الاستواء والحسن ، والأثيث والجلث : النبات الكثيف ،
والمراد شعرها ، وترويه : أراد ترعاه ، والمفناق : المنعمة ، والغريبة : الساذجة ،
والحرّة : الكريمة ، والطفلة : الناعمة ، والمهزاق : كثيرة الضحك ، والخذول :
هى الطبية التى تخلفت ، والنواصف : أماكن الرعى الخصبة ومجارى الماء ،
وتثليث : بلد باليمن ، والأسلاق - جمع سلق : بفتحتين : وهى الأودية ، والمرد
- بفتح الميم ، والكبات - بفتح الكاف : ثمر الأراك ، والحملج : منفاخ الصائغ ،
وأراد قرنيها ، والانفراق فى جانبه : أراد سعة ما بينهما ، وذرت الشمس :
أشرقت ، وهى تتلو رخص العظام : أى تتبع ولدها ، والرخص : اللين الرطب ،
وانسراق القوى : يعنى الضعف ، وتعادى عنه : ابتعدت ، ولا تعجوه : أى
لا تؤخر رضاعه إلا ريث اجتماع اللبن فى الضرع ، وهو العفاقة ، والفواق : هو
الزمن بين الرضعتين ، والغيل : الشجر الملتف ، وحان منها انطلاق : أى جاء
وقت رجوعها ، وروحته : أى عادت به إلى الكناس آخر النهار ، وذاهبة المرتع :
أى لا تبقى فيه ، والحية : الخادعة ، والمغلاق : التى تضجر من ولدها ، وقوله :
« فاصبرى النفس إن ما حمَّ حق » فيه أنها فقدت ولدها وهو يدعوها إلى الصبر .

وقد انتقل الشاعر من قصة هذه الظبية إلى الرحلة ، ولم يكن كذلك فى التشبيه الأول ، وقد وصف قُتْلَةً هناك بعد التشبيه ، ووصفها هنا قبل التشبيه : وهذا أصل فى جوهر التشبيه قد أشرنا إلى وجهه .

وتأمل اللُغة : قال : « أبدت لنا قُتِيلَةً عن جيدٍ » فأشار إلى أنها هى التى تعرضت وكشفت عن محاسنها ، وقوله : « عن جيدٍ » ولم يقل أبدت لنا جيداً لأنه ضمّن الفعل معنى « كشفت » ، وأوماً إلى ما يكون من انحسار اللثام عن مواطن الجمال شيئاً فشيئاً ، وكأنها تكشف عنه جزءاً جزءاً ، وعين الشاعر متعلقة به ، وهى تخاتله هذه المخاتلة العابثة اللعوب ، وليس شيئاً من هذا فى قولنا : أبدت جيداً . وحرف الجر الداخلى على الجيد بُنِيَ عليه ذكر الجيد ووصفه ، « تليع تزينه الأطواق » ، وذكر الشثيث ووصفه : « كالأقحوان حلاه الطل فيه عذوبة واتساق » وذكر « الأثيث » ووصفه : « جثل النبات ترويه لُعُوبٌ غريرةٌ مفنّاق » .

وتأمل الأبيات الثلاثة تجدد البناء الأسلوبى واحداً ، فكل عنصر من هذه العناصر بُنِيَ عليه بيت ، ووقوع هذه الثلاثة فى حيّز حرف الجر « عن » أن يجعل المعنى الذى قلناه فى الجيد قائماً فيها ، يعنى أنها كأنها كانت تكشف عن جمال ثغرها الوردى شيئاً فشيئاً ، وتكشف عن جمال شعرها أيضاً شيئاً فشيئاً ، وذكر كلمة « لعوب » فى آخر البيت الثالث ، يوحى بهذا ، بل ويؤكد ، لأن حرف الجر كما قلنا جعل فعلها ضرباً من المخاتلة والمعاينة والملاعبة ، ثم إن الفعل : « أبدت » الذى تعلقت به كل هذه الأحداث الغزلية الحية مضاف إلى كلمة : « يوم » واليوم هذا ظرف للأحداث المذكورة فى الأبيات الخمسة السابقة ، وبهذا تكون هذه الأبيات الثمانية بمثابة بيت واحد .

ثم انتقل الكلام من الحديث عن معاينتها بإبداء مواطن الحُسن لتلهب قلب صاحبها وهى على حدوج تساق للرحلة ، إلى الحديث عن أوصافها التى يعرفها ولا تحتاج إلى أن تبدى هى عنها ، فذكر أنها حُرّة : أى كريمة ، طَفْلَةٌ الأنامل :

أى لينة ، وهذا كناية عن النعمة ، فليست خشنة اليد من مزاوله أعمال الخدمة ، وإنما هى مترفة لها ، مَنْ يقوم بأمرها ، ثم شَبَّهها بالدُّمِيَّة ، ثم نفى أن تكون كَظَّة عبوسة ، كدرة النفس ، وليست مهزاقاً : أى ثرثرة ، مهزارة ، وهذا الوصف بلفظه فى اللامية وصف به « جبيرة » إلا أنه جعل مكان الشطر الثانى وصف الشعر ورعايتها له :

حُرَّةٌ طَفْلَةٌ الْأَنَامِلِ تَرُدُّتْ — سُبُّ سَخَاماً تَكْفُهُ بِخِلَالِ

أى تبرى شعرها وتكفه بالأمشاط ، وهى هنا قبل البيت : تروى أثيثاً جزلاً ، وهى لعوب ، مُنْعَمَةٌ ، ثم هى حُرَّةٌ طَفْلَةٌ الأنامل ، وكالدُّمِيَّة ، وذات حياء ، والوصف هنا أغزر وأينع ، وهكذا حديثه عن قُتْلَةٍ ، وسياق هذه القصيدة غير سياق اللامية ، لأنه كان فيها مهموماً بِهِمْ قومهم وقد قال لَجُبَيْرَةُ : « فاذهبى ما إليك أدركنى الحلم » وهذا خطاب فيه جفوة ولم يخاطب قُتْلَةً بمثله فسى شعره كله .

ثم إنه بعد هذا مدَّ أنسجة الكلام فشَبَّهها بالطيبة ، وبدأ قصة الطيبة بقوله : « كخذول » وهو بهذا يفتح بناءً لغوياً مغايراً للبناء السابق ، وتأمل الكلام تجد الأبيات الثلاثة التى تصف الطيبة ومرعاها كأنها بيت واحد ، وتأمل بناء الكلام السابق تجد مغايراً ، وكل جُمْلَةٌ أبيات تدور حول فكرة واحدة لها بناء متقارب ومخالف لغيرها ، وهكذا نرى البناء اللغوى فى داخل القصيدة يتعدَّد ويتنوع ويتحيز ، ثم إنَّ البداية بكلمة : « خذول » تدل على أنها هى الأخرى مشوقة ، لأنها هى التى قُطِعَتْ عن السرب ، وضلَّت ، وأفردت ، وهذا الوصف للطيبة يلامح قوله فى أول القصيدة :

قُطِعَ الْوُدُّ وَالصَّفَاءُ الْفِرَاقُ وَاشْتِيَاقاً إِذِ الْخُدُوجُ تُسَاقُ

وتأمل « الخذول » تجد هذا البيت كأنه وصف لها ، فقد ذهب الرفاق وبقيت تعالج ودّاً وحنيناً وشوقاً محروماً ، وقد قال الأعشى هذه القصيدة يتشوق إلى

قومه بنى قيس ، وقد ألقى رحله فى سراة نجران ؛ وهنا ملاءمة ثانية بين الخذول المشوقة إلى بنى قومها ، وبين غرض القصيدة العام الذى تدور حوله كل الصور ، والرموز ، والمعانى .

والعناية بحديث المرعى وغازاته ، والأودية الخصبة ، ونفض المرد والكبات ، وأثر ذلك على الطيبة حتى صار قرناها يشبهان حملاج الصائغ : أى منفاخه ، وأن بينهما انفراق تحلوه به جبهتها ، وكذلك العناية بشجنها ولهفتها على ولدها ، ورعايتها له أتم الرعاية ، ثم فقده ، وإصابتها بالشكل ... إلى آخر هذا ، كل ذلك متلائم مع حال الشاعر الذى ألقى رحاله فى سراة نجران وفى ثرائهم الغامر ، ثم تراه يتحرق شوقاً إلى دياره ، وقومه ، وتجذ فى حالة الطيبة نفمة شجن جارية فى القصيدة كلها ، وقد برزت ظاهرة فى مطلع القصيدة :

قَطَعَ الْوُدَّ وَالصَّفَاءَ الْفِرَاقُ وَاشْتِيَاقاً إِذِ الْخُدُوجُ تُسَاقُ
يَسُومَ قَفَّتْ حُمُولُهُمْ فَتَوَلَّوْا قَطَعُوا مَعَهْدَ الْخَلِيطِ فَشَاقُوا

تأمل الفراق الذى قطع الودَّ والصفاء ، وتأمل الاشتياق الذى تكرر مرتين ، وقطع عهد الخليط : أى المخالط ، هذا كله من جنس ما جرى فى القصيدة من تشوقه لبنى قيس ، ومدحه لهم ، وذكر « تثليث » وهى - كما قالوا - قرية من قرى اليمن ، يرشح أن قصة الخذول فيها نَفْحَةٌ من حال الشاعر ، لأنها هى الأخرى ترعى فى بلاد نجران ، وقد ذكرنا أن الأبيات الثلاثة التى بدأت بقوله : « كخذول » بُنِيَتْ على شوابك جعلتها جملة واحدة ، وكذلك كل محور صغير من محاور المعانى الجزئية له شوابك خاصة تَتَمَحَوَّرُ بها المبانى أيضاً ، حتى ترى القصيدة وكأنها خريطة لغوية ، يأخذ كل حيِّز منها لونا واحداً ، فإذا تأملت وجدتَ هذا اللون الواحد فيه معنى واحد ، اقتضى وحدة البناء اللغوى ... وهكذا .

وقد وصف الأعشى المرعى فى بيت واحد فى الصورة السابقة التى شبه قَتْلَهُ فيها بالرِّثْمَ :

يَرَعَى الْأَرَاكَ ذَا الْكَبَاثِ وَذَا الْـ مَرْدٍ وَزَهْرًا نَبْتُهُنَّ خَضِلْ

ولم يذكر هناك رعى أمه لأنه هو المقصود ، وقد ذكر هنا رعى الأم ، ولم يذكر رعى ولدها ، ووصف رعى الطيبة هنا ممتزج بحسنها وملاحظتها ، فهي تنفضُ المردَّ بمحلاج لطيف ، في جانبه انفراق ، وهذا وصف للحركة ، وجمال الجبهة أكثر مما هو وصف للمرعى ، وقد عاد الشعر بعد هذه اللمحة الغزلة مع الطيبة إلى خصوبة المرعى ، وبلغ الغاية في الإبانة عن زهائه ، بقوله : « إِذَا مَا ذَرَّتْ الشَّمْسُ سَاعَةً يُهْرَاقُ » وهذا من أجود ما وُصِفَ به المرعى ، وكل هذا ليس في التشبيه الأول منه شيء .

وقوله : « وهى تتلو رخص العظام » تغير به مبنى الكلام ، وجاء جملة اسمية خبرها فعلي ، وقُلْ أن تجد هذا فى درج الكلام ، لأن الغالب أن يُحذف المبتدأ لأنه معروف ، وحذف ما تدل عليه القرائن أولى من ذكره ، إلا أن الذكر هنا للإشارة إلى دخول الكلام معنى جديداً واحتشاد اللغة وحفاوتها بهذا الغرض ، أعنى قصة الطيبة مع ولدها ، وكأن الكلام قد دخل هذه القصة ، وهو موفور العناصر ، غير محتاج إلى الكلام السابق ، وقد وصف ولدها فى بيت واحد جامع ، فذكر لين عظامه ، وضآلته ، وتخاذله ، وفتور طرفة ، وقد وصفه هناك وصفاً أفسح وأرحب ، وأخصب ، فهو : « مسروق البغام ، .. شادن .. أكحل .. رخص .. أحمر المقلتين .. ضعيف المنكبين .. للعناق زجل » ، وهذا الأخير من الكلام الحى الموفور .

وليس فى الكلام هنا ما يقابل هذه الصفات إلا « ضعف المنكبين » ، ثم اتسع الكلام فى رعاية الطيبة له ، وأنها لا تباعد عنه ، ولا تمنعه لبنها ، ويقابل هذا هناك قوله :

تَعْلُهُ رَوْعَى الْفُؤَادِ وَلَا تَحْرِمُهُ عُقَافَةٌ فَجَزَلْ

وهو كلام جيد ، والعبارة عن الأم — « روعى الفؤاد » عبارة حسنة .

وقوله : « مشفقاً قلبها عليه » حال من قوله : « ما تعادى عنه » أى هى لا تباعد حالة كونها مشفقة عليه ، وليس المعنى لإشفاقها عليه ، لأن بين المعنيين فرقاً لا يجوز إغفاله ، فهى فى الأول تقارب مصاحبة لإشفاق ، وهى فى الثانى تقارب من أجل الإشفاق ، وليس فيه معنى المصاحبة ، كما تقول : نصحته وأنا حريص عليه ، وتقول : نصحته حرصاً عليه ، وحرصك فى الأولى مصاحب للنصيحة ، وحرصك فى الثانية مسببٌ عنها ، وهذا فرق لا يُهمل ، وقد كرّر قربها منه ، فقال : « فما تَعُدُّوه » بعد ما قال : « ما تَعَادَى عنه » ، ثم كرّر الإشفاق وأنه مسّ جسمها منه شحوب وهزال ، والذى يقابل هذا فى التشبيه الأول أنها تخشى عليه من الضلال .

وتأمل عطف : « ولا تعجوه » على : « ما تعادى عنه » ، وعطف : « فما تعدوه » فى البيت السابق ، بالفاء ، وقد جاءت الواو مع الأول ، لأنه جمع الصفتين : أنها مقيمة ، وأنها تعدوه ، من غير ترتيب بينهما ، لأن طبيعة الدلالة فيها الترتيب ، فالإقامة تسبق الرعاية ، وفى البيت الثانى كان قوله : « فما تعدوه » مترتباً على قوله : « مشفقاً قلبها عليه » ، وقوله : « قد شَفَّ جسمها الإشفاق » استئناف جيد لبيان حالها ، وأن هذا الإشفاق أورثها ضعفاً ، وهو من مقاطع الكلام الحسنة التى تحبب آخر المعنى وتكشف أوله .

وفى البيتين الأخيرين جُملة أحداث ترابطت وصارت حَدَثاً واحداً ، فالشرط هو : « خوفها السباع عليه .. وإمساؤها .. ومجىء وقت انطلاقها » .. هذه ثلاثة دخل بعضها فى بعض ، وصارت جزء كلمة لأن تمام الكلمة هو جواب الشرط ، فهى لا تروّحه إذا خافت عليه فقط ، وإنما إذا اجتمع مع الخوف المساء ، ودخول وقت رواحها ، ثم وقف يتأملها ، وهى راثحة به طليقة الجيد ، طليقة النفس : « لا خبة ولا مغلاق » أى هى سليمة من زحائل النفوس ، وقد رأينا الأعشى وغيره يذكر الظبية ، وأنها تحنو على رثم ، أو تعطف عليه جيدها ،

أو أنها تعاطى المرد ، وتمد عنقها لذلك ، فيظهر حسنه ، أو أنها خذلت فيشعر ذلك بتوجسها وخوفها ، وهذا مما يتناسب مع ذكر صاحبة المصونة التي إذا برزت إنما تبرز حذرة ، مترقبة متوجسة ، وهكذا نجد كثيراً من الصفات التي تُذكر للطبيبة متجهة إلى صاحبة ، وكاشفة منها ضرباً من البهجة والجمال ، وهذا في التشبيهات المختصرة ، أما هذه التشبيهات الطويلة - كهذا التشبيه الذي جاء في تسعة أبيات - فإننا نجد فيه أشياء لا نستطيع إضافتها إلى المرأة بطريقة ظاهرة كأن نقول مثلاً : لماذا اختار الأعشى أن تفقد الطبيبة ولدها مع أنها ترعاه أحسن ما تكون الرعاية وأتمها ؟ وقد كانوا يذكرون فقده إذا شغلت عنه بالمرعى الخصب ، وأنها عادت إليه فوجده شلواً ، وأنه أتيح له عارى السواعد ... إلى آخره ، أى شيء يُضفيه موت ولد الطبيبة إلى قتلته ؟ هل هو الحزن والشجن ؟ ولماذا يقصد الشاعر إلى الحزن والشجن ، وهى حُرّة طفلة ، لعوب ذات دلّ ؟

هل هو شجن الشاعر الذى يبثه فى الصورة ليُعبرَ به عن معنى من معانى الحياة ، وأن هذه الطبيبة المسكينة لم تستطع أن تدفع الموت والفقد مع مزيد رعايتها ، وبالع حرصها ، وأن ضربات القدر تنال ما تتجه إليه لا يحول دون ذلك حائل . وهذه المعانى قريبة من حديث صاحبة المفارقة التى تُساق حديجها ، فتقتل الحب والود ، وتلهب الشوق ، وأن الشاعر مع مزيد حرصه وبالع حبه لا يستطيع أن يدفع هذا الفراق الذى هو فقد وثكل ، تأمل قوله يخاطب الطبيبة ويعزيها فى فقد ولدها :

فَاصْبِرِي النَّفْسَ إِنَّ مَا حُمُّ حَقٌّ لَيْسَ لِلصَّدْعِ فِي الزُّجَاجِ انْفِثْقَاقٌ

وهذا عزاء لنفسه ، تأمل قوله قبل ذلك :

بَعْدَ قُرْبٍ مِنْ دَارِهِمْ وَأَثْلَافٍ صَرَمُوا حَبْلَكَ الْغَدَاةَ وَسَاقُوا

هذا شكل وشجن :

ولا شك أن هذه الأسئلة حول عناصر الصورة مما يثيرها ويبحث في تربتها عن أصول زموزها ، وإشاراتهما ، وهذا جيد ، وقد يُقال : إنَّ المقصود من الشعر ينتهى عند إبداع هذه الصور وإبداع تفاصيلها ، وترقيق حواشيها ، وبث ما فيها من مسرة ، أو متعة ، أو لهفة ، أو حزن ، أو ثكل ، أو ما شئت مما يُجرىه الشعراء فى عروق الشعر ، وأن هذا هو المقصود من الشعر ، وليس ما وراء ذلك من دلالات تشير إلى أن مقصود الشاعر هو كذا وكذا ، وقد ذكر عبد القاهر ما يُقوَّى هذا لأنه قال : إن المقصود بالنسيب فى افتتاح القصيدة هو الدلالة على قوة القريحة ، وبُعد الشوط ، ولذلك كان هذا الجزء هو ميدان التائق ، والافتنان ، وكأن الشاعر يعرض قُدرته ، ويدل على صناعته ، وأنه قادر على أن يستخرج من اللُغة صيغاً ، وصوراً ، ورموزاً ، وأنغاماً ، وهذه لفظة حسنة من عبد القاهر ، لا أحسب أحداً تنهَّ إليها فى دراسة المقدمات الغزلية ، أو الطللية ، وهما سواء ، لأن ذكر الطلل ضرب من التذكر ، والتصابي ، والحنين ، وإذا اعتبرنا مقالة عبد القاهر هذه قلنا : إنَّ ما يتصل بالصاحبة من ذكر الطيبة ، وقصصها ، وأحوالها ، وذكر الدُّرة وغواصها ، وذكر ماء الشجر وتشبيهه بالأرثى ، وقصة المشتار ، مع صعود الجبل ، والوقود ، ودرداق النحل ... إلى آخره ، كل هذا افتنان فى الشعر وافتنان فى طرق اللُغة ، وقدح الكلمات ، وبيان ما يختزنه الشاعر من قُدرات فى خلق لغة جديدة وتراكيب جديدة من هذه اللُغة الدائرة فى الأفواه ، وهذه التراكيب الشائعة فى المحاورات ، وخلق اللُغة الجديد ، يعنى خلق صور ، ومعان وأحوال جديدة فى اللُغة ، لأن الله سبحانه لما علّم الإنسان البيان أقدره على أن يخلق أشياء ، وصور ، وكوائن يُسكنها كلها فى الكلمات ، وتعويذة الشعر ، وقُدرة البيان هى وحدها القادرة على أن تُطلق فى الكلمات هذه الضروب من الحبوات ، وتأمل ما ندرسه تجد الأعشى يُبدع ، ويخلق باللُغة طيبة هنا ، ورثماً هناك ، ومخدولة هنا ، وفاقداً هناك ، ويذكر صاحبتة وفى فمها أقحوان ، يُزهر زهره الأبيض المنور المرتل داخل الشجر ، أو يحشو هذا الشجر أرباً ورُماناً وتُفاحاً ... وهكذا .

انظر إلى الشعر من هذه الزاوية ، تجد لكل شاعر عالماً خاصاً به ، لم يخلقه بيديه ، وإنما أدار لسانه فصاغ هذا العالم ، وأحسب أن هذا هو الذى يُعرف به شعر الشاعر ، لأن هذا هو محض الشعر ، لأنه هو محض اللُّغة ، وهذا حسبنا من الشعر وكافينا منه ، كما يقول عبد القاهر الذى لم يفتح أحد من القدماء باب الحديث عن المخلوقات اللُّغوية ، والكوائن الشعرية ، كما فتحه عبد القاهر ، ولم يُشر أحد إلى أن منزلة الشاعر تُقاس بثراء هذه المخلوقات اللُّغوية ، وطرافتها ، ووفرتها ، كما أشار عبد القاهر .

قلتُ : وقد يُقال إن المقصود من الشعر ينتهى عند إبداع هذه الصور ، وهذا جيد كما قلنا ، ولكن تمام المعرفة بالصور إنما يكون بتمام معرفة تناسق الأجزاء ، وتحليلها ، وتعسرها ، وهذا ينتهى بنا إلى نفس الإشكال وهو أى تناسق بين هذه الأجزاء التى هى الصور ، والأحداث التى بثها الشعر ، وبثتها اللُّغة فى المشبّه به ، وهو الظبية التى تشكّلت من هذه الدقائق ، وهذه التفاصيل ، وبين المشبّه وهو الصاحبة .

وهناك تفكير آخر يتكىء على مقالة ثانية لعبد القاهر ، وهو أننا فى التشبيه المركّب يجب أن ننسى الأجزاء التى رُكِّبت منها الصورة ، وأن ننظر إلى الصورة كاملة من حيث هى حياة تضامت أجزاؤها ، وتلاشت فى كل ، وكأنها قطع من الذهب مختلفة الأشكال ، قد أذيبت وتشكل منها كُلُّ متماسك ، هو موضع النظر وموضع الاستنباط ، فالمقروء فى التركيب ليست كلماته المكوّنة له ، وإنما هو الصورة كلها التى صارت بمثابة كلمة لغوية واحدة ، ولو كانت مؤلفة من عشر جُمْل كآية يونس : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴾ (١) .

(١) يونس : ٢٤

عبد القاهر يكلفنا فكراً قادراً على التركيب ، يعنى أن ننظر إلى الكل المركب من هذه الأجزاء وأن يقيم الخيال صورتها المتنامية والمتكاملة ، من أول نزول الماء من السماء إلى أن أصبحت هشيماً كأن لم تغن ، ثم نتأمل هذا المركب الذى نصبناه بين عيوننا كأنه مشهد حى متحرك ، ونستخرج منه مثل الحياة الدنيا ، وهذا أشق من التحليل الجزئى مع مشقته ، لأن التصور الكلى لهذا المركب حتى كأنه بين عينيّ جملة واحدة عمل عقلى شاق ، لأن صورته لا تراها العين ، وإنما هى فى مضمرات اللغة لا بد أن تمر على عقلى كلمة كلمة ، أى جزءاً جزءاً ، حتى أستحضرها ، والمطلوب منى هو الرؤية الشاملة لها . لا بد أن تكون لدى قدرة على أن انتزع الصور من الكلمات ، وأن أضعها فى نسقتها من الهياة ، والتركيب ، ثم أبعد عن خيالى هذه الصور الجزئية ، لأقف أمام المركب الكلى ، وهكذا يصير عبد القاهر حتى تستطيع أن تتذوق جانباً من جوانب التصوير البيانى ، لا بد أن تتكوّن بين عينيّ صورةً الظبية ، من أول الخدول التى ترعى النواصف ، إلى خطاب الشاعر لها بالصبر ، وأن يتحرك هذا الكل حركة واحدة ، وأن تستوعبه نفسى استيعاباً واحداً ، كهياة أو كقصة ، أو كحالة ، ثم يكون واضحاً وضوح الجملة الواحدة ، وأن ألخص كل رموزه فى نظرة واحدة ، وأن أستخرج منها دلالاتها كما أستخرج دلالة « زيد منطلق » ، وهذا ضرب من الفهم لم ندرب عقولنا عليه ، وهو شاق وجيد وممتع .

ونختم هذا التشبيه بالإشارة إلى ما ختمه به وهو قوله :

فَاصْبِرِى النَّفْسَ إِنَّ مَا حُمِّ حَقٌّ لَيْسَ لِلصُّدُوعِ فِي الزُّجَاجِ اتِّفَاقٌ

وهو تشبيهه ضمنى ، أو تمثيل ضمنى ، لأن المراد تصوير الفضاء ، وأنه لا يدفع بكسر الزجاج الذى لا يُجَبَّر ، فلا مفر من التسليم بما نزل ، كما أنه لا مفر من القطع بأن ما كُسِرَ من الزجاج لا ينجبر ، وكأن حالة الزجاج هذه صارت مثلاً للتسليم ، وعدم المعالجة أو المحاولة ، وقد تكررت فى شعره ، ولكنها كانت

تصويراً لصدع فؤاده ، من الحب الذى فجأه ، وأنه لا سبيل إلى السلوى كما أنه لا سبيل إلى رَأْب صدع الزجاجة .

قال : قَبَّانَتْ وَفِى الصَّدْرِ صَدْعٌ لَهَا كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ مَا يَلْتَنِمُ
وقال : وَبَّانَتْ وَقَدْ أَوْرَثَتْ فِى الْفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَائِيهَا مُسْتَطِيراً ^(١)
كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ مَا تَسْتَطِيعُ عِ كَفِّ الصَّنَاعِ لَهَا أَنْ تُحْبِرَ ^(٢)
وقال : قَبَّانَتْ وَقَدْ أَوْرَثَتْ فِى الْفُؤَا دِ صَدْعاً يُخَالِطُ عَشَارَهَا
كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ مَا يَسْتَطِيعُ عِ مَنْ كَانَ يَشْعَبُ تَجْبَارَهَا ^(٣)

وتأمل وقارن واستخرج الصيغ التى تتكرر فى الكلام .

فصدع قلبه الذى قال فيه : « كصدع الزجاجة ما يلتئم » ولم يذكر الصنّاع ولا من كان يشعب ، قال فى الصّاحبة التى صدعت هذا الصدع المهمل :

أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تَلِمُ أُمُّ الْحَبْلِ وَأَهْ بِهَا مُنْجَذِمٌ

تأمل : « الهجر ، والإلمام ، والحبل الواهى المنجذم » : أى المقطوع .

والتي صدعت قلبه صدعاً لا تستطيع جبره « كف الصنّاع » ذكر أنه غَشِيَّ خَذَرَهَا بَلِيل ، وأنه اقتحم هذه المخاطر ، غير مُبالٍ بما يكون ، وأنها أَوْرَثَتْ فؤاده صدعاً مستطيراً .. قال :

غَشِيَّتْ لِيَلِي بَلِيلٌ خُذُورًا وَطَالِبَتْهَا وَنَذَرْتُ النُّذُورًا

وَبَّانَتْ وَقَدْ أَوْرَثَتْ فِى الْفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَائِيهَا مُسْتَطِيراً

تأمل هذا مجده غير الأول ، ولهذا كان الصدع لا يجبره ذو الكف الصنّاع ، وكانت هناك تلك الزيادة اللغوية ، وإن كان من المعلوم علماً يوشك أن يكون علم ضرورة أن صدع الزجاجة لا ينجبر .

(١) القصيدة ٤

(٢) القصيدة ١٢

(٣) القصيدة ٦٤

والصاحبة التى صدعت قلبه صدعاً لا يستطيع جبره مَنْ كان يشعب ، ليست كالأولى التى ذكر معها الهجر ، والحبل الواهى ، وليست كالثانية التى اقتحم خدرها بليل ، وإنما رأى ديارها فلما عرفها ارتاع :

لَمِثَاءَ دَارٍ عَفَا رَسْمُهَا فَمَا إِنْ تَبَيَّنَ أَسْطَارُهَا
وَرِيحَ الْفُؤَادِ لِعِرْقَانِهَا وَهَاجَتْ عَلَى النَّفْسِ أَذْكَارُهَا

وهذا البيت حسن جداً .

وهذا الذى أدلّ القارئ عليه مما حُبّبَ إلى فى درس الشعر ، والنظر فى سور القرآن الكريم ، وهو كشف مناسبة السياق التى دعت إلى زيادة لفظة هنا ، وحذفها هناك .

* * *

ومما كثر تكراره وتشبيهه فى ذكر المرأة : الشجر وما يتصل به من الأسنان ، وبياضها ، ودقتها ، وتناغمها ، وعذوبة مائها ، والبنان الذى يجلوها ، ولبيانه فى هذا طرائق خفية ، ومسالك دقيقة ، من ذلك قوله :

وَأَجْمَعَتْ صُرْمَنَا سُعْدَى وَهَجَرَتْنَا لَمَّا رَأَتْ أَنْ رَأْسِي الْيَوْمَ قَدْ شَابَا
أَيَّامَ تَجَلَّوْنَا عَنْ بَارِدِ رَيْلٍ تَخَالُ نَكْهَتُهُ بِاللَّيْلِ سُبَابَا
ذكر الشجر وإشراقه ، ونضد الأسنان ، واتساقها .

وقوله : « وتجلو لنا » : أى تكشف لنا ، والرَّيْلُ : ذو النسق - وهو بكسر التاء ، ودلّ على الشجر بكلمة : « بارد » لأنها تصف ماءه . والسيَّابُ : البلح ، وقوله : « بالليل » نص على المتوهم كما يقول الفقهاء ، لأن الليل مظنة التغيير ، والبيت الأول واضح المعنى ، والصُّرْمُ - بضم الصاد : القطع ، وأجمعت صُرْمَنَا : أى أجمعت أمرها على قطعنا .

وتأمل دقائق الصنعة فى البيت الثانى ، مستحضراً معنى البيت الأول ، لأنها فى البيت الأول أجمعت الأمر على قطيعته ، وإهماله ، وهجره ، وسبب ذلك أنها رأت رأسه قد شاب ، وهذا خُلِقَ ردىء ، أغاظ الشاعر ، فذكر قوله : « تجلّو لنا » : أى أنها كانت يوماً ما تأخذ زينتها له خصوصاً ، ثم وصف ماء الشجر بأنه بارد ، وفيه وحى بأنه خالطها ، ثم ذكر نكهته ، وذكر الليل ، وكل هذا لَدَع لهذه صاحبة ، التى جمعت أمرها على صُرمه ، لما رأت رأسه قد شاب .

وتأمل قوله الآخر الذى لم يذكر فيه ما كان بينه وبين صاحبة ، ولم يذكر وصفاً يُشعر بأنه خالطها ، لأنها لم تجمع عزيمتها على قطعه وهجره ، وإن كان شبيهه قد ذهب بجماله ، ورونقه ، وبشاشته .

قال : وَمَهَا تَسْرِفُ غُرُوبُهُ يَشْفَى الْمُتَيْمَ ذَا الْحَرَارَةِ
كَذَرَى مُنَوَّرٍ أَقْحُوا نِ قَدْ تَسَامَقَ فِي قَرَارَةٍ (١)

والمها : البلور ، والمراد : الأسنان ، وترف غروب : أى يبرق غربه ، والغرب : حدة الأسنان ، وهذا الوصف ملائم لكلمة : « مها » التى هى البلور ، لأنه غاية فى الصفاء والخلوص ، ورف غربه : برق ، ويكون ذلك لشدة الصفاء ، والمتيم : العاشق الذى يجد حرَّ العشق ، والأصل أن حرَّ العشق لا يبرد ، فإذا ذكر الشاعر أن ماء الشجر يُطفئ حرَّ العشق فإنما أراد التوق الحسى ، وهو هنا لا يذكر نفسه ، وإنما يقول : « المتيم ذَا الحرارة » ، والبيت الثانى تشبيه الأسنان بأطراف الأقحوان المنور ، وهنا تدقيق شديد ، والأقحوان : نبت زهره أبيض ، وتُشَبَّه به الأسنان ، والأعشى يذكر : « ذراه » وهذا تدقيق يتم به الشبه ، ثم قال : « مُنَوَّرٍ أَقْحُوا » ولم يقل : الأقحوان المنور ، لأن فى تقديم المنور عناية أكثر ، كما تقول : بياض الوجه وجمال العين وحلاوة الكلام ، بدل : الوجه الأبيض ، والعين الجميلة ، والكلام الحلو ، وهذا ظاهر ، ثم إن الأعشى ذكر ارتفاعاً آخر وكأنه

يشدنا إلى الذروة مرة ثانية وذلك قوله : « قد تسامق » - أى ارتفع ، ثم قال : « فى قرارة » فذكر الخصوبة التى قد هذا الأتقوان السامق ، وهكذا صار إشراق الفم كأنه يبرز من خدر الشمس أو من دارة النجوم وأبراج الكواكب ، وهذا غاية الصون ، وهذا المعنى الذى هو غاية الصون والمدلول عليه بالرمز البعيد والوحى الخفى - كما ترى - له رجع بعد أبيات حيث يقول :

تَبَلَّتْكَ ثُمَّتَ لَمْ تَنْلِ نَكَ عَلَى التَّحْمِلِ وَالْوَقَارَةِ
وَمَا بِهَا أَنْ لَا تَكُو نَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى بَسَارَةِ
إِلَّا هَوَاؤُكَ إِذْ رَأَتْ مِنْ دُونِهَا بَابًا وَدَارَةَ

والمراد بقوله : « تبلتكَ » : أى تيمتكَ وذهبت بعقلك ولم تعطك شيئاً مع أنك متجمل - أى مظهر عدم الحاجة ، ومظهر الوقار ، حتى لا تفضح أمرها ، وقوله : « وما بها » معناه وأى شئ يصيبها ، يعنى : لا شئ يصيبها ، إذا كنت محروماً لا تجد منها عطاءً ، ولا ثواباً ، يعنى أن أمرك لا يهمها ، و « الباب » و « الدارة » يعنى أنها مصونة وهواؤك لا يشغلها .

وقد ذكر الثغر فى كلام قريب من هذا ، وذلك قوله :

وَتَبَسُّمٌ عَنْ مَهَا شَبِمْ غَرَى إِذَا يُعْطَى الْمُقْبَلُ يَسْتَزِيدُ (١)

والمها : البلور ، والشبم : البارد ، وقد ذكر هنا عذوبة الماء بطريق الكناية فى قوله فى الشطر الثانى : « إِذَا يُعْطَى الْمُقْبَلُ يَسْتَزِيدُ » و « يعطى » : مبنى للمجهول و « الْمُقْبَلُ » مفعول ثان ، ونائب الفاعل ضمير يعود على الشبم الغرى ، والغرى : البارد ، والشاعر هنا لم يذق هذا الشبم الغرى ، والصاحبة فى مكان بعيد يرى الشاعر نارها ويدل القوم على هذه النار ، ثم هو يتحرق شوقاً إليها وهذا لا يناسبه أن يقول : إنه ذاق ماء الثغر :

أَرَيْتَ الْقَوْمَ نَارَكَ لَمْ أَغْمُضْ بِوَاقِصَةٍ وَمَشْرِئَنَا زُرُودُ
فَلَمْ أَرْ مِثْلَ مَوْقِدِهَا وَلَكِنْ لَأَيَّةِ نَظَرَةٍ زَهَرَ الْوَقُودُ
أَضَاءَتِ أَحْوَرَ الْعَيْنَيْنِ طِفْلاً يُكْدُسُ فِي تَرَائِيهِ الْفَرِيدُ
وَوَجْهًا كَالْفِتَاقِ وَمُسَبْكِرًا عَلَى مِثْلِ اللَّجِينِ وَهْنٌ سَوْدُ
وَتَبَسُّمٌ عَنِ مَهَا شَبِمْ غَرِيًّا إِذَا يُعْطَى الْمُقْبَلُ يَسْتَزِيدُ

يقول : « أَرَيْتَ الْقَوْمَ نَارَكَ » ولم أنم فى هذا المكان ، وواقصة : ماء لبنى سعد ، وزرود : موضع قرب الكوفة ، يقول : إنه لم ير موقداً مثل هذا الموقد ، وقد رأى ضوءاً زاهراً ، ثم يتعجب من النظرة التى وقعت على هذه النار التى عشقها ، ثم وَهَمَ فتوهم ، وَتَخَيَّلَ فخال ، رأى هذه النار البعيدة تُضِيءُ أَحْوَرَ العينين ، رَخْصاً : رطباً ، عليه القلائد الفريدة تتراكم وتتكدس ، وفيه إيماء قريب إلى الظبية ، ثم رأى وجهها يُشرق تحت هذا الضوء الأزهر ، كأنه فتاق - بكسر الفاء : أى قرن الشمس إذا انفتق عنه الغيم ، ويكون أحسن ما يُرى جلاءً ، وضياءً ، أو هو أصل اللَّيْفِ الأبيض ، وَتُشَبَّهَ به الوجه فى النقاء ، والصفاء ، أو هو كل ما يَنْفَتِقُ عنه غيره مما يججبه ، ومنه قولهم : فتق فلان الكلام ؛ إذا وسعه ، وهذا تشبيه حسن وغريب ، وترى الشاعر هنا يُلَمِّمُ بمواطن الحسن إماماً مختصراً باهراً ، يغلب عليه وصف الصفاء ، والنفاسة ، وقد ذكر الدُّرَّ ، واللَّجِينَ ، والبلُورَ متتابعات فأضفى الصفاء ، والصون ، والنعمة ، وصارت الصاحبة ضوءاً مشرقاً ، تزيدها هذه اللآلىء إشراقاً ، وجمالاً .

تأمل قوله : « أَضَاءَتِ أَحْوَرَ الْعَيْنَيْنِ » : يعنى أن الموقد الأزهر الذى لم يَزْ مثله أضاء هذه الصاحبة ، فهو لم يُنَوِّرْ مكانها ، وإنما أضاءها هى ، أى جعلها ضوءاً ، وهذا غريب وجيد ، والأعشى هنا يتأنق فيما تراه العين ، لأن السياق أنه رأى النار وأراها القوم ، فشاع معنى الرؤية ، وشعره هذا من الشعر الجيد ، وقد وصف الليلة وصفاً بارعاً فى قوله :

كَأَنَّ نُجُومَهَا رُبِطَتْ بِصَخْرٍ وَأَمْرَاسٍ تَدُورُ وَتَسْتَرِيدُ
إِذَا مَا قُلْتُ حَانَ لَهَا أَفُولُ تَصَعَّدَتِ الثُّرَيَّا وَالسُّعُودُ
فَلَأَيَّأَ مَا أَقْلَنَ مَخَوِّاتٍ خُمُودَ النَّارِ وَأَرْقُضُ الْعُمُودُ

والمراد بقوله : « تستريد » أى تدور وترعى . وهذا قريب من قول امرئ القيس :

فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلِ شَدَّتْ بِبِذْلِ

والأمراس : الحبال ، والفرق كبير بين الكلامين . تأمل التعجب فى بيت امرئ القيس ، وتأمل « كل مغار الفتل » ، وأنها ربطت بحبل ، والذي عند الأعشى ربطها بالصخر والحبال ، والتعجب فى قول امرئ القيس ، تعجب من طول الليل .

والبيت الثانى فى شعر الأعشى حسن جداً ، و « تصعدت » معنى : ظهرت وبرزت . و « السعود » : مجموعة من النجوم تشبه الثريا .

واللأى : البطء الشديد المتثاقل ، وأفول النجوم : غروبها ، والمخويات : الساقطات من خوى النجم : أفل وغرب ، وخمود النار تشبيه : أى خمدت النجوم خمود النار ، وأرقض : تفرق ، وعمود الصبح : ضوؤه .

والشاعر فى التشبيه الأول : « وَمَهَا تَرْفُ غُرُوبِهِ » ...

قريب من الصاحبة ، يتأمل ويستقصى . كذرى منور أقحوان .. وقد ذكر قبل التشبيه ما يشير إلى قرينه :

وَسَبَّتْكَ حِينَ تَبَسَّمْتَ بَيْنَ الْأَرِيكََةِ وَالسُّتَارَةِ
بِقَوَامِهَا الْحَسَنِ الَّذِي جَمَعَ الْمَدَادَةَ وَالْجَهَارَةَ
كَتْمِيلِ النَّشْوَانِ يَرُفُ فُلُ فِي الْبَقِيرَةِ وَالْأَزَارَةَ
وَجَيْدِ مَغْزَلَةٍ إِلَى وَجْهِ تَزِينُهُ النَّضَارَةَ

وَمَهَا تَرِفٌ غُرُوبُهُ يَشْغِي الْمُتَيِّمَ ذَا الْحَرَارَةِ
كَذَرَى مُنُورٌ أَفْحُوا نِ قَدْ تَسَامَقَ فِي قَرَارَةِ
وَعَدَائِرِ سُودٍ عَلَى كَفَلٍ تُزَيِّنُهُ الْوَثَارَةِ

الأريكة : سرير يكون أول البيت قبل الستارة ، والمدادة : الطود ، الجهارة :
المنظر الرائع ، من قولهم : جهره ما يرى : أى راعه ، والبقيرة : ثوب يُشق
ويُلبس من غير أكمام ، والكفل : الردف : والوثارة : الامتلاء .

والشاعر هنا قريب يراها بين الأريكة والستارة ، ويرى امتدادها ، وببهره
جمالها ، ويرى حركتها ودلّها ، وقايلها ، ويتأمل ثيابها وأعضاءها ، ويدقق
فى كل ما يرى .

وفى الدالية : وَتَبَسُّمٌ عَنْ مَهَا شَبِّمٍ غَرِيٌّ إِذَا يُعْطَى الْمُقْبَلُ يَسْتَزِيدُ

رأى نارها ، وتوهم ثم وهم ، ولهذا كانت صورته أشبه بالحلم ، والمرأة فيها
فنارة تضىء ، وفتاق يتلألأ مع القلائد المتراكمة ، ونحن هنا ندل على طريق فهم
الصور وارتباطها بسياقها فحسب ، ولا شك أننا نُغفل ما فى التشبيهات من
دقائق حينما ندرسها شواهد فى كتب البلاغة ، لأنها هناك تعطينا ما نريده من
تقرير الأصول ، وتظل فى التشبيه غوامض كثيرة ، كالأكمام المكنونة ، لا تفتُر
لك عن بديعة ، ولا تُفضى بك إلى لطيفة كما يقول الإمام . والعناصر المكوّنة
للتشبيه سواء أكان مُركباً ، أو مُقيداً ، ذات صلة ببقية العناصر اللغوية
والمعنوية المكوّنة للقصيدة ، كما بيّنا فى كثير من التحليلات ، ثم إن دراسة
هذه العناصر نفسها ، أو ما يشبهها فى قصيدة أخرى وربطها ببقية العناصر
البيانية فى القصيدة ، ومقارنة هذا بذاك مما يفتح الأكمام عن المكنون ، فكيف
إذا تتبعنا الديوان كله أو العصر كله ؟ لا شك أننا نجد فرقاً واضحاً فى رحابة
التحليل وتنوع مجالات التدقيق ، بين دراستنا للمرأة فى تشبيهات الأعشى ، فى
قصيدة واحدة ، وبين دراستنا للمرأة فى تشبيهات الأعشى فى شعره كله ،

وكذلك فى دراستنا لتشبيهات المرأة فى الشعر الجاهلى كله ، هذه الدوائر الثلاث تختلف اختلافاً ظاهراً من حبت توفر عناصر الكشف والتذوق ، وكلما كانت الدائرة أوسع ، كانت الأضواء المساعدة على إذاحة الغموض عن اللطائف والرقائق أكثر ، والموضوع كله لا تجده فى كتب البلاغة ، وإنما تجد هناك الأصول والأسس التى تُعين على الدراسة ، وكأن هذا مجال آخر يرتبط بالمجال الأول وليس هو .

وقد تردد ذكر الأقحوان وذراه وشوك السَّيَال وشتيت النبات فى وصف الأسنان من ذلك قوله :

وَوَجْهَهُ نَقَى اللَّوْنِ صَافٍ تَزِينُهُ مَعَ الْحَلَى لَبَّاتُ لَهَا وَمَعَاصِمُ
وَتَضْحَكُ عَنْ غُرِّ الثَّنَائِيَا كَأَنَّهُ ذُرَى أَقْحُوانٍ نَبَتْهُ مُتَنَاعِمُ

تأمل البيت الأول تجد أن الأعشى يذكر حقيقة هى أن اجتماع العناصر ذات الجمال والصفاء ، يُضفى بعضها على بعض جمالاً ، يعنى أنه حين يجتمع حُسن وحُسن يكون لنا منهما حُسن ثالث هو اجتماعهما ، وكأن الجمال يلد جمالاً ، فالوجه النقى الصافى ، تزيده اللُّبَات ، والمعاصم ، جمالاً ، واللُّبَات : جمع لُبَّة ، وهى موضع النحر ، وهكذا المعاصم تزين اللُّبَات ، والوجه يزين المعاصم ، الكل يُفرغ على الكل صفاءً وبهاءً ، وهذا نوع من التناغم يعنى ضم العناصر الجمالية بعضها إلى بعض ، وقد ذكر التناغم فى البيت الثانى ، وهذا يعنى أن الإحساس بالتناغم جرى فى البيت الأول ، ثم نما هذا الإحساس فذكره بلفظه فى البيت الثانى ، والتناغم ليس فقط وصفاً لنبت ذُرَى الأقحوان ، وإنما أيضاً للوجه المتناغم ، مع حلَى اللُّبَات ، وجمال المعاصم .

وقد ذكر الأقحوان فى موضع آخر ولم يذكر قبله صفاء الوجه الذى يزينه مع الحلَى لُبَّات له ومعاصم ، وإنما ذكر الشدى والجيد .

قال : وَثَدَيَانِ كَالرَّمَانَتَيْنِ وَجِيدُهُمَا
كَجِيدِ غَزَالٍ غَيْرَ أَنْ لَمْ يُعْطَلِ
وَتَضْحَكُ عَنْ غُرِّ الثَّنَايَا كَأَنَّهُ
ذُرَى أَقْحُوَانٍ نَبْتُهُ لَمْ يُفْلَلِ
تَلَاثُوهَا مِثْلُ اللَّجَيْنِ كَأَنَّمَا
تَرَى مُقْلَتَي رِيَمٍ وَلَوْ لَمْ تَكْحَلِ

الشعر فى التشبيه الأول كان يتفقد الوجه الصافى النقى ، وفيه الشجر الضاحك
عن غر الثنايا ، والشعر هنا يَتَصَوَّبُ ويتصعدُ فيحدث عن الثدى ، ثم يقفز إلى
الجيد ، ثم الشعر ، ثم المقلتين ، وهكذا تجد المعانى لها فى كل موضع حركة
واتجاه .

والجيد المعطل : هو العاقل من الحلى ، والنبت الذى لم يُعَلَّلْ : يعنى لم
يُكَسَّرْ ، فهو تسليم معافى ، وهذه الكلمة فى البيت الثانى : « نبتة لم يعلل »
وقعت موقع تناغم فى التشبيه السابق ، وليس الموضع موضع التناغم هنا لأن
التناغم هناك تلاقى مع بقية الأضواء ، وعناصر الحُسن التى ينتظم بعضها مع
بعض ، فتتشارب ، وقد ربط الشاعر هناك بين العناصر ، ونُضْدَهَا ، وذلك بقوله :
« يزينه » فأدخل اللبّات والمعاصم فى زين الوجه ، وهذا من التناغم ، وهو هنا
لم يربط بين العناصر ، وإنما يصف كل واحد منها ، وهو مفرد غير منظوم مع
صاحبه ، فالثديان كالرمانتين ، والجيد كجيد الغزال ... وهكذا ، وكأن حبات
الشعر هنا غير منظومة ، وإنما هى مُرسلة كل جوهرة وحدها ، وهذا هو معنى أن
التناغم ليس له موضع هنا ، ثم إن الأقحوان - أو ذُرَى الأقحوان - يأتى غالباً
مع الضحك ، والتبسم ، لأن هذا هو الذى يُظهر جمال الأسنان ، كما أن شتيت
النبات - وهو قليل - يأتى مع التبسم ، وقد جاء ذلك فى قوله :

وَمُبْسِمَهَا عَنْ شَتِيَةِ النَّبَا تِ غَيْرُ أَكْسٍ وَلَا مُنْقَضِمٍ

وشتيت النبات : المتفرق منه ، وشبه به تفرق الأسنان ، والأكس : القصير ،
والمنقضم : المقطوع .

وهذا وصف ضعيف إذا قيس بالأوصاف السابقة ، والشاعر فى هذه الأبيات لا يجد توقاً يدعو له لأن يتمكن شعره عند محاسن صاحبة ، وقد جاء بعد هذا البيت قوله الذى سبق :

فَبَانَتْ وَفَى الصُّدْرِ صَدْعٌ لَهَا كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ مَا يَلْتَمِمْ
وأول القصيدة قوله :

أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تُلِمُّ أَمْ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمٌ (١)
ويقول فيها :

وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا الصَّبَى وَالْأَعْقَابَ أَمْرِي قَدْ أَثِمُّ
ثم يقول : « ومبسمها عن شتيت النبات » ... إلى آخره

وهذا واضح فى فتور الشعر ، وحديثه عن صاحبة ، ولم يذكر شيئاً من محاسنها ، إلا هذه الابتسامة ، فلم يذكر وجهها ، ولا لُبَّة ، ولا معصماً ، ولا ثدياً ، ولا جيداً ، ولا شيئاً من ذلك .

وهذا هو سياق « شتيت النبات » فى ذكر الأسنان ، فى هذا الشاهد ، وقد شبه الأسنان بشوك السَّيَال ، وذكر سواد اللثة :

قال : وَتَفْتَرُ عَنْ مُشْرِقٍ بَارِدٍ كَشَوْكِ السَّيَالِ أَسْفُ النُّوُورِ (٢)

والمشرق البارد : الشجر ، والسَّيَال : نبات شديد البياض ، وتُشَبَّه الأسنانُ بشوكه ، يريد البياض والدقة ، وسف النُّوُور : كناية عن سواد اللثة ، وهو مما يشرق به بياض الأسنان ، والنُّوُور : شجر يُحْرَق ، ويُستعمل فى الوشم ، و « سف النُّوُور » كثير فى الشعر الجاهلى ، قليل فى شعر الأعشى .

وقد افْتَنَّ فى وصف صاحبة فى هذه القصيدة ومطلعها :

غَشِيَتْ لِلْيَلَى بِلَيْلٍ خُذُورًا وَطَالَبَتْهَا وَتَذَرَتْ النُّذُورًا

وقد درسنا منها قوله :

كَصَدْعِ الرُّجَاةِ مَا تَسْتَطِيعُ عِ كَفِّ الصَّنَاعِ لَهَا أَنْ تُحِيرَا

وسنقتبس منها شواهد أخرى .

وقد ذكر قريباً من هذا ، ووضع السواد موضع النور في بيت سلخه من شعر النابغة :

تَجْلُو بِقَادِمَتِي حَمَامَةَ أَيْكَةٍ بَرَدًا أَسِفٌ لِثَاثَةِ بِسَوَادٍ

وقال النابغة :

تَجْلُو بِقَادِمَتِي حَمَامَةَ أَيْكَةٍ بَرَدًا أَسِفٌ لِثَاثَةِ بِالْأُثْمِيدِ

وقادمتا الحمامة : أطول ريش جناحها ، وهو أكثر الريش صفاءً وملاحة ، وتُشَبَّه به الشفة ، وأراد انكشاف أسنانها ، بانفراج شفتيها اللتين يشبهان قادمتي حمامة .

ولم يذكر الأعشى الشفة مقترنة بقادمتي حمامة إلا في هذا البيت .
ومما ذكر فيه أطراف السيال قوله :

تَجْرِي السَّوَاكُ بِالْبَنَانِ عَلَى أَلْمَى كَأَطْرَافِ السِّيَالِ رَتِلٌ

ليس هذا كقوله : « تجلو بقادمتي حمامة » ، لأنها هنا تُجْرِي السَّوَاكُ بيديها ، والألمى : اللثة التي فيها سمرة ، ولم يذكر أنه أسِفٌ بسواد ، ولا أنه أسِفٌ بنزور ، لأنه اكتفى بقوله : « أَلْمَى » .

والبيت الذي اقتبسه من النابغة أجراه في قصيدة :

أَجْبِيرُ هَلْ لَأَسِيرُكُمْ مِنْ فَادِي أَمْ هَلْ لَطَالِبِ شِقَّةٍ مِنْ زَادٍ

وقد أحسن وصف الصاحبة ووصف لاجعه .

* * *

أما عذوبة ماء الثغر ، فقد أفتن فيه ، ودار تشبيهه حول الخمر ، والعسل ،
والزنجبيل ، والتفاح ، والماء البارد ، وكان الخمر أكثر هذه العناصر دورانا ، وهى
المناسب لأحوال اللذة ، وقد أفتن فى العسل وكان رائعا فى تصوير اشتيائه .

وفى بعض تشبيهاته كان يجمع أكثر هذه العناصر ، كما فى قوله (١) :

كَأَنَّ جَنِيًّا مِنَ الزُّنْجَبِيلِ — لِي خَالِطَ قَاهَا وَأَرِيًّا مَشُورًا
وَأَسْفِنُطَ عَائَةً بَعْدَ الرُّقَا دِ سَاقَ الرُّصَافِ إِلَيْهَا غَدِيرًا

وجنى الزنجبيل : ما يُجنى منه ، والأرى : العسل ، والمشور : المشتار : أى
الذى استخرج من الخلية ، وأسفنط - بكسر الفاء : خمر من خمور الشام ،
والرصاف : الحجارة المتراصة يتخللها الماء إلى الغدير ، وهذا معنى قوله :
« ساق الرصاف » برفع الرصاف ، وكأن الحجر يسوق الماء لأنه هو الذى يأذن
بمروره ، والماء الذى يخالط الخمر وتمزج به يكون فى الشعر محفوظاً بتمام
الصون ، والصفاء ، والنقاء ، وغالباً ما يكون منحدرًا من الرصاف .

وماء الثغر هنا ممزوج من الزنجبيل ، والعسل ، والخمر ، والشاعر لم يجمع
هذه الأصناف فى فم صاحبة كما جمعها هنا ، وهى القصيدة التى سبقت
الإشارة إليها :

غَشِيَتْ لَيْلِي لَيْلِي لَيْلِي خُذُورًا وَطَالَبَتْهَا وَتَذَرَتْ التُّدُورًا

وهذا اقتحام جسور ، لأن ليلى هذه لها ملك : أى زوج شديد الغيرة ، بجانب
مخالطة الناس من شدة غيبرته ، حتى إنه يحث عبيده على غض الطرف ، وكان
الأعشى رجلاً قد فنى وتضعضع :

رَأَتْ رَجُلًا غَائِبَ الْوَأْفِدَيِّ مِنْ مُخْتَلَفِ الْخَلْقِ أَعْشَى ضَرِيرًا
فَإِنَّ الْحَوَادِثَ ضَعُضَعَتْنِي وَإِنَّ الَّذِي تَعْلَمِينَ اسْتَعِيرَا
إِذَا كَانَ هَادِي الْفَتَى فِي الْبِلَا دِ صَدْرُ الْقَنَاءِ أَطَاعَ الْأَمِيرَا
وَحَافَ الْعِثَارَ إِذَا مَا مَشَى وَحَالَ السُّهُولَةَ وَعَثَا وَعُورَا

الوفدان : العيان لأنهما يذهبان بعيداً ويفدان بما رأيا ، ومختلف الخلق : متغير ، والذي تعلمين : هو الشباب .

والأمير : هو قائده : وسماه أميراً لأنه مطاع ، وصدر القنائة : أى عصاة الأعمى ، والوعث الوعور : الطريق غير الآمن .

واقترحام شاعر - وصف نفسه بما ترى - خدر امرأه مصونة يغار عليها زوجها أشد الغيرة ، وقد وصف غيرته بقوله :

لَهَا مَلِكٌ كَانَ يَخْشَى الْقِرَافُ إِذَا خَالَطَ الظَّنُّ مِنْهُ الضَّمِيرَا
إِذَا نَزَلَ الْحَى حَلَّ الْجَحِيشُ شَقِيئاً غَوِيّاً مُبِيناً غَيُورَا
يَقُولُ لِعَبْدِيهِ حُثَا النُّجَا وَغَضًّا مِنَ الطَّرْفِ عَنَّا وَسِيرَا

وببالغ فيقول :

وَلَيْسَ بِمَانِعٍهَا بَابَهَا وَلَا مُسْتَطِيعٍ بِهَا أَنْ يَطِيرَا

والقراف : المخالطة ، يعنى أنه كان لا يخالط أحداً غيراً على أهله ، وأنه كان كثير الظنون ، وأن ظنونه تستحكم عنده ، ونخالط ضميره ، وإذا نزل الحى فى مكان حلّ هو بعيداً عنهم ، وهذا معنى قوله : « حل الجحيش » ، ويقول : لعبدية : أسرعاً وغضاً الطرف ، وهو بهذه الغيرة لا يستطيع منعها عن بابها ، ولا أن يطير بها .

أقول : إن اقتحام رجل غائب الوافدين ، يطيع الأمير ، ضعضته الحوادث ،
خدر امرأة ينزل بها صاحبها الجحيش ، أى منفرداً ويكاد يطير بها حتى لا يراها
الناس ، يوجب علينا أن نتوقف وأن ننظر فى هذا الشأن الذى هو شأن شعري
أو بيانى ، ونقول : أى معنى لاقتحام الأعشى خدر هذه الصاحبة ؟ ولو لم يصف
ضعفه وضعضته وزمانته لما دعانا اقتحامه الخدر إلى التوقف والنظر ، لأن
الشعراء كثيراً ما يذكرون هذا ، ونعده من أبواب البطولة ، والفحولة ، والصبوة
التي يتغنى بها الشعر ، وإنما حديثه عن زمانته ، وعجزه ، ما له وما له اقتحام
خدور النساء ، لقد بالغ فى وصف الزمانة حتى لثراه ضعيفاً ، مسكيناً ، يتسكع
بعكازه هائباً حذراً من وعشاء الطريق ، وكأنه واحد من الذين يتعرضون
للصدقات كما تراه فى كل البلاد .

ولا نجد فى كلام الناس ما يُعين على بيان هذا ، بل لم نجد من أثار أمثال
هذه الأسئلة فى الشعر وبلاغته ، ولهذا جاز لنا أن نجتهد فى الإجابة ولا حرج
من الخطأ ، لأن الخطأ نصف الطريق إلى الصواب .

وأقرب ما نجده فى بيان ذلك هو أن القصيدة فى مدح هُوَذة بن على الحنفى
(بفتح الهاء وسكون الواو) وكان ملكاً على قومه (بنى حنيفة) ، وهم فرع من
بكر بن وائل ، وكان أحد جبابرة ملوك العرب ، وكانت يده تصل إلى ما يريده ،
لا يمتنع عليه شيء طلبه ، ولما أرسل له الرسول الكريم كتابه يطلب فيه الدخول
فى دين الله قبل ، بشرط أن يكون له الأمر بعد النبى ﷺ ، لأنه لم يكن يرى
أحداً من العرب فوقه ، حاشا رسول الله ﷺ ، وذلك لهيبة النبوة التي وجدها
الرجل فى صدره ، واقتحام الأعشى خدر امرأة يصونها زوجها أحسن ما يكون
الصون ، ويرعاها أحكم ما تكون الرعاية ، متلائم فى مخاطبة ملك لا تمتنع عنه
حوزة ، وقد ذكرنا أن اقتحام الشعر خدور النساء شيء مألوف ، وقد ذكر
الأعشى زمانته ليكون اقتحامه ليس من الاقتحام المألوف ، وبذلك يُنبّه إلى
ما رأينا الشعر يرمز إليه .

وإذا صَحَّ هذا يكون ذكر العناصر المجتمعة في وصف عذوبة الريق ، إنما هو للإيحاء بأن الشاعر خالط هذه المكنونة الممنوعة ، وأنه ذاق ماءها ، وهذه غاية الحوزة ، وقد أشار إلى ما يشبه ذلك في مواقع أخرى من القصيدة ، وقد وصف من ليلى الممنوعة هذه أوصافاً لا يصفها إلا مَنْ خالط ، وكان يأتى بهذه الأوصاف عقب حفاوته بتصوير غيرة زوجها ، يقول بعد ما فرغ من ذكر غيرة الرجل وجِدته وشدته :

وَتَبَرَّدُ بَرْدَ رِدَاءِ الْعَرُوسِ سِ رَقْرَقَتْ بِالصَّيْفِ فِيهِ الْعَبِيرَا
وَتَسْخُنُ لَيْلَةً لَا يَسْتَطِيعُ نُبَاحًا بِهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرَا

وذكر « رداء العروس » وأنه رقرق فيه العبير ، إيماء إلى حوزتها من منعته ، وكأنها تُزَفُّ عروساً لهذا الذى انتزعها وغلب عليها .

وشعر الأعشى فى مدح هَوْدَة شعر متميز بنغمٍ حى ، وإيقاع مَوَات الرنين ، وقد تأنق الأعشى فى بيان أحوال الخمر التى يصف بها ماء الثغر ، فهى خمر معتقة ، من الإسفنت مخروجة بماء زلال .. يقول :

وَكَاَنَّ الْخَمْرَ الْعَتِيقَ مِنَ الْأَسْفِنِ طِ مَمْرُوجَةٌ بِمَاءِ زُلَالٍ
... بَاكَرَتْهَا الْأَغْرَابُ فِي سِنَةِ النَّوْمِ م ، فَتَجَرَّى خِلَالَ شَوْكِ السَّيَالِ

وصَفَ الخمر فى البيت الأول بما ترى ، ثم ذكر فى البيت الثانى جريانها متخللة الأسنان ، والأغراب : جمع غَرَب ، وهو حد الأسنان ، وقد جاء وصف الأسنان وتشبيهها بشوك السَّيَالِ تابعاً لوصف عذوبة ماء الأسنان وهذا دمج حسن ، وقد جاء عكس هذا يعنى جاء وصف ماء الأسنان تابعاً لوصف الأسنان فى قوله :

تَجَلَّسُوا بِقَادِمَتَيْ حَمَامَةٍ أَيْكَةٍ بَسْرَدًا أَسِفٌ لِثَائِتِهِ بِسَوَادٍ
عَذْبَاءُ إِذْ سُئِلَ الْخِلَاسُ كَأَنَّمَا شَسْرَتٌ عَلَيْهِ بَعْدَ كُلِّ رَقَادٍ
صَهْبَاءُ صَافِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَوْدِقَتْ شَجَّتْ غَوَارِبُهَا بِمَاءِ غَوَادِي

ذكر هنا الأسنان واللثة السمراء التى أسفت بسواد ، وأشربته ، ثم ذكر
الخلّاس ، أى أنه يُذاق اختلاصاً ، أى حين يختلسها صاحبها ، أى يخلو بها ،
وهذه الكلمة لها رنين داخل القصيدة ، وذلك فى البيت رقم ٢١ الذى يقول :

وَلَقَدْ أَخَالَسُهُنَّ مَا يَمْنَعُنِي عَصْرًا يَمْلَنَ عَلَى الْأَجْيَادِ

أراد « البيض » فى البيت السابق ، والعصر : الدهر ، والأجياد : الأعناق ،
وقوله : « إذا ما استودفت » أى صُفِّيت وقُطِرت ، وقوله : « شجت غواربها »
أى مزجت وذهب غربها ، وقتلت حدتها .

ومما ذكر فيه الأسنان وماءها ولم يذكر الخمر وإنما ذكر حلاوة البلح ، قوله :

أَيَّامَ تَجْلُو لَنَا عَنْ بَارِدِ رَتِلٍ تَخَالُ نَكْهَتَهُ بِاللَّيْلِ سِيَّابًا (١)

والبارد الرّتل - بكسر التاء : الأسنان المتسقة ، والنكهة : الطعم ،
والسيّاب : البلح ، ولم يكن هنا صاحب شهوة ، وإنما هو صاحب ذكرى ، يذكر
ذلك بعد ما شاب :

بَانَتْ سَعَادٌ وَأَمْسَى حَبْلُهَا رَابًا وَأَحْذَثَ النَّأْيُ لِي شَوْقًا وَأَوْصَابًا
وَأَجْمَعْتُ صُرْمَنَا سَعْدَى وَهَجَرْتَنَا لَمَّا رَأَتْ أَنْ رَأْسِي الْيَوْمَ قَدْ شَابًا
أَيَّامَ تَجْلُو لَنَا عَنْ بَارِدِ رَتِلٍ تَخَالُ نَكْهَتَهُ بِاللَّيْلِ سِيَّابًا

وقد مزج الماء بالأسنان ، فى قوله : « بارد رتل » لأن البارد : هو الماء ،
والرتل : نسق الأسنان ، والنكهة : للبارد ، وكأنه جعلهما شيئاً واحداً ، وراب
حبلاً : ضعف ، وهذه حالة ذهبت فيها الصبوة ، وهى غير حالته فى القصيدة
الدالية التى اقتبسنا منها الأبيات السابقة ، لأنه كان هناك ذا صبوة حيّة وجد
فى نفسه حُرقة للصاحبة ، ولا يزال خيالها يعتاده :

إِنْ كُنْتُ لَا تَشْفِينُ غُلَّةَ عَاشِقٍ صَبَّ يُحِبُّكَ يَا جَبِيرَةَ صَادِي
فَإِنْ هِيَ خَيَالُكَ أَنْ يَزُورَ فَإِنَّهُ فِى كُلِّ مَنْزِلَةٍ يَعُودُ وَسَادِي (٢)

تأمل كلمة : « عُلَّة ... وصب .. وصادى » .

ومما ذكر فيه الخمر قوله :

تُعَاطِي الضُّجَيْعَ إِذَا أَقْبَلْتُ بُعَيْدَ الرُّقَادِ وَعِنْدَ الْوَسَنِ
صَلِيفِيَّةً طَيِّباً طَعْمُهَا لَهَا زَيْدٌ بَيْنَ كُوبٍ وَدَنْ
يَصُبُّ لَهَا السَّاقِيَانِ الْمِرَا جَ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ مِنْ مَاءِ شَنْ

ولم يصف الأسنان ، لأن رأس الكلام ما تعاطيه الضجيج بعد الرقاد ، وفى هذه القصيدة ذكر فجوره ، وشرابه ، والصليفيه : الخمر المعتقة ، والدن - بفتح الدال : الزق الذى تعتق فيه الخمر ، والخمر هنا ثائرة فائرة لها زيد يكسر الساقيان حدثها بالمزاج منتصف الليل ، وهذا مناسب لما تقدم فى القصيدة من ذكر الشراب والفجور .

فَقَدْ أَشْرَبُ الرَّاحَ قَدْ تَعْلِبُ مِنْ يَوْمِ الْمَقَامِ وَيَوْمِ الظُّعَنِ
وَأَشْرَبُ بِالرِّيفِ حَتَّى يُقَا لَ قَدْ طَالَ بِالرِّيفِ مَا قَدْ دَجَنُ
وَأَقْرَرْتُ عَيْنِي مِنَ الْغَانِيَا تِ إِمَّا نِكَاحًا وَإِمَّا أَزْنُ
مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ مَمْكُورَةٍ لَهَا بَشَرٌ نَاصِعٌ كَاللَّبَنِ

ودَجَن بالريف : أقام .

وقد جاء هذا التشبيه مختصراً فى سياق آخر ، فذكر الخمر فحسب من غير أن يذكر حدثها وزيدها ، وذلك فى قوله ^(١) :

مَتَى تُسْقَ مِنْ أَنْيَابِهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ شَرِباً حِينَ مَالَتْ طُلَاطُهَا
تَخْلُهُ فِلَسْطِيًّا إِذَا ذُقْتَ طَعْمَهُ عَلَى رِيذَاتِ النَّيِّ حُمْشٍ لِقَاتُهَا

(١) القصيدة ١ .

وتخله فلسطياً : أى خمراً من خمور الشام ، والرَبَذَات - بفتح الراء وكسر الباء : جمع ربذة ، وهى الخفيفة قليلة اللحم ، والنَّى - بفتح النون : اللحم ، يريد وصل لثاتها بأنها خفيفة ، وحُمش لثاتها : وصف آخر بخفة اللحم ، ليس للخمر هنا ثورة ، وإنما يذكر المذاق ، ويصف منابت الأسنان ، وإنما كانت الثورة هناك مناسبة لطغيان الفجور الذى جرى فى القصيدة ، والذى هنا مناسب لوقاره الذى ذكره وهو يخاطب صاحبة التى علقه بها رأى السوء ، لأنه عجوز وهى شابة ، وإنما يناسب أن يكون زوج أمها كما قال :

وَمَا خَلْتُ رَأَى السُّوءِ عَلَّقَ قَلْبُهُ بَوَهْنَانَةٍ قَدْ أَوْهَنْتَهَا سِنَانُهَا
رَأَتْ عَجُزاً فِي الْحَيِّ أَسْتَانَ أُمُّهَا لِدَاتِي وَشَبَانُ الرِّجَالِ لِدَاكُهَا

والوهنانية : اللينة الرخوة ، وأوهنتها : خذلتها ، والسنات : جمع سنة النوم ، يريد وصفها بالفتور والتخاذل ، والعُجُز - بضم الأول والثانى : العجوز ، وأستان أمها : لدائه ، يعنى أن أقرانه من كانوا فى سن أمها ، وشبان الرجال : لدات هذه الوهنانة .

ورأينا أنه قلما يخلو تشبيه ماء الفم من ذكر الخمر ، وأن الشاعر كان يُفرد الخمر بالذكر أو يذكر معها غيرها ، وقد جمع فى تشبيه الزنجبيل والتفاح والعسل ، ثم وقف يذكر قصة العسل وصعوبة اجتنائه واستخلاصه ، وطال هذا التشبيه ، وأبدع الشاعر فيه ، وجاء عقب قصة « مخروف النواصف ، مسروق البغام الذى ترعاه ظبية روعى الفؤاد » ، وهو من التشبيهات الدالة على طبع الشاعر ، قال :

كَأَنَّ طَعْمَ الزَّجْبِيلِ وَتُكُّ سَاحاً عَلَى أُرَى الدَّبُورِ نَزَلْ

.....

ظِلٌّ يَدُودٌ عَن مَرِيرَتِهِ أَهْوَى لَهُ مِنَ الْفُؤَادِ وَجَلْ

نَحْلًا كَدَّرْدَاقٍ الْخَفِيفَةِ مَرٌ هُوباً لَهُ حَوْلَ الْوَقُودِ زَجَلْ

صُخْرَى إِذَا مَا تَجْتَنِيهِ أَهْلُ	فِي يَافِعٍ جَوْنٍ يُلْفَعُ بِالـ
إِسْفِنَظٍ قَدْ بَاتَ عَلَيْهِ وَظُلْ	يُعَلُّ مِنْهُ فَوْ قَتِيلَةً بِالـ
كِنْ عِدَاتٍ دُونَهُنَّ عِلَلْ	لَوْ صَدَّقْتَهُ مَا تَقُولُ وَلَـ
شَتَّى فَلَا تُعْطَى وَلَا تَبْخُلْ	تَنَائِي وَتَدْتُو كُلُّ ذَلِكَ مَا

قد سقط من هذا الوصف أبيات هي الباب الذي دخل منه لإبداع هذه الصورة وهي مهمة ، ولكن هذا هو الذي بين أيدينا ، وأحسب أنها أكثر من بيت وليست بيتاً واحداً كما أشار محقق الديوان رحمه الله ، وذلك لأنه قال : ظل يذود عن مريرته ، أى ظل يدفع النحل عن حبله الذي يصعد به إلى موضع النحل ، فى : « يافع جون » ، وهذه الكلمة لا يقولها الشاعر إلا بعد أن يصف أحوالاً متنوعة لهذا المشتار ، فلا بد أن يكون قد تحدّث عن أرى الدبور ، ثم ذكر المشتار ، ثم ذكر جملة أفعال له حتى قال : « ظل يذود عن مريرته » ، وقوله : « أهوى » المراد به أرتفع من قولهم : أهوت يده له ، أى ارتفعت ، وهى هنا حسنة لأنها تصف ارتفاع رجل وجل الفؤاد يحذر السقوط والهلاك ، وقوله : « له من الفؤاد وجل » من الكلام النادر لأنه لم يقل : وجل الفؤاد ، وإنما بنى الكلام على التجريد فانتزع من فؤاده وجلّاً ، تأمل العبارة حتى تهتدى إلى فروق الصيغ لأنها هى الأمر كله ، تقول : وجل الفؤاد ، وتقول : فؤاده وجل ، وتقول : له من الفؤاد وجل ، وهذه ثلاثة متباعدة أعلاها ما قاله الأعشى ، والفرق بين « وجل الفؤاد » و « فؤاده وجل » كالفرق بين : « عذب الكلام » و « كلامه عذب » وقد حدثت عنه ، وقوله : « نَحْلًا كدرداق الخفيضة » مفعول به لقوله : « يذود » فى البيت قبله ، وهذا التضمين كثير جداً فى شعر الأعشى وإنه ليكثر فيه بصورة لا تراها فى غيره من شعر الجاهليين ، وقد وصف النحل بالكثرة والتزاحم وشدة التهاقت ، وشبهه بصغار النحل حول الخلية وهو ملازم لها غالباً لا يبرح كما يبرح النحل الكبير ، ثم هو كثير كثرة تجعله مرهوباً مخوفاً ، ثم له صوت ودوى ، وزفيف حول النار التى أوقدها المشتار ليطرده النحل بدخانها ، وقد جعل

صوته زجلاً ، وهذا يعنى أنه حمى واشتط فى هجومه على المشتار ، وأن هذا المشتار صار فى حرب معه ، وقد حميت الحرب وامتدت وارتجز فرسانها ، وهذا هو البيت الذى يصف حدة الموقف ، لأن البيت قبله يحكى أنه يذود بقلب وجل ، والبيت بعده ينتقل ليصف المكان الذى فيه النحل ، وأنه فى مكان مرتفع جداً « يافع جون » والجون : الأبيض والأسود ، وهو المراد هنا لأنه أراد أنه ملفع بالسحاب وهذا ارتفاعه ، أما أنه ملفع بالصحراء ، فالمراد أنه معزول قد عزلته خرائب الصحراء ، وترامت من حوله فصار ملفعاً بها ، وقد أحكم الأعشى بيانه هنا ، لأنه دلّ على أنه ملفع بالسحاب ، وبالصحراء ، أما الأول فقد اكتفى فيه بكلمة « جون » ، وأما الثانى فقد ذكره ، وقوله : « إذا ما تجتنيه أهل » عود إلى بيان الصراع بين المشتار والنحل ، بعد ما شغل البيت الثانى بوصف المكان كما قلت وهو عود قوى ترى فيه النحل يشتد حميه ، ويرتفع صوته ، إذا ما اجتنى المشتار العسل ، وكأنه يرفع عقيرته احتجاجاً على هذا الاغتصاب الظالم .

ثم ذكر الشاعر بعد ذلك أن هذا العسل الرفيع النادر الذى غامر مشتاره هذه المغامرة الشرسة هو ما يعل به « فو قُتَيْلَة » ثم يضيف إليه الخمر ليجمع اللذة مع العذوبة ، ثم يقول : « قد بات عليه ، وظل » : يعنى هى كذلك أبداً ، ثم ينتقل إلى قُتَيْلَة وأنها لا تنيل صاحباً من هذا الأرى الممنوع شيئاً ، وكأن هذا الأرى لما كان عند النحل استطاع المشتار أن يغامر حتى يجتنيه ويناله ، أما أرى قُتَيْلَة فلا سبيل إليه ، ولعل الصعوبة المذكورة فى معالجة المشتار تكون رمزاً لصعوبة أخرى فى اجتناء هذا الأرى من « فو قُتَيْلَة » وإن كانت الثانية لا تسمح بعطاء .

وقد ذكر أن قُتَيْلَة تمد لصاحبها حبل الأمل ، وإن كانت : « عدات دونهن علل » . فتعد وتقترب ولا تعطى ولا تبخل .

وأحسب أن هناك علاقة بين بوارق الأمل التى تداعب بها قُتَيْلَة صاحبها وبين معانى ما حُذِفَ من الشعر ، فهذا المشتار لا بد أن يكون الأمل هو الذى أغراه بهذه المغامرة . كما أحسب أن هناك علاقة بين حبل المشتار « مريته » الذى يصعد به إلى أرى الدهور ، وبين حبل الأعشى الذى كان بينه وبين قُتَيْلَة وقد هددها بقطعه لما ضاق من حيلها وأنها تنأى وتبعد « ما شَتَّى فَلَا تُعْطَى وَلَا تَبْخُلْ » تأمل قوله :

تَنَأَى وَتَدْتَنُو كُلُّ ذَلِكَ مَا شَتَّى فَلَا تُعْطَى وَلَا تَبْخُلْ
قَدْ تَعْلَمِينَ يَا قُتَيْلَة إِذْ خَانَ حَبِيبٌ عَهْدَهُ وَأَذَلْ
أَنْ قَدْ أَجْدُ الْحَبْلَ مِنْهُ إِذَا يَأْقُتُلْ مَا حَبْلُ الْقَرِينِ شَكْلْ
يَعْتَنِرِسْ كَالْمَحَالَةِ لَمْ يُثْنِ عَلَيْهَا لِلضَّرَابِ جَمَلْ

وليس هذا الربط الذى أراه بين عناصر الكلام هنا تكلفاً بل هو الحق ، وتركه إهمال لوجه من وجوه حقيقة الشعر ، لأن المسألة واحدة ، فقصة المشتار ، وحبله ، وصعوبة وصوله إلى هذا العسل فى حكم المُشَبَّه به ، وقصة قُتَيْلَة والعسل الذى حشا الله به فمها ، وصعوبة وصول الشاعر إليه ، وتهديده لها بقطع الحبل الذى طالما خدعته به ، ومُنْتَهَى الأمانى بعسل أشهى من العسل الذى فى اليفاع الجون ، هذا كله فى حكم المُشَبَّه ، وهذا وذاك حقيقة شعرية واحدة ، فالعسل الذى فى فم قُتَيْلَة محفوفاً بأشد من هذه المخاطر التى جعلت لهذا المشتار وَجْلاً من فؤاده ، وهو يتجشم مجرد الوصول وليس الحوزة ، لأن المشتار كابد مشقتين ، مشقة الوصول إلى اليفاع الجون الملقع بالصبراء والوحشة ، ومشقة حوزة هذا الأرى ومدافعة نحل شرس يدافع عن حوزته ، وما أخرجه الله من بطونها ، وكأنه منها بمنزلة الولد ، وكان دفاعه دفاع المحارب الشرس المرتجز الذى يعلو صوته ، ويرتفع زجله ، وهكذا كان الشاعر مع قُتَيْلَة لأنها ممنوعة ، وممانعة ، ممنوعة بحماية عشيرة جعلت نساءها فى يفاع لا يصعد نحوهن فجور فاجر ، ثم هى

مانعة لنفسها بكرم المحتد وشرف النفس ، وهكذا ترى الصورة تتناسق وتتآلف ، ولو لم تكن المرأة الجاهلية مانعة وممنوعة لما أوقدت جذوة الشعر بالشوق والتوق ، لأن المرأة الباذلة المبذولة لا تدع فى النفس لوعة الشعر ، ولهذا ترى أن كل ما يقول الشاعر فى شعره من مغامرات فى هذا الباب لا يصح أن يؤخذ منه شيء على أنه حقيقة ، ولو كان الشاعر قد خالط كما وصف لما وجد فى نفسه شعراً يتوقد بالكوعة التى توشك أن يتوقد بها الشعر نفسه ، وهذا وجه من معنى قولهم : أعذب الشعر أكذبه ، وقد ذكروا أن عمر بن أبى ربيعة الذى ملأ الشعر فجوراً لما حضره الموت ورأى جذع الصالحين من قریش حوله ، أدرك أن قومه ساء ظنهم به ، فأقسم أنه ما تعدى حداً من حدود الله فى هذا الباب ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَأَتَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وصورة المشتار بأحداثها وصعوبتها كثيرة وخاصة فى شعر هذيل ، وهى قريبة من صورة الراعى الذى يرى عود نبع فى غيل ملتف فوق رأس جبل فيصعد ويتجشم ويكابد ويغامر ليُنحى عليها ذات حد ويصنع منها قوسه بعد ما يقطعها ماء لحائها - كما قال أوس والشماخ - وهذا باب جيد للمقارنة .

وقد شبه أعشى بنى نهشل الأسود بن يعفر ريق صاحبتة بالخمر ، ووصف هذه الخمر فى أربعة أبيات شغلها بوصف الخمر ووصف دَنُّها ورياحينها وحذق الحانون الذى اختارها ، وهذه الصاحبة صدَّت عنه لما رأت أن شيب الرأس شامله .

قال :

كَأَنَّ رِيْقَتَهَا بَعْدَ الْكَرَى اغْتَبَقَتْ	صِرْفًا تَخْبِرُهَا الْحَانُوتُ حُرْطُومًا
سُلَاقَةُ الدَّنِّ مَرْقُوعًا نَصَائِبُهُ	مُقْلَدُ الْقَغْوِ وَالرَّيْحَانِ مَلْثُومًا
وَقَدْ ثَوَى نِصْفَ حَوْلٍ أَشْهُرًا جُدْدًا	بِبَابِ أَقْصَانٍ يَبْتَارُ السَّلَاقِيمَا
حَتَّى تَتَاوَلَّهَا صَهْبَاءٌ صَافِيَةٌ	يَرْشُوا التَّجَارَ عَلَيْهَا وَالتَّرَاجِيمَا

الغبوق : شراب العشى ، وريقتها : رضابها ، والخمر الصرف : التى لم تُمزج بماء ، والخرطوم : أول ما يُبذل من الدُّن ، وهو بدل من الصرف : يعنى اغْتَبَقْتُ أول الخمر « الخرطوم » ، وسلافة الدُّن : أوله ، والنصاب : الأباريق ، والغفو : نبت طيب الريح ، والمقلد والملتوم : أى الذى وُضِعَ فى فمه الرياحين ، يريد الأباريق ، وهذا يجعل الخمر ذات طيب ، وقوله : « وقد ثوى نصف حول » أراد الخمار ، وباب أفان : موضع و « يبتار السلايما » يعنى : يختبر السماسرة ويتعرف على ما عندهم ، والسلاييم : كل ما تصل به إلى غايتك ومنه السمسار .

وفى البيت الأول ثلاثة أوصاف للخمر ، الأول : أنها صرف ، والثانى : تخيرها الحانوت ، والثالث : خرطوم ، يعنى أول ما يُبذل ، وقد أكد هذا المعنى فى صدر البيت الثانى فذكر أنها سُلَافَةُ الدُّن - بفتح الدال ، وبقية البيت وصف للأباريق وتقليدها بالرياحين والغفو ، والبيت الثالث حديث عن الحانوت وأنه أقام نصف حول يتجدد فيه شهراً بعد « شهر بباب أفان » : أى سوق تباع فيه الخمر ، يحدث السماسرة ، ويتعرف على ما عندهم حتى أصابها .

..... صَهْبَاءٌ صَافِيَةٌ يَرُشُوا النَّجَارَ عَلَيْهَا وَالتَّرَاجِيمَا

والتراجيم : خدم الخمارين ، وهم قوم من ضالَّةِ الفُرس يكونون بين مَنْ يشتري ومَنْ يبيع ، وكانوا يتسكعون فى أطراف بلاد العرب كما ترى الآن أقواماً من ضالَّةِ الفرنجة يتسكعون فى بلادنا ، والأسود لم يداخل فى وصف الرضاب ما كان يداخله الأعشى كقوله : « فنجرى خلال شوك السيال ، أو على ريدات النى » ... وغير ذلك من أوصاف تتعلق بالشجر ، والجامع بين صورة المشتار وصورة الحانوت فى شعر الأسود هو العناية المبذول فى سخاء ، والصبر الممدود من غير ضجر ، ليصل كل إلى غايته ، هذا يتقحم الصعاب ، ويذود عن حبله المتعلق إلى « يافع جون » ، وهذا يداخل النفوس ، ويُفَاتِشُ الضمائر حتى يصل إلى مكنونها ، مما تحفظ وتضن به من خمر تُعلم نفاسته وكرم أرومته ، وهكذا .

تجد كلا الرجلين دؤوباً فى سَعْيِهِ نحو الأفضل المكنون ، هذا يرتقى صُعُداً إلى قمة جبل ، وهذا يداخل النفوس ويفاتش التجار ويرشو التراجم ، المهم هو الصبر والإصرار وإتقان الوسيلة ، وبذل كل ما عند النفس من كَدٍّ ومُثَابَرَةٍ حتى تحقق ما تصبو إليه ، ولا شك أن مكثه نصف حول بباب سوق يفاتش ما عند السلاسيم أمر ليس بالمعتاد فى مثل شراء دَنٍّ من الخمر .

وقد وصف الشعراء خمر الرُّضَابِ ، ووصفوا خمر الكؤوس التى تكون مع الرفاق « وفرق بين الخمرين فى الوصف ، تجد خمر الرُّضَابِ ممزوجة بماء يدقق الشعر فى صفائه ، فهو ماء سحابة ساققتها ريح باردة ، أو ماء ساقه الرُّضَابُ إلى الغدير ، أو ما شئت مما يذكرون ، ويذكرون السلافة ولا يذكرون القذى ، ولا الرمى بالزبد ، وإنما يذكرون ذلك فى خمر الشراب مع الرفاق ، وإذا كان الأسود قد عنى بالخانات وحذقه ومهارته ، وصبره ، وعنايته بأباريقه المثلثومة بالفغو والرياحين ... إلى آخر ما رأينا ، فإن المرقش الأصفر ذكر الخمر التى هى مثال للرُّضَابِ ، وسلك سبيلاً آخر من سُبُل المعانى ، فذكر تعتيقها وتخميرها ، يعنى المرحلة التى تسبق شراء الخانات لها ، فإذا كان خانات الأسود قد ثوى بباب سوقها نصف حول ، فقد ثوت خمر المرقش عشرين حِجَّةً « بَطَانٌ عليها قَرْمَدٌ وَتَرَوْحُ » أى تُطَيَّنُ بالآجر ، وتخرج للريح حتى تبرد ، ثم يذكر المرقش بدل الخانات اليهود ، وهم تجار الخمر ، ولم يعرفهم تاريخ آبائى الأولين إلا خدماً فى الخانات ، أو قوادين لأهل الخنا .

قال المرقش :

وَمَا قَهْوَةٌ صَهْبَاءُ كَمَا لِسْكَ رِيحُهَا	تُعَلَى عَلَى النَّاجِدِ طَوْرًا وَتُقَدِّحُ
ثَوَتْ فِى سِبَاءِ الدَّنِّ عِشْرِينَ حِجَّةً	يُطَانُ عَلَيْهَا قَرْمَدٌ وَتَرَوْحُ
سَبَّاهَا رَجَالٌ مِّنْ يَهُودٍ تَوَاعَدُوا	بِجِيلَانٍ يُدْنِيهَا إِلَى السُّوقِ مُرِيحُ
بِأَطْيَبِ مَنْ فِيهَا إِذَا جَنَتْ طَارِقًا	مِّنَ اللَّيْلِ بَلْ قُوْهَا أَلَذُّ وَأَنْصَحُ

والقهوة : الخمر ، وتعلّى على الناجود : أى ترفع على الراوق لتصفيتها ،
وتُقَدِّح : أى تُغترف ليتم التصفية والتنقية كما نُحَرِّك الأشياء حال التصفية ،
وثوت : أقامت ، والدُّنْ - بفتح الدال : زِق الخمر - بكسر الزاى ، وشبهها
بالسبى فقال : « فى سبأ الدُّنْ » ، ويُطَان عليها : أى يوضع عليها الطين ،
والمراد هنا القُرْمَدُ - أى الأجر ، وتروّج : أى تخرج إلى الريح وتُبْرَدُ ، وجَبِلان -
بفتح الجيم : قرية بالشام . لم يذكر المرقش أنها ملثومة بالرياحين ، ولكنه ذكر
مكانه : « المسك » ، وهذا أوضح فى الدلالة على الطيب ، ثم إن خمره التى
وصفها هنا مثال لطيب فمها ، والمسك أشبه بذكر الطيب ، ويقول فى البيت
الأخير: « بأطيب من فيها » . وخمر الأسود مثال « لريقتها » : « كأن ريقتها
بعد الكرى اغتبتت » ولهذا كانت عنايته بأنها صرف ، وأنها سُلَافَةٌ ، وأنها
أول الدُّنْ ، أى خرطوماً ، وكل هذا متجه نحو الطعم المُذَاق ، الذى يقابل ريقتها ،
وقد عَنَى المرقش بالصفاء فذكر أنها « تُعَلَّى على الناجود » ، وتُغرف حالاً بعد
حال حتى يتناهى صفاؤها كما يقول التبريزى .

وتأمل سبك كلام المرقش ، تجد الكلام بُنِيَ على الوصف ، وتتابع ثلاث
جمل تصف القهوة : « تُعَلَّى على الناجود طوراً ، وتقَدِّح » وهذه جملة واحدة
لأن « تقَدِّح » معطوفة على « تُعَلَّى » ، وداخله فى حكمها ، لأن رفعها على
الناجود واغترافها عمل واحد ، لأن الاغتراف عمل يساعد على التصفية التى
هى الغرض من رفعها على الناجود ، وحين نقول : إن هذا الكلام جملة واحدة ،
فالمتصور المعنى وليس الإعراب ، يعنى جملة معنوية واحدة ، إذا صَحَّ لنا هذا
الاستعمال وأطلقنا مصطلح « جملة » على الدلالة المعنوية التى تشكل جملة ،
وليس على ما هو معروف فقط من مصطلح الجملة فى علم النحو ، وقوله :
« ثوت فى سياق الدُّنْ » وصف آخر ، وهو من حيث الترتيب الزمنى سابق
لقوله : « تُعَلَّى على الناجود » لأن تعتيق الخمر فى الدُّنْ يسبق تصفيتها
بالراوق لأنها حين تُصَفَّى تُعَدُّ للشراب ، وكلمة : « سبأ الدُّنْ » تأكيد أنه
مُغْلَق لم يُبْدَل ، وجملة : « يُطَاف عليها » جملة حالية ، وقوله : « وتروّج »

جزء منه كما كان قوله : « وتقذح » جزءاً من جملة « تُعَلَى على الناجود » ،
وتأمل موقع الفعل المعطوف فى البيتين تجده الكلمة الأخيرة فى الشطر الثانى ،
والكلمة المعطوف عليها هى الكلمة الأولى :

« تُعَلَى عَلَى النَاجُودِ طَوْرًا وَتُقَذَحُ »

« يُطَانُ عَلَيْهَا قَرْمَدٌ وَتُرَوَّحُ »

تأمل الصياغة ومعانى الكلام ، الشطر الأول يرفعها على الراوق ، والشطر
الثانى يطينها بالآجر ، وهما أمران يحتويان على عناصر متقابلة .

ثم كلمة : « سباء الدن » وكيف نمت وصارت رأساً للبيت الثالث : « سبها
رجال من يهود » تأمل اللغة وهى تتحرك وتتواثب وتنحو وتتزاحم ، ومع هذا
الصقل وهذا التثقيف فى شعر المرقش ترى أبيات الأسود أملاً بالشعر ، لأن كل
ما ذكره منبجس من كلمة : « كأن ريقتها » ، تأمل قوله : « صرفاً » أى لم تمزج
بماء ، فلها فى شاربها حمياً ، ولها بالرأس تدويم ، ثم قال : « خرطوماً » ،
فأشار إلى أنها أول ما يُبدل من الدن ، وهذا أطيب الخمر ، ثم ذكر السلافة ،
وهذا تأكيد ، لأنها خمر حرة خالصة .

وتأمل هذا كله واستحضر : « ريقتها » ثم ذكر الأباريق المثلثة بالغفو
والرياحين ، وهذا هو الشعر كله ، لأنها معدة بغفوها ورياحيتها لأفواه الشرب ،
وهذه هى ريقتها بزينتها ، ومذاقتها ، وجمالها ، وقفوها ، أما البيتان الآخران
فقد التبس الشعر فيهما بالخانوت ، ومكث معه « بباب أفان » يوماً بعد يوم ،
وقد أوما الشعر إلى ذلك فى قوله : « أشهراً جدداً » .

* * *

شبه الأعشى المرأة بالدرة والبيضة فى الصفاء ، والصون ، والنفاسة ، فى
مواقع محدودة فى شعره ، وهو فى ذلك كغيره من الشعراء الذين يذكرون
البيضة والدمية والدرة ... إلى آخر ما فى الشعر .

وقد ذكر الأعشى فى قصيدته القافية :

نَامَ الْخَلَىٰ وَبِتَ الْيَوْمَ مُرْتَفِقًا أَرَعَى النُّجُومَ عَمِيدًا مُثَبَّتًا أَرِقًا

ذكر الدُّرَّة فى حكاية تمازجها الخوارق ، وعنصر الحكاية هذا فى الشعر الجاهلى عنصر حى ، مفعم بالغوامض ، والأحوال السخية ، وهو كثير ، وباب من أبواب البلاغة لم تُفتح بعد مغاليقه ، وقد كثرت الحكايات فى شعر الأعشى منها هذه :

كَأَنَّهَا دُرَّةٌ زَهْرَاءُ أَخْرَجَهَا	غَوَاصٌ دَارِينَ يَخْشَى دُونَهَا الْفَرَقَا
قَدْ رَامَهَا حِجَابًا مَذًى طَرُّ شَارِبُهُ	حَتَّى تَسْعَسَعَ يَرْجُوهَا وَقَدْ حَقَّقَا
لَا النَّفْسُ تُؤَيِّسُهُ مِنْهَا فَيَتَرَكُهَا	وَقَدْ رَأَى الرَّغَبَ رَأَى الْعَيْنِ فَاحْتَرَقَا
وَمَسَارِدٌ مِنْ غَوَاةِ الْجِنَّ يَحْرُسُهَا	ذُو نَيْقَةِ مُسْتَعِيدٌ دُونَهَا تَرَقَا
لَيْسَتْ لَهُ غَفْلَةٌ عَنْهَا يَطِيفُ بِهَا	يَخْشَى عَلَيْهَا سُرَى السَّارِينَ وَالسَّرَقَا
حِرْصًا عَلَيْهَا لَوْ أَنَّ النَّفْسَ طَاوَعَهَا	مِنْهُ الضَّمِيرَ لَبَالَى الْيَمِّ أَوْ غَرَقَا
فِي حَوْمٍ لُجَّةٍ آذَى لَهُ حَدَبٌ	مَنْ رَامَهَا فَارَقَتْهُ النَّفْسُ قَاعَتِلَقَا
مَنْ نَالَهَا نَالَ خُلْدًا لَا يَنْقَطَعُ لَهُ	وَمَا تَمَتَّى قَاضِحَى نَاعِمًا أُنَقَا
تِلْكَ التَّى كَلَفَتْكَ النَّفْسُ تَأْمَلُهَا	وَمَا تَعَلَّقَتْ إِلَّا الْجَيْنَ وَالْحَرَقَا

الدُّرَّة الزهراء : المشرقة ، ودارين : ثغر فى البحرين وصناعتهم استخراج الدر من قاع البحر ، هكذا كانوا منذ الزمن الأول ، وطرُّ شاربه : أى بداية شبابه ، تسعسع : تضعضع وهرم ، والرَّغَب - بفتح تين : المرغوب ، واحترق : أى حرصاً على الدُّرَّة ، وحارس ذو نيقة : أى حارس بارع يتأنق فى طرائق الرعاية والحراسة ، والصون ، والمراد : الدُّرَّة ، والسرَّق : الدرج ، والمراد : إخفاؤها فى حرز وصون ، وسرى السارين : المراد من يصيدون بالليل . وقوله :

« حرصاً عليها » ... إلى آخر البيت : عود إلى ذكر غواص دارين الذى رأى
الرجب رأى العين فاحترق ، وقوله : « لبالى اليم أو غرقا » : المراد أنه كان يدفعه
الحرص على المغامرة فيما أن يتحدى البحر وينجو بها ، أو الغرق ، وقوله :
« لبالى اليم » ، أى لتحدى البحر ، وحوم لجة آذى : أى حومة الموج ، وله
حذب : وصف له بالتدافع والغضب ، وقوله : وما تمنى ، معطوف على خلد :
أى نال ما تمنى ، والحين : الهلاك ، والحرق : الاحتراق .

واضح أن نفاسة الدُرَّة أول ما يُفهم من هذا التشبيه وهو فهم قريب ، ثم إن
صفاءها ، ونقاءها ، وعزتها ، وصونها ، كل ذلك واضح وقريب ، وليست هذه
الحكاية للدلالة فقط على نفاسة هذه الدُرَّة ، وأن الغواص العرفاء هو الذى
طلبها ، ولكن القصة فيها شيء غير النفاسة ، فيها التوق الحارق بهذه الدُرَّة .
وكانه عشق حميم من هذا الغواص لها ، وقد بدأ قصة العشق هذه منذ طُرِّ
شاربه ، ثم صاحبه الزمن كله حتى هَدَمَتْهُ الشبخوخة ، ولا يزال يبرجوها « حتى
تسعسع برجوها » تأمل هذه الجملة لترى فيها شيخاً فانياً ، قد بقيت صوته بجوهرة
تَيَمَّتْهُ ، وهو يراها رأى العين ، ودونها حوائل ليس فى مقدوره أن يتخطاها ،
لأن حارسها مارد من الجن ، ليست له غفلة عنها ، وأى جوهرة هذه التى لها حارس
مارد من الجن ، ومتى كان مرده الجن يحرسون فى قاع البحر ، وأى عالم هذا
الذى فى قاع البحر ، وفيه مغامرون ، وحُرَّاس ، وسُرَّاق ، وفيه كنوز ، ونفائس ؟
وأى معارف ، وموروثات ، وزعامات ، تنتمى إليها هذه الحكايات !!

والغريب أن الشاعر ذكر أن غواص دارين أخرج الدُرَّة .

كَأَنَّهَا دُرَّةٌ زَهْرَاءُ أَخْرَجَهَا غَوَّاصٌ دَارِينٌ يَخْشَى دُونَهَا الْغَرَقَا

ثم عاد فذكر أنه عاش أيامه كلها وهو تائق إليها ، وقد أخفق فى الحصول
عليها ، وذكر قصة مارد الجن ، وحوم لجة الآذى التى مَنَّ رامها هلك ، يعنى مَنَّ
فَكَّرَ فيها ، وأرادها ، مجرد تفكير وإرادة ، وهذا يعنى أن الدُرَّة سوف تبقى فى
مكانها .

لَا النَّفْسُ تُؤَيِّسُهُ مِنْهَا فَيَتَرَكُهَا
وَقَدْ رَأَى الرَّغْبَ رَأَى الْعَيْنِ فَاحْتَرَقَا
ثم أى دُرّة هذه التى تمنح الخلد ؟

هل هى النبوغ الفذ العبقري الذى يتوق له رجل متفوق فى فنه مثل الأعشى ؟
هل هى التوق إلى آماذ أفسح فى الكشف والإبداع ؟

هل هى التغلغل فى عالم الأسرار المغيّب وما دونه من حُجب رمز الشاعر
إليها يمارد الجن الذى يقف على باب الخلود ليدفع عنه مَنْ يرومه أو مَنْ يتسللون
إليه متدريعين بظلمة الليل ؟
أم هذه مغالاة منا وشطوط ؟

ليس من الوفاء للشعر أن تُضَيَّق ما يتسع ونقول إن الأعشى يدل بهذا على
تجربة عميقة غائرة كتعلقه بامرأة منذ طُرّ شاربه وقد بقى سرها فى نفسه يؤزه
ويستجيشه حتى وهو شيخ متسع ، أى مهدم مضطجع ، لأن هذه الصورة أفسح ،
وأغزر من المرأة والدُرّة ، لأنها كل شىء « مَنْ نالها نال خُلداً لا انقطاع له »
أى شىء يحقق لنا الخلد السرمدى ؟ ويحقق لنا كل الأمنى !! ويحقق لنا كل
نعمة !! وأى الأمنى كانت تُشرق فى نفس الأعشى !!؟ وأى خلود كان يصبو
إليه ؟ وهل تُرانا نغالى ونشتط ؟ دع هذا ولك فيه ما ترى .

وهذه الصورة توضع بإزاء وصفه لمشتار العسل الذى وصف به ريق الصاحبة .
وكيف كان الحزم والعزم ، يدفعانه إلى مزيد من المكابدة والمغامرة ، والخوض
فى هول بعد هول ، ليحقق أمراً أرادّه ، وهذا هو المعنى المشترك بين الصورتين ،
وإن كان هذا فى قاع البحر ، وحوم لجة الآذى ، والسابق فى قُنّة الجبل تتراعى
حوله الصحراء الحارقة ، ويلفه الدخان والنار ، والتقابل واضح بين المجالين الذين
هما أرض الإصرار والمكابدة والمغامرة من أجل الحصول على المطلوب المشتهى ،
هذا ضرب فى جنادل البر ، وذاك طرح للنفس فى قاع البحر حيث مرّدة الجن
تجرس النفائس . وهذه الصور صالحة لأن تتعدد فيها الفهوم وتتنوّع ، ولا يجوز

أن يُظن بنا التزبد ، حين نقف عند هذه العناصر وهذه المقابلات ، ونسأله من غير أن يكون لدينا ما نجيب به إجابة قاطعة ، لأننا نعلم أن الإجابة عن التساؤلات ليست من طبيعة الفهم الواعى لهذه الصور ، لأنها رموز وإشارات ، تقدح فى النفوس أضواء مختلفة تبعاً لاختلاف طبائعها واهتماماتها ، فقد تجد مَنْ يستحكم عنده أن هذا من باب التوق إلى المجهول ، وإلى النبايع التى لم تُستَق منها النفوس بعد ، وهى تائقة إليها ، هى التى كلفتك النفس تأملها ، وأن « مارد الجن » و « حوم لجة الآذى » هى الحُجب المضروية بين النفس وبين « ريق النور » الذى يمنح الخلد لمن أصاب به ، وريق النور : هو الأرض البكر التى يسعى نحوها كل صاحب مسعاة يريد أن يكتشفها ، أو يلامس أسرارها ، وهو تائق إلى ذلك توقاً حارقاً ، وكل متأمل فى باب من الأبواب التى ترودها خواطر الفكر تراه يبحث عن الحقيقة الغائبة ، نرى صاحب الشعر بيتت بأبواب القوافى يريد أن يكشف قناع الشعر عن خُرّ وجهه ، وترى صاحب الفلسفة يبحث عن المشكاة التى أظلمها المتنطسون فضّلوا ، وصاحب التاريخ يبحث عن العِلل الحقيقية التى دُفنت فى صدور صنّاع التاريخ ، وضلّت فى تراب القبور ، وصاحب النحو تائق مائق يريد أن يعرف علماً وراء الذى عرفه الدهاقين الأوّل ، وهكذا كل باب من أبواب العلم يكدح أصحابه فى أن يكتشفوا حقلاً جديداً ، ولو كان كمفحصٍ قطاة ، ومَنْ فعل ذلك كان جديراً بخلد لا انقطاع له .

ولو أن واحداً فسّر لنا هذه الصورة بهذا التفسير لا نستطيع دفعه ، ولا نستطيع أن نتهمه بأنه سلك بالشعر غير سبيل الأولين ، لأنهم كانوا يطرحون الشعر فى مطارح أبعد من هذا ، وذلك حين كانوا يتمثلون بالشعر ، تراهم يذهبون بالمعنى مذاهب بعيدة ، ويرمون أضواءه فى مطارح نائية ، فالشاعر الذى يقول وهو يريد المرأة :

اليومَ عندك دُلّها ودَلّالها وغداً لغيرك كَفُّها والمِعصمُ

نرى الحسن البصرى لا يجعل هذا مثلاً للمرأة ، وإنما للحياة من ألفها إلى يائها ، حتى إنها كانت تغرورق عيناه وهو يُنشده ، وباب التمثل بالشعر باب تجب مراجعة النظر فيه ، لأنهم يُطلقون فيه الشعر من خصوصية الدلالة ، وقيودها المحدودة ، إلى آماذ أخرى بعيدة ، من غير أن يثقل بالرموز ، والطقوس ، وعقائد الأولين ، وقد تجد مَنْ يتمثل بالشعر يستضىء بسنا بعيد من أضوائه ، حتى إنك تحتاج إلى مراجعة لتتبين العلاقة بين الموقف الجديد الذى نقل إليه الشعر ، وبين دلالاته ، ومعلوم أن الكلام قد يُنقل من باب الهزل الذى ذُكر فيه ، إلى باب من أبواب الجد ، ويكون فيه راسخ الدلالة ، والكلام هو ، وقد يُقال فى باب من أبواب الباطل ، ويُنقل إلى باب من أبواب الحق ، وقد بسط عبد القاهر هذا فى أول « دلائل الإعجاز » .



وقد شبه الأعشى أجزاء من المرأة بتشبيهات مختصرة ، ليس فيه افتنان كالذى نراه فى هذه الصور ، فذكر أطراف أصابع اليد ، وشبهها بهُدَابِ الدَّمْثَسِ المفتل ، وهو تشبيه مُستَمد من تشبيه امرئ القيس : « وشحم كهُدَابِ الدَّمْثَسِ المفتل » قال الأعشى :

إِذَا لَيْسَتْ شَيْدَارَةٌ ثُمَّ أَبْرَقَتْ بِمِعْصَمِهَا وَالشَّمْسُ لَمَّا تَرَجَّلَ
وَأَلَوْتُ بِكَفِّ فِي سِوَاكِ يَزِينُهَا بَنَانُ كَهْدَابِ الدَّمْثَسِ الْمَفْتَلِ
رَأَيْتَ الْكَرِيمَ ذَا الْجَلَالَةِ رَانِيَا وَقَدْ طَارَ قَلْبُ الْمُسْتَخْفِ الْمَعْدَلِ

الشيدارة : الأثب ؛ وهو قميص ليس له أكمام ، تشقه المرأة ثم تلقيه فى عنقها ، وأبرقت بمِعْصَمِهَا : كشفت عنه ، وترجلت الشمس : ارتفعت ، وألوت بكفها : أشارت ، والرانى : هو المديم النظر ، والمستخف - اسم مفعول : هو الذى استخفه الهوى فتخلع وتبذل ، والمعدل - اسم مفعول : هو الذى أكثر الناس عدله .

الصورة هنا فيها أكثر من البَنان ، وربما كان أقل ما فيها ، لأن الأعشى يُصوِّر ، ويحدِّد ، ويُحرِّك ما يُصوِّر ، وكأنه يريد أن يضع الصور بدل الكلمات ، ويجتهد في إبراز الصورة ، حتى نراها هي ونتعلّق بها هي ، أكثر من الألفاظ التي رسمتها ووصلت بك إليها ، والمرأة في قميصها الشيدارة ، تبرق بمعصمها ، وتلوى بكفها ، وقد عَنَى الأعشى بحركة الصورة ، وذكر ذلك في ثلاثة مواضع من هذه الأبيات . الأول : إبراقها بمعصمها ، والثاني : ليّها بكفها وسوارها ، والثالث : متضمن في تشبيه الأصابع بهذاب الدَّمَقْسِ ، لأن ذلك لا يكون إلا إذا كانت الأصابع مسترسلة إلى أسفل حتى يتم الشبه ، وهذا ضرب من الحركة لها ، هذا في « قُتِلَة » أما الناظرون إليها وكأنها في سامر ، فهم رجلان : حكيم وقور كريم غلبه عبثها على عقله ، فأخذ ينظر إليها نظراً ثابتاً دائماً ، لا يُغمض فيه طرفاً ، والثاني : مستخف ، وهذا طار عقله ، وهذا البيت الذي وصف الناظرين إليها بيت رفيع .

والصورة في الأبيات من الصور التي دَقَّقَ الشاعر في رسمها وتصويرها ، وكأنه يُقدِّم بها متعة بيانية ، فقُتِلَة هنا ذات حركات تقصد بها إلى أن تلعب بقلوب الرجال ، وتأمل الأبيات تجد الحركة مقصودة ، ومرتبة ، وكأن « قُتِلَة » تخطط لهذه الصورة ، فهي ترتدى ثوباً مظهرًا للفتنة ، ثم تشير بالمعصم ، وكلمة « ثم » في قوله : « ثم أبرقت » دالة دلالة ظاهرة على ما نقوله من أن « قُتِلَة » في حركات « استعراضية » تلوى بكفها ، ثم ترسل أناملها إلى أسفل ، وغريب أن يدقّق الأعشى في كل هذا ويرسمه ، والقصيدة يجرى فيها هذا العنصر الذي ترى فيه « قُتِلَة » تتحرك بقصد الإثارة ، وبعث الصَّبَوَة من حولها ، والتهالك ، وقد جاء قبل هذه الأبيات الثلاثة قوله :

تَهَالِكُ حَتَّى تُبْطِرَ الْمَرْءَ عَقْلُهُ وَتُصْبِي الْحَلِيمَ ذَا الْحِجَى بِالنَّقْتَلِ

وتأمل كلمة « حتى » الدالة على أنها تقصد بتهالكها إلى الإثارة وبَعَث الصَّبْوةَ ، والتهالك هو الدَّل ، والتمايل ، والتخلع ، وبطر العقل : الدهش الذى يصيبه ، والتقتل : هو التقلب والتثنى فى المشية ، والحليم الذى أصباه تقتلها هنا هو الكريم ذا الجلالة الذى رأيته هناك رانياً ، وحركاتها هنا هى التثنى والتمايل الجسدى ، وهناك هى الإشارة بالمعصم والكف ، والحليم هنا داخلته الصَّبْوةَ من تهالكها ، وتَقْتُلُها ، وهو هناك يخرج عن الوقار والحشمة ، وتراه رانياً ، ومن المستحسن فى دراسة الشعر تأمل العنصر الواحد الذى تراه يظهر فى القصيدة بصور متعددة ، وجمع شتات هذا التعدد وتخليصه وبيانہ .

وقد ذكر نعومة البنان وحُمَرتها من غير أن يذكر شيئاً من المحاسن ، وذلك فى ذكره للخمر التى شبّه بها الرضاب ، وأن جُبَيْرَةَ فى ريقتها مذاق كهذه الخمر المتناولة بساقية رخص البنان ، قال :

بُمُوشَمٍ رَخْصِ البَنَانِ كَأَنَّمَا خَضَبَتْ أَنَامِلُهُ بِعَرَقٍ فِصَادٍ

ليس هنا ابراقٌ بذراع ، ولا لى بِمِعْصَم ، ولا تهالك ولا تقتل ، وإنما فقط الأنامل الرخصة الرطبة ذات الأطراف الحمراء كأنها خضبت بالدم ، وهذا حسبنا من الساقية ، لأنها تحمل أباريق الخمر « بُمُوشَمٍ رَخْصِ » والمُوشَمُ : الموشوم ، أى الذى عليه الوشم ، حتى جُبَيْرَةَ التى هى صاحبتة فى هذه القصيدة لم يذكر لها أوصافاً تهالك فيها ، كما ذكر لَقْتِلَةَ ، وإنما رآها « بين الرواق وجانب من سترها وبين آرائك الأنضاد » .

تَجَلَّوْا بِقَادِمَتَيْ حَمَامَةٍ أَيْكَةً بَرَدًا أَسِفٌ لِّثَاثَةٍ بِسَوَادٍ

ثم ذكر خيالها .

وقد ذكر اللبّة وجمالها ، وصفاءها ، فى قوله :

وَوَجْهٌ نَقِيُّ اللُّوْنِ صَافٍ يَزِينُهُ مَعَ الْحَلَى لَبَاتٌ لَهَا وَمَعَاصِمٌ

وقد شبه اللبّات ، بالرخام الجيد الصنع ، وذلك فى القصيدة التى ذكر فيها
« قُتِلَتْ » ، وطراوتها ، وامتلأها ، وأنها كملت فى الحُسن ، لا شىء فوقها ،
كما قال ، وذلك فى قوله :

لَهَا كَبْدٌ مَّلَسَاءُ ، ذَاتُ أُسْرَةٍ وَنَحَرَ كَفَاثُورِ الصَّرِيفِ الْمُثَلِّ

والكبد : الوسط ، والأسرة : الخطوط التى تكون فى البطن من السمنة ،
والفاثور : الخوان من الرخام أو الفضة ، والصريف : الفضة ، والممثل : الجيد
الصنع .

وقد ذكر الشعر وشبهه بالنبات الجثل ، الكثيف :

وَأَثِيثُ جَثَلِ النَّبَاتِ تُرْوِى — — — لَعُوبٌ غَرِيرَةٌ مِفْتَاقُ

والمراد بقوله : « ترويه » : تعتنى به ، واللفظة مناسبة للنبات ، والمفناق :
المنعمة المترفة .

وشبه الشعر بالحبل ، فى قوله :

بَيِّضَاءُ جَمَاءُ الْعِظَامِ لَهَا فَرْعٌ أَثِيثٌ كَالْحَبَالِ رَجُلُ

وجمء العظام : أى ممتلئة ليست عجفاء ، والشعر الرجل : هو الذى ليس
مسترسلاً ، ولا جعداً ، وإنما يكون بينهما ، ذكر الشعر بقوله : « فرع » مناسب
ذكر الحبل ، والبيت بُنِيَ على ذكر محاسنها : « بيضاء ، جماء العظام » ، ولم
يبن على ذكر الشعر فحسب كالبيت قبله : « وأثيث حبل » ... ولذلك جاء
التشبيه مختصراً بذكر الحبل .

وقد ذكر طيب الشعر فى قوله :

تُمِيلُ جَثْلًا عَلَى الْمُتَيْنِ ذَا حُصْلٍ يَحْبُو مَوَاشِطُهُ مِسْكَاً وَتَطْيَابًا

لما ذكر مسكه ، وطيبه ، ذكر الحُصْل ، ولم يذكر الفرع ، وذكر أنها تُمِيله ،
وهذا أنسب لفوح الطيب .

وكان ذكر الشعر يستصحب ذكر الجيد ، وبياضه ، وحينئذ يذكر سواد الشعر :

وَوَجْهًا كَالْفَتَاقِ ، وَمُسْبِكُرًا عَلَى مِثْلِ اللَّجَيْنِ وَهْنٌ سَوْدُ

أراد ضوء الوجه وكأنه انفتق عنه غيم ، فأضاء كالشمس ، والجيد المشبه بالفضة يناسبه ذكر سواد الشعر ، والمسبكر : الشعر ، وهكذا تجد التشبيهات المختصرة متضمنة دقائق لطيفة أوجزنا الإشارة إلى بعضها ، لأننا نريد بيان طريقة الفهم فحسب ، وقد شبه مشية صاحبة بمر السحابة في بيته المشهور :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثُ وَلَا عَجَلُ

كما شبهه بمشى الوجى الوحل ، في قوله قبل هذا البيت :

غَرَاءُ فَرَعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُونَى كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَحْلُ

وهذان التشبيهان بينهما مقابلة ظاهرة ، لأن التشبيه الأول : يقرن صاحبة بالمجوع القدم ، الذى يمشى فى الوحل ، والتشبيه الثانى : يقرن صاحبة بالسحابة وهذه فى السماء ، والصفاء ، والنقاء ، وتلك فى الأرض والطين ، ومن الغريب أن يُشبه شاعر أو متكلم مَشَى صاحبه بمشى المجوع فى الطين ، ومن الغريب أيضاً أن يقول قبل هذا : « غَرَاءُ ، فَرَعَاءُ ، مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا » ، وهذا أبهى ما توصف به الحرائر ، ثم ينتقل فجأة إلى الوجع والعجز والوحل .

تأمل : « الغراء ، الفرعاء ، التى تُبرق عوارضها كالسيف ذى الصقال ، ثم تأمل العاجزة المجوعة تمشى فى الوحل ، هذا تصادم غريب .

ولماذا اختار الأعشى المشى لهذا التصادم ولم يذكره فى حال آخر من أحوال المرأة ؟ ثم لماذا هذا الاهتمام بالمشى فى أول القصيدة وذكره مرتين فى بيتين متتاليين وهذه أول مرة يهتم فيها بمشى صاحبة هذا الاهتمام ؟ وتفسير هذا هو الإشارة الدالة فى صدر القصيدة إلى موضوعها الأهم ، وهو هجاء يزيد بنى شيبان ، والقصيدة كلها رسالة له ، لأنه كان يُغرى رهط ابن مسعود بقوم

الأعشى ، وكان يسعى بالنميمة بين الحيين ، وهذا وجه ذكر المشى فى أول الكلام ، وأنه مشيان : مشى يرتفع إلى السماء ، ومشى بخوض فى وحل الأرض ، لا يُخامرني شكٌ فى أن يكون مشى العاجز المضعوف المنقوص فى أول القصيدة لمحا وإشارة إلى هذا ، وقد وصف الأعشى تخاذل يزيد بنى شببان ، وخبثه ، وعجزه عن المواجهة ، كل ذلك فى كلام بليغ تتجاوب رموزه ، وتتنادى عناصره .

قال :

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَبَّانَ مَالِكَةً	أَبَا ثُبَيْتٍ أَمَا تَنْفَكُ تَأْتِكِلُ
أَلَسْتُ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا	وَلَسْتُ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ
تُغْرِى بِنَا رَهْطَ مَسْعُودٍ وَإِخْوَتِهِ	عِنْدَ اللَّقَاءِ فَتُرْدِي ثُمَّ تَعْتَزِلُ
لَا عَرِيقُكَ إِنْ جَدَّ النَّفِيرُ بِنَا	وَشُبَّتِ الْحَرْبُ بِالطَّوَافِ وَاحْتَمَلُوا
كَنَاطِيعَ صَخْرَةٍ يَسُومًا لِيَفْلِقَهَا	فَلَمْ يَضُرَّهَا وَأَوْهَى قَرْنُهُ الْوَعِلُ

المألكة : الرسالة ، والإتكال : السعى بالشر والفساد ، والأثلة : الشجرة ، ونحتها : مجاز عن تنقصهم ، والنيل منهم بلسانه وفيمته ، والشجرة : مجاز عن الأصل والأرومة ، والاستفهام هنا معناه الأمر : أى انته عما تفعل ، وهذا من الصور النادرة التى تدخل فيها الهمزة على النفى ويُرَاد الأمر ، وأطت الإبل : أى صوّتت صوتاً خفيضاً مكتوماً ، من تعبها ، أو حنينها ، وهذا يعنى أنه لن يضرها أهدأ ، و « ما » ظرفية ، لأن أطيبت الإبل لا ينقطع زمانه ، وقوله : « فتردى » : أى تهلك الأقبام بسعيك ، ثم تعتزل : أى تؤرّش الحرب ثم تفر منها .

تأمل قوله : « مألكة » يعنى رسالة ، وكأنه يريد القصيدة بكل رموزها ، و « تأتكِل » : أى تمشى بالفساد والشر ، وهذا ظاهر فى تفسير مشى الوجى الوحل ، وقد وصف مشى صاحبة فى موضع آخر من القصيدة وذكر أنها تمشى على أشواك .

قال : هِرْكُولَةُ فُنْتُ دُرْمَ مَرَاْفِقُهَا كَأَنَّ أَحْمَصَهَا بِالشُّوكِ مُنْتَعِلٌ

والهركولة : ضخمة الوركين ، والفُنْتُ - بضم الأول والثانى : المنعمة ،
والمرافق الدُرم - بضم الدال : الممتلئة لحماً ، والأخمص من القدم : ما لا يلامس
الأرض منها ، وهذا تشبيه غريب ، وإن كان الشعراء يذكرون تمايلها ، وخفتها ،
وقد ذكر الأعشى ذلك ولكنه لم يذكر أنها « تنتعل الشوك » ، إلا فى هذه
القصيدة ، ثم إنه ذكر أوصاف حليها وأنها حين تمشى تسمع للحلى وسواساً قال :

تَسْمَعُ للحَلَى وسَواساً إِذَا انصَرَفَتْ كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلٌ

وذكر صوت الحلى ووسوسته ، فى شعر الأعشى نادر جداً ، والعِشْرِق -
بكسر العين والراء : شجر مقدار ذراع له حَب ، إِذَا جَفَّ ومَرَّت عليه الريح كانت
له خشخشة ، وهذا كله متلائم مع سعى يزيد بنى شيبان ووسوسته وخشخشته
فى تحريض رهط ابن مسعود ، ولم يذكر الأعشى الوسوسة والخشخشة إلا فى
هذه القصيدة ، كما لم يذكر مشى صاحبة على الشوك ، أو مشيها فى الوحل
إلا فى هذه القصيدة التى دارت حول هذا الغرض ، والبلاغيون يقولون :
إن الأمر الداعى - أى الذى يدعو المتكلم إلى الكلام - هو الذى يدعوه أيضاً
إلى أن يعتبر فى كلامه خصوصات لغوية ، دالة على مراده ، وهذا معنى متسع
وجيد ، وفى ضوئه تُفسَّر تقارب الصور ، والرموز ، والصيغ فى القصيدة
الواحدة على حد ما بيننا هنا .

ومن البليغ البين فى هذه القصيدة أبياته المشهورة ، قال بعدما تأنق فى
وصف طيب نشر صاحبتة :

عَلَّقْتُهَا عَرَضاً ، وَعَلَّقْتُ رَجُلًا	غَيْرِي وَعَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ
وَعَلَّقْتُهُ فَتْسَاءَ مَا يُحَاوِلُهَا	مِنْ أَهْلِهَا مَيِّتٌ يَهْدِي بِهَا وَهْلُ
وَعَلَّقْتَنِي أَخِيرَى مَا تَلَاْمُنِي	فَاجْتَمَعَ الْحُبُّ حُبًّا كُلُّهُ تِبْلُ
فَكُلُّنَا مُغْرَمٌ يَهْدِي بِصَاحِبِهِ	نَاءٍ وَذَانٍ وَمَحْبُولٌ وَمُحْتَبِلُ

الوهل : الذاهب العقل ، والتبل - كذلك : الذاهب العقل ، والمحبول : الواقع
فى حباله الصائد ، والمحبل : الصائد .

لم يذكر الأعشى شيئاً من هذا فى غير هذه القصيدة التى يصف فيها الداء
العُضال الذى هو هدم العلاقات الإنسانية الرفيعة وإفساد ذات البين وغرس
الضعينة وتأريش العداوة وإشعال الحروب ، والأبيات تصف الحب الناقص المشوه ،
والعلاقات المختلة ، وتسخر من العواطف الإنسانية ، وتهدم الاطمئنان إليها ،
« كلنا مُغرَم يَهْدَى بِصاحبه » لم يُعَبِّرْ عن الحب بالهذيان إلا فى هذا الموضع ،
لأنه حب مريض ، وإخلاص مريض ، وثقة مريضة ، تأمل كيف تكاثرت
العلاقات ، وتشابكت بمشابك واهية ، وكل مُقْبِلٌ على مَنْ أدار له قفاه ، وليس
بين هذا الحشد موقف واحد فيه إقبال من الجانبين ، وإنما إقبال وإدبار .

وهذا واضح الصلة بمحور القصيدة ، ولا يُطلب من الصلات الشعرية أن تكون
عارية مكشوفة ، لأن الشعر لمح تكفى إشارته ، وحسبنا الإشارة إلى التزوير فى
العلاقات ، وأن هذا جزء من المألكة (الرسالة) التى يحملها أبو ثُبَيْتٍ إلى
يزيد بنى شيبان .

وقد وصف الأعشى ما فى صاحبة من هَيْفٍ ، وضمر ، وامتلأ ، ونهود ،
وكان يجمع هذه الصفات ، فإذا ذكر الهَيْفَ والضمر أوماً إلى امتلاء الأعضاء
ولينها .

قال : نِيَّافٌ كَغُصْنِ الْبَنَانِ تَرْتَجُّ إِنْ مَشَتْ دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنْهَلٍ
أراد بقوله : « نِيَّاف » ، أنها مرتفعة مشرفة ، والتشبيه بغُصْنِ الْبَنَانِ فى
الاتساق والضمر ، والرشاقة ، واللين ، والتعابل ، وقوله : دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ ؛
أراد أنها تمشى الهونا فى خفة وأنوثة ودَلٍّ ، وهذا تشبيه واقع ، والحمامة من
أكثر العناصر إصابة حين تُقَرَنُ بالمرأة ، وقد ذكر قبل هذا وصف القدم ، والبنان ،
والساق ، وما وراء ذلك ، وكأن الشاعر كان يتفقد صاحبة عضواً عضواً :

لَهَا قَدَمٌ رِيًّا سَبَاطٌ بِنَانِهَا قَدْ اعْتَدَلَتْ فِي حُسْنِ خَلْقٍ مُبْتَلٍ
وَسَاقَانِ مَارَ اللَّحْمِ مَوْرًا عَلَيْهِمَا إِلَى مُنْتَهَى خَلْخَالِهَا الْمُتَصَلِّصِ

ثم ذكر أوصافاً أخرى ودقّق ، وبيّن ، وأزال الستر ، وذكر ما وراء ذلك ، وصوّر ببيان واضح ، والشاعر حين يفعل هذا ويسلك هذا المسلك كأنه يهدى لشيء آخر ، وهو فى هذه القصيدة : البطولة والقُدرة على مواجهة الأعداء ، وإعمال رماحهم فى صدورهم حتى تتكسر . هذا الفجور الذى يكون فى الكلام وهذه المعانى العارية فى الشعر ، ليست هى المقصودة ، وإنما هى الفحولة التى تكون بها المصادمة فى الموقف الصعب ، وبيان القُدرة على المواجهة والغلبة .

قال بعد ذلك :

وَنَحْنُ رَدَدْنَا الْفَارِسِيِّنَ عَنُوءَ وَنَحْنُ كَسَرْنَا فِيهِمْ رُمُحَ عَبْدِ

ورمح عبد : يعنى رماحاً منسوبة لعبد القيس ، وأراد قتالهم للفُرس ، وكان قد ذكر فى حديثه العارى عن صاحبة « الفارسى » وهى مشاكلة لفظية لا تُغفل .

إِذَا مَا عَلَاهَا قَارِسٌ مُّبْتَدِّلُ فَنِعْمَ فِرَاشُ الْفَارِسِ الْمُتَبَدِّلِ

والمراد به صاحبها ، ولكنه ذكر كلمة « فارس » لأن هذا التبذل ، والتهتك ، والفجور - كما قلت - مقدمة للبطولة ، والفروسية ، والغلبة ، ولا يجوز أن نأخذ هذا الكلام بظاهره ، ونقول إن الشاعر مُفْحِشٌ فى هذا ، وأن القصد من الفجور هو ذكره فحسب ، وقد رأيت الشاعر حين يكشف ستر صاحبة فى القصيدة غالباً ما يكون لمغزى ؛ إما البطولة كما هنا ، أو الاستعداد للهجاء المقذع الذى لا يَحُدُّه أدب ولا يَكْفُهُ ، ولا حياء ، وكأنه بهذا الكشف وهذه التعرية يُنذر مَنْ يهجوهُ بالنيل من عرضه ، وأنه سيضع على عرضه لساناً

ذا قذع ، وما ذُكِرَ فيه الهيف والضمور ، وشبه صاحبة فى هذا بالمهرة الضامر
قوله :

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ سُرِيتُ هَيْفَاءَ مِثْلَ الْمَهْرَةِ الضَّامِرِ
قَدْ نَهَدَ الثَّدْيُ عَلَى صَدْرِهَا فِي مُشْرِقٍ ذِي صَبَحٍ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يَا عَجَبًا لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ

شَبَّهَهَا بِالْمَهْرَةِ الضَّامِرِ ، وَهوَ تَشْبِيهِه وَاقِعٌ ، لِأَنَّهُ يَصِفُ أَوَّلَ نَهْوِهَا ، وَالصَّبَحُ
النَّائِرُ - بَفَتْحِ الصَّادِ وَالْبَاءِ : أَرَادَ اللَّبَّةَ الْمَشْرِقَةَ الْوَضِيئَةَ ، وَالْبَيْتُ الثَّالِثُ مِنْ
الْأَبْيَاتِ السَّائِرَةِ وَقَدْ بَلَغَتْ فِيهِ الْمِبَالِغَةُ ذُرُوتَهَا ، وَقَدْ أَكَّدَ هَذِهِ الْمِبَالِغَةَ بِالْإِيْهَامِ
أَنَّهَا حَقِيقَةٌ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : « حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا ... » إِلَى آخِرِهِ ،
وَلَهُ دَلَالَةٌ أُخْرَى سَوْفَ نَنْبُئُهُ إِلَيْهَا ، وَقَوْلُهُ : « عَهْدِي بِهَا » فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ
عَيْنَهُ وَاقِعَةٌ عَلَيْهَا قَبْلَ يَفَاعَتِهَا ، وَأَنَّهُ يَتَعَهَّدُهَا ، وَهِيَ تَلْعَبُ فِي مَلَاعِبِ
طِفْلَتِهَا ، وَيَفَاعَتُهَا ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ :

وَقَدْ أَرَاهَا وَسَطَ أَتْرَابِهَا فِي الْحَيِّ ذِي الْبَهْجَةِ وَالسَّامِرِ
كَدُمِيَّةٍ صُورَ مِخْرَابِهَا بِمَذْهَبٍ فِي مَرَمَرٍ مَائِرِ
أَوْ بَيْضَةٍ فِي الدَّعْصِ مَكْنُونَةٍ أَوْ دُرَّةٍ شَيْقَتٍ لَدَى تَاجِرِ

تَأْمَلْ قَوْلَهُ : « وَقَدْ أَرَاهَا فِي الْحَيِّ وَسَطَ أَتْرَابِهَا » تَرَاهُ قَرِيبًا مِنْ قَوْلِهِ :
« عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ » ، ثُمَّ قَوْلُهُ : « ذِي الْبَهْجَةِ وَالسَّامِرِ » يَعْنِي بِذَلِكَ الْإِلْقَاءَ
الْبَهِيْجَ فِي الْأَيَّامِ الطَّلُقَةِ الرُّضِيَّةِ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا أَهْلُ الْحَيِّ مِنْ جَبَرَةٍ وَعَشِيرَةٍ ،
وَتَأْمَلِ « الدُّمِيَّةَ الْمُصَوَّرَةَ فِي الْمِحْرَابِ » ، وَهُوَ صَدْرُ الْبَيْتِ ، ثُمَّ تَأْمَلِ : « الْمَرْمَرِ
الْمَائِرِ » ، أَيْ الْمَتَمَوِّجَ وَهَذَا الْجُنَاسُ اللَّطِيفُ ، ثُمَّ تَأْمَلِ كَيْفَ انْتَقَلَ بِهَا مِنَ
الْبَيْوتِ ذَاتِ الْمَحَارِبِ وَهِيَ مَسَاكِنُ الْحَضَرِ ، وَالَّتِي تُصَوَّرُ فِيهَا الدُّمَى وَالْمَرْمَرِ

المائر ، ولا يكون هذا إلا في قصور أهل الثراء والنعمة ، كيف انتقل بها من هذا إلى الثنائف البعيدة حيث بيض النعام المكنون ، ثم انتقل إلى قاع البحر حيث الدُرَّةُ المجلوة ، وهكذا هي خير نساء أهل الحَضَر ، وأهل الوَبَر ، بل أنفس ما في البر والبحر ، وهذا استخراج سريع وربما كان سطحياً ، لأن ذكر هذه الحيات الثلاثة (الحَضَر ، والمدَر ، وقاع البحر) لها مرام في الدلالة أبعد من الذي قلناه .

والمهم في سياقتنا هذا هو أنه بعد ما افْتَنَ في تصوير هذا الجمال الذي ضمَّنه خارقة من الخوارق التي أجراها الله على يد عيسى عليه السلام ، وهو أنه كان يُحيى الموتى بإذن الله ، و « قُتِلَتْ » هذه تحيى الموتى بإسنادهم إلى صدرها ، وكأن في الصدر سرّاً إلهياً كآسرار النبوءات ، أقول : إنه بعد ما افْتَنَ وبلغ الغاية وسما إلى سموات البيان والجمال الرفيع ، سقط فجأة أو انقضَّ فجأة على خنا علقمة وفجوره ... قال :

دَعَهَا فَقَدْ أَعْدَرَتْ فِي حُبِّهَا وَادُّمُّرُهُ خَنَا عَلَقْمَةَ الْفَاجِرِ

وهذا من انتقالات الشعراء التي يجب أن تُستخرج منها أسرار بلاغتها ، وهو ضرب من ضروب المقابلات التي تبلغ غاية التضاد ، ولم يكشف في وصفها بالذي وصفها به ، وهي أوصاف ليس فيها كشف ستر ، ولا حديث عار عن مواطن العفة ، كما قال في الشواهد السابقة حين ذكر الفارس المبتدل ، وإنما هي أوصاف كما ترى فيها الصفاء ، والنعمة ، والصون ، دُمِيَّة في محراب ، أو بَيْضَة مكنونة ، أو دُرَّة مجلوة لدى تاجر ضنين بها ، وقد أضاف إلى ذلك حديثاً عن عفافها وطهرها ، وهذا نادر في شعره

عَبَّهْرَةُ الْخَلْقِ بِلَاخِيَّةٍ تَشْوِيُهُ بِالْخُلُقِ الطَّاهِرِ

والعبهرة : الرفيعة الناصعة الممتلئة ، والبلاخية - بضم الباء : الطويلة العظيمة ، وقد جمع في هذا البيت جمال الخلق الذي يزينه خلق طاهر ، ووصف الخلق بالطهارة من الأوصاف السديدة ، وكأنه يتم بذلك المقابلة ويهيء الكلام للحديث عن خنا علقمة ، وأوضح من هذا في تلميحات الشعر ، وإحياءات الشعراء ، أنه بعد - أو أثناء - ذكر هذه الأوصاف العظيمة كان يَصْدِمُ الفارئ بنفى صفات عن « قُتِلَتْ » هذه ليس القارئ في حاجة إلى نفيها ، وذلك مثل قوله :

لَيْسَتْ بِسَوْدَاءَ وَلَا عِنْفِصٍ تُسَارِقُ الطَّرْفَ إِلَى الدَّاعِرِ

والعنفص - بكسر العين وسكون النون : هى القبيحة البذيئة سيئة الخلق قليلة الحياء ، وتسارق الطرف إلى الداعر : من أخط أخلاق سواقط النساء .

أقول : إِنَّ مَنْ وَصِفَتْ بِأَنْهَا دُمِيَّةٌ ، وَأَنَّهَا بَيْضَةٌ مَكْنُونَةٌ ، وَأَنَّهَا دُرَّةٌ مَجْلُوءَةٌ ، لَيْسَتْ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ نَنْفِي عَنْهَا السَّوَادَ وَسَخَائِمَ الْأَخْلَاقِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ الْمَقَابِلَاتِ ، وَالْإِشَارَاتِ الْمَشِيرَةِ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقَصِيدَةِ ، وَهُوَ هَجَاءُ عِلْقَمَةَ وَالْحَدِيثِ عَنْ فَجْوَرِهِ ، ثُمَّ فِيهِ إِشَارَةٌ خَفِيفَةٌ إِلَى الْمَقَابِلَةِ بَيْنَ عِلْقَمَةَ ، وَعَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ - بَضْمِ الطَّاءِ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا مَنَاجَزَةٌ ، وَالْأَعْشَى فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَمْدَحُ عَامِرًا وَيَهْجُو عِلْقَمَةَ ، يَقُولُ :

سَدَّتْ بَنَى الْأَحْوَصِ لَمْ تَعْدُهُمْ وَعَامِرٌ سَادَ بَنَى عَامِرِ
سَادَ وَالْقَى قَوْمَهُ سَادَةً وَكَابِرًا سَادُوكَ عَنْ كَابِرِ

أقول : إِنَّ ذِكْرَ الدُمِيَّةِ وَالْبَيْضَةِ وَالْأَحْوَصِ ، ثُمَّ ذِكْرَ السَّوْدَاءِ الْعِنْفِصِ ، سِيئَةُ الْخُلُقِ ، سَاقِطَةُ النَفْسِ ، الَّتِي تَسَارِقُ الطَّرْفَ إِلَى الدَّاعِرِ ، ضَرْبٌ مِنَ الْمَقَابِلَةِ بَيْنَ عَالٍ وَسَافِلٍ ، وَرَفِيعٍ وَوَضِيعٍ ، وَسَيِّدٍ وَمَسُودٍ ... وَهَذَا حَسْبُهُ فِي مَقَامِهِ .

ثُمَّ تَأْمَلِ الْمَدْخَلَ اللَّطِيفَ إِلَى التَّشْهِيرِ بِعِلْقَمَةَ وَقَدْ كُنَّا أَرْجَأْنَا الْقَوْلَ فِيهِ :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولُ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يَا عَجَبًا لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ
دَعَاهَا فَقَدْ أَعْذَرْتَ فِي حُبِّهَا وَادْكُرْ خَنَا عِلْقَمَةَ الْفَاجِرِ

كَيْفَ صَنَعَ هَذِهِ الْخَارِقَةَ ، الَّتِي جَمَعْتَ النَّاسَ ، وَاحْتَشَدُوا لَهَا يَقُولُونَ يَا عَجَبًا ، ثُمَّ وَهُوَ فِي وَسْطِ هَذَا الْحَشْدِ الْهَائِلِ ، يَتَجَهَّزُ إِلَى هَجَاءِ عِلْقَمَةَ . هَذَا عَجِيبٌ وَمَزِيدٌ تَشْهِيرٌ ، وَمَنَادَاةٌ عَلَى خَنَا الرَّجُلِ وَفَجْوَرِهِ .

وعلم الله أنه ما كان صاحب خنا ، وإنما كان سيّداً جليلاً ، وسنرى بعد قليل كيف رجع الأعشى ، وكيف مدح الرجل الماجد ، والمهم أن هذا التشهير فى حشود الناس قد أعدّ له الأعشى بطريقة خفية ، من أول القصيدة حين ذكر الحىّ ذا البهجة ، والسامر ، فى قوله فى البيت الرابع بعد ما ذكر الديار :

وَقَدْ أَرَاهَا وَسَطَ أَثَرِهَا فِي الْحَىِّ ذِي الْبَهْجَةِ وَالسَّامِرِ

بل أخفى من هذا وأشف ذلك ذكره حشداً من الأمكنة حين ذكر ديارها ، وليس هذا من عادته ، فأطلالها بالشط ، والوتر ، إلى حاجر ، فركن مهراس ، إلى مارد ، فقاع منفوخة ، وهكذا يهيبىء لإذاعة مثالب فى حشود من البشر منها : قوم فى الحىّ ذا البهجة والسامر ، وقوم يرون مخارق العادات ، وكذلك فى حشود من الأمكنة وهذا ذكره للطلل وليس شائعاً فى شعره .

شَاقَّتْكَ مِنْ قَتْلَةٍ أَطْلَلَهَا بِالشُّطِّ فَالْوَتْرِ إِلَى حَاجِرِ
فَرُكْنٍ مِهْرَاسٍ إِلَى مَارِدٍ فَقَاعٍ مَنفُوخَةٍ ذِي الْحَائِرِ
دَارٌ لَهَا غَيْرَ آيَاتِهَا كَلٌّ مِثْلُ صَوْتِهِ زَاخِرِ
وَقَدْ أَرَاهَا وَسَطَ أَثَرِهَا فِي الْحَىِّ ذِي الْبَهْجَةِ وَالسَّامِرِ

وحسبى هذا فى بيان أسرار الصور والرموز وعلاقات بعضها ببعض ، وكيف ينم بعضها عن بعض ، أو يومىء بعضها إلى بعض ، وهذا تنبيه فقط إلى هذا الباب ، وهو من أرفع أبواب البلاغة المهجورة ، وما كان لنا أن نذكر تشبيه المرأة بالدمية ، والبيضة ، والدرّة ، فى قصيدة كهذه من غير أن نشير إلى علاقات هذا التشبيه بالوشائج العامة والأنسجة الجارية فى القصيدة .

هذا .. وقد كان علقمة غير ما وصف الأعشى ، وخيراً مما وصف الأعشى .

وقد جعل هو وعامر بن الطفيل - بضم الطاء - منافرتهما لأبى سفيان بن حرب فقال لهما : أنتما كركبتى البعير الأذرم ، فقالا له : فأينا اليمين ، قال :

كلاهما اليمين ، وأبى أن يقضى بينهما ، وكذلك هرم بن سنان أبى أن يقضى بينهما ، وكانت لعلقة يد عند رسول الله ﷺ كره لها أن يسمع هجاء الأعشى هذا .

ذكر أبو الفرج أن رسول الله ﷺ سمع حسان ينشد هجاء أعشى قيس بن ثعلبة ، علقمة بن علاثة ، ومديحه عامر بن الطفيل :

عَلَّقِمَ لَا لَسْتَ إِلَى عَامِرٍ النَّاqِضِ الْأَوْتَارَ وَالْوَاتِرِ
إِنْ تَسُدَّ الْحَوْصَ فَلَمْ تَعُدَّهُمْ وَعَامِرٌ سَادَ بَنِي عَامِرٍ
سَادَ وَالْفَى قَوْمَهُ سَادَةٌ وَكَابِرًا سَادُوكَ عَنْ كَابِرِ

فقال رسول الله ﷺ : « كُفُّ عَنْ ذِكْرِهِ يَا حَسَان ، فَإِنْ أَبَى سَفِيَانُ لِمَا شَعُثَ مِنِّي عِنْدَ هَرَقْلَ ، رَدُّ عَلَيْهِ عُلْقِمَةُ » . فقال حسان بن ثابت : « بِأَبَى أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ نَالَتِكَ يَدُهُ فَقَدْ وَجِبَ عَلَيْنَا شُكْرُهُ » .. انتهى خبر أبى الفرج .

ورحم الله علقمة فقد مات وهو من ولادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، على أن الأعشى قد رجع عن هجائه ، واعتذر لعلقة فى أبيات جواد قال فيها :

أَعْلَقِمُ قَدْ صَيَّرْتَنِي الْأُمُورُ إِلَيْكَ وَمَا كَانَ لِي مُنْكَصُ
كَسَاكُمُ عُلَاةٌ أَثْوَابُهُ وَوَرَّتْكُمْ مَجْدَةُ الْأَحْصُ
وَكُلُّ أَنْسَاسٍ إِنْ أَفْحَلُوا إِذَا عَايَنُوا فَحَلَّكُمْ بَصَبُ
وَإِنْ فَحَصَ النَّاسُ عَنْ سَيِّدٍ فَسَيِّدُكُمْ عَنْهُ لَا يُفَحَصُ
فَهَلْ تُنْكَرُ الشَّمْسُ فِي ضَوْئِهَا أَوِ الْقَمَرُ الْبَاهِرُ الْمَبْرُصُ
فَهَبْ لِي ذُنُوبِي قَدْ تَكَ النَّفُوسُ وَلَا زِلْتَ تَنْمِي وَلَا تَنْقُصُ

وما كان لى منكص : أى مرجع ، و « الأحوص » فاعل : « ورثكم » وهو جد علقمة ، وأفحلوا : صار لهم فحل ، وهذا مجاز عن الشرف والسودد ، وبُصص

البعير : حرَّكَ ذنبه ، ويكون مجازاً عن التملق وهو المراد هنا ، أى أنْ فحلَّكم شيخ الفحول ، وهذا أيضاً مجاز عن رفعة شرفهم وسيادتهم ، والسيد الذى لا يُفحص عنه هو السيد المعروف المتعالم خبره ، والقمر المبرص : أى المشرق الأزهر.. وتأمل كيف يستل سخيمة الكريم بالتوجه إليه وأنه ليس له ملاذ يلوذ إليه إلا هو ، والنفس الحرَّة تطرح كل غيظها إذا أقبل عليها من أساء إليها ، ولا شئ أفضل فى المدح من أن يُقال للولد : كسك أثوابه الوالد ، وورثكم الجد مجده ، وهذا يقابل قوله هناك : « وكابراً سادوك عن كابر » ، وقوله : « فهب لى ذنوبى فدتك النفوس » اعتذار بليغ ، وقوله : « ولا زلت تنمى ولا تنقص » إشارة إلى أن هجاءه لم ينل من قدره .

وللأعشى تشبيه شائع فى طيب نشر صاحبة وهو :

إِذَا تَقُومُ يَضُوعُ الْمِسْكُ أَصُورَةٌ وَالذُّبُقُ الْوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمْلٌ
مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ مُعْشَبَةٌ خَضَاءَ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَظْلٌ
يُضَاحِكُ الشَّمْسُ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ يَعْمِيمُ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ
يَسُومُ بِأَطْيَبٍ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذَا دَنَا الْأَصْلُ

يضوع المسك : ينتشر ويفوح ، والأصورة : جمع صُور - بضم الصاد - وهو الوعاء الذى يُحرق فيه المسك ، والذنبق : نبات له زهر طيب الرائحة ، والورد : يعنى أن لونه يشبه لون الورد ، والأردان : جمع ردان ، وهو الثياب من الحز ، والشمل : المنتشر ، والحزن : المرتفع من الأرض ، ورياض الحزن أطيب من رياض المنخفضات ، لأن الريح تهب عليها وتنشر طيبها ، والكوكب الشرق : الكوكب الزاهى ، والمؤذر : الذى كأنه لبس إزاراً من النبت العميم : أى الكثيف ، والمكتهل : المكتمل .

والبيت الأول : « إِذَا تَقُومُ يَضُوعُ الْمِسْكُ أَصُورَةٌ » فيه بيان كامل لطيب الرائحة لأن ريح المسك أظهر من الذنبق والروضة ، ولهذا يكون ذكر الذنبق

والروضة المعشبة له مغزى أوسع من الطبيب ، وكان الزُّنبق الورد مدخلاً لذكر
الروضة ، والروضة تشمل الزُّنبق وغيره ، وللشعراء هوى فى ذكر الرياحين مع
النساء ، وليس المقصود من الزُّنبق الريح فحسب ، وإنما لأن الصاحبة أيضاً
زنبقة فى الحُسن والملاحة ، وهوى النفس وحسرة المقارب ، وقد يذكرون الروض
ولا يقتدون إلى شىء من الطبيب كما ذكر بشار :

وكان رَجَعَ حديثها قطـ مع الرياض كُسينَ زهرا
وكان تحت لِسَانِهِ هارُ وتُ ينفثُ فيه سِخرا

والروض فيه الحياة والتكاثر ، والطراوة ، والرى ، ورخاوة العيش ، والبراعم
المتفتحة المشرقة بتجدد الحياة والجمال والخصوبة والوفرة ، الرياض تشبع النفس
بكل هذا ، وأكثر منه ، وكذلك المرأة تبعث فى الروح روحاً وإقبالاً .

وقد برع الأعشى فى تصوير الروضة ، ودخل إلى حديثها من مدخل لطيف ،
فقد ترك ذكر المسك إلى الزُّنبق الورد ، ثم إلى الروضة ، وهكذا تسلسل الكلام
من غير نتوء ، وقد جعل البيت الأول الذى ذكر فيه الروضة :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَّاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَظِلٌ

مدخلاً لإبداع رائع فى البيت الذى يليه :

يُضَاحِكُ الشَّمْسُ مِنْهَا كَوْكَبُ شَرْقٍ مُؤَرَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ

فى البيت الأول ذكر الروضة المعشبة التى فى حَزَنٍ وهذا أصح لزرعها وأنقى
لمعدنها وطينها ، وذكر أن السحاب يجودها : أى يمنحها الجود وهو المطر ، وهذا
ما يقوله الشعراء ، الروضة ، وخصوبتها وماؤها ، والبيت الثانى من صور
البيان الفذة ، التى لا يخرجها من ألفاظ اللُّغة إلا مَنْ له قُدرة . تأمل كيف حرّد
من الروضة كوكباً شرقاً - أى أزهرأ ، وكيف استخرج من أحشاء النبات ابنأ
للشمس ، يضاحكها ، ثم كساه بثياب أمه ، فأذره بعيم النبات ، لم أعرف

كوكباً يخرج من أحشاء روضة وهو معتم بالنبت ويضاحك الشمس إلا فى هذه الصورة التى تخلق كائناً ثالثاً ، نصفه من الكواكب ، ونصفه من النبات : « كوكب شرق مؤزر بعميم النبت » ، ثم تأمل الملاءمة بين الصاحبة ومناغاة الشاعر لها ، وبين مضاحكة الكوكب الشرق المزهو بزينة الأرض للشمس ذات التعالى والكبرياء .

وقد ذكر « عنتره » الروضة الأنثى فى سياق يشبه هذا وقد شاعت أبياته لأنه ذكر الذباب الذى خلت له الروضة ، وأنه فيها غرد مباح ليس ببارح ... إلى آخر ما قال ، وقد رددت كتب الأدب هذه الأبيات وهى :

إذ تستبيك بذى غروب واضح	عذب مقبله لذيذ المطعم
وكأن فارة تاجر بقسيمة	سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفاً تضمن نبتها	غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكرثرة	فتركن كل حديقة كالدرهم
سحاً وتسكاباً فكل عشيّة	يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلأ الذباب بها فليس ببارح	غرداً كفعل الشارب المترنم
هسرجاً يحسك ذراعاً بذراع	قدح المكب على الزناد الأخدم

تستبيك : تذهب بعقلك ، وذو الغروب : الشجر ، وغروب الأسنان : حدها ، واحدها غرب ، والفارة : هى فارة المسك ، أى نافجته ، ووعاؤه ، والمراد بالتاجر : العطار ، والقسيمة : المرأة الحسناء ذات التقاسيم ، والعوارض : الأسنان ، وهى مفعول به للفعل « سبقت » ، والفاعل ضمير يعود على الفارة ، والمراد طيب ريح الفم ، حتى كأن نافجة مسك تسبق إليك منه ، والروضة الأنثى : التى لم بطأ أرضها راع ، وهذا أطيّب لها ، والروضة تُقال للنبات ، ويقال للشجر : حديقة ، والروضة : المكان المظمن ، فيجتمع فيه الماء فيكثر نباته ،

هكذا قال ابن الأنباري ، و « الغَيْثُ القليلُ الدَّمْن » : يعنى القليل المكوث ، حتى لا تفسد بكثرة المطر ، و « ليس بِمَعْلَم » - بفتح الميم : أى ليس معلوماً مشهوراً ، وإنما هو غيث يجودها بمقدار ما تحتاج ، وتحسن ، وتَبْنَعُ ، والبكر - بكسر الباء : أول المطر وأول السحابة ، والثرثرة : الكثيرة الماء ، والحديقة جمعها حدائق : وهى الحيطان التى فيها الشجر ، وقوله : كالدرهم - أى مملوءة بالماء ، وليس المراد الحجم ، وإنما المراد الامتلاء والاستدارة ، قال ابن الأنباري : والعرب تُشَبِّهُ الشئ بالشئ ولا تريد به كل ذلك الشئ ، إنما تُشَبِّهُ ببعضه ، من ذلك قولهم : « بنو فلان بأرض مثل حدقة الجمل » والأرض واسعة ، إنما يريدون أنها كثيرة الماء ، ناعمة العُشْب مخصبة ، ولم يذهبوا إلى سعة العين ولا ضيقها ، والسحّ والتسكاب : الصب ، قال ابن الأنباري : وإنما جمع بين التسكاب والسحّ ، وكلاهما واحد لاختلاف لفظهما ، والعرب تفعل ذلك اتساعاً وتوكيداً ، و « يجرى عليها الماء كل عشية » : أى فى وقت حاجتها إلى الماء لأن الشمس قد أذهبت نداءه وجففت أرضه .

وقوله : « وخلا الذباب بها » أى خلت هى له ، والمكب : هو مَنْ أَكَب على الشئ أى أقبل عليه ، وعكف ، فهو مكب ، والأجذم : المقطوع اليد ، وهذا الشرح مختصر من شرح ابن الأنباري ، والملاحظ أن الأعشى يصف طيب النشر ، وعنترة يصف ما يسبق إليك من عوارضها ، يعنى ريح الفم ، وهذان مختلفان ، وقد انتقل الأعشى إلى الروضة من ذكر الزنبق الورد ، وكان هذا مدخله إلى الروضة ، وهو مدخل ملائم ، وانتقل عنترة إلى الروضة من ذكر « فارة تاجر » أى نافجة العطار ، وهو ملائم أيضاً لريح الفم ، وقد ذكر الأعشى « الأصورة » - جمع صوار ، وهو قريب من فارة التاجر ، وقد وقف الأعشى عند الروضة يتأمل ، ويفصل ، ويخصب ، ويذكر العُشْب الأخضر ، والزهر الأبيض كالكوكب ... إلى آخره .

وعنترة انصرف إلى الغيث ، ولم يذكر الروضة ، إلا بهذه الكلمات : « روضة أنف » ثم ذكر أن الغيث ضمن نبتها ، وأنه قليل المكث « ليس بِمَعْلَم » ، وأن الذى جاد الروضة منه بَكَرَاتِهِ الثَّرَاتُ . وأنها ملأت الحدائق ... إلى آخر ما ترى ،

ثم ترك الغيث إلى ذكر الذباب ، ولم يذكر زهرة ، ولا ريحانة ، مع أن السياق سياق الحديث عن الثغر ، الذى يذكرون معه الزهر ، والأقحوان ، أغفل عنترة هذا ، وتعلق بالذباب ، وأخذ يُحدث عن كثرته ، ويجعل ذلك كناية عن شدة خضرتها وبناعتها ، وأنها مهجورة لا يرتادها أحد ، وقد ذكر تغريد الذباب ، وجعله ثملاً مترنحاً ، مترنماً ، طروباً ، خفيفاً ، نشطاً ، هزجاً ، يحك ذراعه بذراعه ... إلى آخره . وقد ذكروا أن التشبيه فى قوله : « مَدَحُ المكب على الزناد الأجذم » من التشبيهات العُقم لأنه لم يسبقه أحد إليها ولا تبعه أحد فيها ^(١) .

وربما كان ذلك لأنك قلماً تجد شاعراً يذكر روضة ثم يدع رباحينها وزنبقها ، وفغوها ، ليشغل بذبابها الذى يحك ذراعه بذراعه ، ثم يستخرج لها من مخزون صوره « أجذم مكباً على زناد يقدحه » ، ونسأل الله أن يرفع عنا سوء ، وأين هذا من « كوكب يضاحك الشمس ، وهو مؤزر بعميم التبت مكتهل » .

وقد بقى من حديث المرأة أمر متصل بها وهو وصف هواذجها ، وقد كان ذلك من الشائع عند الشعراء ، ولهم فيه رقائق ودقائق .

وصف الأعشى حدوج صاحبة فى خمس قصائد من شعره ، منها ما يميل إلى شيء من التفصيل ، ومنها ما ينزع إلى الإجمال ، وهو فى تفصيله يخالف بين ما يُفصِّلُه هنا وما يُفصِّلُه هناك ، فتارة تراه قد اتجه إلى الحدوج ، وأخذ يتأملها ، ويشبهها بالنخل الذى عليه أبابيل الطير ، ويذكر الثياب الملوّنة الكريمة ، التى تُطرح على الحدوج ... وهكذا ، وأحياناً يكون تفصيله فى بيان الأمكنة التى تجتازها الحدوج ، فيذكر الأماكن التى اجتازها ، وما كان عن شمائلهم ، وما كان عن أيمانهم ، وكأنه يحدد خريطة السير ، وهذا مذهب من مذاهب التشوق يختلف عن الذى قبله ، فإذا كان هناك قد وقف عند الطعينة ، والهودج ، التى هى فيه ، وأخذ يصف هياتة ، وتحاسينه ، وبناعته ، فإنه هنا يتأمل مواطء

(١) يُنظر العمدة ج ١ ص ٢٩٦

أقدامهم وهم يرحلون ، ويتأمل المسافات فى قريبا وبُعدها ، وللشعر فى هذا إشارات جياذ ، قد ينطوى بعضها فى تحديد الأماكن التى قطعها الركب ، وبيان مناسبة هذه الأماكن إلى ما بنى عليه الشعر ، كما سنرى فى شعر الأعشى حيث كانت الأماكن التى قطعها الركب هى ما يتمنى أن يقطعه هو ، ليعود إلى بلاد قيس ، وكان قد أقام فى نجران وقال قصيدة يتشوق فيها إلى دياره .

وهذه أبيات أخرى ذكر فيها الحدوج وأوصافها قال :

تَصَابَيْتَ أَمْ بَانَتْ بِعَقْلِكَ زَيْنَبُ	وَقَدْ جَعَلَ الْوُدَّ الَّذِي كَانَ يَذْهَبُ
وَشَاقَتْكَ أَطْعَانُ لَزَيْنَبَ غُدُوَّةُ	تَحْمَلْنَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ
فَلَمَّا اسْتَقَلْتُ قُلْتُ نَحْلُ ابْنِ يَامِنْ	أَهْنِ أُمَ اللَّاتِي تَرُبْتُ يَتَرَبُ
طَرِيقَ وَجَبَّارٍ رِوَاءَ أَصُولِهِ	عَلَيْهِ أَبَايِلٌ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَعَقْمَةٍ	جَوَانِبُهَا لَوْنَانِ وَرْدٌ وَمُشْرَبُ
أَجَدُوا فَلَمَّا خِفْتُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا	فَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ مُصْعِدٌ وَمُصَوَّبُ
طَلَبْتُهُمْ تَطْوِي بِي الْبَيْدُ جَسْرَةَ	شَوَيْقَةَ النَّابِئِينَ وَجَنَاءَ ذِعْلَبُ
مُضَبَّرَةً حَرَفُ كَأَنَّ قُتُودَهَا	تَضَمَّنَهَا مِنْ حُمْرٍ بَيَّانٍ أَحْقَبُ
فَلَمَّا ادْرَكْتُ الْحَيَّ أَتْلَعُ أَنْسُ	كَمَا أَتْلَعْتُ تَحْتَ الْمَكَانِسِ رُبْرُبُ
وَفِي الْحَيِّ مَنْ يَهْوَى لِقَانَا وَيُسْتَهْيُ	وَأَخْرَ مَنْ أهدَى الْعَدَاوَةَ مُغْضَبُ (١)

بنى مطلع الأبيات على التجريد ، والتدله ، والتهالك فى الصبوة ، فقال : « تصابيت أم بانة بعقلك زينب » ولم يذكر الديار ، لأن الصاحبة حاضرة فيها ، وقومها يتحملون ، وتوشك أن تستقل أطعانهم ، وهذا باعث الشوق .

(١) الديوان : القصيدة ٣٠

وقد تُذكر الطعائن مع ذكر الديار ، ولهم فى ذلك مذاهب منها أن يسألوا
الديار عن الركب كما قال امرؤ القيس :

أَلَا أَنْعِمُ صَبَاحاً أَى الرَّبْعِ وَأَنْطِقُ وَحَدَّثَ حَدِيثَ الرُّكْبِ إِنْ شِئْتَ وَاصْدُقِ
وَحَدَّثَ بِأَنْ زَالَتْ بَلِيلُ حُمُولِهِمْ كَنَخْلٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ غَيْرِ مُنْبِقِ
ومنها أن يتحدث عن الأطلال ثم يلتفت إلى صاحبه ويقول :

« تبصّرُ خليلي هل ترى من طعائن » ، أو يقول : « أصاح ترى طعائن »
وما يُشبه هذا ، وهو كلام مبنى على التوهم ، لأن الشاعر أحياناً يكون قد ذكر
حججاً خلون بعد رحلة الصحابة ، ثم يذكر الطعائن ويتوهم أنه يراها ، ويستعين
بالخليل ، بل قد يزعم الشاعر أنه ركب ناقته ، ولحق بالركب .

والذى هنا ليس من هذا ، وإنما هو التهاك ساعة إعداد القوم رواحلهم ،
والأعشى يقول إنهم يعدون رواحلهم من الغداة ، حتى كادت الشمس تغرب ،
حواهو فى هذا كله واقف يتدله ، وتذهب نفسه ، وقوله : « يذهب » فى قوله :
« وقد جعل الودّ الذى كان يذهب » مفعول ثان لـ « جعل » ، وكان تامه أى
« وجد » ، والكلام « وقد جعل الود يذهب ، والذى كان » صفة للود .

فلما استقلت الحدوج وأخذت فى المضى ، بدأ الشعر يصف هذه الحدوج ،
فشبّهها بنخل ابن يامن - وهم قوم من هجر لهم نخيل وسفن ، وقد كثر ذكرهم
فى الشعر ، والمراد بالطريق : النخل الطويل ، ومثله الجبال ، وأبابل الطير :
أى جماعاته ، وذكره كناية عن يناعة النخل وخصوبته ، وقوله : « علون بأنماط
عتاق » : أى عالين الهودج ، بشباب حرّة ، كريئة موشاة ، والعقمة - بفتح
العين وكسرهما : الثياب المزينة ، وقد ذكر أن جوانبها ذات لونين : ورد ومشرب ،
والورد : الأحمر ، والمشرب : أى المشيع .

وقد وقف الشاعر يتأمل ، ويصف ، ويتشوّق ، حتى جدّ السير ، وأوغل
القوم وابتعدوا ، فدفعه الشوق إلى طلبهم والسعى من ورائهم ، فطلبهم على ناقة
قوية جرة « شويقنة النابين » : أى حديثة عهد ظهور النابين ، وهم يقولون :

شقاً الناب ، أى طلع ، فهو شاقىء ، وتصغيره : شوقيء ، والتأنيث : شوقئة ، وهذا يعنى وفرة النشاط والحمى ، والناقة الوجناء : القوية ، والذعلبة - بكسر الدال : الخفيفة ، والمضبرة : المكتنزة اللحم ، والقتود : خشب الرحل ، وقد أدمج الأعشى رحلته فى رحلة الصاحبة ، لأنه جعلها فى أثرها لما خاف أن يتفرقوا ، وكأنهم لا يزالون تحت عينه ، وهذا بخلاف الرحلة المألوفة التى يحتفل الشاعر بأوصافها ، وأوصاف طرقيها ، وهجيرها ، وذلك حين يقف على الأطلال ، ثم يركب ناقته طلباً للصاحبة ، كما فعل الأعشى فى طلب قُثْلَةٍ ، وقد مضت على رحلتها سنون ، وقد أدرك الأعشى القوم ، فلما أدركهم مدّت الأنس ، أعناقهن نحوه :

فَلَمَّا ادْرَكْتُ الْحَيَّ أَتْلَعُ أَنْسُ كَمَا أَتْلَعْتُ تَحْتَ الْمَكَانِسِ رِيْبُ

وهذا بيت حسن جداً ، وقد شبههن وهن فى خدورهن يرفعن رؤوسهن لرؤيته ، بالظباء فى مكانسها ترفع رؤوسها لترى ما حولها ، وقوله : « فلما أدركتُ الحى » فيه فضل على مثل قولنا : أدركتُ الحى ، لأن الإدراك الذى هو من باب الانتعال فيه اعتمال ، واجتهاد ، وكدح ، ووراء ذلك ما وراءه من حُرقة الشوق الذى دفعه إلى أن يطوى البيدَ على ناقة شابة فتية ، يحثها حثاً حتى يصيب القوم ، وهو ملتاع إلى الصاحبة ، ثم هى كذلك لأنهن كننا متشوقات إليه ، وتأمل الربط بكلمة : « فلما » فى قوله : « فلما أدركتُ الحى » أى ما إن أدركته حتى أتلع الأنس وكأنهن كن مشغولات به .

وقوله : « وفى الحى من يهوى لقانا » المراد هؤلاء الأوانس ، والآخر المبدى العداوة ، هم الرجال أهل الحمية والغيرة ، والحفاظ ، وذكر العداوة هنا إيماء واضح إلى غرض القصيدة ، لأنها هجاء للحارث بن وعله .

وهذا الوصف جارى فيه الأعشى شاعرين كبيرين ، الأول امرؤ القيس ، والثانى زهير .

وقوله : فلما اسْتَقَلْتُ قُلْتُ نَحْلَ ابنِ يامِنْ أَهْنُ أم اللاتى تَرَبَّتْ يَتَرَبُّ
طريق وجبار رواء أصوله عليه أهابيل من الطير تنقب
والشطر الثانى من البيت الأول غامض المعنى ، وفيه تصحيف (١) .

وهذا مقتبس من قول امرئ القيس :

بعينى طعن الحسى لما تحمّلوا لدى جانب الافلاج من جنب تيمرا
فشبهتهم فى الآل لما تكمّشوا حدائق دَوْمٍ ، أو سفينا مقيّرا
أو المكرعات من نخيل ابن يامِنْ دُون الصفا اللاتى يلين المشرق
سوامق جبار ، أثيث فروعه ، وعالين قنونا ، من البسر أحمر
حمته بنو الربداء من آل يامِنْ بأسيا فيها حتى أقر وأوقرا
وأرضى بنى الربداء واعتم زهوه وأكمّاه حتى إذا ما تهصرا
أطافت به جيلان عند قطاعه تردّد فيه العين حتى تحيرا

وتكمّش القوم : أى أسرعوا فى السير ، وشبههم بالحدائق لما فى الهوداج من
الألوان والزينة ، وشجر الدوم يرتفع فى السماء كالنخيل ، والمكرعات : النخيل
المغروس فى الماء ، والسوامق : المرتفعات ، والجبار : النخل الذى طال حتى
فات اليد لطوله ، والأثيث : الغزير ، وعالين قنونا من البسر : أى أنه أدرك
وتّم نضجه .

وامرؤ القيس يقول : « أثيث فروعه » ، والأعشى يضع بدل ذلك : « رواء
أصوله » ، والبناء اللغوى حذو واحد ، والمقابلة ظاهرة ، ثم يقول الأعشى :

(١) ولا وجه له إلا أن يكون تشبهاً له بزروع « يترب » وقالوا هو مكان فى أرض اليمامة
مشعر بالحصب ، أو هو يثرب مدينة رسول الله ﷺ بوضع التاء مكان الشاء ، وترت : معناها ترمى
« وفى بعض النسخ تَرَبُّ بياين أى ترمى ، ويشرب بالثلثة مكان يثرب وعليه يظهر المعنى و « يترب »
فاعل ، وهم يشبهون الهوداج بالزروع وحدائق الدوم كما فى الشواهد الآتية .

« عليه أهابيل من الطير تنعب » ، ويضع ذلك بدل قول امرئ القيس :
« وعالين قنواناً من البُسر أحمر » وهذا الاختلاف رائع الدلالة بليغ الرمز ، وقد
صار به الأعشى شاعراً نبيلاً رغم أن البيت مستمد من امرئ القيس ، ووجه
الروعة والدقة والفتنة ، أن قصيدة الأعشى - كما قلت - فى هجاء الحارث بن
وعلة ، و « أهابيل الطير » فى صدر القصيدة تنعب - بفتح العين ،
وهذا مناسب للهجاء وكأنها حاملات هذه الرسالة أو تلك القصيدة إلى الحارث ،
وقد قال بعد ذلك :

أَلَا أُلْفِغَا عَنِّي حُرَيْثًا رِسَالَةً فَإِنَّكَ عَنْ قَصْدِ الْمَحْجَةِ أَنْكَبُ

أما الثمار الناضجة فى شعر امرئ القيس : « عالين قنواناً من البُسر أحمر »
وما تبع ذلك من حماية بنى الربداء من آل يامن بسيوفها لهذا البُسر الأحمر ،
حتى كثر وأقر ، وثقل على النخل ، وأرضى أصحابه ، وأخذ زينته ، واعتم
زهوه ، ثم طاف به جيلان فصرمه ، أقول : هذه الحكاية فى شعر امرئ القيس
فيها رمز خفى إلى مُلكه الذى طاف به بنو أسد ، واصطلموه ، لما قتلوا ربههم ،
كما كان يقول ، والقصيدة قالها وهو فى طريقه إلى قبصر الروم يستعينه على
رَجْعِ مُلكه ، وفيها :

بكى صاحبي لما رأى الدُرْبَ دونه وأيقنَ أَنَا لاحقانَ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نحاول مُلكاً أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرَا

وهذا واضح ، وأعتقد أن الأعشى أدرك هذا الرمز فى قصيدة امرئ القيس
فخالفه برمز يناسبه ، فوضع « أهابيل الطير » مكان « البُسر الأحمر » الذى
أقر النخيل وطاف به من صرموه . ثم إنه أخذ من زهير وخالفه مخالفة فيها
لمحة دالة كهذه ... وذلك قول الأعشى :

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَعَقَمَةٍ جَوَانِبُهَا لَوْتَانٍ وَرَدٍّ وَمُشْرَبٍ

وقال زهير :

علون بأنماطٍ عِتَاقٍ وَكِيلَةٍ وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةٌ الدِّمِّ

وقد وضع الأعشى « ورد ومشرب » مكان « مشاكهة الدم » ، لأن ذكر الدم في معلقة زهير مناسب لذكر الجروح التي تعفى بالمثين ، وذكر الدم الذي يَتَغْفَرُ بالسلاح - أى يتشقق . وقد أدرك الأعشى هذا ورأى أن الدم لا مناسبة له في قصيدته فعدل عنه :

وقد أخذ زهير بيته من قول امرئ القيس :

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيةَ فَوْقَ عِقْمَةٍ كَجِرْمَةٍ نَخْلٍ أَوْ كَجَنَّةٍ يَثْرِبُ

وقد ترك التشبيه بجرمة النخل ، أى ما يُصْرَمُ من البُسر ، إلى ذكر الدم لمناسبة سياق حديثه ، و « ما يُصْرَمُ من البُسر » قريب من قول امرئ القيس فى الرائية : « وعالين قُنُوناً من البُسر أحمر » ولم يذكر امرؤ القيس جرمة النخل فى الرائية ، وإنما ذكر قصة حماية بنى الرداء من آل يامن ... إلى آخره ، لأنه هو المناسب كما ذكرنا ، وهذا من أفضل ما تكشفه الدراسة البلاغية فى أسرار الكلام .

ولأزيدك بياناً واقتناعاً بأن الذى قلته هو كما قلت ، أقول : إن امرأ القيس ذكر أوصاف الحدود فى أربعة مواضع من شعره ، لم يذكر حماية البُسر الأحمر بالسيوف ، ولم يذكر كثرة الثمار وجمالها وزينتها ، ولم يذكر طوفان بنى جيلان على هذا النعيم وهذا الثراء وهذا الوفرة واصطلامه ، إلا فى هذه القصيدة ، كما أنه لم يفتن فى هذا الباب إلا فى هذه القصيدة ، وكان يقول البيتين والثلاثة بإيجاز شديد مثل قوله :

عُوجًا عَلَى الطَّلَلِ المِحِيلِ لَأَنَّا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِدَامٍ
أَوْ مَا تَرَى أَظْعَانَهُنَّ بَوَاكِراً كَالنَّخْلِ مِنْ شُوكَانَ حِينَ صِرَامٍ
حُورٌ تُعَلِّلُ بِالعَبِيرِ جِلْسُودَهَا بِيضُ الوجوهِ نَوَاعِمُ الأجْسَامِ

هذا .. وقد شبه الأعشى الحدوج بالروضة الخصبة ، ولم يذكر النخيل ولا العقمة ولا الأنماط العتاق ، وإنما اكتفى بالروضة فى تشبيه مختصر ، وذلك فى قصيدته التى يذكر فيها أبناء عمومته وما كان من بلاء قومه فى الدفاع عن العشيرة ، فى كلام مختصر جرى الاختصار فى عناصره كلها ، وهذا باب من أبواب الإيجاز ، لم يُدرس كما ينبغى لأننا اكتفينا بما قاله البلاغيون فى إيجاز الحذف ، وإيجاز القصر ، ولم ننقل البحث إلى الأودية المختلفة للشعراء ، ولهم فيه مذاهب متنوعة ، ورائعة ، يصغر معها كل ما نهدىء القول فيه ونعيده فى كتب القوم .

قال الأعشى :

أُتَصَرِّمُ رِيًّا أَمْ تُدِيمُ وَصَالَهَا	بَلِ الصَّرْمُ إِذْ زَمْتُ بِلِيلٍ جَمَالَهَا
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ	نَوَاعِمُ يَجْرِي الْمَاءُ رَفْهًا خِلَالَهَا
وَمَا أَمْ خِشْفٍ جَابَةُ الْقَرْنِ فَاقِدٌ	عَلَى جَانِبِي تَثْلِيثٌ تَبْغَى غَزَالَهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا يَوْمَ قَامَ نَوَاعِمُ	فَأَتَّكِرُنَ لَمَّا وَاجَهَتْهُنَّ حَالَهَا
فَيَا أَخَوَيْنَا مِنْ أَبِينَا وَأُمَّنَا	أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ كُلُّ مَنْ فَوْقَهَا لَهَا

تأمل مذهب الاختصار فى هذه القصيدة ، لم يقل : شاققتك أظعان ، ولا أصاح ترى ، ولا بعينى ظعن الحى ، وما يشبه هذا مما يمهّد هو وغيره به لذكر الحدوج الراحلة ، وإنما قال : « كأن حدوج المالكية » ، وتأمل مداخل الشعر وكيف تمتد وتسترسل فى القصائد التى يمد فيها الشاعر نفس الشعر ، وقد أُلْمَعْتُ إلى مذهب آخر من مذاهب الاختصار عند الأعشى وذلك فى طيه رحلته التى كانت تطول فى مثل لاميته : « ما بكاء الكبير » وكيف أوجزها وجزأ .

الهوارج هنا ذُكرت فى بيت واحد ، والنواعم : الرياض ، ويجرى الماء رَفْهًا : أى سلساً سهلاً رهواً ، وهذا كناية جيدة عن وفرة النبات والأزهار والألوان ،

وهو المراد بالتشبيه ، مع شيء آخر هو اقتران المرأة بالزرع ، والنبت ، والخصوبة ، والحرث ، والوفرة ، والرغد ، واللّين ، وكل ما فى النواعم يجرى الماء رفهاً خلالها ، مما يبعث فى النفس روحاً ويحدث لها ارتياحاً .

ثم تأمل كيف وثب الشعر إلى الصاحبة وشبّهها بالظبية الشابة ، الناهد « جابة القرن » ، ثم هى ملتاعة ، ذات شجن « فاقد » ، ثم قال : « فىا أخوينا » ، ومضى بسرعة إلى غايته ، وهكذا بيت افتتح به « أَتَصْرِمُ رَيًّا » ، وبيت وصف الحدوج « كأن حدوج المالكية » ، وبيتان وصف فيهما الصاحبة ، ثم إن البيت الأول وقف حائراً فى شطره الأول « أَتَصْرِمُ رَيًّا أَمْ تُدِيمُ وِصَالَهَا » ، ثم حسم الموقف فى الشطر الثانى « بَلِ الصَّرَمَ » وهذا يوحى بأن كل شيء عنها سيكون مختصراً وجزأ .

وهذا كله مذهب من مذاهب الاختصار تستطيع أن تعبينه بالنظر فى القصائد المتجهة إلى التحليل ، والغناء ، وتفاصيل الصبوة ، وقارن هذا بالتشبيه الأول ، وكيف فصل فيه ، مع أن تفصيله فى هذه القصيدة أقل من تفصيله فى كثير من القصائد ، بل هو موجز ، حين يُقاس بتفاصيل امرىء القيس ، وحسبك أن ترى امرأ القيس يُشَبَّه الحدوج بحدائق دَوْم ، أو سفين ، أو مكرعات ، فيُشَبَّع الكلام ويمده ، ويُثَرِّيه ، والأعشى شَبَّه بنخيل ابن يامن فحسب .

وحين ينادى الشاعر صاحبه قبل وصف الحدوج ويسأله : هل ترى ظعائن ؟ تجد الكلام لا يخلو غالباً من وصف الحدوج ، وذكر ما عليها من عقة أو كلة ، أو بسط ، أو طنائف ، أو غير ذلك من كل ما يزين ويوضع فوق الهودج ، وتراه العين ، وقد جاء ذلك فى شعر الأعشى ، فى قصيدة واحدة ، وذكر الصاحب فى البيت السادس عشر بعد ما ذكر الصاحبة ، ونارها ، وكيف أضاءت هذه النار من الصاحبة وجهاً كالفناق ، أى مثل قرن الشمس ، وذكر ليلة لا نوم فيها ... إلى آخره ، وهذا من الشعر الذى طال فيه الكلام ، وفصل الأحوال ، والأحداث والمشاعر وقد بدأه بقوله :

أَلَا يَا قَتْلُ قَدْ خَلَقَ الْجَدِيدُ وَحُبُّكَ مَا يَمُحُّ وَمَا يَبِيدُ

وهذا افتتاح يغاير قوله :

أَنْصَرِمُ رَبًّا أَمْ تُدِيمُ وَصَالَهَا بَلِ الصُّرْمُ إِذْ زَمْتُ بِلَيْلٍ جَمَالَهَا

فقد اختار هنا الصُّرْمَ - كما قلت ؛ ولكنه مع قُتْلَةٍ يقول : إن كل جديد يخلق إلا حبها ، فما يُمَحُّ بضم الميم - أى يبلى وما يبيد ، وإنما هو حىّ جديد يتجدد ، ويظل فى تجدد غصاً طرياً ، وهذا من الكلام الحسن ، وكان كما قال : يَتَحَلَّلُ الكلام ، إذا خاطب قُتْلَةً ، قال فى البيت السادس عشر :

أَصَاحَ تَسْرَى ظِعَائِنَ بَاكِراتٍ عَلَيْهَا الْعَبْقَرِيَّةُ وَالنُّجُودُ

كَأَنَّ ظِبَاءَ وَجَرَةٍ مُشْرِقاتٍ عَلَيْهِنَّ الْمَجَاسِدُ وَالْبُرُودُ

عَلَى تِلْكَ الْحُدُوجِ إِذْ احْزَأَلْتُ وَأَنْتَ بِهِمْ غَدَاةٌ إِذْ مَجُودُ

والعبقريّة : البسط المنسوبة إلى عبقر ، والنجود : الشياب المزينة من قولهم : نجد الثوب : وشأه . وقد وصف الحدود بهذا فحسب وهى أنها عليها العبقريّة ، والنجود ، ثم ذكر النساء ، وأنهن ظباء ، ووصف ثيابهن « المجاسد والبرود » وتشبيه النساء فى الهودج بالظباء فى الكنس من التشبيهات الجميدة ، وقد ذكر الأعشى هذا فى بيته الجيد :

فَلَمَّا أَدْرَكْتُ الْحَىَّ أَتْلَعُ أُنْسُ كَمَا أَتْلَعْتُ تَحْتَ الْمَكَائِسِ رَبْرَبُ

وقوله : « عَلَى تِلْكَ الْحُدُوجِ إِذْ احْزَأَلْتُ » ، خبر « كَأَنَّ » فى البيت السابق وهو تمام المعنى ، واحزألت : ارتفعت ، والمجود : المشوق الذى غلبه الهوى ، ولا تهمل تلك اللّمة البارعة فى صنعة الأعشى حيث جعل ذكر المرأة وذكر الهودج التى هى فيه على حذو لغوى واحد ، فقال : « عليها العبقريّة والنجود » ، « عليهن المجاسد والبرود » .

وقد مهّد لذكر تحاسين ثياب النساء بقوله : « مشرفات » ، كما مهّد لذكر الطنافس والبسط المنشورة على الحدود بقوله : « أصاح ترى طعائن » ، وهذا من تعادل الكلام وصقله وتناغمه ، فضلاً عن إشارته إلى المداخلة بين المرأة والظعينة ، وقوة الملابس بينهما ، ولهذا قالوا : إن الطعائن لا تُطلق على الهوداج إلا إذا كانت فيها المرأة ، وقالوا : إن الظعينة حقيقة فى الهودج ، مجاز فى المرأة ، وقالوا عكس هذا ، وهذا كله مما نذكره حين نجد الأعشى يبنى الكلام فيهما على حذو واحد .

وإذا كان الأعشى هنا قد قسّم الوصف بين الهوداج والنساء ، فقد ذكر الهوداج فى موضع آخر ، ثم نقل الكلام إلى وصف النساء فى الهوداج ولم يصف الهوداج بشيء ، وهو فى وصفه للنساء لم يذكر المجاسد والبرود ، وإنما ذكر أوصاف المرأة المفارقة ، وما يكون من أحوالها بين سجو الطرف ، والنظر المشوق ، وتطامن النفس وخشوعها بالحنين والشجو ... إلى آخره . قال :

وَاسْتَقَلْتُ عَلَى الْجِمَالِ حَدُوجُ كُلُّهَا فَسَوْقٌ بِأَزَلٍ مَوْقُوفِ
مِنْ كُرَاتٍ وَطَرَفُهُنَّ سُجُو نَظَرَ الْأَدَمِ مِنْ ظِبَاءٍ الْخَرِيفِ
خَاشِعَاتٍ يُظْهِرْنَ أَكْسِيَةَ الْخَا — وَيُبْطِنُ دُوتَهَا بِشُفُوفِ
وَحَثْنُ الْجِمَالِ يَسْهَكُنَ بِالْبَا غِزٍ وَالْأَرْجُوَانِ حَمْلَ الْقَطِيفِ

والجمل البازل : الذى ظهرت نابه ، وموقوف : أى مُعدٌّ للرحلة ، والكرات : جمع كرة ، وقالوا هى السِنَّةُ من النوم ، وفى بعض النسخ: من لدنى والمعنى غامض أيضاً، والطرف الساجى : الفاتر المتكسر . والأدم : الظباء ، ويبطن دونه بشفوف : أى يلبس الشفوف تحت الخَزْ ، وَيَسْهَكُنَ بالباغز : أى يسحقن بثياب الخَزْ ، والأرجوان : الأحمر ، وخمل القطيف : وبره .

والمراد الدلالة على سرعة الجمال وأن هذه السرعة تحثُ خمائل الثياب ، وهذا وصف للمشقة في الرحلة ، وقُلُّ أن يذكروا مشقة النساء . وقد بقى في شعر الأعشى من هذا الباب نص واحد ذكر فيه الحدوج ولم يصفها ، ولم يذكر الأوانس في الحدوج ، وإنما كان شعره يخطر على الأرض وراء القوم ، خطوة خطوة ، فيصف الأمكنة ويتتبع الأودية التي يسلكها الركب ، وذلك في قصيدته التي قالها في نجران يذكر قومه ويتشوق إلى دياره .

قال :

قَطَعَ الْوَدَّ وَالصَّفَاءَ الْفِرَاقُ	وَاشْتَبَا قَبْلَ إِذِ الْخُدُوجُ تُسَاقُ
يَوْمَ قَفَّتْ حُمُولُهُمْ فَتَوَلَّوْا	قَطَّعُوا مَعَهْدَ الْخَلِيطِ فَشَاقُّوا
جَاعِلَاتٍ جَوَزَ الْيَمَامَةِ بِالْأَشْـ	مُلٍ سَبْرًا يَحْتُثُّنَ انْطِلَاقُ
جَارِعَاتٍ بَطْنَ الْعَتِيقِ كَمَا تَمُـ	ضَى رِقَاقُ أَمَامَهُنَّ رِقَاقُ
بَعْدَ قُرْبٍ مِنْ دَارِهِمْ وَأَثْلَافٍ	صَرُبُوا حَبْلَكَ الْغَدَاةَ وَسَاقُوا
يَوْمَ أَبَدَتْ لَنَا قَتِيلَةً عَنْ جِـ	سَدٍ تَلِيْعٍ تَزِيْتُهُ الْأَطْوَاقُ

قَفَّتْ حُمُولُهُمْ : تجمعت واستعدت للسير ، ومعهد الخليط : يعنى عهده ، ولم يذكر هنا اسم صاحبة ، ولم يقل مثلاً : تصابيت أم بانة بعقلك زينب ، ولا : أتصرم رباً ، وإنما قال : قطع الود والصفاء : الفراق ، وكأنه قد جرى في الكلام شيء من ودة وصفاء عيشه مع قومه . وقد قطعت رحلته إلى نجران هذا الود وهذا الصفاء .

والروح العامة للقصيد ومحاورها الأساسية ، تعكس نفسها بصورة واضحة على المطالع في بعض القصائد ، وبصورة خفية في بعضها ، وقوله : « قطع الود والصفاء الفراق » ، أشبه بمضمون القصيدة منه بنسيب المطالع .

وفي القصيدة شجن عميق ، لا يخلو من إحساس بالغبن .

وقوله فى البيت الأول : « إذ الحدوج تُساق » دلالة من أول الأمر على الحركة ، والمرأة تكاد تكون غائبة فى هذا المطلع ، ولهذا غابت الزينة ، والتحاسين التى فى الهودج .

وذكر الأمكنة وتتبعها باب من أبواب الشوق .

تأمل كيف كان الشاعر يلتفت إليهم ويمضى معهم خطوة خطوة « قطعوا معهد الخليط ... فشاخوا ... جوز اليمامة بالأشمل ، ... والسير سير حثيث مسرع ... جازعات بطن العتيق » ...

ثم تأمل الحُرقة فى قوله : « بعد قُربٍ من دارهم » .

الشاعر هنا يعد خطوات الركب ويقطعها معه بأنفاس ملهوفة وصورة القُرب والجوار ، والحب ، والود ، والمواصلة ، حاضرة فى نفسه ، وهو يراها تتمزق بهذه الرحلة التى تقطع وادياً يعد وادٍ ، وتراه يندب الود والصفاء بقوله : « قَطَعَ الودَّ وَالصَّفَاءَ الْفِرَاقُ » .

وتأمل قوله : « واشتياقاً إذ الحدوج تُساق » وهو غير معطوف على ما قبله لأن الفراق لم يقطع الاشتياق كما قطع الود والصفاء ، وإنما نصب لأنه مصدر ناب مناب فعله ، والأصل : وأشتاق اشتياقاً إذ الحدوج تُساق ، وهى الواد التى يستأنف بها معنى جديد وهو الاشتياق ، ثم هو معطوف على ما قبله من عطف المعنى على المعنى .

ثم تأمل الظرف المدلول عليه بكلمة : « إذ » فى قوله : « إذ الحدوج تُساق » كيف صار أصل بناء المعنى فى البيت الذى يليه : « يوم قُفَّت حمولهم » وقُفَّت الحمول : أى تجمعت استعداداً لبدء الرحلة ، والحمول : الهودج ، وكأن الظرف الذى جاء فى طى حديث الشوق فى قوله : « واشتياقاً إذ الحدوج تُساق »

قد اتسع معناه عند الشاعر وبرز وغلب فعقد عليه البيت الثانى ، ثم تأمل
الشوق الذى جعله رأس الشطر الثانى من البيت الأول كيف صيره قرار المعنى
فى البيت الذى يليه : « قطعوا معهد الخليط فشاخوا » .. وهكذا لو راقبت
حركة أفراد المعانى داخل الشعر لوجدت باباً آخر من أبواب الفهم لم نلتفت
إليه بعد .

ونسأل الله سبحانه أن يجعل أخطاءنا فى موازيننا يوم نلقاه ، وحسبنا أننا
قصدنا الصواب ففاتنا إدراكه ، وهو حسبى .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

٣ المقدمة
	دراسات فى البلاغة
	(٢١ - ١٢٦)
٢١	١ - أمثال سورة النور
٣٩	٢ - مدخل إلى دراسة مصادر عبد القاهر
٦٩	٣ - الصورة فى التراث البلاغى
	دراسات فى الشعر
	(١٢٧ - ٣٣٩)
١٢٩	١ - الصورة البيانية فى قصيدة الأعشى
١٨٣	٢ - البناء اللغوى فى قصيدة الأعشى
٢٤٠	٣ - المرأة فى تشبيهات الأعشى
٣٤٠ محتويات الكتاب

* * *

رقم الأيلاع : ٢٦١٦ / ١٩٩١

I. S. B. N 977 - 225 - 009 - 8

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

كتب للمؤلف

- ١ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري
طبعة ثانية .. منقحة
- ٢ - الإعجاز البلاغي
طبعة أولى
- دراسة تحليلية لتراث أهل العلم
- ٣ - دلالات التراكيب .. دراسة بلاغية
طبعة ثانية
- ٤ - خصائص التراكيب
طبعة ثانية
- دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني
- ٥ - التصوير البياني
طبعة ثانية
- دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني
- ٦ - القوس العذراء وقراءة التراث
طبعة أولى
- ٧ - قراءة في الأدب القديم
طبعة أولى
- ٨ - دراسات في البلاغة والشعر
طبعة أولى

* * *

تطلب من : مكتبة وهبة

٤٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - تليفون : ٣٩١٧٤٧٠